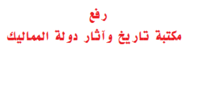
إقتصاد مصر الداخلى وأنظمته

فى

العهد المماليكى

تأليف
دكتور
حلمى محمد سالم
أستاذ التاريخ والحضارة الاسلامية المساعد
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

دار الرشاد للطباعة والنشر
٤٧ ش سعد زغلول
ت ٨٠٨١٧٣ - اسكندرية


رفع
مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

اقتصاد مصر الداخلي وأنظمته
في
العهد المماليكي

تأليف
دكتور
حلمي محمد سالم
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



تقـــديم

فترة حكم سلاطين المماليك من ألمع الفترات التاريخية والحضارية التي مرت بمصر الاسلامية في عصورها الوسطى ، فهى فترة عامرة بأحداث داخلية ضخمة، وبصراع رهيب على السلطة بين سلاطين وأمراء المماليك وأحزابهم المشايعة لهم، وعامرة في نفس الوقت بانتصارات عسكرية ضخمة أحرزها هؤلاء المماليك على الصليبيين والمغول .

وهى فترة علا فيها شأن مصر السياسي والديني بين الدول الإسلامية بعد أن أصبحت مقرا للخلافة العباسية ، كما علا فيها شأنها التجارى بين دول العالم بعد أن أصبحت تهيمن على أهم طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب .

وهى فترة أصبحت فيها مصر مركز إشعاع على كبير بين الأمم الإسلامية ، ومركز إشعاع ضخم للحضارة الإسلامية بمختلف صورها .

وعن أغلب هـــذه النواحى كتب المؤرخون في عصرنا الحديث وألفوا المؤلفات التي تناولتها بالشرح والدراسة والتحليل ، لكن رغم ذلك فما زالت هناك جوانب أخرى من تاريخ مصر وحضارتها في هذا العهد في حاجة إلى مزيد من الدراسة ، ومن بينها اقتصادها الداخلي وأنظمته ، فرغم أن تجارة مصر الخارجية في ذاك الوقت لعبت دورا بارزا في تدعيم إقتصادها إلا أن اقتصادها هذا كان يعتمد بالدرجة الأولى على إمكانياتهـــا الذاتية الضخمة في زراعاتها وصناعاتها وتجارتها الداخلية ، وهى إمكانيات جديرة بأن تقـــدم عنها وعن أنظمتها والمؤثرات التي أثرت عليها دراسة تفصيلية .

والواقع أنني عندما فكرت في الكتابة في هذا الموضوع ، أي اقتصاد مصر الداخلي

وأنظمته فى عهد المماليك ، شعرت منذ اللحظة الأولى بضخامة المسئولية وبضخامة الجهد الواجب على أن أبذله وذلك لسببين: أولها أن هذا الموضوع من المواضيع الحضارية وليس من المواضيع التاريخية . ومعروف أن الكتابة فى المواضيع التاريخية أسهل بكثير من الكتابة فى المواضيع الحضارية ، لأن المصادر التاريخية تزخر بالأخبار الطوال المستفيضة عن الأحداث التاريخية سواء السياسى منها أو العسكرى ، كما أنها مليئة أيضا بأخبار الملوك والسلاطين والأمراء وأعمالهم ، أما الجوانب الحضارية فقليلا ما تكلمت عنها هذه المصادر ، كما أن المؤرخين الذين كتبوا عنها قلة بالنسبة لزملائهم الذين كتبوا باستفاضة فى الجوانب التاريخية .

أما السبب الثانى فهو أن عناصر هذا الموضوع عديدة ومتشعبة ، فبعضها يختص بثروة مصر الزراعية ، وأنواع المحاصيل التى أنتجتها أرضها ، وكمياتها ، وأنظمة الرى التى كانت متبعة فى هذا الوقت . وبعضها الثانى يختص بثروتها الحيوانية ، وكذلك بثروتها السمكية . وبعضها الثالث يختص بصناعاتها بمختلف أنواعها وأشكالها ، والخامات التى صنعت منها . وبعضها الرابع يختص بتجارتها الداخلية ، وبأسواقها ، وبما احتوته هذه الأسواق من منشئات تجارية متعددة الشكل والوظيفة ، وكذلك الموازين والمكاييل ، والحسبة ودورها فى الرقابة على الأسواق ، وأبرز الأنظمة التجارية الأخرى التى كان معمولا بها فى ذلك الوقت . وبعضها الخامس يختص بالنظام المالى للدولة فى عهد المماليك ، وجهازها المالى ، ومواردها المالية ، ونفقاتها . وبعضها السادس يختص بالنظام الإقطاعى الذى كان له تأثير كبير فى كافة نظم مصر الاقتصادية والمـــــالية والعسكرية والاجتماعية فى هذا العهد . وبعضها السابع يختص بالغلوات والمجـــاعات التى نكبت بها مصر فى عهد المماليك والأسباب الرئيسية التى ساعدت على حدوثها .

وإزاء ذلك ، فقد التزمت بالصبر والأناة أثناء جمعى للمادة العلمية لهذا البحث ، وأثناء تعقبى لها وبحثى عنها فى مختلف المصادر سواء التاريخية منها أو الحضارية ، وسواء التى ترجع منها إلى العهد المماليكى أو التى ترجع إلى عهود سبقت أو لحقت بهذا العهد كعهود الفاطميين والأيوبيين والعثمانيين ، فبعض التقاليد والنظم الاجتماعية والاقتصادية والحضارية فى عهد المماليك ترجع بأصولها إلى بعض العهود التى سبقته خصوصا العهد الأيوبى ، كما أن بعضها استمر معمولا بها فى العهد العثمانى .

ومن خلال الدراسة التى أقدمها فى هذا الكتاب عن كافة النقاط التى ذكرتها يستطيع القارىء أن يلمس حقيقتين :

الحقيقة الأولى هى أن اقتصاد مصر كان مسخرا بالدرجة الأولى لمنفعة طبقة المماليك العسكرية ، فنظام الإقطاع كفل لهم أن يستحوذوا على أغلب وأجود أراضى مصر الزراعية والرعوية وأن يستغلوها لحسابهم ، كما أن هذا النظام سمح بمنحهم إقطاعات مالية من بعض إيرادات الدولة .

أما الحقيقة الثانية فهى أنه رغم أن اقتصاد مصر الداخلى كانت له إمكانياته الكبيرة ، وأنه بهذه الإمكانيات كان يستطيع أن يكون سندا لمصر عندما بدأ دخلها من التجارة الخارجية يتضاءل منذ أن نجح البرتغاليون فى الوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، إلا أنه لم يستطيع أن يقوم بهذا الدور بسبب ما لحق به من أضرار على يد المماليك خصوصا فى العهد الجركسى ، فقد تلاعبوا فى أسعار العملات حسب مصلحتهم الخاصة ، وأفسدوا الحسبة بعد أن أصبح يتولاها رجال السيف منهم بدلا من رجال الدين ، وأهملوا الترع والجسور ومشاريع الرى إلى الحد الذى جعل الرى بماء النيل متعذرا فى بعض الأراضى

فأصبحت تعتمد على الأمطار فى ريها ، واستغلوا الفلاحين إستغلالا بشعا ، وأرهقوهم بالجبايات ، وزادوا عليهم فى إيجارات الأراضى الزراعية إلى درجة لم يحتملها بعضهم فتركوا الأرض التى يزرعونها وتشردوا فى البلاد ، كما استنزفوا أموال وطاقات وإمكانيات الشعب المصرى عامة والعاملين منهم فى المجالات الاقتصادية خاصة من خلال المكوس الكثيرة والاحتكارات والرمايات والحمايات التى فرضوها عليه فرضا .

وكنتيجة لذلك تدهورت أحوال مصر ، وانعكس هذا بدوره على قدرة المماليك على الاستمرار فى الحكم ، وأخذ حكمهم ينهار ، وفى النهاية أصبح حكمهم هذا عاجزا عن إيقـــاف الزحف العثمانى الذى اقتحم عليهم الشام ومصر عام ٩٢٣ هـ .

وبعد ، فإنى أرجو بالدراسة التى أقدمها فى كتابى هذا أن أكون قد وفقت فى إعطاء القارىء صورة شاملة للأوضاع الإقتصادية وأنظمتها داخل مصر فى العهد المماليكى ، وأن أكون قد وفقت أيضا فى إلقاء بعض الضوء عليها بما يمكن القارىء من تفهمها والإحاطة بأبعادها ورؤيتها بوضوح .

والله ولى التوفيق .

حلمى محمد سالم



الزراعـــة



أنواع المحاصيل الزراعية ومقادير انتاجها

أنتجت أرض مصر فى العهد المماليكى العديد من الحبوب والخضروات مثل القمح والشعير والذرة والباقلى والحمص والعدس والبسلا والجلبان(١) واللوبيا والسمسم والقثاء والفقوص والملوخيا والقلقاس والقرع والقت والباذنجان(٢) والإسباناخ والبامية والقنبيط أو الكرنب(٣) والدباء والهليون والثوم والبصل

---

(١) الجلبان إسم كان يطلق على نوعين من الحبوب هما البسلة والماش - الوطواط : مناهج الفكر ومناهج العبر ، المجلد الثانى ص ٧٦ - داود الأنطاكى : تذكرة أولى الألباب والجامع العجب العجاب جـ ١ ص ١٤٨ .

والماش نبات يشبه اللوبيا - العمرى : مسالك الأبصار ص ٢٠٧ - داود الأنطاكى : المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٩ .

(٢) الباذنجان الذى أنتجته أرض مصر وقتئذ نوعان : نوع أسود وهو مدور أو مستطيل ، ونوع أبيض مستطيل كان يعرف بالشامى - الوطواط : مناهج الفكر ومناهج العبر المجلد الثانى ص ٩٩ .

(٣) مما يلفت النظر أن القلقشندى ذكر القنبيط من بين محاصيل مصر الزراعية ولم يذكر من بينها الكرنب ، بينما ذكر المقريزى الكرنب ولم يذكر القنبيط - القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٠٧ - المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٠٣ .

ولتفسير هذا الأمر نقول أن كلمتى القنبيط والكرنب كانتا تعنيان شيئا واحداً وهو ما نعرفه اليـــوم فى مصر باسم القنبيط . أما الكرنب ذو الورق العريض الذى نعرفه اليوم فى مصر بهذا الإسم فلم تكن تنتجه أرض مصر فى العهد المماليكى - إرجع للبدرى فى نزهة الأنام فى محاسن الشام ص ٢٨٠ .

والسكرات والفجل والحلبة والترمس والخيار(١) والزيتون(٢) والقطن والكتان والنيلة والقرطم والخشخاش والخروع .

وأنواعا عديدة من الحمضيات منها الأترج والكباد(٣) والنارنج والليمون على

---

(١) الخيار الذى أنبتته أرض مصر وقتئذ كان نوعين : نوع طويل كان يعرف بالشامى . ونوع قصير يميـــل للاستدارة عرف باسم البلدى - داود الانطاكى : تذكرة أولى الألباب جـ٢ ص ٢٩٠ .

(٢) لم تفلح زراعة الزيتون إلا فى مناطق محدودة فى مصر ، ومن بينها منطقة الفيوم - السيوطى . حسن المحاضرة جـ٢ ص ١٧٦ - القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٣٠٨ .

(٣) الكباد نوع من أنواع الأترج . وشكله يشبه البرتقال الكبير الحجم وقشره داكن ، وفيه لب كثير ، لكن رائحته العطرية أقل من رائحة باقى أنواع الأترج الأخرى .

أما الأترج أو الأترنج أو الترنج ، فهى ثمرة متعددة الأنواع ، فمنها ما هو بيضى الشكل ذهبى اللون ، طيب الرائحة ، جوفه أبيض اللون ، حامض الطعم (أى مز) به بذر .

ومن أنواعه نوع يعرف باسم النفاش ، وهو يميل للاستدارة ، وسطحه الخارجى به حدبات صغيرة ، وهو زكى الرائحة أيضا .

ولقد عرف الأترج بأسماء عـــدة منها الأترج الأحمر الجاف . والأترج المكعب ، والأترج المدور والأترج الأبلق . ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية جـ١ ص ١٠ - محمد بن عبد الله الأندلسى : الجامع لصفات أشتات النبات ، مخطوط ص ٢٠ - محمد بن عمر التونسى : الشذور الذهبية فى =

اختلاف أنواعه(١) .

وأنواعا من الفواكه منهـــا البلح (٢) والعنب والتين والفرصاد والرمان(٣) والمشمش والخوخ(٤) والفراصيا ، والتوت ، والبرقوق ، والسفرجل والكمثرى

= الألفاظ الطبية ، مخطوط ص ١٧ - أحمد عيسى : معجم أسماء النبات ص١٥ ابن زولاق : كتاب فضائل مصر ، مخطوط ورقة ٢٥ ب - ابن وصيف شاه : جواهر البحور ووقائع الأمور ص ٦ - السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٤ - المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٢٨ .

ومن بين الأنواع التى أنتجتها أرض مصر من الأترج نوع لم يكن حامض الطعم . البغدادى : الإفادة والاعتبار ص ١٤ .

(١) من بين أنواع الليمون التى كانت معروفة وقتئذ الليمون التفاحى ، وهو لذيذ الطعم قليل الحموضة ، وكان المصريون يأكلونه بغير سكر .

والليمون المختم وهو شديد الحمرة شديد الاستدارة مفلطح مختوم عند رأسه وأسفله . والحامض الشعيرى ، وهو ينتج من تطعيم الليمون بالأترج ، والليمون الراكب أو المركب وكان ينتج من تطعيم الليمون بالنارنج - المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٧٣ - داود الانطاكى : تذكرة أولى الألباب ج ٢ ص ٦٤

(٢) انتجت مصر وقتئذ أنواعا من بلح الحجاز والعراق كالبرنى والصيحانى والسكر وغيرها - ابن زولاق : كتاب فضائل مصر - مخطوط ورقة ٣٦ ب .

(٣) تركز إنتاج الرمان بالقرب من بلدة أشمون الرمان لذلك نسبت اليه وسميت بإسمه - ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأقطار ص ١٨ .

(٤) أنتجت ارض مصر فى ذاك الوقت نوعين من الخوخ ، نوع أبيض =

خاصة النوع المعروف منها باسم الكمثرى السكرية ، والتفاح(١) ، وقصب السكر والبطيخ(٢) والموز ، واللوز(٤) .

= بسطحه نقط حمر وشعر لذلك عرف بالازغب . والآخر أملس لذلك عرف بالاقرع ، غير أنه عرف أيضا باسم الزهري الاحمر وهو أطيب حلاوة ورائحة من الأزغب - ابو منى العطار : منهاج الدكان ودستور الأعيان ص ١٢٩ - ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٥ - البدرى : نزهة الأنام فى محاسن أهل الشام ص ٢٠٦ - رضى الدين الغزى : جامع فرائد الملاحة فى جوامع فوائد الفلاحة مخطوط ج ١ ص ٤٨ - ١٨٨ .

(١) من بين أنواع التفاح الذى أنتجتة أرض مصر وقتئذ نوع اسمه المسكى وآخر اسمه القاسمى - المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٢٧٢ .

غير أنه يبدو أن التفاح لم تجد زراعته بمصر ، ويشير عبد اللطيف البغدادى إلى ذلك بقوله « ... أما تفاحها فلا بأس به وإن كان رديئا ... » . عبداللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار ص ١٧ .

ولهذا السبب إضطرت مصر الى استيراد التفـــاح من الشام ، ولنفس السبب أيضا استوردت من الشام الكمثرى والسفرجل - المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٩٣ .

(٢) أنتجت أرض مصر أنواعا عديدة من البطيخ ، منها النوع الهندى الذى كان يعرف فى مصر بأسماء عدة منها البطيخ الأخضر أو الدلاع أو الماوى ، وهذا النوع بعضه أخضر مدور وبعضه الآخر مخطط السطح ، وبعضه الثالث لونه أبيض وبعض الرابع مستطيل الشكل - داود الانطاكى : تذكرة أولى الالباب ج ١ ص ١٥٤ - رضى الدين الغزى : جامع فرائد الملاحة ، مخطوط ص ٨٨ - ابو منى العطار : منهاج الدكان ص ١٣٠ =

وأنواعا من الرياحين منهـــا الآس ، والورد ، والبنفسج ، والنرجس ==

= ومنها أيضا النوع الخراسانى الذى كان يعـــرف فى مصر باسم العبدلى أو العبدلاوى ـ نسبة لعبيد الله بن طاهر والى مصر عام ٢١١ هـ والذى قيل أنه هو الذى أدخل زراعته بمصر . كما ان هذا النوع من البطيخ كان يعرف ايضا باسم البطيخ الدميرى نسبة إلى قرية دميرة .

وقشر هذا البطيخ خشن أصفر اللون وأعناقه ملتوية ، قليلة الحلاوة ، وأهل مصر كانوا يستطيبون أ كله بالسكر لاعتقادهم بأنه نافع الصحة ، أما الصغير منه فيشبه القثاء ويعرف بالعجور ـ عبد اللطيف البغدادى : الافادة والاعتبار ص ١٦ .

ومنها أيضا نوع كان يعرف باسم الصيفى ، كان كبير الحجم ومرغوبا فيه ، وإنتاج مصر من هذا النوع كان كبيراً .

ومنها أيضا الصواصلى ، وهو شديد الحلاوة وطيب الرائحة ، والمصريون كان ينتقلون ببذوره الصغيرة التى كانوا يسمونها أيضا الجرمة .

ومنها أيضا النمس وهو مخطط أو أخضر ـ رضى الدين الغزى : جامع فرائد الملاحة ص ١٥٩ ، الوطواط : مباهج الفكر ، مخطوط . المجلد الثانى ص ٨٨ ، ابن أياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٩٠ .

ومنها أيضا القاح ، وهو أصفر مستدير أو أصفر مستطيل مخطط ، وهذا النوع كان يعرف فى الشام باسم الشمام ـ الوطواط : مباهج الفكر ، المجلد الثانى ص ٨٩ ، ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ج ١ ص ١٠١ .

ومنها أيضا المهناوى ـ داود الأنطاكى : تذكرة أولى الألباب ج ١ ص ١٥٢

= ومنها الجرى ـ المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٢٧٢ .

والياسمين ، والنسرين ، والبان ، والنينوفر ، والريحان الفارسى ، والمنثور(١) .

وفيما يلى أمثلة لمقدار إنتاج الفدان من بعض هذه المحاصيل(٢) .

القمح ـ إختلف مقدار ما أنتجه الفدان منه حسب نوع الأرض ، غير أن متوسط إنتاج الفدان منه كان يتراوح بين أردبين إلى عشرين أردبا . غير أنه فى عام ٨٠٦ هـ إنحسر الماء عن قطعة أرض من بركة الفيوم فزرعت قمحا فأنتج الفدان ٧١ أردبا فيوميا(٣) .

= وفى بعض بلاد الصعيد خاصة بإسنا كان يزرع صنف آخر من أصناف البطيخ الأصفر ، كان يعرف باسم الشتوى ، مستطيل الشكل يشبه القثاء ، رقيق الجلد جداً ، لذلك كان الناس لا يقطعونه بالسكين ، ويكتفون بمص البطيخة فيخرج ما فيها ويبق جلدها شبه الظرف ـ النويرى : نهاية الأرب جـ ١١ ص ٣٦ .

(١) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١٠٣ ، القلقشندى : صبح جـ ٣ ص ٢٠٧

(٢) نقلا عن المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١٠١ - ١٠٢

وكنت أرجو أن أجد فى المصادر التى استخدمتها بيانا بمقدار الإنتاج الكلى السنوى لأرض مصر كلها من كل نوع من هذه المحاصيل ، وبيانا آخرا تقريبيا بالمساحات التى كانت تزرع سنويا بكل نوع منها ، وبيانا ثالثا بمقدار إنتاج الفدان الواحد من كل محصول منها ، غير أنى لم أجد فى هذه المصادر ما أبتغيه من هذه البيانات ، ولم أجد سوى هذه الأمثلة فقط التى ذكرها المقريزى فى خططه .

(٣) أردب الفيوم ٩ ويبات ، والويبة ٦ أقداح ، والقدح ٢٣٢ درهما ـ العمرى : مسالك الأبصار ، مخطوط جـ ٢ قسم ٣ ورقة ٣٧٦ ـ السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٧٦ ـ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤١ .

الشعير - إنتاج الفدان منه كان أكثر مما كان ينتجه من القمح ،

الفول - عشرون أردبا إلى مادون ذلك .

الحمص - من أربعة إلى عشرة أرادب .

الجلبان - من عشرة أرادب إلى مادونها .

العدس - عشرون أردبا فما دونها .

الكتان - ثلاثون شدة إلى مادون ذلك .

القرط - من أردبين إلى أربع ويبات .

البصل - عشرة أرادب .

الترمس - عشرون أردبا إلى ما دونها .

السمسم - ما بين أردب إلى ستة أرادب .

القطن - ثمانية قناطير جروية (١) .

الري : أنواعه وآلاته ونظمه ومنشآته

إعتمد الري فى مصر فى العهد المماليكى على ثلاثة أشياء أساسية هى - فيضان النيل ، وآلات الري ، والمطر .

فالأراضى التى كان النيل يغمرها غمراً مباشراً وكافيا وقت فيضانه ، كانت

---

(١) القنطار الجروى مائة رطل جروى ، والرطل الجروى ٣١٢ درهما - ابن الأخوة : معالم القربة ص ٨١ .

وقد ذكر ابن دقماق فى كتابه الانتصار جـ ٥ ص٨٧ أن الرطل الجروى ينسب إلى الجروى الذى كان ملكا لساحل مصر الشمالى ، غير أنه لم يذكر العصر الذى كان فيه هذا الملك .

تعتمد اعتماداً أساسياً رئيسياً على هذا الفيضان، أما فى سنوات الجدب، وكذلك فى السنوات التى لا يغمر فيها النيل الأرض بمائه غمراً كافياً فكانت تستخدم آلات الرى كالساقية والدولاب لتزويد الأرض بما يكفيها من الماء .

أما الأراضى التى لم يكن يصلها ماء النيـل ، أو التى كانت تقع على أطراف الصحراء كأطراف إقليم البحيرة على سبيل المثال ، فكانت تعتمد إعتماداً أساسياً على الأمطار لرى زراعتها .

وتكلم القلقشندى عن هذه الأنواع الثلاثة للرى فقال(١) أن عامة مزروعات مصر تعتمد على « النيل عند نزوله أرضها فى أثناء بابة من شهور القبط إلى أثناء طوبة بحسب ما يقتضيه حـــال الزرع ، وربما زرع على الســـواقى(٢)

---

(١) القلقشندى - صبح الأعشى جـ٣ ص ٣٠٨ .

(٢) الساقية التى إستخدمت فى العهد المماليكى كانت مزودة بقواديس من الفخار - المقريزى - السلوك جـ٢ قسم ١ ص ١٥ .

وفى بعض المزارع الكبيرة استخدمت سواقى كبيرة لها عدة عجلات ، وأشار المقريزى إلى واحدة من هذا النوع كانت مستخدمة ببستان بقوص فقال عنها أنها كانت « ساقية بأربعة وجوه » - المواعظ جـ١ ص ٣٢ .

ولما كان الوجه لغوياً معناه نفس الشىء كما جاء فى محيط المحيط لذلك فإننا نفهم أن هذه الساقية كانت تتكون من أربع عجلات متماثلة ، أو أن هذه الساقية كانت أربع سواق تعمل مع بعضها البعض فى جهاز واحد .

أما السواقى التى كانت تستخدم فى رفع الماء من النهر مباشرة فكانت تعرف فى مصر بإسم المحايل - الفرى : جامع فرائد الملاحة ص ١٢

والدواليب(١) ، وأكثر ما يكون ذلك فى بلاد الصعيد خصوصا فى سنى الجدب ، ولا زرع فيها على المطر إلا القليل النادر بأطراف البحيرة مما لا عبرة به » .

والواقع أنه لولا النيل لما قامت فى مصر زراعة ، بل ولما قامت فيها حياة على الإطلاق . ويبين لنا المقريزى الرابطة الوثيقة بين النيل وبين الزراعة فى مصر فيقول أن أرض مصر تكتسى بألوان ثلاثة بتأثير من النيل على مدار السنة « ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة حمراء . فأما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر فى شهر أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء ، وضياعها على روابى وتلال مثل الكواكب وقد أحيطت بها المياه من كل وجه ، فلا سبيل إلى قرية من قراها إلا فى الزوارق . وأما المسكة السوداء فإنه من أشهر بابة وهاتور وكيهك ينكشف الماء من الأرض فتصير أرضا سوداء ، وفى هذه الأشهر تقع الزراعات

---

(١) ليس لدينا وصف محدد للدولاب ، غير أنى أعتقد أنه نوع من السواقى بعجلته بيوت أى تجاويف بدلا من القواديس الفخارية ، ومما يقوى هذا الإعتقاد أننا نجد فى محيط المحيط وصفا لدولاب كان يعرف عند المولدين باسم الغراف ، وجاء فى هذا الوصف أنه دولاب كبير يغوص جانب منه فى الماء ، وفيه بيوت تلتبط الماء ، وتصعد عند دورانه فتصب على أرض البستان .

ويبدو أن الدولاب كان يستخدم على وجه الخصوص فى مناطق الجنادل جنوب أسوان ، فقد قال المقريزى عن هذه المنطقة أن « النيل لا يروى مزارعها لإرتفاع أرضها ، وزرعها الفدان والفدانان والثلاثة على أعناق البقر بالدواليب» المواعظ ج ١ ص ١٨٩ .

وأما الزمردة الخضراء فإنها فى أشهر طوبة وأمشير وبرمهات يكثر نبات الأرض. ويبهجها فتصير خضراء كأنها زمردة . أما السبيكة الحمراء فإن فى أشهر برمودة وبشنس وبؤونة يتورد العشب ، ويبلغ الزرع الحصاد فيكون كالسبيكة التى من الذهب منظراً ومنفعة ...(١) .

ومن هذا الوصف نستخلص حقيقتين ، الأولى أن النيل يقسم السنة الزراعية إلى أربع فترات تتميز عن بعضها البعض ، ولكل فترة منها مقدارها ثلاثة أشهر الفترة الأولى فترة الفيضان ، والفترة الثانية فترة البذر والزرع ، والفترة الثالثة فترة نمو المحاصيل فى الحقول ، والفترة الرابعة فترة الحصاد .

أما الحقيقة الثانية فهى أن أغلب أرض مصر فى العهد المماليكى كانت لا تزرع إلا زرعة واحدة فقط على مدار السنة .

ونظراً لأن النيل والترع المتفرعة منه كانت هى العماد الأساسى للرى كما أوضحنا من قبل ، لذلك إهتمت حكومة المماليك فى عهود بعض السلاطين بتطهير الترع القديمة لكى يتزن ماؤها ، وبحفر ترع جديدة .

ومن أبرز الترع التى كان لها أهمية فى عمليات الرى وقتئذ - الخليج الكبير - الذى كان يعرف بأسماء عدة منها خليج القاهرة وخليج أمير المؤمنين والخليج الحاكمى وخليج مصر(٢) .

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٦ .

(٢) المقريزى . المواعظ ج ١ ص ١٢٤ ، ج ٢ ص ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، أيضاً - القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٩٨ .

وهذا الخليج كان قد حفره عمرو بن العاص أثناء إمارته على مصر فى خلافة عمر بن الخطاب ، وجعله يمتد بين النيل من منطقة الفسطاط إلى خليج القلزم(١) .

ومن هذا الخليج كانت تروى الأراضى الزراعيـــة المحيطة بعواصم مصر الإسلامية : الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة ، وكذلك المزارع الواقعة بشرق الدلتا حتى القلزم .

ونظراً لأهميته فى الرى لذلك فقد حفرت عدة ترع أو خلجان أخرى لتساعده فى هذه المهمة ، وروعى فى هذه الترع أن تبدأ من النيل وتصب فى هذا الخليج ، فتجتمع مياهها مع مياهه فى مجرى واحد ، فتصبح هذه المياه أكثر غزارة وقدرة على مد الأراضى التى تمر بها بحاجتها من المياه . ومن أهم الخلجان التى كانت تصب فيه خليج فم الخور(٢) ، وخليج قنطرة الفخر(٣) ، وكذلك الخليج الناصرى(٤) .

وفى كل عام وقت التحاريق كان يقام على مدخل هذا الخليج من ناحية النيل سد ترابى ضخم ، ولا يفتح هذا السد إلا بعد وفاء النيل وارتفاع مياهه إلى الحد الكافى لرى أراضى مصر .

وعملية فتح أو كسر هذا السد كانت تتم فى احتفال كبير يحضره السلطان .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٨ .

(٢) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ١٤٤ .

(٣) هذا الخليج كان يبدأ من النيل من عند ساحل بولاق ـ المقريزى ج ١ ص ١٤٦ .

(٤) سمى هذا الخليج بالناصرى نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى أمر بحفره فى عهده ـ المقريزى : المواعظ ج ١ .

بنفسه كل عام(١)، لأن هذه العملية كانت تعتبر بداية لعمليات الرى فى كافة أراضى مصر، وإيذانا بفتح باقى الجسور المقامة على ترع مصر وخلجانها حسب التوقيت والنظام الذى كان مقررا لها وقتئذ.

وبالإضافة إلى خليج القاهرة فقد كان لخليج الاسكندرية أهميته هو أيضا فى رى الأراضى الواقعة فى شمال غرب الدلتا، إذ كان يخرج من فرع رشيد عند قرية المعطف التى تقابل مدينة فوة، ثم يمتد غربا حتى يدخل الاسكندرية، ثم يصب فى البحر الأبيض.

أما بحر أبى المنجا الذى حفر فى العهد الفاطمى بأمر من الوزير الأفضل أمير الجيوش بدر الجمالى فى خلافة المستعلى بالله الفاطمى فكانت تروى منه بعض الأراضى الواقعة شرق الدلتا.

وبالإضافة إلى هذه الخلجان فقد كان لخليج منف، وخليج سردوس وخليج دمياط(٢) وكذلك خليج الفيوم الأعظم(٣) دورها الهام هى أيضا فى عمليات الرى.

ولقد عرف عن بعض سلاطين المماليك الإهتمام بتطهير الترع القديمة

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٢.

(٢) نفس المرجع السابق ج ٣ ص ٢٩٨ - ٣٠١ - المقريزى: المواعظ ج ١ ص ٧٠.

(٣) المقريزى: المواعظ ج ١ ص ٢٤٨.

والاهتمام بحفر ترع جديدة لتحسين وتقوية عمليات الري ، ومن أمثلتهم السلطان الظاهر بيبرس البندقداري الذي أعاد حفر خليج الاسكندرية تحت إشرافه شخصيا كما حفر بحر أشموم طناح (١) .

وكذلك السلطان المنصور قلاوون الذي باشر بنفسه الاشراف على حفر بحر الطيرية لإعادة الحياة إلى أراضى منطقة البحيرة وذلك بعد أن أصبح أغلبها شراقي(٢) وخرسا(٣) . وبلغ من اهتمامه بإنجاز هذا العمل على الوجه الأكمل وفي أسرع وقت أنه خرج بنفسه بصحبة أولاده وأمرائه وعساكره لمواقع العمل وأخذ يستنهض الهمم ببذل العطاء السخي لمن يبدى همة ونشاطا ، فنجز العمل في أيسر مدة وبلغ الله بعمل ذلك المنافع،وروى الشراقي،ورغب الناس في الحضور إلى الزرع فجاءوا من كل جهة ... وعمرت بذلك بلاد واتسعت مزدرعات ، وذلك ببركة هذه الحركة اللطيفة »(٤).

---

(١) المقريزي : المواعظ ج ٢ ص ٣٠٢ .

(٢) الأرض الشراق هي الأرض التي ظمئت واشتدت حاجتها إلى الماء ، فإذا رويت في العام التالي أنتجت محصولا طيبا وفيراً ، لأنها تكون قد استراحت في العام الذي ظمئت فيه ـ القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٦ .

(٣) الأرض الخرس هي الأرض التي تكثر فيها الحشائش بدرجة كبيرة يستحيل معها زراعتها فتستغل في هذه الحالة كرعي للدواب فقط ـ القلقشندي . صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٧ .

(٤) محيي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ص ٢٥ .

أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فكان إهتمامه كبيرا بمشاريع الرى بمختلف أنواعها ، وكلف عددا من الأمراء بمباشرة هذا الأمر فى مختلف اقاليم مصر(١) ، وبلغ مجمل ما كان يصرف على هذه الأعمال فى عهده ربع المتحصل من الإقطاعات. وفى عهده أعاد حفر خليج الاسكندرية كما حفر بحر المحلة مرتين ، كما حفر ايضا بحر البيتى بالجيزة(٢) فرويت أراضى عديدة ، وعلت مياه النيل اراضى لم تكن تعلوها من قبل ، فجادت بالزرع بعد ان كانت قفراء جدباء ، وبلغ ما استصلح منها فى منطقة البحيرة وحدها فقط خمسة وعشرون الف فدان(٣).

وعلى ترع وخلجان مصر أقيمت الجسور والقنـــاطر لتنظيم عملية الرى . والجسور كانت نوعين ، نوع شيدته الحكومة المماليكية فعرف بالجسور السلطانية لهذا السبب ، ونوع آخر شيده أصحاب الاقطاع أو ملاك الأراضى الزراعية على نفقتهم فعرف بالجسور البـلدية .

والجسور السلطانية كانت اكثر ضخامة من الجسور البلدية ونفعها أعم ، ويشمل بلادا عديدة . اما الجسور البلدية فكان نفعها محـــدودا ولا يشمل إلا ناحية واحدة فقط(٤) .

وحتى نهاية العهد الفاطمى كان متقبلو الاراضى(٥) هم الذين يتكفلون بتشييد

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ قسم ١ ص ١٣٧ .
(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٣٠٦ .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٣١ .
(٤) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١٠١ .
(٥) متقبلو الأراضى هم فئة من الملتزمين كانوا يتقبلون مساحات من الأراضى =

الجسور السلطانية على نفقتهم ، ثم تخصم هذه النفقات مما عليهم من قبالات الأراضى . لكن منذ العهد الأيوبى أصبحت الدولة تتولى بنفسها مهمة إنشاء هذه الجسور وتشرف برجالها على عملية تشييدها . وفى العهد المماليكى البحرى وأوائل العهد المماليكى الجركسى كانت الدولة تجبى أموالا لهذا الغرض من الأعمال الشرقية والأعمال الغربية(١)، غير أنه بعد ذلك صارت هذه الأموال تجبى من جميع البلاد وعرفت بالخفير والجراف ، وسمى الأمراء الذين يقومون بجمعها بكشاف التراب (٢) .

وكان من المعتاد أن يقوم السلطان فى ربيع كل عام بتعيين الأمراء الذين يباشرون مهام هذه الجسور ويكلفهم بالإشراف على أعمال صيانتها والمرور عليها للتأكد من سلامتها . وفى وقت الفيضان كان هؤلاء الامراء ومن معهم من المماليك والعمال يقيمون بصفة دائمة على جوانب النيل أو الترع (٣) .

الزراعية ، تعطيها لهم الدولة لعدة سنوات ليزرعوها لحسابهم ولمنفعتهم على أن يلتزموا للدولة بتأدية ما عليها من خراج - المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٨٢ .

(١) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ١٠١ .

(٢) يقول ابن شاهين عن كشاف التراب أنهم « يتعينون فى كل سنة من الامراء مقدمى الألوف إلى كل إقليم أمير فى زمان الربيع لاستخراج ما يتعين على البلاد من الخفير والجراف ، والخفير يتعلق بالدولة يصرف بأماكن معلومة بحفرها لجريان المياه ، والجراريف هى التى يجرف بها التراب لإقامة الجسور السلطانية ، تستخرج من جميع البلاد مبلغ ورجالة بسبب ذلك » - ابن شاهين : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ١٢٩ .

(٣) يقول ابن حجر فى هذا الصدد أن السلطان برقوق رتب عام ٧٨٥ هـ « جماعة من الأمراء والمماليك بالإقامة بجوانب البحر والخلجان لحفظ الجسور » ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٠١ .

وكان يخصص لكل عمل من أعمال مصر أمير من هؤلاء الأمراء القيام بهذه المهام ، فيعرف الواحد منهم فى هذه الحالة بكاشف الجسور أو كاشف التراب فى العمل الفلانى ، لكن فى بعض الأحيان كانت تضاف إلى والى المنطقة مهمة كشف الجسور ، وفى هذه الحالة كانت المكاتبات الرسمية توجه إليه باسم والى منطقة كذا وكاشف الجسور بها(١) .

ومن أبرز السلاطين الذين إهتموا بتشييد الجسور وصيانتها السلطان الظاهر بيبرس ، فقد أعاد هذا السلطان ترميم وتعمير قناطر الجيزة ، وهى تنيف على أربعين قنطرة ، وكانت قد شيدت فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى بإشراف قراقوش الأسدى(٢) .

أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فقد شيد فى عهده عدة جسور نذكر منها جسر شبين القصر ، وجسر أحباس بالشرقية والقليوبية(٣) .

ونظراً لأن القناطر كانت تقوم هى الأخرى بدور هام فى تنظيم عملية الرى وتكمل وظيفة الجسور والسدود فى هذا الشأن ، لذلك كان يطلق على بعضها اسم سد ، ومن أمثلتها قنطرة الأميرية التى كانت تعرف باسم سد الأميرية ، وهى قنطرة شيدها السلطان الناصر محمد بن قلاوون على الخليج الكبير بمنطقة الأميرية بضواحى القاهرة(٤) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٦ - ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ٩ ص ١٦٨ .

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ١٥١ .

(٣) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٣٠٦ .

( ) نفس المرجع السابق والجزء ص ١٤٨ .

ويبدو أن عدد القناطر التي كانت تنظم عملية الري في العهد المماليكي كان كبيراً ويمكننا أن نستدل على ذلك مما ذكره المقريزي عن عدد القناطر التي كانت تقوم على بعض الترع والخلجان القريبة من القاهرة أو المحيطة بها ، فخليج القاهرة كانت تقوم عليه وحده أربع عشرة قنطرة ، وعلى الخليج الناصري كانت تقوم خمس قناطر ، وعلى كل من خليج فم الخور وخليج الذكر قنطرة واحدة(١) .

ولقد كانت هناك نظم وتقاليد تتبع عند فيضان النيل في أثناء فترة فيضانه كانت تقاس ارتفاعاته يوميا بواسطة مقياس كان يقوم بجزيرة الروضة منذ أن أنشيء في عهد الخليفة العباسي المتوكل عام ٢٤٧ هـ (٢) ، وهذا المقيـــاس كان مقسما إلى إثنين وعشرين ذراعا ، والأذرع قسمت إلى أصابع ، و ... وقد جرت عادة صاحب المقياس أن يعتبر قياسه زمن الزيادة في كل يوم وقت العصر ، ثم ينادي عليه من الغد بتلك الزيادة أصابع من غير تصريح بذرع ، إلا أنه يكتب في كل يوم رقاعا لأعيـــان الدولة من أرباب السيوف والأقلام كأرباب الوظائف من الأمراء ، وقضاة القضاء من المذاهب الاربعة ، وكاتب السر ، وناظر الخاص ، وناظر الجيش والمحتسب ومن في معناهم ، فيذكر زيادته في ذلك اليوم من الشهر العربي وموافقته من القبطي من الأصابع وما صار اليه من الأذرع . ويذكر بعد ذلك ما كانت زيادته في العام الماضي من ذلك اليوم من الأصابع ، وما صار اليه من الأذرع ، والبعادة بينهما بزيادة أو نقص ، ولا يطلع على ذلك عوام الناس ورعاعهم ، فإذا وفى ستة عشر ذراعا صرح في المناداة في كل يوم بما زاد من

---

(١) نفس المرجع السابق والجزء ص ١٤٦ .

(٢) المقريزي : المواعظ جـ ١ ص ٥٩ ـ القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٤ .

الأصابع ، وما صار اليه من الأذرع ، ويصير ذلك مشاعا عند كل أحد ، (١)

ومن وسائل الإعلان عن وفاء النيل أن يسبل صاحب المقياس على شباكه سترا أسودا يعرف بالستر الخليفي، فإذا شاهده الناس تباشروا بالوفاء ، واجتمعوا من كل صوب لإعلان فرحتهم (٢) .

وعلى أثر ذلك تكتب البشارات بوفاء النيل إلى سائر أقطار المملكة (٣) ، كما تجرى الاحتفالات بكسر الخليج الكبير أى خليج القاهرة بحضور السلطان ذاته (٤) ، ويكون كسر هذا الخليج إيذانا بكسر باقى الجسور المقامة على الترع

---

(١) القلقشندى : صبح الأعش جـ ٣ ص ٢٩٣
(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ١٨٥
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠
(٤) نفس المرجع السابق والجزء ص ٢٠٢

وفى هذا الاحتفال يتوجه السلطان إلى مقياس الجزيرة ويدخله ، وهناك يمد سماطا يأكل منه هو ومن معه من الأمراء والماليك ، ثم يذاب زعفران فى إناء فيتناوله صاحب المقياس ويسبح به فى فسقية المقياس حتى يصل إلى عمودهفيخلقه بالزعفران ، ثم يعود ويخلق جوانب الفسقية أيضا ، بينما تكون مركب السلطان المعروفة بالحراقة أو الذهبية ، وكذلك حراريق الأمراء قد زينت بالزينة ، ثم يؤتى بحراقة السلطان إلى شباك المقياس المطل على النيل ، فينزل منه السلطان ويسبح وحراريق الأمراء حوله ، وقد إكتظ النيل بمراكب المتفرجين التى تسير خلف الحراريق ، ويظل هذا الموكب النيلى الكبير فى طريقه حتى يصل السلطان إلى فم الخليج . وفى أثناء ذلك تجرى ألعاب بحراقة السلطان العظمى وكذلك بحراقات الأمراء فى وسط إمتدادها ، ويرمى على مقدامها بمدافع النفط . =

والخلجان الأخرى ، وكذلك إيذانا بفتح القناطر المقامة عليها لرى الأراضى حسب نظام دقيق كان معمولا به فى ذاك الوقت .

ويمكن أن نلم بأطراف من هذا النظام من الوصف الذى ذكره المقريزى عن نظام فتح السدود المقامة على إمتداد الخليج الكبير ، فهو يقول أنه بعد كسر السد المقام على فم هذا الخليج تجرى مياه الفيضان فيه حتى تصل إلى قنطرة أو سد الأميرية ، وهى آخر ما على هذا الخليج من قناطر بضواحى القاهرة . وعند هذه القنطرة تحبس المياه لتروى ما تحتها من أراض ، حتى إذا كان يوم النوروز (١) يخرج والى القاهرة ليأخذ الشهادة من مشايخ أهل الضواحى بأنه قد تم رى الأراضى بنواحيهم ، فإذا تم ذلك يفتح سد الأميرية على أثرها ، فتجرى المياه من ورائه إلى جسر شبين القصر ، وهناك تقف مرة أخرى لتروى ما تحته من أراض . ولا يزال الماء واقفا عند هذا الجسر إلى يوم عيد الصليب وهو اليوم السابع عشر من النوروز ، وعندئذ يفتح هذا السد هوالآخر فتجرى المياه وراءه ... وهكذا يتتابع فتح السدود المقامة على الخليج الكبير حسب

= وبعد وصول السلطان إلى سد الخليج يقطع هذا السد بحضوره ، فإذا تم ذلك يركب بعدها عائدا إلى القلعة ـ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٨ ـ ٣٠١ ، المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٧٠

(١) هو أول يوم فى السنة القبطية ، وكان الأقباط يحتفلون به إحتفالا كبيرا ثم شاركهم المسلمون فى الاحتفال به ، فأصبح يوم احتفال عام عند المجتمع المصرى كله ، واعتاد الناس الخروج فيه للهو والترويح والنزهة ـ ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١٧٨

نظام متتابع دقيق إلى أن يصب بمائه فى البحر الملح (١) .

ومما يلفت النظر أنه حتى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون كانت أرض مصر تروى بشكل كاف إذا بلغ إرتفاع النيل سبعة عشر ذراعا (٢) ، لكن هذا الحد لم يعد يكفى لريها بعد ذلك لأن السلاطين الذين توالوا على حكم مصر بعد الناصر محمد أهملوا شئون الرى وجسوره ، فقل جريان الماء فى الترع نتيجة لذلك ، وعلت الأرض الزراعيـــة على جانبى مجرى النيل وعلى جوانب الترع المتفرعة منه على توالى السنين ، فأصبح الفيضان إذا بلغ فى ه سنة إصبعا من عشرين لا يعم الأرض كلها ، (٣) ، وبالطبع إنعكس ذلك كله على كفاءة الانتاج الزراعى بمصر .

وفى العهد المماليكى كان لكل نوع من أنواع الرى اسم معين ، وأشار المقريزى إلى بعضها فى خططه ، ومن أمثلتها أن بعض الحقول كانت تروى « سيحا » (٤) أى أن ماء النيل كان يسيح إليها وقت الفيضان بذاته فيرويها . كما أن بعض

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٥٦ ، ج ٢ ص ١٤٨

(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار ص ٢٢ ، المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٥٩

(٣) المقريزى ج ١ ص ٦٠

(٤) ذكر المقريزى هذا التعبير عند كلامه على أنواع الرى بمنطقة الفيوم ، فقال أن خليج الفيوم الأعظم يمر بين ضيعتين معروفتين بدمونة واللاهون ، ثم قال أنه من هذا الخليج الأعظم يكون « شرب هاتين الضيعتين وغيرهما سيحا » . المواعظ ج ١ ص ٢٤٨

المحاصيل كالخيار والسكروم البعلية كان من الضرورى أن تروى « تغريقا » (١) أى تغرق حقولها بالمياه . كما أن الأشجار تسقى فى طوبة وأمشير ، وسقيها هذا كان يسمى « ماء الحياة » (٢) . كما يسقى القصب عند طلوع النيل « بماء الراحة » ، وذلك بأن تفتح ثلمة فى الجسر الذى يحيط بحقل القصب ، فيدخل ماء النيل منها حتى يعلو على القصب بنحو شبر ، وعندئذ تسد الثلمة ، ويترك الماء فوق الحقل قدر ساعتين أو ثلاث إلى أن يسخن ، وعندئذ يصرف من جانب آخر حتى ينضب كله ، ثم يكرر هذا العمل عدة مرات فى أيام متفرقة بقدر معلوم ، وبعدها يفطم القصب أى يمنع عنه الماء بعد ذلك (٣)

---

(١) المقريزى : المواعظ ج١ ص١٠٢ ، ٢٧٠
(٢) « : « ج١ ص١٠٣
(٣) نفس المرجع والجزء السابق

التقاوى : أساليب وآلات زراعتها

التقاوى فى العهد المماليكى كانت نوعين : تقاوى بلدية وتقاوى سلطانية .

التقاوى البلدية هى تقاوى أهلية يمتلكها صاحب الإقطاع أو مالك الأرض أما التقاوى السلطانية فهى تقاوى حكومية تمالكها الحكومة وتقيم لها المخازن فى كل ناحية من نواحى أرض مصر الزراعية لتخزنها وتحفظها بها .

ومن الأنظمة المتبعة فى ذاك الوقت أن الحكومة كانت تعطى لصاحب الإقطاع كميات من التقاوى السلطانية كل عام كنوع من المعاونة له ، وأيضا كوسيلة من وسائل تحسين نوعية الإنتاج الزراعى لأن هذه التقاوى كانت من الأنواع المنتقاة الممتازة ، فإذا خرج المقطع عن إقطاعه طالبته الحكومة بها وحاسبته عليها(١) .

ولقد اختلفت كميات التقاوى التى كانت تبذر حسب نوع المحصول ، بل إنها اختلفت أيضا بالنسبة للمحصول الواحد « بحسب قوة الأرض وضعفها ورقتها وتوسطها »(٢) .

وفيما يلى أمثلة لكميات التقاوى التى كانت تبذر فى الفدان الواحد بالنسبة لبعض المحاصيل(٣) :

القمح - من أردب إلى خمس ويبات ، غير أنه فى بعض أراضى الصعيد كان يبذر فيها أقل من ذلك ، كما أن بعض الأراضى بحوف رمسيس كان

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٦١ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ١٠١ .

(٣) نقلا عن المواعظ للمقريزى جـ ١ ص ١٠١ - ١٠٣

يكفى الفدان منها نحو ويبتين(١) فقط .

الفول - حوالى ثلاث ويبات .

الحمص - من أردب إلى ثمان ويبات .

الجلبان - من اردب إلى أربع ويبات

العدس - من ويبتين إلى ما دونهما .

الكتان - ما بين أردب وثلث وإلى مادون ذلك .

القرط - من بين ويبتين ونصف إلى ما حولها .

البصل - من ثلاثة أرباع الويبة إلى ويبة .

الترمس - اردب

البطيخ - قدحان

السمسم - ربع ويبه

القطن - اربع ويبات

القلقاس - عشرة قناطير جروية(٢)

النيلة - ويبة

الفجل - من قدح واحد إلى قدحين

اللفت - قدح واحد

---

(١) أردب القاهرة كان يعادل ٦ ويبات ، والويبة ١٦ قدحا ، والقدح يعادل فى الوزن ٢٣٢ درهما .

العمرى : مسالك الأبصار . مخطوط جـ ٢ قسم ٣ ورقة ٢٧٦ - السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٧١ - القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤١

(٢) القنطار الجروى يساوى مائة رطل جروى ، والرطل الجروى ٣٠٢ درهما - ابن الاخوة : معالم القربة ص ٨١ .

ولقد استخدم الفلاح عدة أساليب لبذر التقاوى فى التربة الزراعية ، كما استخدم عدة آلات زراعية فى هذا الشأن(١) . ففى الأرض الزراعية التى يكون ماء الفيضان قد غمرها غمرا كافيا تبذر التقاوى فوق تربتها وهى لينة موحلة بعد نزول الماء عنها وانسحابه من فوقها ، ثم تستخدم الملوقة لدفن هذه التقاوى داخلها .

والملوقة خشبة تجرها الدواب على سطح هذه التربة اللينة . فتضغط بثقلها على التقاوى التى بذرت فتدفعها إلى داخل التربة ، وهذا العمل يعرف بالتلويق (٢) . ولايستخدم إلا فى الأرض الموحلة اللينة التى ارتوت جيدا ولا تحتاج لأن تشق بمحرات (٣) . وفى هذا الشأن يقول المقريزى « وإلى الآن فى أراضى مصر ما إذا نزل عنها ماء النيل لاتحتاج إلى المحراث لينها بل تلاق لوقا » (٤)

أما الأرض التى لايغمرها ماء الفيضان غمرا كافيا بسبب ارتفاعها عن منسوب الماء ، أو بسبب انخفاض منسوب ماء الفيضان فى بعض السنين ، وكذلك الأرض التى تزرع وقت التحاريق ، ففى كل هذه الحالات لا بد من تبريش الأرض أى شقها بالمحراث (٥) ، ثم تلقى التقاوى فى الشقوق التى أحدثت بها .

---

(١) رغم أن هذه الوسائل وهذه الآلات الزراعية مستخدمة حتى اليوم فى بعض الحقول المصرية ، إلا أنه يهمنا هنا أن نسجل استخدامها فى العهد المماليكى من واقع النصوص التاريخية المماليكية .

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١٠١ ، جـ ٢ ص ٢٧٠ .

(٣) يقول المقريزى أنه فى شهر بابه يزرع الفول والبرسيم وسائر الحبوب « التى لا تشق لها الأرض » أى التى تزرع بالتلويق - المواعظ جـ ١ ص ٢٧٠

(٤) المواعظ جـ ١ ص ١١٧

(٥) يقول المقريزى « ومعنى البرش الحرث » - المواعظ جـ ١ ص ١٠٢ .

وهذا النوع من الزراعة يسميه المقريزى « الزراعة حرثا » ، وغالبا ما استخدم فى زراعة بعض المحاصيل فى الأراضى العالية زمن الفيضان [١] ، كما استخدم أيضا فى زمن التحاريق لزراعة المحاصيل الصيفية التى ينسبها المقريزى « الصيافى » ، وأيضا « حبوب الحرث » [٢] .

أما المحاريث التى استخدمها الفلاح فى ذاك الوقت فكان بعضها كبيرا ويعرف باسم « المقلقلات » [٣] . وفى أثناء عملية الحرث كان الفلاح يلبس فى قدميه جلده اسمها « الحدوة » لتحميها من الأضرار التى تنجم عن احتكاكها بكتل الطمى الصلبة اليابسة ، وهذه الحدوة كانت تضع على قدر القـــدم وتثبت بها بواسطة خيوط [٤] .

وبعد الحــرث كان لا بد من تمهيــد التربة وتنعيمها وتسويتها ، فاستخدمت « الجرافة » لهــذا الغرض .

ولقد أعطانا كل من المقريزى والنويرى إيضاحا لمهمتها ووظيفتها أثناء كلامها على عملية زراعة القصب فقالا أنه بعد حـــرث الأرض « تجرف الأرض حتى تتمهد . . . فإذا صلحت الأرض وطابت وتمت وصارت ترابا ناعما وتساوت بالتجريف شقت حينئذ بالمقلقلات ويرمى فيها القصب [٥] .

---

(١) المواعظ جـ١ ص ١٠١

(٢) يقول المقريزى أنه فى شهر كيهك « يزرع أكثر حبوب الحرث » وفى شهر طوبة « تبرش الأراضى أول سكة برسم الصيافى » المواعظ جـ١ ص ٢٧٠

(٣) المقريزى : المواعظ جـ ص ١٠٢

(٤) الشربينى : هز القحوف ص ٦٠١

(٥) المقريزى : المواعظ جـ١ ص١٠٢ ، والنويرى : نهاية الأرب جـ٨ ص٢٦٥

وبالإضافة إلى ما ذكرناه ، فقد اختصت بعض المحاصيل بأساليب أخرى لزراعة تقاويها ، ومنها القصب الذى كان يزرع « بالنصب » أى إلقاء قطع التقاوى فى الشقوق التى تحدثها المقلقلات (١) ، كما أن الخس والكرنب يزرعان « بالشتل »(٢) كما أن النرجس يزرع « بالدفن » (٣) ، كما أن كثيرا من أشجار الفواكة كالكرم والتين والتفاح واللوز والخوخ والمشمش وغيرها تزرع « بالغرس » (٤) .

الغرس والتطعيم

غالبا ما كان يتم غرس الفواكة على مرحلتين ، المرحلة الأولى : وفيها تغرس قضبان منها أى فروع صغيرة منها ، فإذا نمت تحول إلى أرض الحقل لتستقر به نهائيا ، ولتكمل به دورة نموها ، وهذه هى المرحلة الثانية . وغالبا ما استخدمت هذه الطريقة فى غرس الكرم الذى قال عنه المقريزى عنه أنه يغرس فى أمشير « نقلا وتحويلا » (٥) .

كما أن قضبان اللوز والخوخ والمشمش كان من الضرورى بلها فى ماء شهر طوبة لمدة ثلاثة أيام قبل غرسها ثم تحول بعد ذلك فى نفس الشهر (٦) .

ولقد تخصصت فئة من التجار الزراعيين فى تربية أشجار الفواكة والزهور

---

(١) المقريزى : نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٢) المواعظ جـ١ ص ١٠٣
(٣) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة
(٤) المواعظ جـ١ ص ١٠٢
(٥) المواعظ جـ١ ص ١٠٣
(٦) يقول المقريزى « ويبل اللوز والخوخ والمشمش فى ماء طوبة ثلاثة أيام وهى قضبان ، ثم يغرس ويحول شجرها فى طوبة » المواعظ جـ١ ص ١٠٣ .

والرياحين فى أصص ، ثم تبيعها بعد ذلك لمن يطلبها من المزارعين أو الفلاحين ، فيقوم هؤلاء بعد شرائها بنقلها إلى الحقول ، وهناك يحفرون لها حفرا ويغرسونها بها إما بأصصها أو بدونها .

ويبدو أن تربية الأشجار فى الأصص كانت رائجة فى مصر منذ عهود سبقت العهد المماليكى ، فناصرى خسرو مثلا عندما زار مصر فى العهد الفاطمى شاهد عددا كبيرا من التجار الزراعيين تخصصوا فى هذا العمل فقال «... إذا أراد أحدهم غرس حديقة يستطيع ذلك فى أى فصل من فصول السنة ، فإنه يحصل دائما على الشجر الذى يريد فزرعه مثمرا أو بغير ثمر ، وهناك تجار لذلك يقدمون كل ما يطلب منهم ، فقد زرعوا الأشجار فى أصص ووضعوها فوق الأسطح ،وكثير من سقوف بيوتهم حدائق أكثرها مثمر من النارنج والترنج والرمان والتفاح والسفرجل والورد والريحان والزهر ، فإذا اشترى أحدهم شجرا حمل الحمالون الأصص بالشجر بعد شدها على لوح من خشب ونقلوها إلى حيث يشاء ، ثم يحفر الزراع الأرض لغرس الشجر إما بالأصص أو بعد نزعه منها من غير أن يضار الشجر بهذا » .

ثم ينهى ناصرى خسرو كلامه عن هذا الموضوع معلقا عليه بقوله «ولم أر هذا النظام فى أى مكان آخر، كما أنى لم أسمع به، والحق إنه نظام جميل جدا..»(١). لكنى ، ورغم ذلك ، فإنى أعتقد أن خبرة الفلاح المصرى فى العهد المماليكى فى غرس وزراعة أشجار الفواكة كانت أقل من خبرة زميله الشامى فى هذا الشأن ؛ كما أن نوعية بعض الفواكه التى زرعت بأرض مصر كانت أقل جودة من مثيلتها التى زرعت بأرض الشام ، ومما يؤكد ذلك أن مصر كثيرا ما كانت تستورد وقتئذ

---

(١) ناصرى خسرو : سفرنامة ص ٧٠

العديد من فواكه الشام كالتفاح والكمثرى والسفرجل والجوز واللوز والخروب (١) ، بل إنها استوردت أيضا أشجار بعض هذه الفواكه من الشام (٢) .

وإزاء ذلك اضطر بعض سلاطين المماليك إلى جلب المهرة من زراع الشام ليقوموا بأنفسهم وبمعرفتهم بغرس أشجار الفواكه التي جلبوها معهم بمصر . وفي هذا الشأن يخبرنا المقريزي أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون غرس بستانا بسرياقوس(٣) ونقل اليه سائر الأشجار التي تحمل الفواكه وأحضر معها خولة بلاد الشام حتى غرسوها وطعموا الأشجار فأفلح فيه الكرم والسفرجل وسائر الفواكه »(٤) .

كما أن نفس السلطان أنشأ بستانا آخراً في طرف أرض اللوق ، وأرسل إلى دمشق فحمل اليه منها سائر أصناف الشجر ، وأحضر منها خولة الشام والمطعمين فغرسوها فيه وطعموها ... ومنه تعلم الناس بمصر تطعيم الأشجار »(٥) .

(١) المواعظ جـ ٢ ص ٩٣ .
(٢) المواعظ جـ ٢ ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ١٠٢ .
(٣) بلدة كانت تقع على بعد ١٨ كيلو مترا شمال القاهرة - أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٧٩ حاشيه ١ .
(٤) المواعظ جـ ٢ ص ١٩٩ .
(٥) المواعظ جـ ٢ ص ١٩٨ .
واللوق - لغويا - هي الأرض اللينة ، وقد أطلق هذا الاسم على الأرض التي إنحسر عنها ماء النيل جنوب غرب ساحل القاهرة الذي كان يعرف وقتئذ باسم المقس - المواعظ جـ ٢ ص ١٧ ، ١١٨ ، ١٩٨ .

وربما يفهم البعض من جملة المقريزى الأخيرة أن المصريين تعلموا من الشاميين طرق تطعيم أشجار الفواكه ، لكنى أعتقد أنه قصد بها أن المصريين إزدادوا خبرة فى هذا الشأن على يد الشاميين .

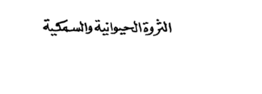
وينبئنا طيبغا الجركلمشى فى مخطوطه عن الفلاحة أن التطعيم فى العهد المماليكى كانت له عدة أسماء منهـــا التركيب ، والإضافة ، والإنشاب[١] . كما ينبئنا بأن المطعمين الشاميين والمصريين إتبعوا فى هذا الشأن طريقتين ، الأولى التطعيم بالغصن . والثانية التطعيم بالعين أى تطعيم الشجرة بعين من شجرة أخرى[٢] .

---

(١) طيبغا الجركلمشى : الفلاحة المنتخبة ص ١١٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١١٧ ، ١١٨ .





الثروة الحيوانية والسمكية



الثروة الحيوانية

ثروة مصر الحيوانية في العهد المماليكي تتمثل في الحيوانات التي كانت لها أهمية خاصة في حياة المجتمع المصري بمختلف فئاته ، كالحيوانات التي كان يستخدمها في أعماله ، أو التي كان يستخدمها كمطية رئيسية في تنقلاته أو في أسفاره ، أو تلك التي كان يقتات بلحومها .

وتأتي الخيول على رأس قائمة هذه الحيوانات ، فقد حظيت باهتمام كبير من المماليك على مختلف مستوياتهم لأنها كانت مطيتهم الأساسية في السلم والحرب ، كما اعتاد بعضهم خاصة من كان منهم من جنس مغولي أن يأكل لحمها ويدخله في طعامه[1] ، كما صنعوا من لبنها نوعا من أفضل الأنبذة لديهم إسمه القمز ، وهو نبيذ شغفوا بشربه إلى حد كبير[2] .

ولهذه الأسباب كلها ، إهتم بعض سلاطين المماليك بتوفير الأعداد الكبيرة من الخيول الجيدة إما عن طريق جلبها بأعداد كبيرة من مواطنها خارج مصر ، أو عن طريق تربيتها والإكثار من سلالاتها الممتازة . كما أنهم منعوا غير العسكريين ورجال السيف من ركوبها أو استخدامها[3] .

---

(1) ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار ج ١ ص ٢٠٨
لكن كان يراعى أن لا يذبح من الخيول إلا الأكاديش فقط أي الغير أصيلة أو الخيول التي تصاب بأية إصابة تجعلها غير صالحة للفروسية والقتال
Leon L'African : Decription De L'Afrique, T. 8. p, 515.

(2) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ٢١٦

(3) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ٤١ - السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ص ٤٩ .

و من بين من اشتهر من سلاطين المماليك بجلب الخيول بأعداد كبيرة واقتناء أعداد كبيرة منها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وكذلك السلطان الظاهر برقوق . فالسلطان الناصر محمد بن قلاوون ترك عند وفاته أربعة آلاف وثمانمائة فرس(١) ، كما ترك السلطان برقوق عند وفاته سبعة آلاف فرس(٢) .

وكان إهتمام السلطان الناصر محمد كبيرا بتربية السلالات الممتازة من الخيول فشيد حظائر لهذا الغرض فى بعض الأماكن كبركة الحاج التى كانت تقع شمال القاهرة(٣) . ففى أرض بركة الحاج هذه أمر بعمل أحواش الخيل والجمال(٤) ، كما أنشأ ديوانا سجلت فيه كافة المعلومات عن كل فرس ، واسم صاحبه ، والتاريخ الذى جلب فيه إلى مصر .

واستكثر الناصر محمد من الخيل حتى أصبح فى حاجة لتخصيص مكان لنتاجها الذى تلده ، فاختار لهذا الغرض مكانا على البر الغربى لخليج القاهرة ، ووضع فيه مجموعة من الحجورة ـ أى إناث الخيل ـ وأعد لها من يخدمها ويرعاها ويشرف شئونها ، وجهز لها كافة ما تحتاج اليه ، فاشتهر هذا المكان باسم ميدان المهارى لهذا السبب . وقد ظل هذا الميدان يقوم بمهمته تلك فى تربية الخيول إلى أن مات السلطان الظاهر برقوق عام ٨٠١ ﻫ فتلاشى أمره بعد ذلك أى فى خلال عهد السلطان

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٥٢٩ .

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٢٥

(٣) عرف هذا الموضع بهذا الاسم بسبب نزول الحجاج به عند ذهابهم للحج وعند عودتهم منه ـ المواعظ ج ٢ ص ١٦ .

(٤) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٦٢ .

فرج بن برقوق (١) .

أما فيما يختص بتربية المواشى والأغنام فقد كانت تكثر بصعيد مصر . واشتهر إقليم قوص فى صعيد مصر بطيب لحم الذى يربى به ولذاته (٢) .

والأغنام — على وجه الخصوص — كانت تربى بالصعيد وتتكاثر بدرجة كبيرة حتى أن الكثير من النعاج هناك كانت تلد ثلاث مرات فى السنة ، كما أن بعضها كان يلد فى المرة الواحدة ثلاثة رؤوس .

ولقد قدر مجموع نتاج النعجة الواحدة فى الصعيد فى مدى عشرة سنوات بألف وأربعة وعشرين رأسا ، وذلك إذا ولدت النعجة والنعاج التى من نسلها أنثى واحدة فقط فى السنة ، ومع افتراض سلامة النتاج كله (٣) .

ولعل من أسباب كثرة المواشى والأغنام بالصعيدكثرة المراعى به ، فمعروف أن أرض الصعيد ترتفع كلما اتجهنا جنوبا ، وارتفاعها هذا جعل من الصعب ريها بسهولة ، خاصة فى أقصى جنوب الصعيد ، فتعطل بعضها عن الزراعة لهذا السبب سنة بعد أخرى ، فنمت بها الأعشاب بكثرة أصبح من الصعب معها إزالتها منها ، فلم يعد هناك مفر من استغلالها كمراع فقط . وبالإضافة إلى ذلك فبعض أراضى الصعيد من النوع الذى كان يعرف وقتئذ باسم « النقاء » وهى أرض ذات طينة سوداء تصلح للزراعة ، لكنها سرعان ما كانت تتحول إلى مراع ويزرع بها

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ١٩٩

(٢) الادفوى : الطالع السعيد ص ١٢

(٣) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١٩٠ - ابن إياس : نشق الأزهار ، مخطوط ، ورقة ١٤٢

الكلأ إذا تعطلت عن الزراعة لأى سبب من الأسباب، فاستغلت بدورها لتربية الخيول والمواشى والأغنام (١) .

وبعض هذه المراعى كانت تدخل فى نطاق الإقطاعات التى منحت للمقطعين ، فاستغلها هؤلاء المقطعون استغلالا تجاريا ، وأباحوا لأصحاب المواشى والأغنام يرعى مواشيهم وأغنامهم بها نظير أجر كانوا يفرضونه على كل رأس منها (٢) .

والواقع أن المراعى لم تكثر فى الصعيد فقط ، وإنما كثرت أيضا فى شمال الدلتا خاصة عند بحيرتى البرلس والمنزلة حيث كانت تكثر هناك المستنقعات التى تتخللها الجزائر .

وفى مراعى هذه المنطقة كان يرتع نوع من البقر لا يعيش إلا حيث يكون العشب والماء ويعرف باسم « بقر الخيس »

وأبقار الخيس ضخمة ، صفراء اللون ، طويلة الرقاب ، حسنة الصورة ، لها قرون كالأهلة أو كالقسى ، ويغلب على طباعها النفور والتوحش لذلك لم تستخدم فى العمل ، وانتفع بألبانها ولحومها فقط (٣) :

ورعاة هذه الأبقار كانوا يقيمون فى برارى هذه المنطقة فى أخصاص من البوص والبردى وما أشبه ذلك ، وإذا أراد أحدهم حلب بقرة من أبقاره التى

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٤٧

(٢) المواعظ جـ ١ ص ١٠٧

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ١ ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، البغدادى : الإفادة والاعتبار ص١٩ ، المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٢٤٣ ، الدميرى : حياة الحيوان الكبرى جـ ١ ص ٢٤٩ .

ترتع هناك دعاها باسمها الذى كان يطلقه عليها والذى عودها على سماعه ، فتأتى إليه على الفور ، فيجعل أولادها ترضع منها أولا لتحن عليها ، ثم يحلبها هـو بعد ذلك (١) .

ويبدو أن هذا النوع من الأبقار الخيسية كان يتكاثر بدرجة كبيرة ، فامتلك بعض الناس الأعداد الكبيرة منها ، وروى أن رجلا من أهل أشموم طناح (٢) كان يمتلك منها عام ٧٠٠ هـ مايزيد على الألف رأس .

وبالإضافة إلى مراعى الكلأ بمختلف أنواعها فقد كانت حقول القرط أى البرسيم ـ ولا تزال إلى اليوم ـ من أهم وأبرز الأماكن لتربية وتسمين الخيول والمواشى والأغنام ، فمنذ ظهور البطن الأولى للقرط تربط هذه الحيوانات فى حقوله ، أى تطلق بها لترعى ولتأكل منه ما تشاء .

وعادة تبدأ عملية الربط هذه فى شهر طوبه من كل عام ، (٣) وتستمر حوالى ثلاثة أشهر .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ١ ص١٢٢ ، على مبارك : الخطط التوفيقية جـ٩ ص ٧٩ .

ويخبرنا على مبارك أن برية البرلس ظلت قائمة للرعى بنفس الصورة التى كانت عليها فى العهد المماليكى حتى عام ١٢٦٠ هـ/١٨٤٤م .

(٢) مدينة تقع شرق المنصورة وجنوب دكرنس الحالية ـ المقريزى : السلوك جـ ١ قسم ١ حاشية للدكتور زيادة .

(٣) يقول المقريزى أنه فى شهر طوبة ، تربط الخيول والبغال على القرط من أجل ربيعها ، ـ المواعظ جـ ١ ص ٢٧٢ .

وعملية تسمين الخيول والمواشي والأغنام بهذه الطريقة كانت تعرف في العهد المماليكي باسم الربيع أو التربيع وكانت لها أهميتها الكبيرة في ذاك الوقت ، ومن دلائل ذلك أن السلطان كان يصدر دستورا للأمراء بالتوجه في هذه الفترة إلى إقطاعاتهم لتربيع خيولهم (١) ، رغم أنه حسب تقاليد ونظام هذا العهد كان لايسمح للأمراء بالتوجه أو الإقامة في إقطاعاتهم إلا في أضيق الحدود وفي مناسبات معينة يحددها السلطان ، وبإذن مسبق منه شخصيا (٢) .

ومما يدل أيضا على إهتمام الدولة بتسمين خيول الأمراء أن السلطان كان يمنحهم عليقا من الشعير في غير زمن الربيع ، أما في فترة الربيع فكان يمنحهم إطلاقات — وهي أراضي بالأعمال الجيزية — لزرع القرط لخيولهم من غير خراج كما كانت تعطى المماليك السلطانية مخصصات من البرسيم المزروع على قدر مراتبهم لنفس الغرض(٣) .

وعند اكتمال تربيع الخيول يخرج السلطان بنفسه إلى مرابط خيوله ، ليطمئن

---

(١) من أمثلة ذلك أن السلطان خليل بن قلاوون أصدر أمرا لأمرائه عام ٦٩٠ هـ بالتوجه إلى إقطاعاتهم لتربيع خيولهم — ابن عبدالظاهر : الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الاشرفية ص ٢٦ .

(٢) السبب في ذلك يرجع إلى تخوف سلاطين المماليك من إحتمال قيام الأمراء بتكوين عصبيات في مناطق إقطاعاتهم إذا سمح لهم بالإقامة فيها بصفة مستديمة .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٤ ، ٥٥ .

بتفنة على أنها قد سمنت وأ كلت ما يكفيها من القرط ، وتعد هذه المناسبة من المناسبات العامة فينعم فيها السلطان على الأمراء بالخيول كل حسب رتبته فى الإمارة(١) .

وبخلاف القرط فقد كانت بذرة القطن أيضا من الأعلاف العامة للأغنام . ولقد كانت بركة الحاج أحد أماكن تربية الأغنام وتسمينها ببذرة القطن فى ذاك الوقت ، والأغنام التى كانت تعلف بها كانت ، تبلغ الغاية فى السمن حتى أنه كان يدخل بها إلى القاهرة وهى محمولة على العجل لعظم جثتها وثقلها وعجزها عن المشى وكان يقال كبش بركاوى نسبة إلى هذه البركة ... »(٢) .

ويبدو أن الكباش التى كانت تسمن بهذه الطريقة كان وزنها يزيد إلى درجة غير عادية .

ولقد شاهد المقريزى واحد منها فقال عنه « وشاهدت كبشاً من كباش هذه البركة وزنت شقته اليمنى فبلغت زنتها خمسة وسبعين رطلا سوى الإلية ، وبلغنى عن كبش أنه وزن ما فى بطنه من الشحم خاصـــة فبلغ أربعين رطلا ، وكانت ألايا الكباش تبلغ الغاية فى الكبر ... »(٣) .

ويبدو أن بركة الحاج لم تكن الوحيدة من نوعها فى تسمين الأغنام ، فقد شاركتها فى ذلك مناطق أخرى بمصر ، والأغنام التى ربيت وسمنت بهذه المناطق بلغت هى الأخرى الغاية فى السمن ، ومن هذه المناطق منطقة البشمور القريبة من

---

(١) المواعظ جـ ٢ ص ٢٠١ ، صبح الأعشى جـ ٢ ص ٥٤ .
(٢) المواعظ جـ ٣ ص ١٦٤ .
(٣) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة .

دمياط والتي قال ياقوت الحموي عن كباشها « ليس في الدنيا مثلها عظماً وحسناً وعظم الية ، وذلك أن الكبش لا يستطيع حمل اليته فيعمل له عجلة يحمل عليها اليته وتشد تلك العجلة بحبل إلى عنقه فيظل يرعى وهو يجر العجلة التي تحمل اليته وهي الية فيها طول . . . فإذا نزعت العجـــلة أو انقطعت وسقطت اليته على الأرض ربض الكبش ولم يمكنه القيام لثقلها ... ولا يوجد هذا النوع من الضأن في موضع آخر من الدنيا .. »(١) .

ولقد عرف عن بعض السلاطين الاهتمام بتربية الأغنام ومن أبرزهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي ذكر عنه أنه كان يهتم باقتناء الأعداد الكبيرة من الانواع الممتازة من الاغنام والبقر ، وجلبها من البلاد التي كانت تجود تربيتها وتكاثرها بها مثل اليمن والنوبة ومنطقة عيذاب الواقعة على البحر الأحمر . وفي كل عام كان يبعث بأمرائه ومعهم المماليك لكشف مراحات الاغنام(٢) بالصعيد في المنطقة الممتدة من قوص إلى الجيزة لاختيار وانتقاء الأنواع والسلالات الممتازة منها ، وجلبها في أعداد كبيرة .

وجلب السلطان الناصر محمد بن قلاوون أيضاً عدداً كبيراً من الأبقار البلق(٣) وشيد لها ولباقي الأغنام والأبقار التي جلبها حوشاً بالقلعه خصصه لتربيتها ، ورتب لها من يعتني بها من الخدام والجواري وبعض الأسرى النصارى ، فبلغت الأغنام التي تركها بعد موته نحـو الثلاثين ألف رأس سوى نتاجها ، فاقتدى به

---

(١) أنظر المشمور بمعجم البلدان لياقوت الحموي .

(٢) أي مراعيها ، لان الاغنام عادة تمرح بمراعيها .

(٣) البلق والبلقة هي سواد وبياض ـ محيط المحيط ، وبناء عليه تبكون هذه الأبقار التي يتناوب لونها بين السواد والبياض .

الأمراء وصارت لهم أغنام عظيمة جدا فى عامة أرض مصر قبليها وبحريها»(١)

ويبدو أن الاهتمام بتربية المواشى لم يقتصر فقط على الخيول والابقار والاغنام بل شملت الخنازير أيضا. والواقع أن تربيتها كان لغرض تجارى محض، فقد رباها بعض الناس ليبيعوها للفرنج بأسعار تحقق ربحا مجزيا. ولقد كان الأمير ألماس الحاجب فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون واحدا ممن فعلوا ذلك، فغرس لها بساتينا بناحية بهواش (٢) ، وجلب إليها كثيرا من الخنازير، وسمنها هناك، ثم باعها للفرنج مقايضة ببضائعهم (٣) .

---

(١) المواعظ جـ٢ ص ٢٢٩ ، والسلوك جـ ٢ قسم ٢ ص ٥٣١
ومن أمثلة الأمراء الذين اقتنوا أعدادا كبيرة منها ناظر الجيش فى عهد الملك الصالح صلاح الدين صالح ، فقد وجد عند هذا الأمير عندما قبض عليه ألف رأس من الأبقار والأغنام . ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٦٨

(٢) قرية بمحافظة المنوفية الآن - المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٣٦٦ حاشية الدكتور زيادة .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ قسم ٢ ص ٣٦٦

تربية الدواجن وتفريخ الفـــراريج

لاشك أن تربية الدواجن كانت تتركز فى الأرياف فى دور الفلاحين ـ كما هو الحال حتى اليوم ـ حيث تتوفر هناك الظروف الملائمة لتربيتها وتغذيتها .

والأوز الذى كان يربى فى مصر فى ذاك الوقت كان يعرف باسم الحبشى ، وهو نوع يتميز بكبر الحجم [1] .

أما الحمام فلم تقتصر تربيته على النوع الداجن منه ، بل شملت أيضا أنواعه البرية ، وكانت تبنى له أبراج مستديرة الشكل فيها قواديس فخارية ، فتجتذب هذه الابراج أعدادا كبيرة منه ، وفى داخلها تعيش وتبيض وتفرخ وتتكاثر [2] والجدير بالذكر أن هذه الأبراج مازالت مستخدمة فى مصر حتى اليوم لنفس الغرض.

أما البط والدجاج فكان لها رعاة متخصصون فى تربيتها ورعايتها كرعاة الغنم ويقول ابن الفقيه أن البط « يرعى بمصر كما ترعى الغنم » [3] كما ذكر الجاحظ

---

(1) النويرى : نهاية الأرب جـ١٠ ص ٢٣٦

(2) الشربينى : هز القحوف جـ ص ١٨٢

(3) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٦٠

أما البط والأوز البرى وغيرها من الطيور البرية الأخرى التى تمر بسماء مصر فى مواسم وأوقات معينة من السنة فكان أهل مصر ـ خاصة أهل المناطق الساحلية الشمالية ـ يصيدونها بواسطة الشباك . « وكان أهل تنيس يصيدون السمانى وغير ذلك من الطيور على أبواب دورهم » ـ المقريزى : المواعظ جـ١ ص ١٨١

وكان استخدم شبكة طولها مائة وعشرون ذراعا لصيد البط البرى، يقوم =

أيضاأن الدجاج « يرعى بعد مركما الغنم وإذا راع وقيم » (١) واشار ابن دقماق أثناء تاريخه لعام ٨٠٦ هـ الى هـذا النوع من الدجاج الذى كان له رعاه وسماه الدجاج المرعاوى. (٢)

ومن بين الوسائل التى استخدمت فى العهد المماليكى للإكثار من الدجاج ، تفريخ بيضه فى معامل التنانير أو معامل الفراريج (٣) . ولقد انفردت مصر بهذا العمل ولم يحاكيها فيه أى بلد آخر (٤) .

وعملية التفريخ هذه كانت تتم فى أشهر أمشير وبرمهات وبرموده (٥) ، وكانت تمر بعدة مراحل ، ويحدثنا عبد اللطيف البغدادى باستفاضة عنها فيقول (٦) أن معمل التفريخ عبارة عن ساحة كبيرة تصطف بداخلها بيوت التفريخ ، وهى ما بين عشرة بيوت إلى عشرين بيتا ، وكل بيت منها يعرف باسم بيت الترقيد ؛ ويتسع لألفى بيضه ، ومطين بالطين تماما لحفظ الحرارة بداخله .

وكل بيت من هذه البيوت على هيئه متوازى مستطيلات ، وله باب صغير

= يجذبها ستة عشر نفرا ، وكان يصاد بهذه الشبكة أعداد كبيرة من هذا البط قد يصل عدده أحيانا إلى ثمانمائة بطة ـ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٨

(١) الجاحظ . الحيوان جـ ٢ ص ٢٢٣

(٢) ابن دقماق : الجوهر الثمين فى سيرة الملوك والسلاطين ، مخطوط ، ص ٢٧٦

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٩٠

(٤) ابن إياس : نفس المرجع والجزء والصفحة

(٥) المقريزى : المواعظ جـ ص ٢٧٢

(٦) عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار ص ١٨ ، ١٩

يكفى لدخول العامل الذى يباشر عملية التفريخ إلى داخله وخروجه منه . أما سقفه فمن الخشب المطين بالطين ، ويتليه طاجنان من الطين لوضع الوقود بهما .

تبدأ عملية التفريخ بفرش أرضية بيت الترقيد بتبن يعلوه حصير ، ثم يرص البيض فوق الحصير رصا دقيقا منتظما ، وهذا العمل كان يعرف عند أهل هذه الحرفة باسم الترقيد .

توقد النيران بعد ذلك بالطاجنين لمدة عشرة أيام متتالية ، فى خلالها يقلب العامل البيض بين وقت وآخر ، ثم يبدأ بعدها عملية فرز لتحديد البيض الذى أفلح تكوين الفروج بداخله . وعملية الفرز هذه كانت تتم بواسطة سراج يوضع خلف البيضة لينفذ ضوءه إلى داخلها ، فإن بدت البيضة معتمة سوداء فمعنى ذلك أنه قد أفلح تكوين الفروج بها ، أما إذا بدت شفافة فمعنى ذلك العكس ، فتسمى فى هذه الحالة - أرملة - ويخرجها العامل من بيت الترقيد .

وبعد إتمام عملية الفرز يعيد العامل إيقاد النيران بالطاجنين حتى انتهاء اليوم الرابع عشر ، ثم بعدها يطفىء النار نهائيا ، ويبقى البيض بداخل بيت الترقيد إلى تمام اليوم التاسع عشر .

وفى خلال هذه الأيام الخمسة يستمر العامل فى تقليب البيض وتغيير أماكنه ليتيح له فرصة متكافئة من الحرارة والرطوبة . وهذا العمل يحاكى ما تفعله الدجاجة بالبيض الذى تحتضنه ، فهى أيضا تقلب البيض بمنقارها فى هذه المرحلة وتغير أماكنه بين وقت وآخر .

وفى اليوم العشرين يكون الفروج قد اكتمل بخلقه داخل البيضة ، فيكسر قشرتها ويخرج منها بنفسه .

بقى قبل أن نختتم كلامنا على ثروة مصر الحيوانية والطيرية فى العهد المماليكى أن ننوه بأن الاهتمام بتنمية هذه الثروة لم تكن ضرورة حتمتها إحتياجات عامة الشعب فقط فى طعامه ، وإنما أيضا إحتياجات الطبقة الحاكمة على وجه الخصوص كالسلاطين والأمراء ، فهؤلاء كانوا يمدون أسمطة هائلة بين وقت وآخر وفى مناسبات عديدة ، وفى هذه الأسمطة كانت تذبح أعداد كبيرة من الخيول والمواشى والأغنام والطيور ، وتقدم للمدعوين مع باقى أصناف الطعام الأخرى .

ومن أمثلة هذه الأسمطة سماط عرس الأمير آنوك بن الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٣٠ هـ الذى ذبح فيه من الخيل والجمال والبقر والغنم والأوز والدجاج فوق العشرين ألف رأس (١) ، وكذلك سماط مدة السلطان برقوق عام ٧٩٩ هـ فقدم فيه عشرين ألف رطل من اللحم ، ومائتى زوج من الأوز وألف دجاجة وعشرين فرسا (٢) .

الثروة السمكية

أمدنا ابن بسام والمقريزى وابن إياس والنويرى والقزوينى وياقوت الحموى وعبد اللطيف البغدادى بأسماء العديد من الأسماك التى كانت تعيش فى المياة المصرية (٣) ومن بينها :

---

(١) الجزرى : تاريخ الجزرى ، مخطوط ، المجلد الثانى ص ٩٨ ، المقريزى : نحل عبر النحل ص ٩٠ .

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر ، مخطوط ، جـ ١ ص ١٣٦

(٣) إرجع إلى ابن بسام : الأنيس الجليس فى أخبار تنيس ، مخطوط ، ورقة ١٧٢ - ١٧٣ .

والمقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٦٧ ، ١٠٨ - ابن إياس : نشق

البلطى(١) ، البنى(٢) ، البورى(٣) ، البياض(٤) ، الجرى(٥) ، الحبار (٦) ، ابراميس (٧) .

= الأزهار فى عجائب الأقطار ، مخطوط ، ورقة ١٦١ أ - ١٦٢ أ . القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٧٨ - ياقوت الحموى : معجم البلدان - عبداللطيف البغدادى : الإفاده والاعتبار ص ٢٢ - ٢٣ .

(٤) عرف هذا السمك بالنيل لأول مرة فى عهد الخليفة العزيز بالله بن نزار بن المعز لدين الله الفاطمى - المواعظ ج ١ ص ٦٧

(٢) نوع من السمك أبيض اللون ، ذنبه أحمر ، وزعانفه حمراء ، سريع النمو ، ويكبر حتى تبلغ الواحدة منه خمسة أرطال أو عشرة - أمين معلوف : معجم الحيوان ص ٢٨ ، أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ص ٩٧ .

(٣) كان هذا السمك يكثر عند قرية بوره فنسبت إليه وسميت باسمه - أمين معلوف : معجم الحيوان ص ١٦٣

(٤) جاء وصفه فى محيط المحيط بأنه سمك على قدر الكف ، بينما عرفه الجاحظ بأنه اللحم الذى فى جوف الأصداف - الجاحظ : الحيوان ج ٤ ص ٤٥

(٥) هو السمك الذى يعرف فى مصر الآن باسم القرموط - محمد بن عمر التونسى : الشذور الذهبية فى الألفاظ الذهبية ص ٢٤٩

(٦) سمكة لها ذوائب كالخيوط ، وإذا صيدت أفرزت سائلا فى الماء - أمين معلوف : معجم الحيوان ص ٧٩ - ولعله النوع المعروف الآن مصر باسم السبيط .

(٧) سمك يميل إلى الاستداره أحمر الذنب - أمين معلوف : معجم الحيوان

الحساس (١)، الرعاد (٢)، أم طبق أو الجا (٣)، الراى (٤)، السرطان (٥)، سيف الماء (٦)، أنكليس (٧)، الشرب (٨).

---

(١) فصيلة من صغار السمك رقاق دقاق ألوانها فضية، يعيش فى المياه العذبة وفى البحر المالح أيضا قرب الشواطىء، ومن أسمائه الصير والقشقوش ـ أمين معلوف: معجم الحيوان، الدميرى: حياة الحيوان الكبرى ج١ ص ٢٢٤.

(٢) سمك عريض قصير مفرطح يميل ظهره إلى السواد بينما بطنه شديدة البياض، وإذا مسك أحس ماسكه برعدة فى يده، وإذا سقط فى الشبكة ارتعدت يد الصائد ـ التولسى: الشذور الذهبية ص ٤٦٩، داود الأنطاكى: تذكرة أولى الألباب ج١ ص ٣١، ابن اياس: نشق الأزهار ورقة ١٦١ ب.

(٣) تعرف عند العامة باسم الترسه ـ ابن ياس: نشق الأزهار ورقة ١٦٢ب

(٤) سمك أبيض اللون براق كالفضة، وطرف ذيله أحمر اللون، وربما بلغ وزن الكبيرة منه ثلاثة أرطال، طيب الطعم ـ أمين معلوف: معجم الحيوان ص ٨، على مبارك: الخطط التوفيقية ج١١ ص ٦٧.

(٥) وصفه الدميرى فى كتابه حياة الحيوان ج٢ ص ١٩ بأنه حيوان مائى بلا رأس ولاذنب عيناه فى كتفيه، يعيش فى الماء والهواء معا، فمه فى صدره، له ثمانى أرجل، صلب الظهر. وهذا الوصف ينطبق على ما يعرف الآن فى مصر باسم (أبو جلمبو أو الكابوريا).

(٦) له أسماء عدة منها أبو سيف، سياف البحر، وهو سمك بحرى يشبه السيف فى شكله وله منقار طويل ـ أمين معلوف: معجم الحيوان ص ٢٤٢.

(٧) اسم هذا السمك يونانى معرب، وهو سمك يعيش فى المياه العذبة، ويعرف فى مصر باسم ثعبان الماء ـ أمين معلوف: معجم الحيوان ص ١١.

(٨) سمك مخطط ـ المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٠٨

الشلبة (١) ، الشال (٢) ، الصير (٣) ، الفراخ أو القروص (٤) ، القجـاج (٥) ، القرش (٦) ، القريدس (٧) ، كلب الماء (٨) ، البيس (٩) ، النقط (١٠) .

وهذه الأسماك كانت تصاد من مياه مصر البحرية والنهرية ، وكذلك من بحيراتها الداخلية ، وأيضا من البرك التي كانت تتاخم القاهرة .

ومن النيل كانت تصاد الأسماك على مدار السنة ، غير أنه في فصل الخريف

---

(١) سمك كثير اللحم طيب الطعم لاقشر له ـ ابن إياس : نشق الأزهار ورقة ١٦١ ب .

(٢) سمك في ظهره شوكة صعبة يعطب بها من يمسه بيده ـ إبن إياس : نشق الأزهار ورقة ١٦١ ب

(٣) سمك صغير يعرف بالبساريا ـ المواعظ جـ ٢ ص ١٨٨ ، التونسي : الشذور الذهبية ص ٦٧٩

(٤) النهري منه يعرف باسم الفرخ ، أما البحري منه فيعرف باسم القاروص أو القاروص ـ أمين معلوف : معجم الحيوان ص ٣٠

(٥) سمك شبيه بالمرجان ـ أمين معلوف : معجم الحيوان ص ١٨١

(٦) جنس من الأسماك الغضروفية ، كبير الحجم متوحش ـ أمين معلوف : معجم الحيوان ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٧) إسم هذا السمك يوناني معرب ، ويعرف في الاسكندرية باسم برغوث البحر أو الجبري ـ أمين معلوف : معجم الحيوان ص ٢٢٨

(٨) سمك من فصيلة أسماك الراى ـ أمين معلوف : معجم الحيوان ص ١٣٠

(٩) سمك يشبه البوري ، فالتبس أمره على المصريين وظنوا أنه البوري ، لذلك أسموه باسم البيس ـ أمين معلوف : معجم الحيوان ص ١٤٢

(١٠) هو سمك قاروس مرقط ـ أمين معلوف : معجم الحيوان ص ١٦٣

بالذات كانت تصاد منه كميات كبيرة (١)، لأنه فى شهر توت أى سبتمبر تكبر صغار السمك، كما أن أنواعا عديدة من الأسماك النيلية تكون قد سمنت كثيرا فى شهر بابه أى أكتوبر (٢)، ولعل ذلك يرجع إلى الغذاء الوفير الذى تكون قد تغذت به خلال شهور الفيضان.

ولقد اشتهرت بعض المدن بصيد السمك النيلى، منها مدينة أسوان (٣)، والجنادل الواقعة جنوبها (٤)، وكذلك مدينة دمياط (٥).

ويبدو أن محصول صيد السمك بدمياط كان وفيرا لدرجة كبيرة جعلت ابن شاهين يقول إنه بدمياط من الأسماك ما لا يوجد فى غيره قط (٦)، ولذلك كانت دمياط تصدر من هذا السمك إلى بلاد الشام وبلاد الروم (٧)، كما أنها كانت تمون به الأسواق المصرية طازجا طريا وقديدا (٨). ولعل توفر السمك بدمياط يرجع إلى أنها كانت تصيده من النيل ومن البحر الملح (أى البحر الابيض) فى نفس الوقت.

وصيد السمك من البحر الملح كان يتركز فى أوقات معينة من السنة هى الشتاء

---

(١) المواعظ جـ ١ ص ٢٦
(٢) المواعظ جـ ١ ص ٢٧٠
(٣) ابن الوردى: خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص ٢٤
(٤) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣ ص ٢٦٨.
(٥) المواعظ جـ ١ ص ١٠٨، النويرى: نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٦٤
(٦) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ٣٥
(٧) ابن بطوطه: تحفه النظار فى غرائب الأمصار جـ ١ ص ١٧
(٨) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ٣٥

وأول الربيع ، فيحمل منه فى هذين الفصلين سمك كثير إلى الفسطاط (١) .

أما بحيرات مصر التى كان يصاد منها السمك فن أهمها بحيرة لستروه (٢) ، وبحيرة تنيس (٣) وبحيرة الاسكندرية (٤) ، وبحيرة الفيوم .

وتميزت بحيرة الفيوم بظاهرة انفردت بها ، وهى أنه كان يكثر صيد السمك بها وقت انخفاض النيل ، بينما كان يقل بها وقت فيضانه ، وسبب ذلك يرجع إلى أن النيل يمد هذه البحيرة بكميات كبيرة من المياه فى فترة فيضانه ، فيرتفع منسوب مياها خلال هذه الفترة ، فيختفى سمكها عندئذ فى أرجائها المتسعة وفى أعماق مياها الوفيرة ، ويصبح صيده قليلا تبعا لذلك . لكن فى وقت التحاريق تنخفض المياه فى هذه البحيرة فيسهل صيد سمكها عندئذ بكميات كبيرة (٥) .

---

(١) المواعظ ج١ ص ٢٤٠

(٢) هى بحيرة البرلس حاليا ـ المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٢٩ حاشيه ٢

(٣) هى بحيرة المنزلة حاليا ـ وكانت تعرف وقتئذ بإسم بحيرة تنيس نسبة لبلدة تنيس التى كانت قائمة بجزيرة داخل هذه البحيرة ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢١٨ حاشية ٣

(٤) هذه البحيرة سماها المقريزى بحيرة الاسكندرية ، بينما سماها القلقشندى بحيرة بوقير ، وحدد موقعها بين رشيد والاسكندرية .

غير أن هذه البحيرة لم تلبث أن جفت لانسداد الفتحه التى كانت تصلها بالبحر الأبيض وامتنع ما كان يصاد بها من سمك تبعا لذلك ـ المواعظ ج ١ ص ١٠٨ ، صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٣ .

(٥) الصفدى : تاريخ الفيوم وبلاده ص ١٠٢ .

ولقد تعددت وسائل وأدوات صيد السمك ، ومن بينها الصنارة (١) ، والشبكة (٢) .

وهناك ما يدل على أن بعض الشباك كانت تغرس فى مجارى الأنهار والترع فى أوقات معينه . ولقد اتبعت هذه الطريقة منذ عهود تسبق العهد المماليكى ، ويؤكد ذلك قول المقريزى أن ابن المدبر (٣) أنشأ ديوانا للمصايد ، وأنه فرض ضرائب على « مضارب الأوتار ومغارس الشباك » (٤) .

ونصب أو غرس الشباك غالبا ما يكون فى أواخر فترة الفيضان عندما يبدأ النيل فى الإنخفاض ، ففى هذه الفترة تكون عيون القناطر وأفواه الترع التى تمد الحقول بالمياه قد سدت بعد أن تكون الحقول قد حصلت على كفايتها من ماء الفيضان ، فتبدأ هذه المياه فى الإنسحاب منها وهى محملة باعداد كبيرة من الأسماك ، فتقع أعداد كبيره منها فى الشباك التى تكون قد غرست وتنشد فى طريق هذا الماء المنسحب ، وعند ئذ يخرجونه منها ويضعونه على تخاخ (٥) ، ثم

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٤٦

(٢) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٥

(٣) تولى خراج مصر عام ٢٤٨ هـ ، وظل يشغل هذا المنصب إلى أن انتزعه منه أحمد بن طولون — المواعظ ج ١ ص ٣١٤

(٤) المواعظ ج ١ ص ١٠٨ .

(٥) التخ بساط طويل طوله أكبر من عرضه ، لكن هذا الإسم شاع إطلاقه فى مصر على الحصير الذى يتخذ من البردى ونحوه — النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٦٢ حاشيه ٦

يغلمونه ويعمونه في أمطار (١) . وغالبا ما يكون هذا السمك صغيرا في طول الإصبع من أنواع متعددة كالراى والبنى والشال (٢) .

ومن بين الشباك التى كانت تستخدم لصيد السمك فى ذاك الوقت شبكة وصفها ابن منكلى بقوله أنها « شبكة طويلة طولها مائتى ذراع ، وهى لا يعمل بها إلا جماعة من الناس ، ويكون لها مركب لطيف يدور حولها ، وهذه لا ترى إلا مرة واحدة أو مرتين لا غير » (٣)

وكذلك شبكة أخرى وكهيئة الكيس لها خرطوم طويل ، يكون طولها عشرون ذراعا وأكثر ، وتعمل فى مجارى الماء » (٤)

وشبكة ثالثة تعرف باسم « الحازوقة طولها سبعون ذراعا تصلح البحر » (٥)

وشبكة رابعة ذكرها ابن منكلى باسم « الغرافة » لأن الصائد يغرف بها السمك من الماء عندما يلمحه(٦) . أما الشربينى فقد ذكرها باسم الطاره (٧) .

ولقد استخدمت أدوات أخرى لصيد السمك منها « المقبلان » ، وهو عود طويل طوله خمسة أذرع أو أكثر فى رأسه شص يطعن به الصائد السمكة عندما

---

(١) الأمطار أوانى فخاريه

(٢) نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٦٢، المواعظ جـ ١ ص ١٠٨

(٣) محمد بن منكلى : أنس الملا بوحش الفلا، مخطوط، ورقه ٧٩ أ .

(٤) محمد بن منكلى : أنس الملا بوحش الفلا ورقه ٧٩ أ

(٥) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٦) نفس المرجع السابق والصفحه .

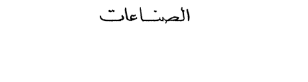
(٧) الشربينى · هز القحوف ص ٥٦

يقترب منها (١).

ومنها أيضا « الوهار » وهى سلة طويلة من العيدان الدقاق يصاد بها فى الماء الراكد فقط ، رأسها مفتوح بفتحه مستديرة متسعة ، بينما مؤخرها مفتوح بفتحة صغيرة لاتسمح إلا بدخول يد الصائد فقط . وعند الصيد بها يمسكها الصائد ويمشى بها فى الماء بهدوء جاعــلا رأسها المفتوح مغمورا فى الماء ، فإذا اقترب من السمك ألقاها عليه فيحبسه بداخلها ، وعندئذ يخرجه من الفتحه الصغيرة العليا بيده بعقبلان صغير قصير (٢) .

(١) محمد بن منكلى : أنس الملا بوحش الفلا ورقة ٨٠ ب
(٢) نفس المرجع السابق والصفحة .





الصناعات



لاشك أن صناعات مصر فى العهد المماليكى كانت من أبرز معالم حضارتها فى هذا العهد وأكثرها تألقا ، وهذه حقيقة تؤكدها لنا روايات المؤرخين والرحالة المعاصرين الذين شاهدوا هذه الصناعات وكتبوا عنها ، وكذلك الأمثلة العديدة الرائعة الباقية حتى اليوم منها والتى نشاهدها معروضة فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة وكذلك فى العديد من المتاحف الدولية الكبرى .

والواقع أن مصر فى هذا العهد كانت تعتبر أحد المراكز الرئيسية للصناعات الإسلامية فى العالم الإسلامى ، ولعل ذلك يرجع إلى العوامل الآتية :

١ ـ توفر الخبرات والكفاءات والمهارات الصناعية فى مصر ، وهى خبرات ومهارات ورثها الأبناء عن الآباء والأجداد من شيوخ الحرف والصناعات عبر الأجيال المتعاقبة ، خصوصا وأن مصر كانت مهدا للعديد من الصناعات منذ العهود الفرعونية .

٢ ـ توفر العديد من الخامات التى تلزم للصناعات فى مصر كقصب السكر والقطن والكتان والصوف والجلود والأخشاب والرخام والمحاجر .

كما أتيح لمصر ـ بما كان لها من مركز تجارى هام فى التجارة الدولية فى ذاك الوقت ـ أن تستورد من الخارج باقى المواد الخام الغير متوفرة لديها كالحديد والنحاس والأخشاب الجيدة والمواد الاخرى التى كانت تلزم لصناعاتها .

٣ ـ التنافس الدائم المستمر على السلطة الذى كان ناشبا بين أمراء المماليك دفعهم إلى التنافس مع بعضهم البعض أيضا فى الأخذ بمظاهر الفخامة والعظمة ، فتنافسوا فى تشييد القصور الفخمة ، وفى فرشها وتزيينها بأفخر الاثاث والرياش والستور والبسط ، كما تنافسوا فى اقتناء النادر من التحف والادوات ، وفى لبس

الفاخر من الثياب . ولقد ساعدتهم ثرواتهم الطائلة على أن يفعلوا ذلك (١) ، فراجت الصناعات فى هذا العهد رواجا لم تحظ به من قبل فى أى عهد من العهود التى سبقته ، وانتعش حال الصناع إلى حد كبير وزادت أرباحهم ، فأقبلوا على تطوير صناعاتهم وتحسينها وإدخال كل طريف وجديد عليها .

٤ ـ التشجيع الذى لاقاه الصناع من المماليك أغرى عددا من أساتذة الصناعات فى بعض الأقطار الإسلامية الأخرى على الهجرة إلى مصر والاستقرار بها (٢) .

---

(١) نستطيع أن نستدل على المدى الهائل الذى بلغته ثروات بعض الأمراء ، وما حوته ثرواتهم من منتجات صناعية فاخرة مما ذكره المؤرخون عن بعضهم ، ومن أمثلتهم الأمير قوصون الذى هجم العامه على قصره ونهبوا ما به ، فكان من بين ما نهبوه « الذهب المكيس والفضه كان ينيف على أربعمائه ألف دينار ، وأما الزركش والحوايص والمصبات ما بين خوانجات وأطباق فضة وذهب فإنه فوق المائة ألف دينار ، والبلور والمصاغ المعمول برسم النساء فإنه لا يحصر ، وكان هناك ثلاثة أكياس أطلس فيها جوهر ... ثمنه نحو المائه ألف دينار . وكان فى حاصلة عدة مائه وثمانين زوج بسط منها ما طوله من أربعين ذراعا إلى ثلاثين ذراعا عمل البلاد ، وستة عشر زوج من عمل الشريف بمصر ثمن كل زوج إثنا عشر ألف درهم نقرة ، منها أربعة أزواج بسط من حرير . وكان من جملة الخام نوبة خام جميعها أطلس معدنى قصب ... واتضع سعر الذهب بديار مصر عقيب هذه النهبة من دار قوصون حتى بيع المثقال بأحد عشر درهما لكثرته فى أيدى الناس بعد ما كان سعر المثقال عشرين درهما » ـ المواعظ ج ٢ ص ٧٢ .

(٢) من أمثلتهم غيبى التوريزى الإيرانى الأصل، وأحد أساتذه صناعة الخزف فى ذاك الوقت ـ زكى حسن : فنون الاسلام ص ٣٢٢

٥ـ كما أن الزعامة السياسية والعسكرية التى كانت تحظى بها مصر وقتئذ بين دول العالم الإسلامى جعلتها ملجأ ومهجراً لعدد آخر من صناع هـــذه الدول وذلك عندما تعرضت بلادهم للغزو الخارجى (١) .

ولا شك أن هـــؤلاء الصناع الذين قدموا إلى مصر من الأقطار الإسلامية الأخرى أسهموا فى تطوير صناعاتها ، وأدخلوا عليها أساليب فنية جـديدة مزجوها بالأساليب الفنية المحلية ، فأصبح هناك تنوع وخصب وغنى فى الإنتاج الصناعى المصرى المملوكى .

وكنتيجة لذلك كله أصبحت مصر ـ كما قلت من قبل ـ من أبرز المراكز الصناعية الرئيسية فى العـالم الاسلامى . وذاعت شهرتها الصناعية بين الدول الاسلامية الأخرى فبعث حكامها يطلبون صناعها ، ولم تبخل مصر بهم عليهم . ويخبرنا القلقشندى بأن اليمن كانت من بين البلاد التى إستجلبتهم واعتمدت عليهم فى صناعاتها (٢) .

ولقد ظلت مصر تحتل مركزها المرموق فى مجال الصناعات الإسلامية إلى أن أسقط السلطان سليم دولة المماليك ودخل مصر ، فعندئذ أصيبت صناعتها بنكسة خطيرة على يده . والسبب فى ذلك يرجع إلى أنه جمع عـــددا ضخما من مهرة

---

(١) من أمثلتهم صناع الكفت فى الموصل الذين فروا منها عندما تعرضت لخطر الغزو المغولى واستقروا فى الشام ومصر ، وهناك استأنفوا ممارستهم لصنعتهم فتتلمذ على يدهم فى هذا الفن الصناعى مجموعة من الصناع المصريين ـ زكى حسن : فنون الاسلام ص ٥٤٤ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٦ .

صناعها ونقلهم بالقوة إلى الآستانة لكي يقيموا له فى بلده نهضة صناعية (١)،
فكان من نتيجة ذلك أن توقفت خمسين صنعة فى القاهرة كما يقول ابن إياس (٢).

عرض لأهم الصناعات

صناعة عسل القصب

كان قصب السكر - ولا يزال إلى اليوم - من المحاصيل الزراعية الرئيسية فى مصر، ولقد سادت زراعته بأرض الصعيد على وجه الخصوص فزرعت به هناك آلاف من الافدنة.

ومن البلاد التى اشتهرت بزراعته بهجورة (٣)، وكذلك ملوى. وفى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان بملوى مزارعون يعرفون بأولاد فضيل يزرعون بأرضها فى كل عام ألفا وخمسمائة فدان من القصب (٤).

وكنتيجة لوفرة محصول قصب السكر قامت عليه صناعتان مهمتان هما صناعة عسل القصب وصناعة السكر.

ولقد أقيمت لصناعة عسل القصب العديد من المعاصر لعصر القصب فى العديد من مدن الوجهين البحرى والقبلى (٥)، كما شيدت المصانع العديدة لتحويل هذا العصير إلى عسل.

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٣ ص ١١٦ - ١١٩

(٢) نفس المرجع السابق والجزء ص ١٣٣

(٣) ياقوت الحموى: معجم البلدان ص ٧٩٧

(٤) المواعظ جـ ١ ص ٢٠٤، السلوك جـ ٢ قسم ٢ ص ٤٣١

(٥) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ٢٨، ابن بسام: الانيس الجليس ورقه ٧١ ب. ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ورقه ٢٤ أ.

ولقد أمدنا النويرى بوصف كامل لخطوات صناعة عسل القصب فى هذا العهد(١)، كما أعطانا وصفا دقيقا لأقسام مصنع عسل القصب . ومن كلامه نعرف أن مصنع عسل القصب فى العهد المماليكى كان ينقسم إلى أربعة أقسام رئيسية. القسم الأول اسمه دار القصب ، والقسم الثانى اسمه بيت النوب ، والقسم الثالث اسمه بيت الصب ، والقسم الرابع اسمه بيت الدفن .

فى القسم الأول من المصنع - أى دار القصب - تنظف عيدان القصب وتنزع أطرافها العليا ، وتقطع إلى قطع صغيرة .

تنقل قطع القصب إلى القسم الثانى - أى بيت النوب - وفى هذا القسم يتم عصرها بواسطة معصرتين على التوالى . المعصرة الأولى حجرية ، والمعصرة الثانية خشبية .

يجمع العصير المتحصل من المعصرتين ويصفى ثلاث مرات ، ويغلى غليانا شديدا إلى أن يتحول بعدها إلى سائل يعرف باسم الحلب .

ينقل الحلب الى القسم الثالث من أقسام المصنع - وهو بيت الصب - وهناك يصب فى أباليج ، وهى أقماع فخارية ضيقة الأسافل متسعة الأعالى ، فتنفذ من مسام الأباليج عصارة رقيقة ، وهذه العصارة هى أول نوع من أنواع عسل القصب وأنقاها وكان يعرف باسم العسل القطر .

تنقل الأباليج بعد ذلك إلى القسم الرابع من أقسام المصنع - وهو بيت

---

(١) النويرى : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٦٧ - ٢٧١ .

الدفن ـ وهناك تعلق فوق قواديس وترك ليقطر من مسامها ثانى نوع من أعسال القصب ، وهو الذى كان يعرف بإسم المرسل .

ولم يكن العسل القطر والعسل المرسل هما كل ما كان يستخرج من القصب من أعسال ، فمن أطراف القصب كان يستخرج نوع ثالث من العسل اسمه الحر . كما كان يستخرج أيضا من قطع القصب التى تنفصل من الميدان عند تنظيفها نوع رابع من يسمه عسل الخابية . وهـــذا النوع الأخير كان أردأ أنواع عسل القصب (١) .

صناعة السكر

صنعت مصر فى عهد المماليك كميات كبيرة من السكر ، وانتاجها منه وقتئذ كان يكفى احتياجات عامة النـــاس ، كما كان يكفى أيضا احتياجات السلاطين والأمراء رغم أن استهلاك هؤلاء منه كان استهلاكا ضخما ، وخاصة فى شهر رمضان وفى بعض المناسبات .

ومن أمثلة ذلك أنه استهلك منه فى حفل زواج الأمير آنوك بن السلطان الناصر محمد بن قلاون ثمانيةعشر ألف قنطار (٢) . كما بلغ مقدار ما استهلك منه فى حفل زفاف إبنه نفس السلطان إحدى عشرة ألف أبلوجة (٣) .

وكان من المعتاد صرف مرتبات من السكر والحلوى لخواص من الأمراء

---

(١) نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٦٧ - ٢٧١
(٢) المقريزى : نحل عبرالنحل ص ١٠
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٢٨

كل حسب مرتبته ، ولقد بلغت كمية السكر التي كانت تصرف في شهر رمضان في كل عام ألف قنطار ، ثم زادات هذه الكمية حتى بلغت في رمضان عام ٨٤٥هـ ثلاثة آلاف قنطار (١) . كما كان يعمل في هـذا الشهر لحساب الدور السلطانية ستون ألف قنطار من الحلوى .

ومن الأدلة أيضاً على انتاج مصر الضخم من السكر أن السلطان الأشرف شعبان عندما خرج للحج عام ٧٧٨هـ كانت معه « ثلاثون ألف علبة حلوى يزن ما في كل علبة ستة أرطال ، فيكون ذلك مائة ألف وثمانين ألف جميعها قد عملت من السكر النقي ... وعمل الأمراء مثل ذلك، وأما الأجناد والأعيان فلم ينحصر ما عملوه من هذا الصنف » (٢) .

ويعلق المقريزي على ذلك فيقول « فانظر عظمة بلد يعمل فيه السلطان وأمراؤه في شهر واحد ثلاثمائة ألف رطل وستين ألف رطل من السكر ولم يعز مع هذا وجود السكر ولا غلا سعره ، فقد أدركنا هذا وعلمنا صحته » (٣) .

وربما يظن أن السكر كان متوفرا لدى السلاطين والأمراء فقط ، لكن وصف المقريزي لسوق الحلاويين بالقاهرة يعطينا فكرة عن مدى توفر السكر في الأسواق لاستهلاك عامة الناس ، وعن مدى رخص ثمنه ، وعن الأنواع العديدة من الحلوى التي كانت تصنع منه وتعرض للبيع ، فقد قال عن هذا السوق أنه معد لبيع ما يتخذ من السكر حلوى ، وإنما يعرف اليوم بحلاوة متنوعة ، وكان من

---

(١) المقريزي : المواعظ جـ ٢ ص ٥
(٢) المقريزي : السلوك ، مخطوط ، مجلد ٨ ورقة ٩٥ ب
(٣) نفس المرجع السابق والمجلد والورقة .

أبهج الاسواق لما يشاهد فى الحوانيت التى بها من الأوانى وآلات النحاس الثقيلة الوزن البديعة الصنعة ذات القيم الكبيرة . ومن الحلاوات المصنعة عدة ألوان وتسمى المجمعة . وشاهدت بهذا السوق السكر ينـــادى عليه كل قنطار بمائة وسبعين درهما » (١) .

وسكر مصر كان على درجة كبيرة من الجودة حتى ذاعت شهرته على شهرة السكر الذى كان يصنع فى إقليم الأهواز (٢)، فحملته القوافل من مصر إلى بلاد عديدة حتى أنه لم يخل منه بلد إسلامى ولا جاهلى (٣) .

ومن الأدلة التى تثبت شهرة سكر مصر وأنه كان يصدر إلى بلاد عديدة ماروى من أن هولاكو عندما زحف بجيشه لاحتلال العراق عام ٦٥٠هـ صادف فى طريقه قافلة كانت فى طريقها إلى بغداد ، فنهب ما كان معها من مال ومتاع ، وكان من بينها ستمائة حمل سكر من عمل مصر (٤) .

ويبدو أن السلطان سليم العثمانى كان شغوفا بسكر مصر ، والذى يحملنا على هذا الظن أنه بعث إلى السلطان الغورى عام ٩٢٢ هـ يطلب منه كميات من سكر وحلوى مصر ، فبعث له الغورى هدية مقدارها مائة قنطار سكر وحلوى فى علب كبار (٥) .

وبعد أن فتح العثمانيون مصر بعث والى مصر من قبل العثمانيين إلى السلطان

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٩٩

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٢٧٢

(٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ١ ص ٢٧٢

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٨٣

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٤٠

سليم هدية حافلة اشتملت على الكثير من خيرات مصر ، كان من بينها أربعمائة قنطار سكر هذا خلاف الحلوى والمربى (١) .

ولقد أقيمت بمصر فى العهد المماليكى العديد من مصانع السكر التى كانت تسمى وقتئذ باسم مطابخ أو مسابك السكر .

واشتهرت بلاد عديدة بصناعته من بينها سمسطا (٢) ، والبلينا (٣) ، وأسيوط (٤) ، وأبنود (٥) ، ودمياط (٦) ، أما قفط فكان فيها وحدها أربعون مسبكا للسكر (٧) ، وبلغ من شهرة السكر الذى كان يصنع فيها أن أصبح كل سكر جيد ينسب إليها ويسمى قفطى بصرف النظر عما إذا كان قد صنع فيها أم فى غيرها من البلاد (٨) .

وفى الفسطاط كانت توجد أعداد كبيرة من مصانع السكر (٩) ، كما كانت

---

(١) نفس المرجع السابق والجزء ص ١٦٨

(٢) قرية بالصعيد باقليم البهنسى على الشاطىء الغربى للنيل ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٣ ص ١٣٨

(٣) المواعظ جـ ١ ص ٢٠٣

(٤) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ١ ص ٢٧٢

(٥) نفس المرجع السابق

(٦) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٣٥

(٧) المواعظ جـ١ ص ٢٣٠

(٨) ابن الحاج : المدخل جـ ٣ ص ١١١

(٩) ذكر ابن دقماق فى كتابه الإنتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٤٧ اسم ٥٨ مطبخا من مطابخ السكر كانت تقوم فى الفسطاط .

تقوم بها مطابخ السكر السلطانية وهي سبعة مطابخ - أى مصانع - تجاور بعضها البعض فى صف واحد (١)، كما كانت تقوم فيها دار كبيرة القند يجتمع فيها القند الذى يرسل إليها من مصانع العسل من شتى أنحاء القطر ليكرر فى مصانعها ويحول إلى سكر (٢).

وصناعة السكر تعتبر مكملة لصناعة عسل القصب، لذلك كان يراعى فى أغلب الأحيان أن تقام مصانع السكر مع مصانع عسل القصب فى مبنى واحد.

وهذه الصناعة تبدأ من حيث تنتهى آخر مرحلة من مراحل صناعة عسل القصب، أى تبدأ منذ لحظة وضع الحلب فى الأباليج، ففى الوقت الذى ينفصل فيه العسل القطر ثم العسل المرسل من الحلب يبدأ الحلب فى نفس الوقت فى التجمد داخل الأباليج ويتحول إلى قند. والقند هو أول نوع من أنواع السكر التى كانت تصنع وقتئذ وأقلها جودة، لأنه لم ينله التكرير، ولذلك كان أحمر اللون.

وعملية تكرير السكر كانت تتم بإعادة طبخ القند على النار عدة مرات، وبعد كل مرة يوضع فى أقماع ليجمد فيها بينما تنفصل الشوائب العالقة به وتسيل من ثقوب بأسفل الأقماع، فيصبح السكر المتحصل من القند أكثر نقاء من قبل (٣).

والسكر المكرر الذى كانت تنتجه مصانع مصر وقتئذ كان متعدد الأنواع، وكل نوع منها له اسم يعرف به، ومنها المكرر، والتبع، والوسيط، والنبات (٤).

---

(١) ابن دقماق : الإنتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٤١، المواعظ جـ ٢ ص ٣١.

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٣١.

(٣) داود الأنطاكى : تذكرة أولى الألباب جـ ١ ص ٢٨١

(٤) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٠٩

ومن أجود أنواع السكر التي كانت تصنع في ذلك الوقت، نوع صلب على درجة عالية من النقاء والبياض الناصع اسمه الطبرزد (١)، وهو عبارة عن سكر مكرر كان يعاد طبخه مع لبن حليب وماء ثم يترك ليجف (٢).

صناعة الزيت

صناع الزيت في العهد المماليكي كانوا يعرفون باسم المعصرانيين (٣)، ولقد صنع هؤلاء المعصرانيون أنواعا عديدة من الزيت، بعضها كان يستخدم في الطعام، والبعض الآخر منها كان يستخدم في الإضاءة (٤).

ولقد استخرج هذا الزيت من أنواع عديدة من الثمار والبذور كالزيتون

---

(١) أبو منى العطار: منهاج الدكان ودستور الأعيان ص ١٣٥، داود الأنطاكي: تذكرة أولي الألباب ج١ ص ٢٨١

وكلمة الطبرزد معربة من الكلمة الفارسية تبرزد، وتبر بالفارسية معناها فأس، أما زد أو زد فمعناها الضرب، فكأنما قصدوا أن هذا السكر قد نحت بالفأس لصلابته - ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ج٣ ص ٩٧، الجواليقي: المعرب من الكلام الأعجمي ص ١٢٨، النويري: نهاية الأرب ج١١ ص ٩٧ حاشيه ٨

(٢) الغزى: جامع فرائد الملاحة، مخطوط، ورقة ٧٢

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٣ ص ١٨٣

(٤) كان الزيت يستخدم - بالإضافة إلى الشمع - بكميات كبيرة في الإضاءة، وكان زيت الزيتون يستخدم لهذا الغرض، فإذا تعذر وجوده أو ارتفع ثمنه كان الزيت الحار يستخدم بدلا منه في الإضاءة. عبد اللطيف: وثيقة أمير آخور. ص ٢٤٤ حاشية ٨١.

والسمسم والقرطم(١) ، وبذر الكتان (٢) ، وبذر الفجل(٣) ، وبذر الحس (٤) ، وبذر اللفت .

والزيت المستخرج من بذور الفجل واللفت والكتان كان يعرف بالزيت الحار ، وكان يستخدم للإضاءة (٥) ، هذا إلى جانب أنه كان يستخدم أحيانا فى قلى بعض الأطعمة كالسمك (٦) .

ورغم أن القلقشندى قال أنه لا يصنع من الزيتون زيت البتة (٧) ، إلا أنى أعتقد أنه كانت تصنع كميات من زيت الزيتون ، ودليلنا على ذلك أن ليون

---

(١) القرطم هو حب نبات العصفر - داود الأنطاكى : تذكرة أولى الألباب ج٢ ص ٨ .

(٢) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٨٢ .

(٣) كانت مدينة سخا من بين المدن التى صنعت الزيت من بذر الفجل - المواعظ ج ١ ص ١٦٣ .

(٤) ابن بسام : نهاية الرتبة ، مخطوط ، ورقة ٢٥ ، وكانت مدينة قفط إحدى المدن التى يصنع فيها زيت الحس - المقريزى : جنى الأزهار فى الروض المعطار ، مخطوط ، ورقة ١١٠ .

(٥) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٦١ ، ٦٥ ، غير أن بعض المحتسبين فى العهد المماليكى كانوا ينهون أصحاب الدكاكين والباعة عن إشعال سروجهم ليلا بالزيت الحار لما كان ينفثه هذا الزيت من دخان كثير يضر بصحة الناس - المقريزى : السلوك ج٢ ص ١٥ .

(٦) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٨٢ .

(٧) صبح الأعشى ج٣ ص ٣٠٨ .

الإفريقي الذي زار مصر ذكر زيت الزيتون من بين مصنوعاتها وقتئذ (١) ، لكن رغم ذلك فأغلب الظن أن الكميات التي كانت تصنع منـــه كانت قليلة محدودة وذلك بتأثير من قلة محصول الزيتون الذي كان لا يزرع إلا في مناطق محدودة قليلة فقط ومنها منطقة الفيوم (٢) .

أما السيرج أو زيت السمسم فكان يصنع بكميات كبيرة لوفرة ما كانت تنتجه أرض مصر من محصول السمسم ، وأيضاً لأن الضرورة كانت تدعو إلى ذلك فالسيرج كان يدخل في صناعة كثير من حلوى وطبائخ وأطعمة هـــذا العهد (٣) .

وصناعة السيرج كانت تبدأ بغسل السمسم ، ثم يحمص بعد ذلك ، وبعد تحميصه يدق حتى تنفصل قشرته عنه ، ثم يطحن بعد ذلك (٤) . وبعد طحنه يوضع في معاجن حيث يقوم عدة رجال بعجنه بالدهس بالأرجل لاستخلاص الزيت منه . وكان يشترط على الرجال الذين يقومون بهذه المهمة أن يغسل الواحد منهم أرجله ويحكها بالحكة قبل دخوله إلى داخل المعجن ، وأن تكون ثيابه ضيقة الأكمام لاحتمال أن يعرق فيقطر من عرقه شيء ، وأن يكون ملثماً لاحتمال

---

(١) Léon L'Africain : Déscription De L'AFrique, huitiem partie, p 531

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ص ١٧٦ .

(٣) ارجع إلى مخطوط وصلة الحبيب في وصف الطيبات والطيب ومخطوط كنز الفوائد في تنويع الموائد ولاحظ كثرة إستخدام السيرج في طبائخ وحلوى هذا العهد .

(٤) ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ص ٢٢٧ .

أن يقع شيء من لعابه في عجينة السيرج أثناء كلامه (١) .

طحن الغلال وصناعة الخبز

أ — المطاحن

المطاحن التي كانت تستخدم في العهد المماليكي لطحن الغلال كانت نوعين : مطاحن خاصة ، ومطاحن عامة : والمطاحن الخاصة هي المطاحن التي كان يمتلكها الموسرون والأغنياء في بيوتهم لطحن غلالهم ، وهي طواحين صغيرة يديرها عبيديهم وجواريهم (٢) .

كما كان من عادة أهل القرى أن يشتركوا مع بعضهم البعض في تكاليف إقامة طاحون يخصهم جميعا ، وهذا الطاحون كان يقام في دار واحد منهم أو في مكان ما من القرية يتفقون عليه . وكنتيجة لمساهمتهم جميعا في تكاليف إقامة هذا الطاحون كان لكل واحد منهم الحق في استخدامه بدون مقابل لطحن غلاله ، « فإن كان عند الرجل منهم طحين يأخذ ثورة ويعلقه ويطحن عليه ... » (٣) ، وهذا النوع من المطاحن كان يعتبر أيضا في حكم المطاحن الخاصة .

أما المطاحن العامة فهي المطاحن التي كان يمتلكها طحانون محترفون مهنتهم طحن الغلال لمن يرغب من الناس نظير أجر ، وغالبا ما تواجد هذا النوع في المدن خاصة في شمال الوجه البحري (٤) .

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة .
(٢) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ١١٢ .
(٣) الشربيني : هز القحوف ص ١٦١ .
(٤) نفس المرجع السابق والصفحة .

ونظرا للمركز التجارى والصناعى الهام الذى كانت تتمتع به الفسطاط لذلك فقد أقيم فيها عدد كبير من طواحين الغلال ، وما يذكر أنه كان بها خط كامل للطحانين به صفان من طواحين متلاصقة بجوار بعضها البعض حتى أن المار بين هذين الصفين كان لا يسمع حديث رفيقه لقوة دوى الطواحين أثناء دورانها (١)

وكان للسلطان طواحين سلطانية تتبعه ، وهذه الطواحين كانت تقوم فى منطقة الصناعة بمصر (٢) ، وقدر عددها بعشرة طواحين . وكان يخرج منها فى كل يوم نحو خمسين تليسا من الدقيق (٣) .

والطواحين العامة كان أغلبها يدار بالخيول (٤) ، غير أن الحكومة كانت تشدد فى أن لا تكون خيول هذه الطواحين من الخيول السليمة (٥) ، وكان هدفها من ذلك هو توفير الخيول الممتازة السليمة لفرسان المماليك .

وعلى الرغم من أن خيول الطواحين كانت من سلالات غير ممتازة إلا أن المماليك كثيرا ما أغاروا على الطواحين وصادروها ، وذلك فى بعض الحالات الملحة التى كانوا يحتاجون فيها إلى الخيول لتجهيز جيوشهم لقتال عدو ، أو فى حالات نشوب قتال بين بعضهم البعض ، وكثيرا ما أدى مثل هذا العمل إلى توقف

---

(١) المواعظ جـ ١ ص ٣٤٧

(٢) هى منطقة صناعة سفن الأسطول بساحل الفسطاط - المواعظ جـ ٢ ص ١٩٧

(٣) صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٣

والتليس كيس يستعمل لتعبئة الغلال Dozy : Supp. Dict. Ar

(٤) الشربينى : هز القحوف ص ١٦١

(٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ٩ جـ ١ ص ٢٣٧ - ابن حجر العسقلانى : إنباء الغمر ، مخطوط ، جـ ١ ورقة ٣٠٩

الطواحين عن العمل، وبالتالى إلى حدوث أزمات خطيرة فى الدقيق والخبز، ومن أمثلة ذلك أنه فى عام ٧٩١ هـ هاجم المماليك الطواحين ووضعوا أيديهم على ما بها من خيول، فكان من نتيجة ذلك أن «غلا الدقيق وأكل الناس بعضهم بعضاً»، كما يقول ابن إياس (١).

ولم تعرف مصر حتى عام ٧٨٤ هـ سوى الخيل كوسيلة لإدارة الطواحين، لكن فى هذا العام استحدث الأمير جركس الخليلى (٢) طريقة جديدة لإدارة الطواحين تعتمد على قوة إندفاع الماء.

ولقد أقام هذا الأمير طاحونا فى مركب أوقفها عند مقياس النيل بالقاهرة، فاستمدت هذه الطاحونة قوتها المحركة من قوة إندفاع مياة النيل وأصبحت «تطحن الدقيق من غير تعب ولا كلفة» (٣)

ويبدو ان استخدام قوة اندفاع المياة كقوة محركة للطواحين كان أمرا غريبا وجديدا على المجتمع المصرى وقتئذ فاندفع الناس من كل جهة لرؤيتها، وأعجبوا بها حتى قال الأدباء فيها شعرا كثيرا (٤)، كما استأجرها منه بعض الطحانين (٥).

لكن رغم ذلك فيبدو أن الطواحين التى تدور بقوة إندفاع الماء لم يشع

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ٢٨٣

(٢) هو أمير آخـــور السلطان الظاهر برقوق، أى الأمير المشرف على إسطبلاته ـ المواعظ جـ ٢، ص ٩٤

(٣) ابن اياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٦٠

(٤) المقريزى: السلوك، مخطوط، مجلد ٨ ورقة ١٩٦ أ

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر، مخطوط، جـ ١ ورقة ١٨١

استخدامها فى مصر بعد ذلك ، والذى يدعونا إلى هذا القول هو أننا لا نجد لها أى ذكر فى مصادر العهد المماليكى اللهم إلا فى عام ٨٨٠ هـ ، إذ أنشأ أحد الأمراء فى هذا العام ضيعة بالفيوم ، وجعل بها طاحونة تدور بالماء ، فتوجه السلطان قايتباى لمشاهدتها (١) ونفهم من توجه السلطان قايتباى لمشاهدتها أن استخدام الماء لإدارة الطواحين ظل أمرا غريبا وطريفا يستحق المشاهدة حتى أواخر عهد المماليك فى مصر ، رغم أن استخدام قوة جريان الماء لإدارة الطواحين كان أمرا معروفا وشائعا فى بلاد عديدة من العالم الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى ، حتى أن الناس فى هذه البلاد كانوا لا يستخدمون الدواب لادارة طواحينهم إلا فى الجهات التى ليست فيها أنهار (٢) .

وعلى العموم ، كانت الطواحين المستخدمة فى العهد المماليكى عبارة عن رحاة كبيرة ذات أقراص حجرية ضخمة ، وبعض الطواحين الكبيرة كانت تشتمل على سبعة أقراص منها تعمل مع بعضها البعض فى وقت واحد (٣) ، وأغلب الظن أنه كان يخصص للخيول التى تديرها مدارات سفليه لصيانة الدقيق من القاذورات التى قد تحدثها الخيول إذا ما تحركت فى مدارات علويه بالقرب منه ، والذى يدعونا إلى هذا الظن هو أن الطواحين ذات المدارات السفلية كانت معروفة فى مصر فى العهد الفاطمى خاصة طواحين الخلفاء الفاطميين التى وصفها القلقشندى فقال أنها طواحين معلقة (٤) .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ١٦٣

(٢) Adam Mez : The Rainaissauce OF ISLAM, P. 466

(٣) المواعظ جـ ١ ص ٣٤٧

(٤) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٦

ب ــ الخبز

الخبز فى العهد المماليكى كان يصنع أساسا من دقيق الحنطة ، لكن المقريزى لم يكن راضيا عن نوعية هذا الخبز وجودته فقال عنه (١) أنه « متى لبث يوما بليلة لايؤكل ، وإن أكل لم يوجد له لذاذة ولا تماسك لبعضه ببعض ، ولا يوجد فيه علو كة ، ولكنه يتكرج (٢) فى الزمان اليسير » .

لكن رغم ذلك فقد صنعت أنواع ممتازة من الخبز ، أجودها كان يعرف باسم الخبز الحوارى ، وهو خبز كان يصنع من الدقيق الحوارى ، أى الدقيق المحكم النخل الشديد البياض (٣) .

ومن أنواع الخبز الجيد أيضا خبز كان يسمى خبز العلامة (٤) .

أما أنواعه الرديئة فمنها نوع كان يعرف باسم الخشكار (٥) ، وهو خبز كان يصنع من الدقيق الغير المنخول ، والقمح لم تغسل حنطته قبل طحنها (٦) .

وفى الفترات التى كانت ترتفع فيها أسعار الحنطه كانت العامة من الناس تضطر إلى صناعة الخبز من دقيق الذرة ، لكنهم كانوا يضيقون بمثل هذا النوع من الخبز ،

(١) المواعظ جـ ١ ص ٤٤

(٢) أى يفسد وتعلوه خضرة ــ محيط المحيط

(٣) ابن بسام : نهاية الرتبة ، مخطوط ، ورقه ١٤ ــ المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٩

(٤) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٢٧١

(٥) ابن بسام : نهاية الرتبة ، مخطوط ، ورقة ١٤

(٦) داود الأنطاكى : تذكرة أولى الألباب جـ ١ ص ٢١٧

وعبروا عن ضيقهم هذا بمختلف أنواع التعبير ومنها الرقص والإنشاد ، ففى غلاء عام ٨٩٢ هـ عبر الناس عن ضيقهم بهذا الخبز برقصه كانوا يرقصونها وهم ينشدون

زوجهى دى المسخرة .·. يطعمنى خبز الذرة (٢)

ولم يقف الأمر فى حالات الغلاء عند خبز الذرة فقط بل كان الخبز يصنع أيضا من دقيق الحمص والفول والشعير ، بل أيضا من النخال (١) .

ومن أنواع الخبز التى صنعت فى العهد المماليكى أيضا نوع كان يعرف باسم الكماج (٣) ، وهو خبز شديد البياض يعجن بغير خميرة ، ويخبز على الرماد الساخن (٤) .

وأيضا نوع من الخبز الجاف كان يعرف باسم البشماط أو البقسماط ، وكان الجيش المماليكى يمون به عند التجهيز للحرب ، كما كانت تخزن منه كميات كبيرة فى القلاع ليقتات بها الجند المتحصنون داخلها إذا ما حوصروا من العدو . كما كانت تخزن منه كميات بمنازل الحج التى تقوم فى الطريق بين مصر ومكه ، خصوصا عندما يشرع أحد السلاطين فى التجهز للحج (٥) .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٤١

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٢٩ - بدر الدين العينى : السيف المهند ص ٢٦٧

(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ٩ جـ ٢ ص ٤٢٨ - المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٩٦

(٤) محيط المحيط ، Dozy : Supp. Dict. Ar

(٥) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٨١ حاشيه ٢ ، السلوك ، مخطوط

ومن أنواع الخبز الجاف أيضا التي شاع صنعها وقتئذ خبز كان يصنع من جريش الحنطة (١) ثم يترك ليجف ويسمونه كعكا ، وكان أكثر أكل الناس من هذا الخبز على وجه الخصوص طوال العام (٢) .

وبالاضافة إلى ما ذكرنا فقد كان يصنع خبز اسمه الجردق ، وهو خبز غليظ (٣) وصناعة كانوا يعرفون باسم الجردقانيين ، وكانوا يضيفون إلى عجينته شيئا من النطروف أو الكمون الأبيض (٤) .

مجلد ٨ ورقة ١٩٥ - ابن إياس : بدائع الزهور ج٢ ص ٣١٩ ، ج٤ ص ٢٦٣

ولقد ذكر المقريزي هذا الخبز باسم البشماط ، بينما ذكره ابن إياس باسم البقسماط ، والواقع أنه لا تعارض في هذا ، فالبشماط لغويا هو البقسماط - محيط المحيط

(١) أى الحنطة التي لم ينعم دقها - محيط المحيط

(٢) المواعظ ج ١ ص ٤٤ - وكلمة الكعك كلمة مصرية معناها الخبز الجاف ، الجو اليقي : المعرب من الكلام الأعجمي ص ٢٩٧

وبسبب قدرة هذا النوع من الخبز على البقاء مدة طويلة لذلك كان يزود به رجال الاسطول في العهد الفاطمي . المقريزي : المواعظ ج ١ ص ٦٥ - كما أن أهل تنيس كانوا يصنعونه ويدخرونه ليأكلوا منه في فترة الشتاء ، وكانوا يسمونه باسم الخبز الجريش ،

ابن بسام : الأنيس الجليس ، مخطوط ورقة ١٧٤ ا ،

(٣) الجردق أو الجرذق تعريب الكلمة الفارسية كرده ومعناها الخبز الغليظ ، الجو اليقي : المعرب من الكلام الأعجمي ص ٩٥ ، ١١٥

(٤) ابن بسام : نهاية الرتبة ، مخطوط ، ورقة

والنطرون صنف من أصناف مادة البورق وكان يؤتى به من الواحات ، وهو صنفان : أحمر وأبيض ، ويشبه في شكله الملح المعـــدني ، ومذاقه بين الملوحة والحموضة . ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية ج ١ ص ١٢٥

ولقد حددت كتب الحسبه الطريقة المثلى التى كان يجب على الخبازين والعجانين إتباعها وقتئذ، ومنها أن لا يعجن العجان بقدميه ولا بركبتيه ولا بمرفقيه لأنه ربما قطر فى العجين شيء من عرق إبطيه أو بدنه، وأن يرتدى أثناء عمله ماعبه(١) أو بشتا (٢) مقطوع الاكمام، وأن يتلثم أيضا لانه ربما عطس أو تكلم فيقطر شيء من بصاقة أو مخاطه فى العجين. وأن يشد عصابة بيضاء على جبينه لكى لا يقطر من عرق جبينه شيء فيه، وأن يحلق شعر ذراعيه لئلا يسقط شيء منه فيه. وإذا عجن فى النهار فيجب عليه أن يوقف بجواره من يحمل مذبة ليطرد بها الذباب عن العجين (٣).

ومن بين الوسائل التى كانت تتبع وقتئذ لتجميل وجه الخبز وتطييب طعمه فى نفس الوقت أنه كان يرش على قرص العجين قبل خبزها الكمون الابيض والأسود والشونيز(٤)

---

(١) ثوب من غير كم. ابن سيده : المخصص ج ١٣ ص ١٦

(٢) رداء من الصوف بلونه الطبيعى يلبسه الفلاحون والنساء والمجانون
Dozy : Supp. Dict. Ar

(٣) إبن بسام : نهاية الرتبة، مخطوط، ورقة ١٣ - ابن الأخوة : معالم القربة ص ٩١، الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ٢٢

(٤) الشونيز نبات له زهر لونه أصفر يميل إلى البياض، يخلف أقماعا بها بذر أسود حريف طيب الرائحة لذلك كان يخلط بالعجين. العمرى : مسالك الابصار، مخطوط، ورقة ٢١٥ - داود الانطاكى : تذكرة أولى الألباب ص ٤٢٨

ولقد عرف بذر الشونيز بأسماء أخرى منها الحبة السوداء، وحبه البركة، والكمون الأسود. أحمد عيسى : معجم أسماء النباتات ص ١٢٥

Bedevian : illustrated Polyglottic Dictionary of Plants Names; p. 415.

والقرطم والمصطكى(١) وعرق الكافور(٢) والسمسم والياسون وغير ذلك من الأبازير(٣).

غير أن بعض الخبازين كانوا يلجأون إلى وسائل أخرى لتحسين وجه الخبز رغم أن هذه الوسائل كانت ممنوعة لما تلحقه بصحة الناس من أضرار، فبعضهم كان يخلط الدقيق عند عجنه بالكركم(٤)، كما كان بعضهم يمسح وجه العجين قبل خبزه بالبورق(٥).

صناعة الخمـــور

كانت لصناعة الخمور أهميـة ملحوظة بين صنـاعات مصر في عهد المماليك

(١) اسم المصطكى معرب من الكلمة اليونانية مصطيخا، والمصطكى كانت تجلب من جزيرة رودس، وهي نوعان: نوع ناعم حلو طيب الرائحة فيه لدونة، ونوع أسود يميل إلى المرارة. والنوع الأول يخرج من شجرته كصمغ بعد تشريطها. أما الثاني فكان يستخلص بالطبخ من الأعواد الطرية الغضة لشجرته وورقتها. محمد بن سپاهي: أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، مخطوط ورقة٧١٦– القلقشندي: صبح الأعشى جـ٥ ص٢٧٢ - داود الأنطاكي: تذكرة أولى الألباب جـ٢ ص ٩٢.

(٢) عرق الكافور هو نبات الزرنباد، ويسمى كافور الكعك، وعرق الطيب. وهو عطري الرائحة، وشجرته تنبت بالهنـــد. داود الأنطاكي: تذكرة أولى الألباب جـ١ ص ٢٤٥ - ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية جـ٢ ص١٥٧، ١٥٨ - أحمد عيسى: معجم أسماء النباتات ص ١٩٢ Dedevian : Op. cit

(٣) ابن بسام: نهاية الرتبة ورقة ١٤، الشيزري: نهاية الرتبة ص ٢٣. والأبازير هي التوابل. الجواليقي: المعرب من الكلام الأعجمي ص ١٩.

(٤) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٢٤

(٥) ابن الحاج: المدخل جـ٢ ص ١١٩

والسبب فى ذلك يرجع إلى شرب الخمر كان متفشيا وقتئذ بين كثير من سلاطين المماليك وأمرائهم ، وكذلك بين الكثيرين من عامة الناس .

وسلاطين المماليك وأمراؤهم كانوا قدوة سيئة للشعب فى هـــذا المضمار ، فبعضهم كان شغوفا بشرب الخمر كالسلطان الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون الذى قال عنه أبو المحاسن أنه كان عكوفا « على معاقرة الخمور وسمع الأغانى »(١)

ومنهم أيضا السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن حاجى الذى استمر رغم خلعه من السلطة والحجر عليه « مقيما فى غبوق وصبوح لا يفيق من السكر ساعة »(٢) .

ومنهم أيضا السلطان الظاهر برقوق الذى جعل شرب الخمر مع الأمراء من شعائر المملكة ، فخصص الأربعاء من كل أسبوع لينزل فيه من القلعة إلى الميدان الذى بأسفلها ، وهناك يجتمع بالأمراء ويشرب معهم الخمر(٣) .

واقتدى أمراء المماليك بسلاطينهم فى الشغف بشرب الخمر حتى تجاهر بعضهم بشربها أمام الناس(٤) . كما اعتادوا أن يتهادوا بها فى أفراحهم(٥) ، وإذا أراد

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ١٤٠ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢١٢ - والغبوق هو الشراب بالعشى ، أما الصبوح فهو خلاف ذلك ، وهو كل ما أكل أو شرب غدوة ، والصبوح أيضا هو كل ما أصبح عندهم من شراب فشرب - لسان العرب .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٦٩ - المقـــريزى : السلوك ، مخطوط مجلد ١ ورقة ٢٤٨ أ .

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٥٠٠ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ١٥٢ .

الواحد منهم أن يأكل شيئاً فانه يغمسه فى الخمر قبل أن يأكله ليفتح شهيته(١) .

ولقد كانت الخمر إحدى الوسائل التى اعتمد عليها بعض السلاطين لاسترضاء الجند واستمالتهم ، وإذا أراد الواحـــد منهم إستمالة فرقة من فرقهم فانه يغدق عليها المنح والعطايا ومن بينها كميات كبيرة من الخمر . وفى الحالات التى لم تكن تتوفر فيها هذه الكميات لدى السلطان فإنه يشرع على الفور فى جمعها والحصول عليها بالقسر والقوة من أهل الذمة ، ومن أمثلة ذلك أنه فى عام ٨١٩ هـ فى عهد السلطان المؤيد هاجم والى القاهرة بيوت اليهود والنصارى وصادر جرار الخمر التى وجدها عندهم وأعطاها للماليك الرماحة(٢) .

وصناعة الخمر كانت مصدراً من مصادر إيرادات الدولة ، فبعض السلاطين كانوا يأمرون بتضمين الخمر(٣) ، ولكن ذلك أدى إلى تفشى شربها علانية « وكثرت السكارى وزال الاعتراض عليهم »(٤) ، ولقد لاحظ ذلك كثير من الفرنج الذين زاروا مصر آنذاك فقالوا أن كثيراً من أهل البلاد يتجاهرون

---

(١) Lane Poole : The Art of the Saracens in Egypt. P. 34

(٢) المقريزى : السلوك ، مخطوط ، مجلد ١ ورقة ٣٠٢ .

(٣) التضمين هو أن يلتزم شخص الحكومة بدفع المال المقرر على شىء معين وفى نظير ذلك تسمح له الحكومة بأن يتولى بنفسه جباية هذا المال من يجب عليهم أداؤه من الناس ، فإذا زاد المال الذى يجمعه على المال الذى يدفعه للحكومة فالزيادة له ، وإذا نقص فعليه هذا النقص .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ قسم ٣ ص ٦٦٨ .

Tafur : Travels And Adventures, P. 70.
Schefer : Le Voyage D'Outremer De Jean Thenaud, P. 47.

بشرب الخمر(١) .

وصناعة الخمر بالاسكندرية كانت من اسباب انتاشها الاقتصادى ، وذلك لكثرة من كان يصنعها فيها من المصريين والفرنج ، وأيضا لكثرة الأرباح التى كانت تدرها هذه الصناعه عليهم ، هذا فضلا عن الدخل الكبير الذى كان يعود على خزينة الدولة من حصيلة المكوس التى كانت تفرضها الدولة عليهم وتجنيها منهم والتى كانت تقدر فى العام الواحد بأربعين ألف دينار

وإزاء هذا الوضع كان من العسير على حكومة المماليك أن تمنع صناعة الخمر فى هذه المدينة فى المرات التى حاولت فيها ذلك ، ويتضح ذلك بجلاء عندما شن نائب السلطنة الامير آل ملك حملة شديدة على الفساد والخمر عام ٧٤٤ هـ ، فلقد نجحت حملته هذه فى القاهرة بينما فشلت فى الاسكندرية ، ولقد قيل آنذاك أنه « متى منع الفرنج من عمل الخمر فسد حال الاسكندرية »(٢) .

ولقد كان لتفشى البغاء وإباحته رسميا من أسباب تفشى شرب الخمر بين الناس فالمغنيات والبغايا كن يمارسن مهنتهن بموافقة الحكومة بشرط أن يدفعن نظير ذلك ضريبة اسمها ضمان المغانى ، فكثر عددهن نتيجة لذلك ، وخصصت لهن الحكومة حارات فى بلاد الصعيد والوجه البحرى يعرضن فيها أنفسهن بالأجر «فيكون هناك من التجاهر بالزنا وشرب الخمر مايشنع ذكره » .

وبالقرب من القاهرة كانت توجد عدة متنزهات اعتاد الناس شرب الخمر فيها ، ومن بينها حنية الامراء التى كانت على بعد فرسخ القـــــاهرة فى طريق

---

(١) المقريزى : السلوك ، مخطوط ، مجلد ٢ ورقة ٥٣٨ أ .

(٢) نفس المرجع السابق مجلد ٨ ورقة ٩٣ أ

الأسكندرية، والتى إتخذها الناس منزل لهو ولعب وقصف وطرب، وكان يتوجهون إليها للتنزة أيام الفيضان وفى فصل الربيع لاسيما فى يومى الجمعة والآحد (١)

كما كانت هناك مناسبات وأعياد معينة يكثر فيها شرب الخمر ، ومن أبرزها عيد الشهيد الذى كان يحتفل به فى الثامن من الشهر القبطى بشنس ، وهو عيد كان كان يحتفل به القبط احتفالا كبيرا لانهم كانوا يعتقدون أن النيل لا يفيض فى كل عام إلا إذا ألقوا فى يوم هـذا العيد تابوتا خشبيا يحتوى على إصبع من أصابع أسلافهم الموتى . وفى هذا العيد كانت أفواج القبط القادمة من الوجه القبلى والبحرى والقاهرة والفسطاط تجتمع كلها فى ناحية شبرا بضواحى القاهرة ، ولم يكن الاحتفال يقتصر عليهم فقط بل كان يشترك معهم فيه عامة أهل مصر أغنياء وصعاليك ، فينصبون الخيام هناك على شاطىء النيل ، وفى الجزر الذى تتوسط مجراه ، وينطلق الجميع فى لهو ومرح ومجون ، ويتجاهرون هناك بالمعاصى والفسوق ، ويسرفون فى شرب الخمر حتى أنه قدر ما كان يباع من الخمر فى هذا اليوم بما ينيف على مائة ألف درهم ، وقيل أن أحد النصارى باع خمرا فى هذا العيد بما يقدر ثمنه بائنى عشر ألف درهم . كذلك كان أهل شبرا وفلاحوها يعتمدون اعتمادا كبيرا على الأرباح التى كانت تأتيهم من بيع الخمر فى هذا العيد لسداد ما عليهم من خراج الدولة (٢) .

والواقع أن أغلب صناع الخمر فى عهد المماليك كانوا من أهل الذمة النصارى واليهود ، كما اشترك معهم فى صنعها جماعة من أسرى الأرمن الذين جلبهم الناصر محمد بن قلاوون من بلاد الأرمن ، وأنزل عددا كبيرا منهم مع نسائهم وأولادهم

(١) المواعظ ج٢ ص ١٣٠

(٢) المواعظ ج١ ص ٦٩ ، السلوك ج١ قسم ٣ ص٩٤١ ، السلوك مخطوط مجلد ٧ ورقة ١٧ ب ، ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٧

في خزانة البنود (١) .

وبمضى الزمن توالد هؤلاء الأسرى وكثر عددهم بهذه الخزانة وأصبحت لهم بها سطوة وقوة حتى أنهم صنعوا الخمر فيها وتظاهروا فيها بالزنا والمحرمات حتى أصبحت هذه الخزانة مكانا لإجتماع الفساق يبيتون فيها يشربون الخمر ويباشرون الفواجر والأحداث . لكن لما استفحل أمرهم وفسادهم وكثرت شكوى الناس منهم إضطر السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يهدم هذه الخزانة وأن يشتتهم ، فأسكن بعضهم قلعة الجبل وأسكن بعضهم الآخر مدينة مصر (٢) ، لكن رغم ذلك فالذين أسكنوا منهم مدينة مصر ظلوا يمارسون بها صناعة الخمر وبيعها (٣) .

وصناعة الخمر من العنب كانت تمر وقتئذ بمرحلتين : المرحلة الأولى يتم فيها إستخلاص عصير العنب إما مرسا بالأيدي أو دهسا بالأرجل (٤) . أما المرحلة

(١) كانت هذه الخزانة في أول أمرها من جملة خزائن القصر الفاطمي الشرقي الكبير ، وكان يصنع فيها السلاح ثم احترقت في عام ٤٦١ هـ ، فحولت بعد احتراقها إلى سجن يسجن فيه الأمراء والأعيان وبقيت هكذا إلى نهاية الدولة الفاطمية ، ثم ظلت تستخدم كسجن في العهد الأيوبي والعهد المماليكي حتى هدمها الأمير آل ملك الجوكندار نائب السلطنة في عام ٧٢٤ هـ وشيد في مكانها الدور والمباني . المقريزي : المواعظ جـ ٢ ص ١٨٨ .

(٢) المقريزي : المواعظ جـ ١ ص ٤٥٥ ، السلوك مخطوط مجلد ٥ ورقة ٥٣٥ ب ، ٥٣٦ أ . ومدينة مصر كانت هي المنطقة التي قامت عليها الفسطاط والعسكر والقطائع . المقريزي : المواعظ جـ ١ ص ٣٦٠ .

(٣) ابن حجر : انباء الغمر مخطوط جـ ١ ص ٣٦٠ .

(٤) النويري : نهاية الأرب جـ ٤ ص ١١٢ .

الثانية ففيها يتم تخمير هذا العصير وتعتيقه فى جرار فخارية كبيرة الحجم تسع الواحدة منها قنطاراً (١) ، وتوضع هذه الجرار فى الشمس زمناً حتى ينضج العصير بداخلها من غير أن تمسه نار ، ثم توضع بعدها زمناً آخراً فى مكان ظليل محجوب عن الهواء (٢) ، ثم تطمر بعد ذلك فى باطن الأرض لتعتيق الخمر بها (٣) .

أما الأنبذة (٤) فكانت تصنع منها وتشتد أنواع عديدة ، وكل نوع منها كان يصنع من مواد معينة ، وبطريقة معينة . ومن بين هذه الأنبذة نوع كان يصنع من منقوع الزبيب بعد طبخه بالنار وعصره وتصفيته ثم يخمر فى جرار مقيرة لمدة ستة أشهر تقريباً (٥) .

ومنها نوع اسمه الشمسى ، وكان يصنع فى زمن الصيف حين تشتد حرارة

---

(١) ابن حجر : إنباء الغمر مخطوط جـ٢ ورقة ٥٩٣ .

(٢) داود الأنطاكى : تذكرة أولى الألباب جـ١ ص ٢٨١ .

(٣) بعض سلاطين المماليك كالسلطان الظاهر بيبرس والسلطان بيبرس الجاشنكير ، والسلطان المنصور قلاوون ، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والسلطان الصالح إسماعيل ، والسلطان برسباى والسلطان جقمق ، حاربوا الخمور وصناعها ، فكان رجالهم يبحثون عن مطامير الخمر ، فإذا عثروا على إحداها أخرجوا ما بها من جرار الخمر وكسروها . المقريزى : السلوك جـ٢ ص ٤٠٥٣ .

(٤) النبيذ لفظ عربى بمعنى منبوذ أى متروك وذلك بسبب تركه فى الجرار لمدة طويلة . داود الأنطاكى : تذكرة أولى الألباب جـ٢ ص ١٤٨ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٣ ص ٤٠٣ ، حسن الجبرتى : الأقوال المعربة ص ٤ .

(٥) داود الأنطاكى : تذكرة أولى الألباب جـ٢ ص ١٤٩ .

الشمس ، فتعمل هذه الحرارة على سرعة تخمره (١) .

ومنها نوع اسمه الشيرازى ، كان يراعى فى صناعته أن يكون الماء الداخل فى صناعته من ماء النيل فى أكثر أوقاته صفاء ، لذلك كان يصنع زمن الشتاء فى شهر طوبة على وجه الخصوص (٢) .

ومنها نوع إسمه التمرى كان يصنع من التمر (٣) . ونوع إسمه نبيذ العسل كان يصنع من عسل النحل وماء النيل الكدر وقت فيضانه ، والغريب فى هذا النبيذ أنه إذا عمل من ماء النيل الصافى لا تجود صناعته ، بينما لا تزيده تلك الكدارة إلا صفاء وحسناً » (٤) .

ونبيذ آخر اسمه المزر كان يصنع من الحنطة (٥) ، وشرب المزر كان شائعاً عند عامة سكان القاهرة ، لذلك كانت تستهلك فى صناعته كميات كبيرة من القمح ، وهذا كان يؤثر أحيانا على سعره (٦) .

(١) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٤٤ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ ١ ص ٢١٢ .
(٣) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٤٤ .
(٤) ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغـذية جـ ٢ ص ٧٣ ، أبو بكر الرازى : كتاب منافع الأغذية ص ١٧ ، ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٦٦ .
(٥) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٤٤ ، البغدادى : الإفادة والإعتبار ص ٤٣ .
(٦) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٣٦٨ .

أما البوزا فكانت نبيذا يصنع من الدقيق (١) ، وكان إقبال المماليك عليها كبيرا حتى أنه عندما احتفل بزفاف سبط السلطان إينال فى ذى القعدة عام ٨٦٠ هـ كانت البوزا ، كثيرة من دون المشارب ، (٢) . كما أنه استهلك لصناعتها فى سماط أقامه السلطان برقوق عام ٧٩٩ هـ مائة أردب دقيق ، وأضيف إليها عشرة قناطير حشيش عجنت ومزجت بها (٣) . ولعل البوزا المعجونة بالحشيش هى التى أشار إليها ابن إياس وأسماها الحز المعجون (٤) .

ومن بين الأنبذة التى شاع شربها عند المماليك بوجه خاص نبيذ اسمه القمز (٥) كان يصنع من لبن الخيل المختمر ، وهو من الأنبذه التى كان المغول شغوفين بشربها إلى حد كبير (٦) ، ولا غرابه فى ذلك فحياة المغول كانت ترتبط بالخيول إلى حد كبير ، فالواحد منهم منذ صغره يشب ويترعرع على ظهرها ، ويأكل من لحمها ، ومن لبنها يصنع خمره ونبيذه (٧) .

---

(١) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ، مجلد ٢٧ ورقة ٢٧ - أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٨٠ ، ابن إياس - بدائع الزهور جـ ١ ص ٣٠٩ .

(٢) أبو المحاسن - حوادث الزهور جـ ٢ ص ٢٧٩ .

(٣) ابن حجر - إنباء الغمر ، مخطوط ، ورقة ٤٣٦ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٠٣ .

(٥) ابن بطوطه : تحفه النظار جـ ١ ص ٢١٦ - هذا ولقد ذكر ابن الفرات هذا النبيذ باسم قراقمز . ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ٩ جـ ١ ص ٥١

(٦) ابن بطوطه : نفس المرجع السابق والصفحة

(٧) سعد زغلول : الترك والمجتمعات التركية عند الكتاب العرب وغيرهم ، مقال بمجله كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد العاشر سنة ١٩٥٦

D'Ohsson : Histoire Des Mongols, I, P. 15
Howorth ; History of The Mongols, I. P. 44

ولقد عرف عن بعض السلاطين الشغف بشرب هذا النوع من الأنبذة ، ومنهم السلطان الظاهر بيبرس[١] . أما السلطان الظاهر برقوق فقد جعل شرب القمز من جملة شعائر المملكة ، وخصص يوم الأربعاء من كل أسبوع لينزل فيه من القلعة إلى الميدان الذى يتقدمها ، وهناك يجتمع الامراء بحضرته ، ويجلسون حسب مراتبهم ، ثم يدور السقاه عليهم بهذا النبيذ[٢] .

ومن الأنبذة المماليكية أيضا التمربغاوى ، وهو نبيذ سمى باسم مبتكر صناعته وهو الأمير تمربغا المنجكى . ولقد أعجب السلطان الظاهر برقوق بهذا النبيذ بعد أن قدمه له الأمير تمربغا أول مرة ، وبعدها أقبل السلطان برقوق على شربه مع الامراء فى مناسبات عديدة ، وفى هذه المناسبات كانت تعمل منه كميات كبيرة ، وتملأ منه أحواض بأكملها[٣] .

والتمربغاوى كان يصنع من الزبيب والماء ، ثم يعبأ فى جرار تدفن فى زبل الخيل عدة أيام حتى يتخمر[٤] .

ولم يكن التمربغاوى هو النبيذ المماليكى الوحيد الذى سمى باسم مبتكر صناعته ، فهناك نبيذ مماليكى آخر إسمه البشتكى سمى هو الآخر باسم مبتكر

---

(١) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ، مخطوط ، ورقة ١٠٦ - المقريزى السلوك جـ ١ ص ٦٠٧ ، ٦٣٦

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢١٩ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ٩ جـ ١ ص ٥١ .

(٣) ابن الصيرفى : نزهة النفوس والابدان ، مخطوط ، ورقة ٨٨، ١٠٣

(٤) ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، مخطوط ، ورقة ٨٨ ، ١٠٣

صناعته وهو الأمير يشتك (١) .

ولقد كان الشمش أيضا من الأنبذة المماليكية التى كان المماليك يقبلون على شربها(٢) ، وهذا النبيذ كان يصنع من أرز ودقيق حنطة ، ويحلى بالسكر والعسل ويطيب بالمسك وماء الورد ، ويخمر بقطعة من خمير العجين ، ثم يعتق فى جرار تدفن فى التبن (٣) .

صناعات المنسوجات والثياب

١ - المنسوجات

صناعة المنسوجات فى مصر صناعة عميقة الجذور ترجع إلى ماقبل الإسلام ، لكنها زادت نضوجا وتطورا فى ظل الإسلام ، وأصبح الطلب على منسوجات مصر كبيرا .

وبسبب ما كانت تحظى به منسوجات مصر من تقدير لذلك فقد اهتم خلفاء الدول الإسلامية بأن يبعث عمالهم عليها سنويا إلى بيت المال مقادير من منسوجاتها وثيابها كالأثواب الدبيقية التى كانت تصنع فى دبيق، والمقاطع الشرب الاسكندرانية والطرز الصعيدية(٤) .

---

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ٢٣١

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ - أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٥٣ .

(٣) كنز الفوائد فى تنويع الموائد : مخطوط ورقة ٩٩ ب

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣١

وبسبب شهرة منسوجات مصر ومكانتها المرموقة فى الأسواق الخارجية ورواجها بها ، لذلك فقد عمد العاملون فى صناعة المنسوجات وتجارتها خارج مصر إلى تسمية مدنهم التى تصنع المنسوجات فى بلادهم بنفس أسماء المدن المصرية التى كانت لها شهرتها وتتنشذ فى صناعة المنسوجات المصرية ؛ كدبيق وغيرها ، كما أطلقوا على منسوجات بلادهم نفس أسماء المنسوجات المصرية كالدبيقية وغيرها ، ومن بين من فعل ذلك العراقيون على سبيل المثال(١) .

وبخلاف دبيق ، فقد أشتهرت مدن مصرية أخرى كراكز أيضا لصناعة النسيج فى مصر ، نذكر منهـــا تنيس وشطا ودميرة ودمياط وتونة وبورة والاسكندرية وأسيوط والأشمونين وبهنسى والفيوم وإهناس .

وصناعة المنسوجات فى هذه المدن كانت تتم إما فى مصانع أو فى دور بعض الأهالى الذين كانوا يحترفون هذه الصناعة .

أما المصانع فكانت وتتنشذ نوعين ، مصانع أهلية وأخرى حكومية .

والمصانع الحكومية كانت تعرف باسم دور الطراز (٢) ، والظاهر أنه

---

(٢) مرزوق : الزخرفة المنسوجة ص ٣١

(٢) لا يعرف على وجه اليقين أصل دور الطراز ولا موطنها الأصـــلى ، فالدكتور كوئل يعتقد أنه من المحتمل أن يكون أصلها « الجنيسم » التى وجدها العرب بالاسكندرية عند فتحهم لها . والجنيسم كانت تعنى فى العصور الوسطى مكانا معينا ملحقا بالقصر فيه أرقاء ينسجون ويصنعون الحرير ويعملون ملابس رجال البلاط ، وكان محرما على الرعيـة أن ينسجوا أقمشة تشبه تلك التى يصنعها القصر . مرزوق : الزخرفة المنسوجة ص ٢٢ .

كان هناك نوعان منها، الأول ـ طراز الخاصة ـ وكان لاينتج إلا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته ، أما النوع الثانى فكان يعرف بطراز العامة وكان يشتغل لحساب بلاط الخليفة وكذلك الشعب عامة .

ولفظ طراز مشتق من الكلمة الفارسية «ترازيدن» و «تراز» ومعناها التطريز وعمل المدبج ، ثم أصبحت هذه الكلمة تدل على ملابس الخليفة أو الأمير أو السلطان ورجال الحاشية لا سيما إذا كان فيها شيء من التطريز ، أو إذا كان عليها أشرطة من الكتابة المطرزة . والتطريز فى هذه الحالة كان يعمل بخيوط من الذهب أو الفضة أو الخيوط الحريرية المتعددة الألوان ، وكان القصد من هذه الكتابة المطرزة «التنويه بلابسها من السلطان فمن دونه ، أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته»(١) .

والمشرف على دار الطراز ـ أى صاحب الطراز ـ كان له الإشراف على كل شئونها الإدارية والفنية ، وكذلك على ماتحويه هذه الدار من آلات وعدد ، وأيضا على موظفيها وعمالها(٢) .

وفى العهد الفاطمى كان لصاحب الطراز منزلة كبيرة ، كما كان محل عناية

= غير أن بعض العلماء الآخرين يقولون أنه من المحتمل أن يكون أصلها بابلى آشورى ، كما أن البعض الثالث منهم يعتقد أنها بيزنطية الأصل ـ زكى حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٨٤

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٦٧ .

كبيرة فى الحكومة الفاطمية ، وله إختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين ؛ ومقامه بدمياط وتنيس وغيرها ، وبين يديه المندوبين مما تقرر جل لتنفيذ الاستعمالات وله عشارى دمياس مجرد معه وثلاثة مراكب من الدكاسات ، ولها رؤساء ونواتية لا يبرحون ، ونفقاتهم جارية من مال الديوان ، فاذا وصل بالاستعمالات الخاصة التى منها المظلة وبدلتها والبدنة واللباس الخــاص الجمى وغيره ، هيء بكرامة عظيمة ... وله فى بعض الأوقات التى لا يتسع له الانفصال نائب يعمل عنه بذلك غير غريب عنه ، ولا يمكن أن يكون إلا ولدا أو أخا ، فان الرتبة عظيمة ...» (١) .

ولقد تعددت أنواع المنسوجات التى أنتجتها مناسج مصر وقتئذ ، فمنها ما نسج من القطن ، ومنها ما نسج من الكتان ، ومنها ما نسج من الحرير . لكن نظرا لأن القطن كان قليلا وقتئذ ، لذلك كان أغلب إنتاج مصر من المنسوجات الكتانية والصوفية .

أما المنسوجات الحريرية فقد كان إنتاجها محدودا بتأثير من تعاليم الإسلام التى تحرم على الرجل لبس الحرير إلا لضرورة ، غير أنه نظرا لأن الإسلام أباح للرجل لبس الثوب الذى يشتمل على قدر إصبعين أو أربعة أصابع من الحرير لذلك فقد ازدهرت صناعة منسوجات كتانية وقطنية وصوفية تزينها أشرطة من الزخرفة المنسوجة من الحرير المختلف الألوان (٢) .

ومن بين المنسوجات التى أنتجتها مناسج مصر وقتئذ الشرب ، وهو نسيج

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٤٦٦

(٢) مرزوق : الزخرفة المنسوجة ص ٤٤

كتانى رقيق غالى الثمن كان يباع كل درهم منه بدرهم فضة [١].

والبوقلمون ، وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار [٢] .

والقباطى ، وهى منسوجات سميت باسم صناعها الأقباط الذين كانت لهم دراية كبيرة فى صناعة هذا النوع من القماش [٣] .

والقصب ، وهو قماش كتانى رقيق جداً - والوشى ، وهى ثياب حريرية مرقومة بألوان شتى - والخمل ، وهو قماش له وبر على سطحه مثل القطيفة [٤] - والخز ، وهو قماش سداه من الحرير ولحمته من الصوف [٥] - والمثقلة ، وهى ثياب منسوجة بالذهب [٦] .

أما الاقمشة الصوفية الخالصة فقد بلغت شهرة مصر فيها أن الجاحظ قال [٧]

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٥٠ .

(٢) ناصرى خسرو : سفرنامه ص ٣٨ - ولقد سمى هذا القماش بإسم قلمون أو أبو قلمون أو بوقلمون نسبة إلى الحرباية باليونانية ، ولعل الذى دعا إلى نسبته للحرباية هو أنه كان يماثلها فى ظهوره بألوان شتى حسب تعرضه للشمس ، وحسب الوضع الذى يكون عليه ، وكذلك حسب إختلاف ساعات النهار - زكى حسن كنوز الفاطميين ص ٥٢ .

(٣) زكى حسن : نفس المرجع السابق ص ١١٦

(٤) مرزوق : الزخرفة المنسوجة ص ٣٣

(٥) نفس المرجع السابق ص ٣٦

(٦) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٢٢٦ ؛ ج ٢ ص ٧

(٧) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٢٢ .

أن خير الأكسية من الصوف المصرية ، كما روى المقريزى أن « معاوية بن أبى سفيان لما كبر كان لا يدفأ فأجمعوا أنه لا يدفئه إلا الأكسية التى تعمل بمصر من صوفها المرعز العسلى الغير مصبوغ ، فعمل له عدد فا احتاج منهـا إلا إلى واحدة »(١) . كما قال ناصرى خسرو « وينسجون فى أسيوط عمائم من صوف الخراف لا مثيل لها فى العـالم ، والصوف الرقيق الذى يصدر إلى بلاد العجم والمسمى الصوف المصرى كله من الصعيد الأعلى ... وقد رأيت بأسيوط فوطة من صوف الغنم لم أر مثلها ... وهى من الرقة بحيث تحسبها حريرا »(٢) .

أما أساليب زخرفة المنسوجات وقتئذ ، فبعضها كانت تحلى برسوم مصبوغة وبعضها كانت تنسج بخيوط مختلفة الألوان ، وذلك بأن تكون خيوط اللحمة من لون ، وخيوط السدى من لون آخر ، وبتقاطع هذه الخيوط تتكون الزخرفة المطلوبة .

وبعضها كانت تحلى بزخارف تطرز على القماش بعد نسجه ، وبعضها كانت تحلى بزخارف تنسج مع القماش أثناء نسجه .(٣) .

تلك كانت أهم معالم صناعة المنسوجات فى العهود الإسلامية التى سبقت العهد المماليكى فى مصر .

وفى العهد المماليكى استمرت هذه الصناعة على نفس التقاليد تقريبا . فقد ظلت المنسوجات الحكومية تنسج فى مصنع حكومى يعرف بدار الطراز ، غير

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٢٠٤ .
(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٧٠ .
(٣) مرزوق : الزخرفة المنسوجة ص ٧٣ .

أنه فى هذا العهد أصبحت الاسكندرية مقراً لهذه الدار .

وعن وظيفة دار الطراز فى العهد المماليكى يقول القلقشندى « ودار الطراز هذه هى التى تعمل فيها الاستعمالات السلطانية مما يحمل إلى خزانة الخاص الشريف من الأقمشة المختلفة الصفات من الحرير والمقترح المخوص بالذهب ، والتفاصيل المنقوشة بضروب النقوش المختلفة ، وغير ذلك من رقيق الكتان وغيره مما لا يوجد مثله فى قطر من أقطار الأرض . ومنه تتخذ الأقمشة التى يلبسها السلطان وأهل داره ، ومنه تعمل الخلع والتشاريف التى يلبسها أكابر الأمراء وأعيان الدولة وسائر أهل المملكة ، ومنه تبعث الهدايا والتحف إلى ملوك الأقطار »(١) .

وفى هـــذه الدار كان يتم تطريز الخلع والتشاريف التى يخلع أو ينعم بها السلطان بالطراز السلطانى ، فرسوم الملك وقتئذ كانت تقضى بأن ينقش إسم السلطان « على ما ينسج ويرقم من الكسوة والطرز المتخذة من الحرير أو الذهب بلون مخالف للون القماش ، لتصير الثيـاب والطرز السلطانيـة مميزة عن غيرها ، تنويها بقدر لابسها من السلطان أو من يشرفه بلبسها عند ولاية وظيفة أو إنعام أو غير ذلك »(٢) .

وفى العهد المماليكى ظل ناظر دار الطراز يحتفظ بنفس إختصاصاته التى كانت له فى العهود السابقة . وفى المرسوم الخاص بتعيين ناظر هذه الدار عام ٧٤١ هـ نجد تحديدا لبعض مهامه واختصاصاته وواجباته ، وذلك من خلال التوجيهات التى وجهت اليه فى هذا المرسوم ، والتى منها « ... وليصن ذهبها عند صرفه وقبضه ،

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ٤٢٦ .

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٧

والزن خزها بتقريب مشوبة وتحرير محضه ، ولين عن حسن التدبير فى إبرام حررها ونقضه ، وليستجلب رجالها وصناعها ...»(١) .

وفى أواخر العهد المماليكى البحرى قام السلطان الاشرف شعبان بزيارة لهذه الدار ، وتفقد سير العمل بها ، وانتقى من منسوجاتها أنواعا منها أخذها معه عند عودته للقاهرة .

ويعطينا النويرى صورة لما جرى فى هذه الزيارة بقوله أن السلطان « جعل يطوف على الانوال يبصرها ، ويدخل رأسه تحتها لينظر أسفلها ، ويتفرج على الصناع كيف ينسجون ، وإلى مكاكيكهم كيف يرمونها وكيف يرجعون ، ويرفع رأسه يشاهد فى أعلى الأنوال الشيالين من الصبيان كيف يشيلون خيطان المسادى ولما يحطون ، وكيف تصنع الطيور المنسوجة والدالات والشادورانات وغيرها بتلك الخيطان الطالعـــة والهابطة ، إلى أن يـكمل كل طاير وغيره .... ثم إن السلطان شاهد ما فى دار الطراز بالاسكندرية من عمل زراكش ورقوم وثياب حريرية مذهبه مفروغ منها ، فاختار منها ثيابا يستصحبها معه ، وترك الباقى إلى حين تـكملة نسجه » (٢) .

ومن هـذا الوصف ندرك أن دار طراز الاسكندرية كانت حتى أواخر العهد المماليكى البحرى تزخر بالنشاط والعمل والإنتاج ، لـكنها فى العهد المماليـكى الجركسى بدأ يصيبها ما لحق بالدولة من تدهور ، إلى أن توقفت عن أداء مهمتها

---

(١) نفس المرجع ج ١١ ص ٤٢٥ .

(٢) النويرى : الإلمام بما جرت به الاحكام ، مخطوط ، ص ١٤ أ ، ب .

فى عهد السلطان برسباى (١) .

والواقع أن اختيار الاسكندرية لتكون مقرا لدار الطراز فى العهد المماليكى كان اختيارا موفقا ، فالاسكندرية وقتئذ كانت ميناء مصر الرئيسى وتقوم بدور كبير فى تجارة مصر الخارجية والداخلية بوجه خاص وفى التجارة الدولية بوجه عام ، وقد مكنتها هذه الميزة من الحصول بسهولة وبوفرة على كافة المواد الخام التى تلزم لهذه الصناعة ، هذا بالاضافة إلى أنه كان يتوفر فى الاسكندرية الصناع اللازمين لها وهم صناع ورثوا خبرتهم العميقة فى هذا المجال من آبائهم وأجدادهم الذين كانوا يحترفون هذه الصنعة فى العهود والاجيال السابقة

وفضلا عن ذلك فالاسكندرية كانت لها شهرتها القديمة فى صناعة المنسوجات وينوه القلقشندى بهذه الشهرة نقلا عن ابن الأثير فيقول أنه بالاسكندرية « ينسج القماش الفائق الذى ليس له نظير فى الدنيا ، واليها تهوى ركائب التجار فى البر والبحر ، وتمير من قماشها فى جميع أقطار الأرض » (٢) .

هذا ولقد قدرت عدد الأنوال التى كانت تعمل فى صناعة النسيج فيها حتى عام ٧٩٠ هـ بأربعة عشر الف نول ، غير أن هذا العدد ظل يتناقص تدريجيا إلى أن أصبح ثمانمائة نول فقط فى عام ٨٣٧ هـ فى عهد السلطان برسباى (٣) .

ومن بين الأقمشة التى اشتهرت الاسكندرية بصناعتها الوشى ، والسقلاطون والشرب والمنمر والمفرج السكندرى ، والشاش الحرير السكندرى المموج بالذهب

---

(١) الخالدى : المقصد الرفيع مخطوط جـ ٢ ص ١٤٢ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٠٤ .

(٣) ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٢ ص ٥٥٧

والطرد وحش والبشاخين (١) . كما كان ينسج بها أيضاً الاشكرلاط والأطلس (٢) .

والوشى السكندرى نسيج من الحرير كان يحلى بخيوط الذهب ، لذلك عرف باسم الحلل الموشية .

والسقلاطون نوع من النسيج المصنوع من الحرير والمطرز بالذهب ، وهذا النسيج كان معروفاً فى بلاد اليونان ، ثم إنتقلت صناعته إلى البلاد العربية وحذقه الصناع العرب (٣) .

والشرب نسيج كتانى رقيق كانت تعمل منه القمصان الداخلية ، وتلف به العمائم ، وتصنع الخز لغطاء رؤوس النساء ، كما كان يستعمل برسم الطرح أو القوارات التى توضع على الصوانى وتشد على الموائد (٤) .

والنمر نسيج حريرى تدخل فى صناعته خيوط الذهب . ويزدان برسوم مخططة تشبه جلد النمر . وكان يعرف أيضاً باسم الشاش (٥) .

والمفرج السكندرى نوع من النسيج الرقيق المذهب كانت تصنع منه الطرح والكلوتات المزركشة بالكلاليب .

والشاش السكندرى هو النمر الذى سبق أن وصفناه ، وهو نسيج حريرى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٢ ص ٥٢ ، ٥٣
(٢) المقريزى : السلوك جـ٢ ص ١٩٥
(٣) عبد العزيز سالم : تاريخ تجارة الاسكندرية وحضارتها ص٥٢٦،٥٢٧
(٤) نفس المرجع السابق والصفحة ـ المقريزى : المواعظ جـ٢ ص ٣٠
(٥) عبد العزيز سالم : نفس المرجع والصفحة .

موج بالذهب(١) .

والطرد وحش اسبيج بموج جاخات بألقاب السلطان(٢) ، وجاخات طرد وحش(٣) ، وجاخات ألوان مزججة بقصب مذهب، وبين هذه الجاخات نقوش . أما طرازة فقد يكون من القصب أو من الزركش الذهب(٤) .

أما الاشكرلاط فهو قماش قرمزى اللون(٥) .

ورغم أن الاسكندرية كانت تحتل مركزا رئيسيا فى هذه الصناعة فى العهد المماليكى ، إلا أن بعض المدن المصرية الأخرى كان لها وقتئذ دورها الهام أيضا فى هذه الصناعة ، ونذكر منها المنزلة (٦) ، وفارسكور (٧) ، وطوخ مزيد (٨) ، وفى مدينة إبيار كانت تصنع ثياب حسان تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٢٢٧

(٢) أى دوائر تحتوى على كتابة بألقاب السلطان .

(٣) أى دوائر تحتوى على رسوم لمطاردة الوحش وصيده

Dozy : Supp. Dict. Ar

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥٣

(٥) Dozy : Supp. Dict. Ar

(٦) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ١٦٨ ، جـ ٤ ص ١٥٥ ، ٤٥٦ .

(٧) نفس المرجع السابق جـ ٣ ص ١٦٨ .

(٨) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٤٠٢ ، وطوخ مزيد قرية تابعة لمركز طنطا نفس المرجع والصفحة حاشية ه للدكتور زيادة .

وغيرها ، (١) . وفى مدينة البهنسا كانت تصنع ثياب الصوف الجيدة (٢) .

لكن يبدو أن المنسوجات التى كانت تصنع بالاسكندرية وبالمنزلة بالذات كانت من أفخر أنواع المنسوجات المصريه التى تصنع وقتئذ ، كما يبدو أيضا أن منسوجات هاتين المدينتين ظلت تحتفظ بمستواها الممتاز حتى أواخر العهد المماليكى، ونستدل على ذلك من قول ابن إياس أن السلطان الغورى أهدى إلى الأمير العثمانى قرقد بيك « عدة بقج فيها قماش مفتخر ما بين سكندرى ومنزلاوى » (٣) .

ومما هو جدير بالملاحظة أنه فى عهدى الأيوبيين والمماليك قلت العناية بعض الشىء بنسج الكتان فى مصر ، بينما زادت العناية فى نفس الوقت بنسج الحرير وتطريزه، بل إن بعض علماء الآثار الإسلامية ـ ومنهم الدكتور كونل ـ يرون أن المناسج المصرية لم تخرج أقمشة من الحرير الخالص إلى فى عهد المماليك . وقد يكون كونل على حق فى هذا الرأى لأن البحث الأثرى لم يكشف بعد عن قطع من القماش سداها ولحمتها من الحرير الخالص وترجع إلى ما قبل عهد المماليك (٤)

وهناك أمثلة للأقمشة الحريرية تحمل إسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وعلى بعضها زخارف صينية الطراز ، وهـذه الزخارف تجعلنا نعتقد أن نسج الحرير فى العهد المماليكى فى مصر تأثر إلى حد كبير بمثيله المصنوع فى الشرق الأقصى خصوصا وأن الأقمشة الحريرية المصنوعة فى الشرق كانت قد تغلغلت وقتئذ فى

---

(١) ابن بطوطه : تحفة النظار ج ١ ص ١٥ .
(٢) نفس المرجع السابق والجزء ص ٢٧ .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٥٥ .
(٤) مرزوق : الزخرفة المنسوجه .

العالم الإسلامى بواسطة المغول (١) .

ومن بين المنسوجات الحريرية التى صنعت فى العهد المماليكى نوع عرف باسم الحرير الفيار ، وهو قماش حريرى يبدى أكثر من لون واحد (٢) ، ولعله يشبه فى ذلك قماش البوقلمون الذى كانت تصنعه تنيس من قبل .

ومنها أيضا نوع آخر إسمه الزربفت (٣)، وهو قماش ينسج معظمه أو بعضه بخيوط الذهب (٤) .

وكما زادت العناية فى العهد المماليكى بالمنسوجات الحريرية ، فقد زادت العناية فى هذا العهد أيضا بتزيين المنسوجات بالزخارف المطبوعة . وأبدع ما نعرفه من أمثلتها ترجع إلى القرنين السابع والثامن بعد الهجرة (٥) .

ب ـ الثياب

من المظاهر البارزة فى العهد المماليكى الإهتمام الزائد والغير عادى بالملابس والثياب ، فكل طائفة من الناس كانت لها وتتخذ ثيابها التى اختصت بلبسها حتى أصبحت هذه الثياب من المعالم المميزة لها . والسلطان أيضا كانت له ملابسه الخاصة به والمميزة له ، وكذلك الأمراء والمماليك .

---

(١) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٣٦٧ .
(٢) المقريزى . السلوك جـ ١ ص ٧٢٦ ، وحاشيه ٤ للدكتور زيادة
(٣) المقريزى : المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٥٦
(٤) الزربفت لفظ فارسى الأصل يقابله فى العربية كلمة الديباج أو السندسى
Steingass : Pers. Eng. Dict
(٥) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٢٦٧ .

ولم تكن ملابس السلطان والأمراء واحدة فى كل المناسبات والأوقات ، فلكل مناسبة ثيابها الخاصة بها ، ولكل ظرف ووقت ملابسه التى تلائمه . وقت الخدمة له ملابس لا تلبس فى غيرها ، وكذلك ثياب السفر ، وكذلك المرحات والصيد ، وكذلك ثياب التخفيف ، وكل نوع من هؤلاء يطول شرح تفصيله(١) .

والصيف عندهم ملابس خفيفة بيضاء تعرف بالبياض وتصنع من قماش النصافى (٢) ، والشتاء ملابسة الثقيلة المصنوعة من الصوف النفيس والحرير الفائق وتحتها فراء السنجاب القض (٣) . ومن الطريف أن نعرف أن ارتداء البياض كان له وقت محدد حسب أنظمة هذا العهد ، وكذلك الصوف ، فلا يستطيع أحد من المماليك إرتداء أى منها قبل موعده المحدد إلا إذا قرر السلطان ذلك .

واقد استخدمت عدة وسائل لتزيين الثياب ومن أبرزها الطرز الزركش الذهب (٤) ، وهذا الطرز كان يصنع فى مصنع حكومى يقوم فى خط الأكفانيين بالقاهرة ويعرف باسم قاعة الذهب . وبهذا المصنع أو هذه القاعة كانت تصنع

---

(١) ابن شاهين : فريدة كشف الممالك ص ٨٨

(٢) القلقسندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٠ .

والنصا فى قاش من نسيج الحرير والكتان Dozy : Supp. Dict. Ar

والنصافى أيضا هو ما له لونان من البرد . المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥٨ حاشيه ١

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص ٤٠

(٤) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٢٢٧ — والزركش كلمة فارسية معناها الحرير المنسوج بالفضه، والمولدون يبنون منه فعلا فيقولون زركش الثوب ، ومنه زركشه الكلام عندهم أى برقشته . محيط المحيط .

بعض الخلع التي يخلعها السلطان والتي يدخل الذهب في صناعتها أو زخرفتها .
وقد وصف ابن إياس بعضها فقال عنها أنها « جرذهب منسوجة شغل القاعة تلمع كالبرق »(١) ومما هو جدير بالذكر أنه لم يكن يسمح للجند بتزيين ثيابهم بالزركش الذهب إلا إذا كان لهم إقطاع في الحلقة فقط(٢) . أما الأمراء فكان يسمح بتزيين ثيابهم الفوقانية (٣) به خصوصا أكمامها(٤)، أما ثياب العلماء فكان يزين اكتافها(٥).

ومن أشهر الطرز الزركش الذهب التي استخدمت في تزيين الثياب في ذاك العهد طرز عريض كان يعرف باسم « الطرز اليلبغاوي » نسبة إلى اسم الأمير يلبغا العمري (٦) ، وهذا الطرز كان عريضا بدرجة غير عادية ويغطي مساحة كبيرة من الثوب حتى أن مساحته على بعض الثياب بلغت ثلاثة أذرع طولا وذراعان ونصف عرضا من الذهب البندقي الخالص . وقد ظل هذا الطراز مرغوبا فيه

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٠٥

(٢) المقريزي : المواعظ ج ٢ ص ٢١٧

(٣) الثياب الفوقانية هي الثياب الخارجية العلوية التي تلبس فوق الثياب الداخلية ، وقد آثرت أن استخدم هذا التعبير للدلالة على هذه الثياب لأنه نفس التعبير الذي استخدمته مصادر العهد المماليكي للدلالة عليها .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢ ، ٥٣

(٥) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٧١

(٦) هو أحد كبار أمراء السلطان حسن ، ولقد تعاظم نفوذه إلى الدرجة التي مكنته من القضاء على هذا السلطان ، وكنتيجة لذلك أصبح أتابكا للعسكر في عهد السلطان المنصور محمد بن الملك المظفر حاجي ، وصار بيده تدبير أمور المملكة ، لكن السلطان الأشرف زين الدين شعبان الذي خلف السلطان المنصور محمد في السلطنة استطاع القضاء عليه خلال صراع دموي نشب بينهما .

ومستخدما فى تزيين الثياب الفوقانية إلى أن بطل استخدامه نهائيا عام ٩٢٤هـ(١)

لكن الطرز الزركش لم يكن هو الوسيلة الوحيدة لتزيين الثياب فى هذا العهد فقد استخدم الفراء على نطاق كبير لتزيين الثياب خاصة ثياب الأمراء ، وهى الثياب التى كان يقال عليها أنها مفراة أو مفرية (٢) . ومما ساعد على ذلك أن الفراء كان يجلب وقتئذ بكميات كبيرة من موطنه ،ولقد كان سوقه بالقاهرة وهو سوق الفرايين من أبرز أسواق القاهرة وقتئذ وأكثرها أهمية (٣) .

استخدم الحرير أيضا لتزيين الثياب وعملت منه سجاف(٤) لتزيين الثياب الفوقانية للعلماء ورجال الدين وأذيالها(٥) ، لكن كان يراعى أن لا يزيد عرضها عن الشبر لأن رجال العلم والدين كانوا يلتزمون بتعاليم الدين الاسلامى التى تحرم على الرجل المسلم استخدام الحرير فى ثيابه إلا بقدر محدود .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٧٧ ، جـ ٣ ص ١٧٨ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٢٧١ ـ المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٤١٢ .

(٣) فى هذا السوق كان يباع فراء السنجاب والوشق والقاقم والرلق والسمور والفنك ، كما كانت تباع به الثياب المفراه . وقد بلغ من إقبال الناس وقتئذ على ارتداء الفراء أن صار يلبسه وآحاد الأجناد وآحاد الكتاب وكثير من العوام ولا تكاد إمرأة من نساء بياض الناس تخلو من لبس السمور ونحوه . المقريزى المواعظ جـ ٢ ص ١٠٣ .

(٤) السجف هما الستران المقرونان بينهما فرجه ، وهو السجاف أيضا المخصص ٥ ص ٦٣

(٥) ابن الحاج . المدخل جـ ١ ص ٧١ .

ونحن إذا ألقينا نظرة عامة على الثياب الفوقانية التى كانت تصنع فى هذا العهد فإننا نجد أن أبرزها هو القباء بأنواعه ، والجبه بأنواعها .

أما القباء فقد صنعت منه أنواع عديدة ليرتديها الأمراء ، ومن بينها «القباء التترى» الذى كان يصنع من الحرير الأطلس (١)

ولقد كان «البغلطاق» نوعا من أنواع القباء التترى ، وهو قباء بلا أكمام أو بأكمام قصيرة جدا ، وكان يصنع من القطن البعلبكى أو من فراء السنجاب أو من الحرير اللامع ، كما كان يزين بالجواهر الثمينة (٢) .

والبغلطاق بدوره كان عدة أنواع ، ومن أنواعه «البغلطاق الصدر» (٣) وكذلك «السلارى» الذى كان ينسب إلى اسم الأمير سلار (٤) ، وهو قباء بلا أكمام ويصنع من فراء السنجاب أو السمور أو من الحرير الأصفر أو من الصوف أو من البعلبكى الأبيض (٥) .

والملاحظ أنه غالبا ما كان يلبس فوق القباء التترى قباء آخر كان يعرف

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٢

(٢) Dozy : Supp. Dict. Ar

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٢٠

(٤) الأمير سلار هو نائب السلطنة فى العهد الثانى للسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ولقد ابتكر هذا الأمير أشياء كثيرة فى الملابس وقماش الخيل وأدوات الحرب ، ولذلك فقد نسبت إليه بعضه أشياء ، منها القباء السلارى والمناديل السلارية وأشياء أخرى غيرها . ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٥

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣١١ ، ج ٤ ص ٧٩ ، ١٨٧ ، ٢٩٢ ، ٢٣٦ .

باسم « القباء الاسلامى » (١) ، وهو قبـاء عربى التفصيل ، لذلك أطلق عليه هذا الاسم تمييزاً له عن القباء التترى والبغلطاق والسلارى (٢) .

ومن بين الأقبية التى كان السلطان يخلع بها على أرباب السيف قباء « الطرز وحش » وهذا القبـاء كان يصنع بدار الطراز بالاسكندرية وكذلك بدمشق ، ويزين بطرز من القصب ، وبجاخات بهـا كتابات بألقاب السلطان ، وبجاخات أخرى طرز وحش (أى جاخات بهـا رسوم تمثل مطاردة الوحش وصيده) . وجاخات ثالثة ملونة بألوان ممتزجة بقصب مذهب، وبين الجاخات نقوش تفصل بينها . وإذا أخلع السلطان بهذا القباء على واحد من كبار رجال السيف ففى هذه الحالة يضاف إليه طرز زركش ذهب (٣) .

وتحت قباء الطرز وحش كان يلبس قباء آخـــر من المقترح الإسكندرانى الطارح (٤) .

أما قباء « الـكنجا » (٥) فكان يصنع من الحرير وينقش بلون مغاير لونه، وإن كان أحيانا ينقش بلون مقارب لونه مع تفاوت بينهما، كما كان يتميز بوجود فراء سنجاب بقندس تحته ، وهو من الأقبية التى كان السلطان يخلع بها أيضا على أرباب السيوف (٦) .

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٧

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص حاشيه ١ Dozy : Supp. Dict. Ar

(٣) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٢٧ .

(٤) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٥) الكنجا كلمة فارسية تعنى النسيج الرفيع المنسوج من الحرير . محيط المحيط .

(٦) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٢٧

أما القباء الذي كان السلطان يخلع به على الوزراء وكبار موظفي الدولة الكتاب فكان من الكمخا الابيض المطرز برقم حرير ساذج وسنجاب مقندس(١) .

أما الرتب الدنيا من رجال السيف فكان السلطان يخلع عليهم قباء (٢) بجوما لونا واحداً ، أو قباء مقندسا أي محلى بفراء القندس . وهذا القباء كان يزين بمخاخات حمراء وخضراء وزرقاء وغير ذلك من الألوان بسنجاب وقندس . وتحت هذا القباء كان يلبس عادة قباء آخر أزرق أو أخضر(٣) .

وفي عهد السلطان الأشرف شعبان كانت أقبية كبار الأمراء من الحرير بفرو سمور وبأطواق سمور وبطرز زركش(٤) .

أما السلطان خشقدم فكان يلبس أقبية مصنوعة من الصوف الأخضر ومبطنة بالمخمل الاحمر(٥) .

ولقد كانت « الكاملية » أحد الأردية الفوقانية التي إعتاد المماليك لبسها فوق ثيابهم(٦) ، وهي عادة تكون ضيقة الكم مفرجة الذيل – أي مفتوحة الذيل –

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٢) النسيج البجوم هو النسيج المزين بيقع مستديرة منسوجة في ذات القماش أو مرسومة عليه ، مرزوق . الزخرفة المنسوجة ص ٧٥

(٣) المقريزي : المواعظ ج ٢ ص ٢٢٧

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ١١ ص ٥٨

(٥) ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١٨٣ ، بدائع الزهور ج ٢ ص ٨٢ .

(٦) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٦٨ حاشية ١ - Dozy : Supp, Dict, Ar

وهذا التفريج يبدأ من الحافة السفلى لذيلها ويرتفع إلى أعلى(١) . ولقد صنعت الكاملية من منسوجات عديدة ، كما حليت بأساليب عدة ، فكان منها كاملية صوف صيني بسمور(٢) ، وكاملية مخمل بسمور(٣) . وكاملية صوف أزرق بسمور(٤) . وكاملية حرير شغل القاعة بسمور(٥) . وكاملية تماسيح على أحمر بفرو سمور(٦) .

أما « الملوطة » فكانت رداءاً فوقانياً له ياقة(٧) . وله أزارير يزرر بها (٨) . ولقد شاع لبسها بين المماليك الجراكسة على وجه الخصوص(٩) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن النـــاس زمن المقريزي كانوا يستهجنون لبس الثياب المصنوعة من الجوخ ويقولون « وهل الجوخ إلا لأجل البغلة » ، لذلك لم يكن يلبسها إلا بعض الأكابر والأعيان وقت المطر فقط ، فإذا ارتفع المطر نزعوها عن أجسادهم .

غير أنه كنتيجة للمحنة الاقتصادية التي أصابت مصر في عهد السلطان فرج بن

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٨٠ — ماير : الملابس المملوكية ص ٢٥ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٢٧٢

(٣) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ٨١ .

(٤) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص٢٨٣

(٥) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ٣٩٥

(٦) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ١٦٧

(٧) ماير . الملابس المملوكية ص ٤٥

(٨) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٢٠ .

(٩) نفس المرجع السابق جـ ٣ ص ١٣٧

برقوق إضطر الناس أن يلبسوا ثياب الجوخ وصار يلبسها معظمهم حتى الأمير والوزير والقاضى ، بل إن السلطان فرج بن برقوق نفسه لبس ثيابا من الجوخ ومن بينها « قبجون » وهو ثوب قصير الكمين والبدن ، يخاط من الجوخ بغير بطانة من تحته ، ولا غشاء من فوقه . وعلى أثر ذلك انتشر لبس القمجون بين الناس(١) .

تلك كانت أبرز أنواع الأقبية والأردية الفوقانيـــة التى كان يرتديها رجال السيف على وجه الخصوص .

أما الثياب الفوقانية لرجال العلم والدين فأبرزها وقتئذ « الجبة » . وهى فى الواقع كانت الرداء الفوقانى الرئيسى لرجال العلم والدين ، وكذلك لكبار رجال القلم كالوزير وغيره(٢) .

والجبة وقتئذ كانت نوعين : ريفية وحضرية . أما الريفية فكانت تصنع من صوف غليظ ، ويجعلون أكمامها متسعة خصوصا شعراؤهم . أما الحضرية فكانت تصنع من الصوف الرفيع اللطيف ، ويجعلونها محصورة الآباط مفتوحة ، وكان يقال لها الجبة المفرجة لكونها انفرجت عن قدم لابسها وبان ما تحتها ، كما أنهم كانوا يصنعون لها سجاف الحرير(٣) .

لكن جباب كبار أرباب الوظائف الديوانية كالوزير ومن يماثله كانت تميز عن باقى الجباب الحضرية بتفريجها من الخلف(٤) .

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٩٨
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٣ .
(٣) الشربينى : هز القحوف ص ١٠٦
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٣ .

ولقد كانت « الدراعة » نوعا من الجباب الحضرية لكونها مفرجة المقدم مثلها ، إلا أنها كانت لا تصنع إلا من الصوف(١) .

أما جبة القضاء والعلماء فقد سميت بالفرجية لأن وجهها الأمامي كان مفرجا ـ أى منتوحا ـ من أعلاه إلى أسفله ، ولذلك كانت تزود بصف من الأزرار(٢) ولقد تميزت هذه الفرجية بطول الأكمام(٣) ، كما أنها كانت تصنع من أقمشة متنوعة تلائم فصول السنة كالصوف والقطن والحرير .

ولم تكن الفرجية هي الثوب الفوقاني الوحيد للقضاة ورجال العلم « فالدلق » أيضا كان من ثيابهم الفوقانية ، وهو ثوب سابل على القدمين ، متسع بغير تفريق متسع الأكمام ، فتحته على كتفه (٤) .

أما الدلق الخاص بمشايخ الصوفية فلم يكن سابلا ولا طويل الكم(٥) ، كما أن الدلق الخاص بخطباء المساجد كان أسودا مدورا (٦) .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٥٣ حاشية ٢

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٢ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٧٠ .

(٤) نفس المرجع السابق والجزء والصفة ـ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤١ .

(٥) القلقشندى : نفس المرجع السابق والجزء ص ٤٣

(٦) السيوطى : حسن المحـــاضرة جـ ٢ ص ١٧٠ ـ المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٢٢٨

ومعنى الدلق المدور أنه دلق لفتحة مدورة للرقبة . ماير : الملابس المملوكية ص ١٠٧ حاشية ٤

هذا ولقد شاع عند بعض الناس لبس « دلوق الشهرة والمرقعات » . ولقد انتقد ابن الحاج هذه الدلوق بشدة وطلب من الخياطين الامتناع عن صنعها وخياطتها ، ومن خلال نقده أعطانا وصفاً لها ، ومن بين ماقاله عنها أنه يتعين على الخياط « أن يتجنب خياطة دلوق الشهرة والمرقعات التى اتخذها بعض الناس كأنها دكاكين ، فنجد بعضهم يأخذ خرقاً جملة مختلفة الألوان أبيض وأصفر وأخضر وأحمر وأسود إلى غير ذلك ، ويرتبونها واحدة بجنب الأخرى . وبعضهم يتغالى فى تلك المرقعات فيجعلها من القماش الرفيع الفاخر الذى تفصيله بثمن كثير ، فيقطعونها خرقة خرقة لأجل غرض الشهرة الممنوعة فى الشرع الشريف »(١) .

والواقع أن الإسراف فى صنع الثياب الغالية لغرض الشهرة لم يكن أمراً قاصراً على دلوق الشهرة فقط ، فالنساء أيضا كان يستهوين عمل الثياب الغالية الثمن ولبسها .

ففى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون كن يرتدين فرجيات غاليات الثمن ثمن الفرجية منها حوالى خمسة آلاف درهم ، كما كن يلبسن أزراً حريرية ، قيمة الإزار منها ألف درهم(٢) .

كما أنهن فى عهد السلطان حسن كن يرتدين البغلطاق وكذلك البهطة ، والبهطة قميص مسرف فى الطول يتدلى جزء كبير منه على الأرض ويتسع كمه إلى حوالى الثلاثة أذرع وتبلغ تكاليف صنعه حوالى الآلاف درهم (٣) . لكن الحكومة

---

(١) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ٤٥
(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٥٣٦
(٣) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٠٤

المماليكية شنت حربا على هذا النوع من القمصان(١) لما فيها من إسراف وخروج على الفضيلة ، فأكمامها الزائدة الإتساع كانت تظهر أعكان المرأة ونهودها إذا رفعت يدها(٢) . وأمر الأمير منجك وزير السلطان حسن بمطاردة النساء اللاتي يلبسنها والقبض عليهن وتقطيع أكمامهن(٣) .

صناعة أغطية الرأس

غطاء الرأس لم يكن موحدا في العهد المماليكي ، فكل طائفة من طوائف المجتمع كان لها غطاء رأس خاص بها .

في أوائل العهد المماليكي البحري كان السلطان والأمراء وسائر العسكر يكتفون بلبس كلوتات(٤) صفراء مضربة تضريبا عريضا على رؤوسهم ولها كلاليب(٥) بغير عمامة فوقها ، فلما تولى السلطان المنصور قلاوون السلطنة أمر الأمراء

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٩٣

(٢) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ١١٨

(٣) المقريزي : المواعظ جـ ٢ ص ٢٢٢

(٤) الكلوتة غطاء الرأس تلبس وحدها أو بعمامة ، وتجمع على كلوتات وكلاوات ، وتسمى أيضا كلفته وكلفتاه . وقد اختلف الأصوليون في أصل هذا الاسم ، فيقول بعضهم إنه من اللفظ اللاتيني Calva ، أي غطاء أعلى الرأس ، ويقول آخرون أنه من لفظ لاتيني آخر هو Calautica ، كما يقول فريق ثالث إنه معرب اللفظ الفارسي كلوته . المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٤٩٣ حاشية ١

(٥) الكلاليب جمع كلاب وهو ما يعبر عنه بلفظ مشبك . المقريزي : السلوك جـ ٢ ص ٢٢٦ حاشية ٥ .

جند المماليك بلبس الشاشات(١) عليها ، ثم لمــا تولى إبنه الأشرف خليل بن قلاوون أمرهم بلبس كلوتات زركش .

ثم استجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عمائم صغار فنسبت اليه وسميت بالعمائم الناصرية .

ثم لما عظم أمر الأمير يلبغا العمرى فى عهدالسلطان شعبان ابتدع نوعا كبيرا من الكلوتات ، فنسبت اليه هذه الكلوتات وعرفت بالكلوتات اليلبغاويه ، لكنها عرفت أيضا فى نفس الوقت باسم الكلوتات الطرخانية .

وفى عهد السلطان الظاهر برقوق بالغ المماليك فى تكبير كلوتاتهم وعملوا فى سدتها عوجا فاشتهرت باسم الكلوتات الجركسية (٢) .

ومن بين العمائم التى شاع صنعها ولبسها - خصوصا فى أواخر العهد المماليكى جركسى - عمامة عرفت باسم التخفيفة . ومنها نوع كبير له قرون طوال عرف باسم التخفيفة الكبيرة كما اشتهر أيضا باسم الناعورة . ويقول ابن إياس عن التخفيفة الكبيرة « هى الآن فى مقام التاج لملوك مصر من حين تولوا بها الأتراك وكانت التيجان يلبسونها ملوك الفرس من الأكاسرة ، فصارت التخفيفة الكبيرة التى بالقرون الطوال لسلاطين مصر هى التاج لهم »(٣) .

ولم يقتصر لبس التخافيف التى بالقرون على السلاطين فقط ، فقــد لبسها

---

(١) الشاش هو ما يلف حول غطاء الرأس من قماش . المقريزى : السلوك ٢ ص ٣٣٦ حاشية ٢ .

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٩٨ ، ٢١٧ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٣١ - والتخفيفة هى عمامة صغيرة عط المحيط .

الأمراء المقدمون أيضا منذ عام ٩٠٢ هـ (١) ، وفى عام ٩١٤ هـ كبر الأمراء تخافيفهم وطولوا قرونها حتى خرجوا فى ذلك عن الحد (٢) .

لكن التخافيف لم تكن كلها بقرون ، فقد كان منها نوع صغير بدون قرون غالبا ما كان يسمى التخفيفة المملسة أو الملساء (٣) .

ولم تكن التخافيف هى وحدها التى اتخذت كالتـــاج ، فأمراء المماليك كانوا يلبسون فى حفل ترقيتهم إلى رتبة الإمارة شربوشا بغير عمامة (٤) . والشربوش « شىء يشبه التاج كأنه مثلث الشكل » (٥) .

وفى عهد السلطان الظاهر برقوق شاع عند رجال الدولة من الأمراء والمماليك والأمشاء لبس الطواقى فوق رؤوسهم بغير عمامة ، وهى طواقى ترتفع إلى نحو السدس ذراع ويعمل أعلاها مدورا مسطحا ، وتتنوع ألوانها ما بين أخضر وأحمر وأزرق وألوان أخرى .

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ١٢٨ .

(٣) نفس المرجع السابق والجزء ص ٢١٢ ، ٢٩٠ .

(٤) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٩٩ .

(٥) نفس المرجع والجزء والصفحة ـ ومما يذكر أنه فى حفل ترقية الأمير إلى رتبة الإمارة ينزل الأمير المرقى من قلعة الجبل فى موكب رسمى وهو لابس الشربوش فوق رأسه ، حتى يصل إلى قبة ضريح السلطان المنصور قلاوون . وهناك يحلف عند القبر المذكور ، ثم يعود بعدها بينما يكون أهل الأغانى قد جلسوا له فى طريقه لزفوه فى نزوله وصعوده . المواعظ ج ٢ ص ٢٨٠ — السلوك ج ٢ ص ٧٧

ثم تطورت هذه الطاقية فأصبحت تعرف بالطاقية الجركسية ، وبالغوا فى حشوها بالورق والكثيرة فيما بين بطانتها وقماشها ، وجعلوا أعلاها مدوراً مقبباً ورفعوا عصابتها إلى نحو الثلث ذراع ، وجعلوا من أسفل هذه العصابة زيقاً من فرو القندس عرضه نحو ⅛ ذراع يلف حول الطاقية فوق جبهة الرجل وعنقه .

ومما هو جدير بالذكر أن النساء أقبلن على لبس هذه الطاقية ، لكنهن بالغن فى عملها بالذهب والحرير ونحوه (١) .

أما الأوشاقية — وهم فئة من حرس السلاطين — فكانوا يلبسون فوق رؤوسهم نوعاً من الطواق « على صفة الطاسات » ، وهذا النوع من الطواق كان يعرف باسم الكوافى الزركش (٢) . لأنها كانت تزين بزركشة مذهبة .

لكن هذا النوع من الطواق لم يقتصر لبسه على الأوشاقية فقط ، فالوزير فى العهد الجركسى كان يخص حين ولايته الوزارة بكوفية مزركشة بالذهب قدر ثلاثة أصابع ، ولقد حرص وزراء هذا العهد على ابراز زركشتها للناس لذلك رفعوا عماماتهم عنها قدر ربع ذراع (٣) ، كما أن النساء أعجبن بهـا فأقبلن على

(١) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٤ — ويقول المقريزى أنه من بين أسباب إقبال النساء على لبس هذه الطواق أنه « فشا فى أهل الدولة محبة الذكر فقصد نساؤهم التشبه بالذكر ليستملن قلوب رجالهن فاقتدى بفعلهن فى ذلك عامة نساء البلد » . المقريزى : نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٢) نفس المرجع ، الجزء ص ١٨٣ — والطاسة طاقية صغيرة Dozy ; Supp. Dict. Ar. أما ابن إياس فيقول عن الطاسة أنها عرقية بذهب . ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٤٠١ .

(٣) الخالدى : المقصد الرفيع ص ١٢٦

أرتدائها فوق رؤوسهن وحرصن على التزين بها (١) .

ورغم أن الكوافى كانت غالبا ما تزركش بالذهب إلا أن بعضها كان يصنع من الصوف المرعز أى صوف الماعز ، وقد لاقى هذا النوع رواجا عند الناس (٢) .

ولقد كان « الزنط » أيضا من بين أغطية الرأس التى لبسها المماليك الجراكسة. والزنط كان فى الأصل غطاء رأس للفلاحين (٣) ، ثم أصبح بمضى الوقت غطاء رأس للمماليك الجراكسة أيضا ، وهو عبارة عن قلنسوة حمراء اللون تتدلى منها سراويب طويلة بطول الإصبع (٤) .

والقلنسوة ـ وهى غطاء رأس طويل ـ كانت مألوفة فى مصر منذ العهد العباسى لكنها كانت تصنع فى العهد المماليكى من الكتان المصبوغ وخيوط الابرسيم (٥) .

أما « القبع » (٦) ـ وهو أحد أغطية الرأس فى هذا العهد أيضا ـ فكان يصنع من الحرير ويزين بالذهب (٧) .

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ١٤٣ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٩٨ .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ١٢٤
(٤) ماير : الملابس المملوكية ص ٥٩
(٥) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ٦٠
(٦) القبع هو ما يغطى الرأس من ثوب كقبع البرنس مثلا ـ محيط المحيط
(٧) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٤٧ ـ المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٤٩٤ حاشيه ١ .

أما كبار رجال الدين والعلم والقلم فقد تميزوا بعمائم خاصة ، فعمامة الخليفة العباسي كانت « مدورة لطيفة عليها رفرف من خلف تقدير نصف ذراع مرسل من أعلى عمامته إلى أسفلها »(١) .

ومنذ عهد السلطان الأشرف شعبان وبأمر منه أصبحت عمائم الأشراف فى الديار المصرية والبلاد الشامية تتميز بشطفات خضراء بارزة « إجلالا لحقهم وتعظيما لقدرهم ، ليقابلوا بالقبول والاقبال ، ويمتازوا عن غيرهم من المسلمين »(٢)

أما القضاة والعلماء فقد تميزوا بلبس العمائم من الشاشات الكبار الغاية ، والتى يتدلى منها ذؤابة طويلة إلى ما بين الكتفين أو اليدين حتى أن هذه الذؤابة قد تصل فى بعض الأحيان إلى قربوس السرج(٣) إذا ركب الواحد منهم ، غير أن بعضهم كان يتخذ الطيلسان الفائق بدلا من الذؤابة(٤) .

والطيلسان أشبه بالطرحة يغطى العمامة والرأس ، وبعضهم كان يبالغ فى طوله إلى حد كبير(٥) ، ومنه نوع كان يختص بالوزراء وقضاة القضاه إسمه الطيلسان المقور(٦) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٧٦

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٥٦ — ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٢٧ .

(٣) قربوس السرج حنـ ه ، أو هو الخشبة الصغيرة القائمة فى مقدمه . محيط المحيط .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٢ .

(٥) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٧٠ — القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٤٢٨

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٢٤٨

والجدير بالذكر أن العمائم لم يقتصر لبسها على الرجال فقط ، فمنذ أوائل العهد المماليكي الجركسي لبست النساء العمائم أيضـــا وتزين بزى الرجال ، فنودى فى القاهرة ومصر عام ٦٦٢ هـ « أن إمرأة لا تتعمم بعمامة ولا تتزيا بزى الرجال ، ومن فعلت ذلك بعد ثلاثة أيام سلبت ما عليها من الكسوة »(١) ، لكن بالرغم من ذلك فقد استمرت النساء يلبسن العمائم ، وتميزت عمائمهن بسنامين (٢) .

والواقع أن لبس المرأة للعمامة لم يكن هو الشيء الوحيد الذى حاولت منعه الحكومة وقتئذ ، ففى عهد السلطان قايتباى شغفت النساء بلبس عصابات قصيرة فوق رؤوسهن اشتهرت باسم العصابات المقنزعه ، فنودى بمنعهن من الاستمرار فى لبسها ، ووضعت مواصفات لعصابات رؤوسهن ، واشترط على صناعها وبائعها بأن لا يقل طول العصابة عن ثلث ذراع وأن تكون مختومة بختم السلطان من الجانبين ، ونشط رجال المحتسب فى تتبع النساء بالأسواق ، فإن وجدوا إمرأة بعصابة مقنزعه علقوا عصاباتها برقبتها وضربوها وجرسوها ، وإزاء ذلك اضطرت النساء لبس العصابات الطويلة إذا خرجن إلى الأسواق لكن هذا الأمر لم يدم طويلا ، ثم عدن إلى ما كن عليه من لبس العصابات المقنزعه (٣) .

= هذا ولقد كانت الطرحة التى توضع على العمامة وتنسدل على الظهر امتيازا خاصا لقاضى قضاة الشافعية فقط ، ثم شمل هذا الامتياز قاضى قضاة الحنفية بعد ذلك بناء على طلبه . السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٧٠ ، ٢١٥ — القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٢ .

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٠٦

(٢) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ١١٨

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٣٢

هذا ولقد كان من عادة نساء البدو أن يلففن حول عصابات رؤوسهن الشنابر المشهورة ، والشنبر المشهور شريط من الحرير الأسود أو الأحمر القاتم عرضه شبران وطوله سبعه أذرع تلفه المرأة البدوية على رأسها فوق عصابتها بحيث يتدلى أحد طرفيه من مقدم رأسها ويتدلى طرفه الثانى من مؤخرها (١) .

صنـــاعة كسوة الكعبه

بعد أن فتح العرب مصر أمر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بأن تصنع كسوة الكعبة بها كل عام من قماش القباطى الذى كانت تشتهر مصر بنسجه فى ذاك الوقت. ويخبرنا الأزرقى فى أخبار مكة أن عمر كسا الكعبة القباطى من بيت المال ، وأنه كان يكتب لكى تحاك لها هذه الكسوة بمصر (٢) .

ومنذ هذا الوقت ظلت مصر تتكفل سنويا بصناعة هذه الكسوة فى مصانع لنسجها ودور طرزها فى تنيس (٣) وشطا (٤) وتونة ودمياط . وقد روى الفاكهى فى أخبار مكة أنه رأى بعض هذه الكسوات وعليها نصوص تفيد أنها صنعت فى هذه الدور .

وفى العهد العباسى كانت هذه الكسوة تصنع من الديباج الأسود (٥)، ولكن

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥٢٨ .
(٢) الأزرقى ـ أخبار مكة جـ ١ ص ١٦٨ .
(٣) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١٨١ .
(٤) نفس المرجع السابق والجزء ص ٢٢٦ .
(٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٨١ .

فى العهد الفاطمى أمر الخليفة الحاكم بأمر الله أن تصنع من القباطى البيض (١) لكن لما عادت مصر تدين بالولاء مرة أخرى للخلافة العباسية منذ عهد صلاح الدين الأيوبى عادت تصنع هذه الكسوة سوداء اللون كما كانت تعمل من قبل لأن هذا اللون كان شعارا للعباسيين (٢) .

والكسوة التى صنعت فى تلك الفترة كانت تصنع فى مصنع يختص بها بالقرب من مشهد الحسين بالقاهرة (٣) ، كما كانت دار الطراز بالاسكندرية تقوم بعمل القماش الأطلس اللازم لها (٤) ، وخصص لها ناظر مستقل يختص بمباشرة أمر صنعها ، كما وقفت لها أرض بيسوس بضواحى القاهرة للصرف عليها (٥) .

وحتى أوائل عهد السلطان فرج بن برقوق كانت الكعبة تكسى من أعلاها إلى أسفلها بالديباج الأسود ، وبأعالى هذه الكسوة طراز رقم بالبياض (٦) من أصل النسيج مكتوب فيه (إن أول بيت وضع للناس للذى بمكة مبارك) ... الآية .

كما أن بابها كان يصنع له برقع مرقوم فيه بالبياض أيضا ، غير أنه فى خلال عهد السلطان فرج بن برقوق غير لون طراز الكسوة من اللون الأبيض إلى اللون

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٥٠ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٨١ .
(٣) نفس المرجع السابق والجزء ص ٥٧ .
(٤) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ١٩٥ .
(٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥٧ .
(٦) أى طراز كتابى أبيض اللون ، فالرقم هو الكتابة . محيط المحيط .

الأصفر ، وصار الرقم فى سواد الكسوة بحرير أصفر مقصب ، فصار أكثر جمالا لشدة التضاد بين البياض والسواد .

كما جعلت بعض جوانب الكسوة من الديباج الأسود على العادة ، وبعضها الآخر كمخا أسود بجامات مرقوم فيها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

ثم جعل برقع البيت بعد ذلك من حرير أسود منشورا على المخايش (١) الفضة الملبسة بالذهب فزاد نفاسة وعلا قيمة .

وفى عام ٨١٤ هـ جعلت لواجهة الباب كسوة من كمخا أزرق بجامات مكتوب فيها « والله العالم ما كان وما يكون » (٢) .

هذا ولقد كان حرص المماليك شديدا على أن تكون كسوة الكعبة من اختصاصهم وحدهم فقط ، لذلك لم يسمحوا قط لأحد من ملوك البلاد الإسلامية الأخرى بالقيام بهذا العمل ، وتصدوا بحزم وشدة لكل محاولة من هذا النوع . فنى عهد السلطان حسن بن محمد بن قلاوون حج الملك المجاهد ملك اليمن وأشيع أنه يريد كسوة الكعبة فتصدى له العسكر المصرى وهزموه هو ومن معه ، وأسر وحمل إلى مصر فاعتقل بها (٣) .

وفى عام ٨٧٠ هـ قام الملك عماد الدين إسماعيل ملك اليمن بمحاولة مماثلة إلا أن أمير الحاج المصرى والحجاج المصريون الذين كانوا بصحبته تصدوا له

---

(١) المخايش هى الفضة الملبسة بالذهب . المرجع السابق جـ ٢ ص ١٣٥ . والكمخا كلمة فارسية تعنى النسيج الرقيع المنسوج من الحرير . محيط المحيط .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨١ – ١٨٢ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢ .

فاحتفل أيضا (١) .

وفى عهد السلطان برسباى بعث السلطان شاه رخ بن تيمورلنك يطلب الإذن له بكسوة الكعبة فقوبل طلبه بالرفض ، لكنه عاد يكرر نفس الطلب فى عهد السلطان جقمق ، فاضطر السلطان جقمق إزاء إصراره وإزاء عودة حملته فاشلة من وودس أن يستجيب لطلبه هذه المرة ، لكنه أمر فى نفس الوقت على أن توضع كسوة رخ تحت كسوته (٢) .

ولقد كان الاحتفال الذى يجرى سنويا بمناسبة إرسال كسوة الكعبة إلى مكة على محمل خاص من أهم الاحتفالات السنوية التى كانت تشترك فيها الحكومة المماليكية مع الشعب بمختلف فئاته وطوائفه ، ففى شهر رجب من كل عام كان يحتفل بدوران هذا المحمل إيذانا بسفره إلى الحجاز بحضور السلطان ذاته . ويبدأ الاحتفال فى باكر النهار بعرض فى رمى الرمح يقوم به الرماحة أمام السلطان، ثم تعرض الكسوة الشريفة على الناس محمولة على رؤوس المماليك والقضاة والعلماء والمشايخ والصلحاء، وطوائف الفقراء - أى الصوفية - يسيرون بها أمام المحمل . وبعد الظهر من نفس اليوم تعرض الكسوة ويطاف بها مرة أخرى، وفى الليل تطلق صواريخ النفط ابتهاجا بهذه المناسبة (٣) .

---

(١) المقريزى : السلوك . مخطوط . مجلد ٢ ص ١١٧ ا

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٩٦ - ٩٨

(٣) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٧

صناعة الخيام

احتلت صناعة الخيام أهمية خاصة بين صناعات مصر فى العهد المماليكى . فالخيام وقتئذ كانت لها أهمية خاصة فى حياة المجتمع المصرى لأنه كان يستخدمها إستخدامات عديدة فى مناسبات وأوقات عديدة ، ولذلك فقد كان للخيميين ـ أى صناع الخيام ـ خط خاص بهم بالقرب من الجامع الأزهر(١) .

ولا شك أن صناعة الخيام فى عهد المماليك تعتبر إمتدادا لما كانت عليه هذه الصناعة فى العهود التى سبقته ، وهـــذا يدعونا إلى أن نلقى نظرة عامة على هذه الصناعة فى هذه العهود خصوصاً العهد الفاطمى .

فى العهد الفاطمى كانت تصنع أنواع عديدة من الخيام ، ولكل نوع منها اسم خاص ، ولقد ذكر المقريزى بعضها وأعطانا وصفاً موجزا لها (٢) ، ومن بين الخيام التى ذكرها :

المسطح : خيمة على هيئة حائط مربع له أربع حيطان وسقف بستة أعمدة منها عمودان للحائط الواحد .

الخيمة : خيمة ظهرها على هيئة حائط مربع ، كما أن سقيفتها الممتدة إلى الباب على هيئة حائط مربع أيضا ، أركانها شواوك من الجانبين على قدر القائم ، وفيها أربعة أعمدة إثنان فى الباب وإثنان فى وسطها ، وكلما زاد حجمها وزادت مساحتها زاد عدد عمدها .

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ٢ ص ٩٣

(٢) نفس المرجع السابق جـ١ ص ٤١

الشراع : خيمة يرتفع سقفها على عمودين ، أما ظاهرها فهو على هيئة حائط يحول إلى ناحية الشمس حيثما تدور .

المشرعة : خيمة على هيئة المظلة ترتفع على عمود واحد ، ولها شراع سابل خلفها يحرك ويدار إلى حيث تدور الشمس ، بينما تظل قبة الخيمة على حالها .

كما أشار المقريزي إلى خيام أخرى كانت تصنع في هذا العهد منها المضارب(١) والفازات والحركاوات(٢) ، والحصون ، والقصور ، والفساطيط .

وقد صنعت هذه الخيام من خامات عدة ومن منسوجات مختلفة مثل الدبيقى والمخمل ، والخسرواني ، والديباج الملكي . والأرمني ، والبهنساوي ، والكردواني والحلبي ، والسندسي ، والطميم .

وزخرفت هذه الخيام بأشكال حيوانات وطيور كالفيلة والسباع والخيول والطواويس وغيرها ، غير أن بعضها كان ساذجا بدون نقوش ، والبعض الآخر منقوشا في ظاهره بغرائب النقوش .

أما أعمدتها فكانت تلبس بأنابيب فضة ، أو تكسى بثياب مذهبـــة أو غير مذهبة من سائر الأنواع والألوان ، كما لبست حبالها بالقطن والحرير .

أما قنها من الخارج فكانت تمثلها صفرية ، وهي حلية معدنية تصنع من الفضة ويختلف حجمها حسب حجم الخيمة .

---

(١) المضرب هو الفسطاط العظيم . المخصص ج ٦ ص ٧

(٢) الحركاة بيت من خشب يصنع على هيئة مخصوصة ، ويغشى بالجوخ ونحوه . وتحمل الحركاة عند السفر لتكون في الخيمة للمبيت بها في الشتاء وقاية من البرد . القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٨

أما سائر أدوات الخيمة وآلاتها وعدتها وأوتادها فكانت تبطن بأنواع من القماش الفاخر كالدبيقي الطعيم المذهب والخسرواني المذهب والقماش الحرير الصيني والتستري والرجيح والشرقي والشعري والديباج والمريش وسائر أنواع الحرير من سائر الألوان .

وتنوعت أحجام هذه الخيام ، ومنها ما كان تحمل أوتاده وعمده وسائر عدته على عشرين بعيرا ، ومنها مادون ذلك أو أكثر(١) .

ومن أشهر خيام الفاطميين الضخمة «القاتول»(٢) ، وهى خيمة كانت تشتمل على قاعة كبيرة تتفرع منها أربع قاعات أخرى تشغل مساحة تزيد على الفدانين ، وكان عمود قاعتها الرئيسية يرتفع إلى سبعين ذراعا ، وبقمته صفرية ضخمة من الفضة تسع راوية ماء(٣) .

أما خيمة الخليفة الفاطمى المستنصر فقد ظل مائة وخمسون عاملا يعملون فى صنعها لمدة تسعة أعوام متوالية حتى أتموها ، فجاء محيطها خمسمائة ذراع ،وكانت تقوم على عمود ارتفاعه خمسة وستون ذراعا ، وتتكون من أربع وستين قطعة تجمع مع بعضها بعرى وشراريب ، وبلغ من ضخامتها أن قماشها وحبالها وعدتها كانت تحمل على مائة جمل ، كما أن صفريتها المصنوعة من الفضة كان وزنها ثلاثة

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٤١

(٢) سميت هذه الخيمة بالقاتول وذلك بعد أن سقط من فوقها فراشا فمات لساعته . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧١

(٣) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة ـ المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٤٧٠

قناطير مصرية ، وتسع من الماء ما يقدر براوية جمل . ولقد صورت وفرف هذه الخيمة العديد من صور الحيوانات والأشكال الطريفه والعقود المليحة(١).

ولقد شاهد ناصري خسرو في احتفالات فتح الخليج سرادقا ضخما من الديباج الرومي موشى كله بالذهب ومكلل بالجواهر وقال أن ظله يتسع لمائة فارس(٢) .

تلك كانت صورة عامة لما بلغته صناعة الخيام في العهد الفاطمي من تقدم ، ولا شك أن هذه الصناعة قد ازدادت نضجا وتطورا بعد ذلك .

وفي العهد المماليكي صنعت أنواع عديدة من الخيام ، واستخدمت هذه الخيام استخدامات عدة ؛ فبعضها صنع لتظليل الأسواق ومن أمثلتها خيمة كانت تظلل الأقفاص بالسوق الذي يتقدم المدرسة المنصورية (٣) .

كما أن بعض الأسواق الطارئة التي كانت تقام في بعض المناسبات كانت تشيد كلها بالصواوين(٤) .

ويخبرنا المقريزي عن جامع أمر السلطان الظاهر بيبرس بعمله عام ٦٦١ هـ من القماش المفصل ، فعمل كما أمر وضرب على يمين خيمة السلطان الظاهر وجعل فيه محاريب وأبواب وعملت فيه مقصورة برسم السلطان (٥) ، أي خاصة له .

وصنعت خيام للزينة كانت تقام في أماكن الاحتفالات أو أماكن النزهة

---

(١) المقريزي : المواعظ جـ١ ص ٤١٩

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٥٢

(٣) المقريزي : المواعظ جـ٢ ص ٤٠٧

(٤) نفس المرجع السابق والجزء ص ١١٢

(٥) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥٠١

والهو التى كان الناس يرتادونها مثل الأزبكية وبركة الحبش وجزيرة بولاق(١).

ومما يلفت النظر أن بعض هذه الخيام ظلت تحمل نفس الأسماء التى كانت تطلق عليها فى العهد الفاطمى ، كالمضارب والسرادقات والقباب والشراعات (٢) ، وهذا يؤكد ما سبق أن قلته أن صناعة الخيام فى العهد المملوكى استمرت على نفس تقاليدها الموروثة التى كان معمولا بها قبل هذا العهد .

ولقد كانت تصنع لسلاطين المماليك عدة أنواع من الخيام ، بعضها لأسفاره وبعضها الثانى لحروبهم، وبعضها الثالث لرحلات صيده، وبعضها الرابع لنزهاته(٣).

أما خيام وفساطيط أسفاره فكانت تصنع من القطن الشامى الملون بالأبيض والأحمر والأزرق ، وكذلك من الجوخ المختلف الألوان « مما يدهش بحسنه العقول لينوب مناب قصورهم فى الإقامة » (٤) .

ولقد روى عن خيمة السلطان الناصر محمد بن قلاوون أنها كانت تتكون من شقة وهى خيمة مستديرة مقسمة ، ويتصل بهذه الخيمة شقة مختصرة أى خيمة أصغر حجما ومساحة ،وهذه الأخيرة تؤدى إلى خيمة ثالثة تسمى اللاجوق . ويدار كل خيمة منها من جميع جوانبها من الداخل سور خركاة من خشب(٥)

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٦٥ ، صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٩ - المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٠٤

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٠٤

(٣) النورى : نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٢٦

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩

(٥) الخركاه بيت من خشب يصنع على هيئة مخصوصة ويغشى بالجوخ ونحوه.

وفى صدر اللاجوق قصر صغير من خشب ينصب للبيت فيه، وينصب بإزاء الشقة حمام بقدور من رصاص وحوض على هيئة الحمامات بالمدن إلا أنه مختصر (١).

أما خيمة السلطان التى يستصحبها معه فى حروبه فتسمى دهليزا ، وغالبا ما تكون منفرده قائمة بذاتها فلا يلحق بها أو بجوانبها خيام صغيرة أخرى (٢).

وبعض الدهاليز كانت تصنع من الأطلس المعدنى(٣)، ومن أمثلتها دهليز أقامه السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى الميدان الذى يتقدم القلعه لاستقبال خطيبته الأميرة طلنباى عند وصولها من بلاد التتر (٤).

والبعض الآخر من الخيام كانت تصنع من الأطلس الأحمر بأطناب حرير

= يحمل فى السفر ليكون فى الخيمة للبيت فى الشتاء وقاية من البرد . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٨ — ويعطينا إبن إياس وصفا لخركاة خيمة أهديت السلطان الغورى عام ٩١٧ هـ فقال أنها : خشب مدهونة بماء ذهب ولازورد وألوان غريبة ، وهى منقوشة هيئة وحوش كاسر ومكسور ، ولهذه الخركاه غشى جوخ أزرق مقصص ، ولها أطناب وعراوى حرير أحمر ، ولها باب خشب موشق وعليه ضبة ، ولتلك الخركاة بساط مدور على قدرها منقوش من جملة التحف الغريبة ، فأمر السلطان بنصبها فى الحوش الفرجة ، ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٠٢ .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص٤٨ — المقريزى: المواعظ ج٢ ص ٢٠

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٤٨ حاشيه .

(٣) ينسب الأطلس المعدنى إلى بلدة معدن وهى بأرمينيه قرب منبع نهر دجله ، ولقد سميت هذه المدينة بهذا الاسم بسبب وجود مناجم لمعدنى النحاس والحديد بالقرب منها . المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٩٠ حاشيه ٤

(٤) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٦٦

وأعمدة صندل وتحلى بفضة مذهبة (١) .

ومن بين الخيام التى كان يستخدمها السلطان أيضا خيمة اسمها سحابة ، وهى أشبه بالظلة ، ومن أمثلتها سحابة صنعت للملك الظاهر أبى سعيد قالصوه من المخمل المذهب وبها رنوك (٢) زركش ، ونصبت فوق الدكة التى كانت بحوش القلعة ، وجلس السلطان على الدكة تحتها ، وهناك استقبل القضاة الأربعة الذين قدموا لتهنئته بحلول الشهر العربى (٣) .

وأحيانا تنصب السحابه على مراكب السلطان أيضا ليجلس السلطان تحتها ، فنى عام ٩١٧ﻫ ركب السلطان الغورى حراقته إلى مقياس الروضة ، فنصبت له فيها سحابة من حرير أصفر (٤) .

ولقد صنعت خيام أخرى عرفت باسم المدوره ، وغالبا ما استخدمت المدورات أثناء التجاريد العسكرية ، وعند نصبها فى المعسكرات كان يراعى أن تتأخر مدورة الا ذير مقاما عن مدورة الأصغر منه رتبه ومقاماً ، ولذلك كانت تنصب مدوره السلطان فى آخر الوطاقات دائما ، وهى مدورة ضخمة كانت تحمل على مائة وعشرين جملا (٥) .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٨٣ - والأطناب جمع طنب وهو حبل طويل يشد به البيت . محيط المحيط .

(٢) الرنك وجمعه رنوك . وهو الشعار الذى يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦١ - ٦٢

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٦٤

(٤) نفس المرجع والجزء ص ٢١٣

(٥) ابن شاهين . زبدة كشف الممالك ص ١٢٧ - والوطاق هو الخيمة . محيط المحيط .

غير أنه من أكبر المدورات التى صنعت لسلاطين المماليك تلك المدورة التى صنعها السلطان الأشرف قايتباى وبلغت تكاليف صنعها ستة وثلاثون الف دينار[١] . وقد وصفها ابن إياس فقال أنها كانت « من عجائب الدنيا ولم يعمل مثلها قط ، قيل أن مصروفها على الأشرف قايتباى ثلاثون الف دينار ، وقيل أكثر من ذلك ، وكانت غاية فى التجمل حيث تنصب ليـــلة المولد الشريف ، وكانت كهيئة قاعة ولها أربعة لواوين ، وفوقها قبة بقمريات ، والكل من قماش وكان فيها تقاصيص غريبة وفصوص غريبة ، وصنائع لا يعمل الآن مثلها أبدا وكانت إذا نصبت أيام المولد يحضرون بجماعة من النواتية نحو خمسمائة إنسان حتى ينصبوها فى الحوش السلطانى ، وكانت من شعائر المملكة السلطانية بالقاهرة »[٢] .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٤٧

(٢) نفس المرجع ج ٣ ص ١١٢ .

صناعة البسط

صناعة البسط فى مصر الإسلامية صناعة قديمة، فقد كشفت دار الآثار العربية (متحف الفن الإسلامى حاليا) فى حفائرها بالفسطاط قطعا من السجاد ذات شأن عظيم فى دراسة السجاد فى فجر الإسلام ، ومن بينها قطعة عليها بقية تاريخ يرجح أنه عام ٢٠٦ هـ .

وفى بعض المتاحف والمجموعات الفنية قطع من هذا النوع تشهد كلها بأن صناعة السجاد كانت معروفة فى مصر فى القرن الثالث الهجرى ، وأن خيوط الكتان كانت تستخدم فى سداه ولحمته ، وأن عقده كانت تعقد على خيوط لحمته وأن الأنواع التى كانت تصنع منه فى ذاك الوقت لم تكن كبيرة المساحة .

ولا ريب أن صناعة السجاد فى مصر فى العهـــد الفاطمى كانت زاهرة ، فالمقريزى أشار إلى شهرة مدينة أسيوط فى صناعة السجاد الذى يشبه سجاجيد أرمينية ، كما ذكر اليعقوبى ذلك قبل المقريزى بعـــدة قرون . وفى متحف المتروبوليتان بنيويورك قطعة من السجاد عليها كتابة بخط كوفى دخلته الزخرفة ويرجح أنها ترجع إلى هذا العهد .

أما سجاد مصر فى العهد المماليكى فقد اختلفت آراء مؤرخى الفنون الإسلامية بشأنه ، فن بين نماذج السجاجيد التى درسوها نوع نسب فى البداية إلى دمشق ، كما نسب إلى مراكش وآسيا الصغرى ، لكن الراجح أنه من صناعة مصر ، ويمتاز هذا النوع بأن أرضيته حمراء وبأن فيه عدا ذلك اللون الأخضر الناصع ، ومواضع قليلة منه باللون الأزرق ، وله صوف لامع ، فضلا عن أنه معقود على سداة من الحرير .

وبعض هذه السجاجيد كلها من الحرير ، أما قوام زخرفتهـا فمناطق هندسية مختلفة تضم رسوماً هندسية أخرى ، ورسوم زهور وأشجار محورة عن الطبيعة. أما مساحتها فتتألف من عدة مناطق متعددة الألوان ، كما أن إطارهـا لا يختلف فى ألوانه ورسومه عن ساحتها إلا نادراً .

والمرجع ـ كما قلنا ـ أن هذه السجاجيد مصرية صنعت فى عهـــد المماليك فزخارفها الهندسية تشبه الرسوم التى نراها على كثير من التحف التى ترجع إلى هذا العهد ، ولا سيما جلود الكتب ورسوم الفسيفساء الرخامية (١) .

والواقع هناك ما يدل على أن صناعة البسط كانت إحدى الصناعات البارزة بمصر فى هذا العهد ، فأحد أخطاط القاهرة الواقعة خارج باب زويلة كان يعرف باسم خط سوق البسطيين (٢) .

كما أنه عندما نهب قصر الأمير توصون عام ٧٤٢ هـ كان من بين ما نهب منه أعداد كثيرة من البسط ، بينها بسط « من عمل الشريف بمصر » (٣) . وبعض هذه البسط ـ أى التى من عمل الشريف ـ كانت من الحرير (٤) .

كما أنه عندما إنتهى من بناء المدرسة الأقبغاوية فى عهـد السلطان الناصر الناصر بن قلادون حمل لها نقيب الأشراف ومحتسب القـــاهرة فى ذاك الوقت

---

(١) زكى حسن : فنون الإسلام ص ٣٩٧ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ١٠٨

(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٤) نفس المرجع والجزء ص ٧٢

« بسطا على قياسها بلغ ثمنها ستة آلاف درهم ... ففرشت هناك » (١) .

وفضلا عن ذلك فالرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر فى نهاية عهد المماليك وبداية الحكم العثمانى أشاروا إلى وجـــود مصانع لنسج السجاد فى القاهرة (٢) ، كما أنه كان من بين الصناع المصريين الذين نقلهم السلطان سليم إلى اسطنبول بعد فتحه لمصر صناع سجاد (٣) .

صناعة آلات الركوب

آلات الركوب هى الأدوات التى كانت تستخدم عند ركوب الخيول والجمال على وجه الخصوص ، وقد حددها القلقشندى فى : السرج ، اللجام ، الكنبوش ، العباءة ، المهماز ، الكور ، الزمام ، الركاب ، السوط أو المقرعة (٤) .

ولا شك أن صناعة هـذه الآلات أو الأدوات كانت هى الأخرى تشكل قطاعا هاما من قطاعات الصناعات المصرية ، وهـــذه الأهمية ترتبط إرتباطاً وثيقاً بأهمية الخيول والجمال فى حياة المجتمع وقتئذ . كما أنه هناك من الشواهد التى تدل على أن هذه الصناعة كانت من الصناعات العريقة فى مصر منـــذ فجر إسلامها ، ومن بين هذه الشواهد أن خلفاء تلك الفترة كانوا يكلفون عمالهم عند إسناد مقاليد مصر إليهم أن يرسلوا إلى دار الخلافة سنوياً كميات من أجلال

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٢٨٤ .
(٢) زكى حسن : فنون الإسلام ص ٤٣٥ .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ١٣٢ .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٣٥ - ١٣٦ .

الخيل (١) التي كانت تصنع فيها وقتئذ (٢) .

ولقد خصص لهذه الآلات في العهد المماليكي سوقان كبيران من أسواق القاهرة هما سوق الهامزيين وفيه كانت تصنع وتباع الهاميز وبدلات الخيول وسلاسلها الفضية ومخاطها ، وسوق الجميين وكان مخصصا اللجم والسروج وأدواتها (٣) .

أما السروج فكانت ذات أشكال وقوالب مختلفة ، فمنها ما كان يغشى بالذهب وهو الذي يصلح للسلطان وأعيان الأمراء ، ومنها ما كان يغشى بالفضة البيضاء ، وكل من هذين النوعين قد يكون منقوشا أو بدون نقوش ، كما أن بعضها كان يحلى بأطراف من الفضة ، والبعض الآخر ساذج (٤) .

وبعض السروج كانت تصنع ملونة في لون أصفر أو أزرق ، كما أن بعضها كان يصنع من الذبل (٥) .

وكان من العادة أن تعمل للسروج التي يستخدمها رجال السيف ورجال القلم قربوسة (٦) من ستة أطواق من الفضة المطلية بالذهب ، كما كانت تحلى بمقربات

---

(١) الأجلال جمع جل ، والجل ما تلبسه الدابة لتصان به . محيط المحيط .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣١ .
(٣) المقريزي : المواعظ ج ٢ ص ٩٧ ، ٩٨ .
(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٥ ؛ ج ٤ ص ٤١ - والشيء الساذج هو مالا نقش فيه . محيط المحيط .
(٥) الذبل هو جلد السلحفاة البحرية أو البرية أو هو عظام دابة بحرية تتخذ منها الأسورة والأمشاط . القاموس المحيط .
(٦) القربوس حنو السرج ، والعامة تسمي به الخشبة الصغيرة القائمة في مقدم السرج . محيط المحيط .

من فضة (١) .

ولما تسلطن السلطان الظاهر برقوق إتخذ سائر الأجناد السروج المفرقة أى التى جميع قرابيسها من ذهب، أو فضة مطلية أو ساذجة ، وكثر صنع هذه السروج وإستخدامها حتى أنه لم يبق فارس إلا وسرجه كما ذكرنا (٢) .

وبالإضافة إلى ذلك فسروج بعض السلاطين كانت من البلور (٣) ، والبعض الآخر منها من البلور المزيك بالذهب (٤) ، وكذلك من العقيق المزيك ، كما وضع بعضها بفصوص مثمنة (٥) .

أما السروج التى كانت تصنع لركوب القضاة ومشايخ العلم والدين فكان يغلب عليها البساطة وغالبا ما كانت تعمل من سيور من الجلد البلغارى الأسود على عادة بنى العباس فى إستخدام السواد ، وهى بصفة عامة ساذجة أى خالية من وسائل الزينة الغالية كالذهب والفضة (٦) ، وكانت العادة عند هؤلاء أن يجعلوا حول السرج قرقشينا من جوخ ، وهو شبيه بثوب مختصر ، (٧) .

أما اللجم فكانت تصنع هى الأخرى فى قوالب مختلفة ، فالتى تصنع لرجال

---

(١) الشىء المقرب هو المعوج والمعطوف . محيط المحيط .
(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٩٨ .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٢٠٠ .
(٤) نفس المرجع السابق والجزء ص ٤١٧ ـ والزيك كلمة فارسية معناها جواهر صغيرة مرصعة حول جوهرة كبيرة . محيط المحيط .
(٥) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٣٣ ، جـ ٤ ص ٤٠٧ .
(٦) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٩٨ .
(٧) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٢ .

السيف كان منها ما يحلى بالذهب ، أو يحلى بالفضة ، أو يكون ساذجا أى بدون طلاء ، ومنها ما كان يحلى جانباه بالفضة ، وكل ذلك حسب إختيار أصحابها(١).

وفى سوق الهامزيين كانت تصنع وتباع بدلات فضة خاصة بلجم الخيل ، وهـذه البدلات كانت تصنع إما من الفضة المجراة بالمينا أو من الفضة المطلية بالذهب ، فيبلغ زنة ما فى البدلة من خمسمائة درهم فضة إلى ما دونها (٢) .

أما الكنابيش ـ وهى التى يستر بها مؤخر ظهر الفرس وكفله ـ فكانت تصنع من الذهب المزركش ، أو من الخايش أى الفضة الملبسة بالذهب (٣) .

وبعض الكنابيش الخاصة لركوب السلاطين كان يزاد فى وسائل زينتها ، فتعمل من الذهب المزركش المزهر (٤) بالريش (٥) ، أو تعمل من الزركش على مخمل أحمر وحولها مرتمش ذهب وفضة (٦) .

أما كنابيش القضاة وأهل العلم فتكون من الصوف المرقوم (٧) .

وأحيانا كان رجال السيف يستبدلون الكنابيش بالعبى ، فالعباءة كانت تقوم

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٤١ .

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٩٧ ، ٩٧ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٣٥ ـ وكفل الفرس عجزه أو ردفه . محيط المحيط .

(٤) الزهرة هى البياض والحسن . محيط المحيط .

(٥) القلقشندى : المرجع السابق جـ ٤ ص ١٢ .

(٦) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٤١٠ .

(٧) القلقشندى : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٣٥ ـ والرقم هو الكتابة ، وهو أيضا ضرب مخطط من الوشى . محيط المحيط .

مقام الكنبوش (١) . والعبى التي كانوا يركبون بها كانت تصنع إما من الصوف الفاخر ، وربما صنعت من الحرير لأعيانهم (٢) .

وتميز قضاة القضاة بالركوب بالزنارى بدلا من الكنبوش ، وهو نوع من العبى يصنع من الأطلس الأحمر أو الجوخ ويكون مفتوحا فوق صدر الحصان ومسدولا على كفله بحيث لايرى ذيله (٣) .

وفي المواكب العظام كان فرس السلطان يتميز وحده بالرقبة . والرقبة لباس معين كان يشد على رقبة هذا الفرس في هذه المواكب فيسترها من تحت أذن الفرس إلى حيث السرج (٤) ، وهذه الرقبة كانت تصنع من الحرير الأصفر وتطرز بالذهب الزركش بغزارة إلى درجة تجعل الحرير غير مرئي (٥) .

أما المهاميز فالاصل فيها أن تصنع من الحديد ، غير أن منها ما كان يصنع من الذهب المحض أو الفضة ، أو قد تصنع من الحديد المطلى بالذهب أو الفضة (٦) . ويصف المقريزى ما شاهده منها فيقول « وأدركت الناس وهم يتخذون المهاز كله قالبه وسقطه من الذهب الخالص ومن الفضة الخالصة ، ولا يترك ذلك إلا من يتورع ويتدين فيتخذ القالب من الحديد ويطليه بالذهب أو الفضة ، ويتخذ

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٩
(٣) نفس المرجع والجـــزء ص ٤٢ — المقريزى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٨٥١ حاشيه — Dozy : Supp. Dict. Ar
(٤) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٠١
(٥) القلقشندى : المرجع السابق ج ٢ ص ١٣٣ ، ج ٤ ص ٨
(٦) القلقشندى : المرجع السابق ج ٢ ص ١٣٦ .

السقط من الفضة » (١) .

وفي وقت الحرب كانت خيول وجمال السيف تكسى بأردية خاصة وسروج حربية تعرف باسم البراسيم الحربية (٢) ، كما كانت تلبس بالبركستوانات ، وهي أردية للخيول تصنع من الفولاذ ، كما كانت تغطى وجوهها بوجوه مصنوعة من الفولاذ (٣) .

أما فيما يختص بالكور – وهو الرحل الذي يجلس عليه الراكب فوق ظهر الهجين – فإنه ما كان يغشى بالذهب والفضة في مقدمه ومؤخرة (٤) ، كما أن بعض الأثرياء كانوا يسرفون في عمل أكوار غالية التكاليف ، فالمقر الشهابي أحمد بن العيني « صنع أكوارا من ذهب مرصعة بفصوص بلخش وفيروز وياقوت ، ولم يسبقه أحد لمثل ذلك » (٥) .

(١) المقريزي : المرجع السابق ج ٢ ص ٦٨ .
(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٥١٨ حاشيه ٢
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٧٢ ، ج ٢ ص ٣٣ .
(٤) القلقشندي : المرجع السابق ج ٢ ص ١٣١ .
(٥) ابن إياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١٤١

صناعة الورق

المعروف عن أهل مصر أنهم كانوا يستخدمون أوراق البردى للكتابة منذ العهود الفرعونية لكن لما انتشرت صناعة الورق فى الدولة الإسلامية(١) بدأ الورق يحل محله فى مصر تدريجيا . ويرجع آدم متز أن صناعة ورق البردى فى مصر للكتابة قد أصبحت منتهية بالإجمال حوالى القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى - وبنى ترجيحه هذا على أساس أن الورق البردى المؤرخ بما ينتهى إنتهاء تاما فى عام ٣٢٣ هـ ، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد أى الورق يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ .

---

(١) كان أهل الصين يكتبون فى ورق يصنعونه من الحشائش والكلأ ، فأخذ الناس عنهم صناعته . أما الفرس فكانوا يكتبون على المدبوغ من جلود الجواميس والبقر والغنم وغيرها ، كما كانوا يكتبون أيضا على اللخاف وهى حجارة بيض رقاق ، وعلى رقائق من النحاس والحديد وغيرها ، وعلى عسب النخل وهو الجريد الذى لا خوص له ، وكذلك على أكتاف الإبل والغنم .

ولما كانت صلة العرب وثيقة بالفرس قبل الاسلام لقربهم منهم لذلك فقد نقلوا عنهم الكتابة على هذه الأدوات واستمروا على ذلك فى عهد النبوة .

وعند ما كتب الصحابة القرآن الكريم كتبوه فى الرق لطول بقائه زمنا طويلا وبقى الناس على ذلك إلى أن ولى الرشيد الخلافة ، وكان الورق وقتها قد شاع صنعه ، فأمر ألا يكتب الناس إلا فى الكاغد - أى الورق - لأن الجلود ونحوها تقبل المحو وإعادة الكتابة عليها مرة أخرى فيسهل تزويرها وهذا بخلاف الورق الذى كان من الصعب تزوير الكتابة التى عليه فإنه متى محى أو كشط ظهر ذلك بوضوح

فانتشرت منذ هذا الوقت صناعة الورق والكتابة عليه فى سائر الأقطار .

القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٨٥ ، ٤٨٦

وفى العهد المماليكى كانت مصر تصنع نوعا من ورق الكتابة يعرف باسم الورق المصرى ، غير أن هذا الورق كان يأتى فى المرتبة الثالثة من حيث الجودة والقطع بالنسبة إلى الورق البغدادى الذى كان ينسب لبغداد ، والورق الشامى الذى كان ينسب للشام (١) .

والورق المصرى كان على قطعين ، أولهما القطع المنصورى ، وثانيهما القطع العادة . والمنصورى أكبرقطعا ، وقلما يصقل وجهاه . أما العادة فإن فيه مايصقل وجهاه ، ويسمى عند الوراقين باسم المصلوح .

أما ما كان يصنع من ورق خلاف ذلك فكان على رتبتين : عال ووسط . وفيه صنف من الورق كان يعرف باسم الفوى ، صغيرالقطع خشن غليظ خفيف لا يصلح للكتابة . وإنما يتخذ للحلوى ونحو ذلك(٢) .

هذا ولقد كان الورق الذى يصنع فى الصيف أغلى ثمنا مما كان يصنع فى الشتاء فالورق الذى يصنع فى الصيف يكون زائداً فى البياض وفى الصقال ، أما الذى يصنع فى الشتاء فيأتى وفيه سمرة ونقص فى الصقال والبياض(٣)

---

(١) الورق البغدادى ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزاء ، وقطعة وافر جدا ، ولا يكتب فيه فى الغالب إلا المصاحف الشريفة ، وربما استعمله كتاب الإنشاء فى مكاتبات القانات - أى الملوك - ونحو ذلك .

أما الورق الشامى فدونه فى الرتبة ، وهو على نوعين : الحموى وهو دون القطع البغدادى . ودونه فى القدر نوع يعرف بالشامى ، وقطعه دون الحموى . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٨٧ .

(٢) نفس المرجع ج ٢ ص ٤٨٧ .

(٣) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٧٦ .

صناعة الدوى

أشار المقريزى إلى صناعة الدوى كأحد الصناعات التى كانت قائمة بالقاهرة فى العهد المماليكى ، وذكر أن صناع الدوى كانوا يمارسون صنعتهم فى سوق الخراطين[١] وهو أحد أسواق القاهرة فى ذاك الوقت .

ويعطينا القلقشندى فكرة عامة عن أنواع وأشكال الدوى التى كانت مستخدمة فى زمنه وعن المواد التى كانت تصنع منها ، ومن كلامه نفهم أنها كانت تصنع من أربعة مواد ـ من الفولاذ ، ومن النحاس الأصفر ، ومن الأبنوس والصندل الأحمر ، ومن الخشب .

أما الدوى الفولاذية فكانت قليلة لقلة الفولاذ ونفاسته ولذلك كانت لاتستخدم إلا بواسطة أهل الرياسة فقط كالوزراء ومن يماثلهم فى الرتبة .

أما الدوى المصنوعة من النحاس فكانت أكثر شيوعا واستخداما عند الكتاب .

أما الدوى المصنوعة من الأبنوس والصندل الأحمر فقد حلت محل الدوى الخشبية بعد أن أصبحت الأخيرة غير مرغوب فيها ، ولقد شاع استخدامها بواسطة قضاة الحكم وموقعيهم وكذلك بعض شهود الدواوين .

أما فيما يختص بأشكال الدوى فكانت تختلف بين التدوير والتربيع . فأما

---

(١) هذا السوق كان زاخراً بالحوانيت التى تبيع المهد الذى يربى فيه الطفل ، وكذلك بحوانيت الخراطين، وحوانيت صناع السكاكين ، وكذلك صناع الدوى . المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٠٣

كتاب الإنشاء فكانوا يتخذونها مستطيلة مدورة الرأسين ، لطيفة القد طلبا للخفة

أما كتاب الأموال فكانوا يتخذونها مستطيلة مربعة الزوايا ليجعلوا فى باطن غطائها ورق الحساب الديوانى المناسب لها فى القطع .

وعلى هذا الشكل أيضا اتخذ قضاة الحكم وموقعوهم دويهم أيضا(١) .

صناعة الشمع

كانت صناعة الشمع من الصناعات الرائجة ، فالشمع كان وسيلة رئيسية للإضاءة خصوصا فى الاحتفالات والمواكب ، ولهذا السبب فقد تفنن صناعه فى صنع أنواع عديدة منه تباينت فى أشكالها وأحجامها ووسائل تزيينها وزخرفتها فكان منها الشموع الموكبية ، والشموع الفانوسية ، والشموع الطوافات(٢) .

والشموع الموكبية كانت تشعل فى الاحتفالات والمواكب العامة على وجه الخصوص ، كما كانت تقدم فى الأفراح كهدية عرس(٣) ، ولذلك كانت تصنع

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ٤٤١ - ٤٤٣

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٩٦ .

(٣) من أشهر الأفراح التى قدمت فيها الشموع الموكبية بكميات كبيرة كهدية عرس فرح الأمير أنوك بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٣٢ هـ ، ففى هذا الفرح « تقدم الأمراء على قدر مراتبهم واحدا بعد واحد ومعهم الشموع ، فإذا قدم الواحد ما أحضره من الشمع قبل الأرض وتأخر ، وما زال السلطان بمجلسه حتى انقضت تقادمهم فكانت عدتها ثلاثة آلاف وثلاثين شمعة زنتها ثلاثة آلاف وستون قنطارا ... » .

وفى ليلة الزفاف جلس السلطان على باب القصر ، وأشعلت تلك الشموع =

فى أحجام ضخمة وأوزان ثقيلة ، فبعضها كان يزن عشرة أرطال ، بل إن وزن بعضها يبلغ القنطار ومافوقه ، وهذا النوع الأخير كان يحمل على عجل عند نقله بسبب ثقل وزنه (١) .

أما الشموع الفانوسية أو الفوانيس كما كانوا يسمونها ، فهى شموع مزهرة (٢) بالأصباغ الجميلة والتماثيل البديعة ، وبعضها كان يتكلف كثيرا فى صناعته ، وقد أدرك المقريزى واحدة منها بلغت تكاليف صنعها الف وخمسمائة درهم . وفى يوم الاحتفال بعيد ميلاد المسيح كانوا يعلقون منها فى الأسواق بالحوانيت شيئا يخرج عن الحد فى الكثرة والملاحة وكذلك فى موسم الغطاس (٣)

وقد بلغت العناية بتزيين الشموع وتجميلها فى ذاك الوقت حدا كبيرا ، فبعضها كان يذهب (٤) ، وبعضها الآخر كان يزين بأنواع من الوى الجميل العجيب (٥) بل لقد بلغ التباهى والتفاخر ببعض الناس أنهم كانوا يركزون فى شموعهم التى كانوا كانوا يوقدونها فى ليالى رمضان ، شيء من الفضة أو الذهب ، (٦) .

= بأسرها ، وجلس إبنه الامير أنوك تجاهه وأقبل الامراء جميعا ، وكل أمير يحمل بنفسه شمعة وخلفه مماليكه تحمل الشمع ، فتقدموا على قدر رتبهم ، وقبلوا الأرض واحدا بعد واحد طول ليلهم » . المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٣٤٦ .

(١) نفس المرجع والجزء ص ٩٦
(٢) الزهرة هى البياض والحسن . محيط المحيط .
(٣) المقريزى : المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٥
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٨٣
(٥) المقريزى . المواعظ ج ٢ ص ٩٦
(٦) ابن الحاج ، المدخل ج ٢ ص ٩١

الصناعات المعدنية

ساهمت الصناعات المعدنية بنصيب وافر فى مجالات عـديدة من الإنتاج الصناعى فى العهد المماليكى ؛ ومن الصعب حصر كافة المصنوعات المعدنية التى أنتجت فى هذا العهد ، لكن يمكنا بصفة عامة أن نقول أن هذه الصناعات كان لها دور هام فى إنتاج الكثير من الأدوات والآلات التى كان المجتمع يحتاج إليها يستخدمها وقتئذ ، كما كان لها دور هام أيضا فى تجميل بعض الأدوات الغير معدنية بإضافة عناصر زخرفية معدنية إليها .

من الحديد صنع الحدادون المسامير والمساحى والمحاريث . ومن الصلب صنعوا المخاصف والشقار(١) والفوانيس الأكرة(٢) ، والمشاعل .

---

(١) ابن الإخوة - معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ١٤٨ — ابن بسام . نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ٩١ .

(٢) الفانوس الأكرة آلة كرية ذات أضلاع من حديد تغشى بقماش من رقيق الكتان الصافى البياض ، وتتخذ للاضاءة بغرز شمعة فى قاعها من الداخل ، فيشع ضوءها من خلال القماش الأبيض . وكانت العادة أن يحمل إثنان من هذه الفوانيس أمام السلطان أو الأمير أثناء السفر ليلا — القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٧ .

ومما يذكر أن تعليق هذه الفوانيس على أبواب الدور والقصور كان يدل على علو شأن صاحب الدار أو القصر ، فابن إياس يقول أن السلطان الغورى شغل منصب أمير آخور كبير قبل أن يلى السلطنة ، وأن نفوذه علا إلى حد كبير أثناء شغله لهذا المنصب ، ومن مظاهر علو نفوذه أنه صار فى كل ليله يقد على باب السلسلة فانوسين أكرة وكذلك على باب الميدان ، — ابن إياس . بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٥٧ .

ومن الفولاذ صنع الأبارون أنواعا عديدة من الإبر أجودها الإبر الخياطة التى يسميها الأبارون باسم المسودة ،وهى إبر كانت تسن ثلاث دفعات وتصقل .

وصنع المسلاتيون مسلات من الفولاذ ومن الحديد الأرمهان منها الحزاميه والمزابليه والفقاعيه والخياطيه والنقشيه والركابيه والمكالسيه ومسلات التضريب والكفيه والخرجيه والأباريه (١) .

وصنع النحاسون من النحاس الأحمر والنحاس السوسى الكثير من الأدوات المنزلية كالهاونات والطاسات والصوانى والسرج والهنابات والأطباق (٢) ، كما صنعوا أيضا الطشوت والشمعدانات والتنانير (٣) وكراسى العشاء والصناديق وأحقاق الأشنان (٤) والمباخر والمقلبات والكسوات النحاسية لبعض الأبواب وكثير غيرها من الأدوات التى كان يستخدمها الناس فى ذلك الوقت فى حياتهم وفى منازلهم .

وقد زينت بعض هذه المصنوعات بكتابات زخرفية وبزخارف متنوعة أخرى ، بعضها نقش على المعدن بالحفر ، وبعضها الثانى نفذ فى المعدن بالتخريم ،

---

(١) ابن الأخوه :معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ١٤٨ .

(٢) ابن الأخوة . معالم القربة ص ١٤٧ و ١٤٨ .

(٣) التنانير هى ثريات أو منابر ضخمة نحاسيه بعضها على شكل منشور ثمانى يتكون من عدة طبقات فوق بعضها البعض ، وبكل طبقة فتحات توضع فيها قناديل الإضاءة - كما أن بعضها الآخر على شكل هرم ناقص وبأسفلها كيزان نحاسية تركب فيها القرايات أى أقداح الزيت الذى يشعل ليلا .

(٤) الأشنان نبات يعرف فى مصر الآن باسم الشوك الأحمر . أحمد عيسى : معجم أسماء النباتات ص ١٦١ وهذا النبات كان يطحن ثم يستخدم مسحوقة فى إزالة الأوساخ من الأيدى . ابن الأخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ١٥٨

وبعضها الثالث كفت زخارفه ، وبعضها الرابع زين بالنيلو .

والتكفيت أسلوب زخرفى قوامه حفر رسوم على سطح خشب أو معدن ، ثم تملأ الرسوم الغائرة بقطع أخرى من الخشب الملون أو العاج أو المعدن . والعادة أن تكون المادة المكفت بها أغلى قيمة من المادة الاصلية ، فالخشب يكفت مثلا بالعاج ، بينما يكفت النحاس بالذهب أو الفضة (١) .

ولقد قامت صناعة التكفيت فى البداية على أكتاف فنانين من الموصل كانوا قد زحفوا إلى القاهرة ودمشق وحلب ، ثم نبغ فيها الصناع المصريون أنفسهم(٢). وإزدهرت هذه الصناعة فى العهد المماليكى حتى أصبح لصناعها سوق خاص بهم يعرف بسوق الكفتيين (٣) .

ويخبرنا المقريزى أن الناس رغبوا رغبة كبيرة فى إقتناء الأوانى النحاسية المكفتة وقال أنه « كان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم ، وللناس فى الكفت رغبة عظيمة ، أدركنا من ذلك شيئا لا يبلغ وصفه ، فلا تكاد تخلو دار بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت ، ولا بد أن يكون فى شورة العروس دكة نحاس مكفت ، والدكة عبارة شئ شبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس أو من خشب مدهون ، وفوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفتة بالفضة ، وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض ، تبلغ كبراها ما يسع نحو الإردب من القمح ، وطول الأكفــات التى نقشت

(١) زكى حسن : تراث الاسلام جـ٢ ص ٢٦ حاشيه ٢
(٢) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٥٥٣
(٣) المقريزى : المواعظ جـ٢ ص ١٠٥

بظاهرها من الفضة نحو الثلث ذراع فى عرض إصبعين، ومثل ذلك دست أطباق عدتها سبعة بعضها فى جوف بعض، ويفتح أكبرها نحو الذراعين وأكثر. وغير ذلك من المنابر والسرج وأحقاق الأشنان والطشت والإبريق والمبخرة، فتبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت زيادة على مائتى دينار ذهبا »(١).

أما الزخرفة بالنيلو فتتلخص فى حفر الأشكال الزخرفية على سطح المعدن الذى غالبا ما يكون من الفضة أو الذهب، ثم يصب فى هذه الأشكال المحفورة مزيج مرتفع الحرارة من النحاس والرصاص والبورق والكبريت وملح النشادر. وبعد أن يبرد ويجمد يلمع سطح المعدن فتبدو الزخارف المحفورة به سوداء اللون تحيط بها أرضية لامعة فاتحة اللون هى لون المعدن المصنوع منه الإناء، فتصبح هذه الزخرفة أكثر وضوحاً وأكثر جمالا (٢).

ويوجد بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة إبريق نحاسى يرجع إلى القرن الثامن الهجرى مزين بهذا الأسلوب الزخرفى (٣).

كما أنه يوجد بهذا المتحف أيضا مجموعة ضخمة أخرى من التحف المعدنية المماليكية تمثل فيها باقى الأساليب الزخرفية الأخرى التى ذكرناها (٤).

---

(١) المقريزى: المواعظ ج٢ ص ١٠٥.

(٢) زكى حسن: كنوز الفاطميين ص ٤٦.

(٣) Exhibition Islamic Art in Egypt, p 48

(٤) إرجع إلى الدراسة التى أجراها الأستاذ فيت على هذه التحف وأثبتها فى كتالوج المتحف العربى عام ١٩٣٢.

Wiet. G : Objets en cuivre - Catalogue du musee Arabe du Caire, Le Caire, 1932.

صناعة الخزف والقاشانى

صنع الخزفيون المصريون فى عهد المماليك أنواعا عديدة من الخزف ، لعل أبرزها تلك التى حاولوا بها تقليد الخزف الصينى ولا سيما ما كان منه ذا طلاء من لون واحد . ولقد كشفت بحفائر الفسطاط كميات وافرة من الخزف الصينى وكذلك من الخزف الذى أنتجه الخزفيون المصريون تقليدا له .

ولقد صنع الخزفيون فى هذا العهد أيضا خزفا أبيضا عليه كتابات أو نقوش مدائية بالونين الأخضر أو الازرق ، وكذلك خزفا به زخارف منقوشة تحت دهان شفاف بالون الأزرق أو الأخضر .

ولقد وصلت إلينا أسماء بعض الخزفيين الذى عملوا فى صناعة الخزف ذى الزخارف المنقوشة تحت الدهان ، إذ اعتاد صناعة أن يكتبوا أسماءهم على الوجه الخارجى من قاع الإناء . ولعل أشهرهم « غيبى » .

والحق أن غيبى كان إماما بين زملائه فى إبداع التصوير وتصميم الموضوعات الزخرفية ، ورسوم القطع المنسوبة إليه آية فى الحياة والحركة ، ولا سيما رسوم الطيور التى يتجلى فيها التنوع والخيال ورسوم السمك الذى يعد به فى بعض الأحيان عن الطبيعه . ولا ريب أن هذا الفنان كان له أتباع وتلاميذ كثيرون يعملون معه فى مصنعه وينتسبون إليه ويكتبون إسمه أو يشيرون إليه على آثارهم الفنيه فى أساليب مختلفه .

ومن الخزفيين البارزين بمصر فى نهاية القرن الثامن الهجرى « غزال » الذى نجد توقيعه على قطع كثيرة من خزف هذا العصر . وقد امتازت منتجاته بزخرفة

رئيسية قوامها رسوم زهور متعددة الفصوص ، ومن منتجاته خزف ذو زخارف على أرضية بيضاء ، وآخر ذو زخارف زرقاء على أرضيه سوداء .

أما القطع الخزفية المصرية التى تنسب إلى القرن التاسع الهجرى فبعضها من صناعة « الأستاذ المصرى » وكان هذا الفنان من أعلام صناعة الخزف فى عصره ، كما أن بعضها الآخر من صناعة « ابن عبد الملك » وأيضا من صناعة ثالث أسمه « العجيل » .

على أن هذه الأسماء التى ذكرناها ليست كل ما وصل إلينا من أسماء الخزفيين المصريين فى عصر المماليك ، فالمتاحف والمجموعات الفنية الخاصة تضم قطعا خزفية عليها أسماء عديدة لخزفيين آخرين ، وهذا يؤكد لنا أن صناعة الخزف كانت إحدى الصناعات التى لها شأن فى هذا الوقت ولذلك حرص صناعة على تسجيل أسمائهم على ما يصنعونه منه .

وقد كان « أبو العز » آخر الخزفيين الذين ذاعت شهرتهم فى عصر المماليك ، والأرجح أنه عاش فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى . وقد كان عصره بداية الإضمحلال فى صناعة الخزف الذى يحمـــل توقيعات صناعة ، فلقد غمر الخزف الصينى البديع الوارد من الصين الأسواق فى ذاك الوقت ، وكان من الصعب على الخزف المصرى أن ينافسه ، كما أن تقليده بمصر لم يكن ناجحا تماما ، فكان من نتيجة ذلك أن فقد الخزفيون المصريون منذ أن العرقسطا وافرا من براعة خيالهم واتقان أساليبهم وقوة ابتكارهم (١) .

وبالإضافة إلى الخزف فقد امتاز عهد المماليك بصناعة نوع من الفخار المطلى

(١) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٣٢٢ - ٣٢٩

بالمينا ، وعجينة هذا الفخار مائلة إلى الحمرة ، وفوقها قشرة بيضاء ، يعلوها دهان بالمينا الصفراء أو الخضراء أو بلية اللون . وتبدو الزخارف فى هذا الفخار واضحة كل الوضوح لأنها تحفر فى القشرة حتى تصل إلى العجينة الحمراء .

ولما كان هذا النوع من الفخار يستعمل بكثرة فى بيوت الأمراء ولذلك فإننا نلاحظ أن رنوك هؤلاء الأمراء وشاراتهم التى اتخذها شعارا لهم كانت من أهم العناصر الزخرفية التى تزينه .

وفى نهاية العصر المماليكى عرفت مصر صناعة القاشانى لكسوة الجدران ، لكن هذه الصناعة لم تبلغ فى مصر ما بلغته من الازدهار فى إيران وتركيا وبلاد المغرب والأندلس ، ولعل ذلك يرجع إلى الناس فى مصر كانوا يفضلون وتشد تغطية جدران دورهم بالرخام ولذلك لم يستخدموا القاشانى إلا فى تكسية مساحات محدودة من عمائرهم ، ومنها على سبيل المثال قة منارة بيبرس الجاشنكير ٧٠٩ هـ ، وقبة مئذنة جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة ٧٣٥ هـ ، وقبة قبة طشتمر ، وقبة الغورى .

ويوجد فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ألواح من القاشانى المصنوع فى تلك الفترة ، بعضها ذات لون واحد ، وعلى البعض الآخر منها كتابة بيضاء فوق أرضية زرقاء (١) .

---

(١) نفس المرجع ص ٢٢٥ - ٢٢٧

الصناعات الزجاجية

بلغت صناعة التحف الزجاجية الاسلامية قمة نضجها فى مصر والشام فيما بين القرنين السادس والتاسع بعد الهجرة .

ولعل أهم المصنوعات الزجاجية التى انتجت فى تلك الفترة تلك التى كانت تزين بالزخارف المذهبة أو تموه بالمينا ، والراجح أن هذا الأسلوب يرجع إلى العصر الفاطمى حين بدأ صناع الزجاج يزينون إنتاجهم بالزخارف المذهبة أو المدهونة بالألوان .

وتعتبر المشكايات المموهة بالمينا من أبرز ما أنتجه صناع الزجاج وقتئذ . والمشكاة عبارة عن غلاف زجاجى خارجى للمصابيح التى كانت تستخدم فى الإنارة فى ذاك الوقت . والمصباح فى حد ذاته عبارة عن مسرجة أو (قراية) بها زيت وفتيل ، وتثبت فى التجويف الداخلى للمشكاة بواسطة أسلاك تتصل بحافة المشكاة العليا . ولكل مشكاة عراوى زجاجية تبرز من سطحها الخارجى ،وعن طريق هذه العراوى تعلق المشكاه بسقف القاعة بواسطة سلاسل فضية أو نحاسية تتجمع فى كرة زجاجية مستديرة أو بيضيه الشكل تتدلى فوق المشكاة .

والمينا التى استخدمت فى تزيين هذه المشكاوات منها ما هو أحمر اللون ومنها ماهو أزرق أو أخضر أو أبيض أو وردى . ولقد وسمت بها على السطوح الخارجية للشكايات والكرات التى تعلوها أشكال زخرفية تشتمل على أشرطة فيها كتابات من آيات قرآنية أو عبارات تاريخية أو دعائية مكتوبة بخط نسخ مملوكى ،وتشتمل أيضا على مناطق أو جامات فيها رنوك أو شارات الأمراء ، فضلا عن أسماء بعضهم وألقابهم ، كما أن فيها أحيانا رسوما هندسية ونباتية .

وبعض المشكايات المملوكية تحمل إسم صانعها ، نذكر من بينهم إسم على بن محمد أمكى (أو الومكى) (١) .

ويلاحظ أن أبدع المشكايات الزجاجية وأدقها صنعة وأبدعها زخرفة هى تلك التى ترجع إلى منتصف القرن الثامن الهجرى ، غير أنه منذ نهاية القرن الثامن الهجرى بدأت تفقد بعض مظاهر دقة صنعتها وجمـــالها ، واستمرت صناعتها فى الاضمحلال حتى إذا كان القرن التاسع الهجرى نلاحظ أنها فقدت قسطا وافرا من جمالها ومن دقة صنعتها(٢) .

ولم تكن المشكايات هى كل ما أنتجه الصناع من مصنوعات زجاجية مموهة بالمينا ، فقد صنعوا أيضا وبنفس الاسلوب الزخرفى كؤوسا وقنينات وأوانى جميلة بديعة الزخرفة ، وتوجد أمثلة رائعة منها فى المجموعات الخاصة التى جمعها بعض هواة التحف ، وكذلك فى بعض المتاحف العالمية (٣) .

وبالإضافة إلى المصنوعات الزجاجية المموهة بالمينا فقد أجاد صناع الزجاج استخدام الزجاج فى تزيين القمريات أو الشمسيات . والقمرية أو الشمسية نافذة صغيرة يغطيها ساتر جصى مفرغ بزخارف كتابية أو نباتية أو هندسية تملؤها شرائح من الزجاج الملون بألوان مختلفة . والراجح أن بداية استخدام هذا النوع من

(١) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٦٠٣ - ٦٠٨

(٢) نفس المرجع ص ٦٠٨ – Dimand : Muhammadan Art, pp 247-248

Lane Poole : The Art of the Saracens in Egypt, pp 221-224. (٣)
M. S. Briggs : Muhammadan Architecture in Egypt, and Palestine, pp 227 - 228.
Migeon : *Manuel d'art Musulman*, vol 2, pp 154 - 156 .

النوافذ يرجع إلى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى (١) .

الصناعات الخشبية

إهتم الفنانون المشتغلون بالحفر فى الخشب فى العهد المملوكى بانتاج تحف دقيقة ، لا سيا تلك التى كانت تستخدم فى المنازل والمساجد كالدواليب الحائطية والخزانات المنزلية والأبواب والكراسى والدكك والمنابر .

وأبدع هؤلاء الفنانون فى زخرفة الحشوات الخشبية بالرسوم الدقيقة ، كما أبدعوا أيضا فى تجميع هذه الحشوات بجوار بعضها البعض لتؤلف أشكال أطباق نجمية أو أجزاء من أطباق ، وطعموا هذه الحشوات بأشرطة رفيعة من خشب آخر نادر أو أغلى ثمنا ، أو بالعاج أو بالعظم أو بالأبنوس .

واتجه بعضهم إلى كسوة الخشب أحيانا بطبقة دقيقة من الفسيفساء تتألف فى الغالب من قطع صغيرة من الأبنوس والسن ، وعموما يسمونه بالترصيع . والفرق بين التطعيم والترصيع أن السطح الخشبى المطعم تحفر فيه الرسوم ثم تملأ الشقوق التى تؤلف هذه الرسوم بقطع أخرى من مادة أغلى قيمة ، أما فى الترصيع فإن طبقة الزخرفة تلصق على السطح كله (٢) .

وصنعت كسوات خشبية للسقوف آية فى الجمال ، حلى بعضها بزخارف محفورة ملونة أو مذهبة ، وحلى بعضها الآخر بأشكال مقرنصات أو بأشكال تصنع . ومن أبدع السقوف الخشبية التى وصلت إلينا سقف بيت الصلاة بخانقاه السلطان الظاهر برقوق .

---

(١) زكى حسن : نفس المرجع ص ٦١٢
Creswell : The Muslim architure, vol 2, pg1.
(٢) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٤٧٤ .

وقد ازدهرت فى عهد المماليك صناعة الشبكيات أو المشربيات من الخشب الخروط ، وغالبا ما اتخذت هذه المشربيات فى واجهات المنازل لتلطيف الضوء الداخل إلى حجراتها ، ولتلطيف درجة الحرارة بها ، ولتمكين أهل الدار من رؤية من بالخارج مع عدم تمكين من بالخارج من رؤيتهم . وغالبا ما جعلت فى هذه المشربيات خارجات صغيرة مستديرة أو مثمنة لتوضع فيها قلل الماء لتبريدها وربما كان وضع القلل بها هو الذى أشهرها باسم المشربيات .

وقد روعي فى بعض المشربيات أن تتفاوت فتحاتها فى الإتساع وأن تملأ بقطع إضافية من الخشب المخروط لتؤلف كتابات أو رسوما (١) .

ولم تقتصر صناعة الخشب المخروط على المشربيات فقط ، فقد صنعت منه أيضا سياجات خشبية وضع بعضها فى المساجد لفصل بعض إيواناتها عن صحونها ، ومن أمثلتها السياج الذى يفصل الإيوان الشرقى عن الصحن بمسجد الطنبغا الماردانى الذى يرجع إلى عام ٧٤٠ هـ (٢) .

ومما تجدر الإشارة اليه أن خرط الخشب لم يكن كله من نوع واحد ، فقد تعددت أنواعه . وعرف كل نوع باسم معين منها الخرط الميمونى العربى أو البلدى والخرط الميمونى المغربى (٣) .

---

(١) نفس المرجع ص ٤٧٠ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) عبد اللطيف ابراهيم : الوثائق فى خدمة الآثار ، العصر المملوكى ص ٢٢٥ حاشية ٢ .

صناعة السفن

حظيت صناعة السفن - خاصة سفن الأسطول - باهتمام خاص من حكومات المماليك المتعاقبة، وعملت هذه الحكومات على توفير الخشب اللازم لها سواء من الأخشاب المحلية أو الأخشاب المستوردة.

أما الأخشاب المحلية فكانت تتوفر في الحراج، وهي مساحات شاسعة من أشجار السنط كانت توجد في بعض مناطق الصعيد كالبهنساوية وسفط ونهين والاشمونين الاسيوطية والقوصية، وأخشاب هذه الأشجار كانت جيدة وتصلح لصناعة سفن الأسطول، لذلك أقامت الحكومة عليها الحراس ليمنعوا الناس من قطعها، خصوصاً أعوادها الصالحة لصناعة السفن، وهي التي كانت تعرف باسم أعواد العمل. ولم يسمح للناس إلا بقطع أطرافها التي لا تصلح إلا للوقود فقط وذلك نظير رسم مقرر عرف باسم مقرر السنط.

ومساحات الحراج كانت كبيرة شاسعة في بعض المناطق خصوصاً في منطقة البهنساوية التي قال ابن مماتي عنها أن المقطعين تعدوا على ثلاثة عشر ألف فدان منها، ورغم ذلك فإن هذا لم يؤثر فيها (١).

ويبدو أن أخشاب منطقة البهنساوية بالذات كانت أكثر جودة وأكثر صلاحية لتشييد السفن من غيرها، لذلك لم تسمح الحكومة ببيع شيء منها إلا مافضل عن احتياج المصالح السلطانية.

غير أنه رغم كل إجراءات الحماية التي وفرتها الدولة للحراج فقد اخذت مساحاتها تتناقص بمضى الزمن تدريجيا بسبب قطع الناس لأشجارها خلسة

---

(١) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ١٧

واستيلائهم على أخشابها حتى زالت تماما ولم يعد لها وجود فى أوائل القرن التاسع الهجرى ، وأشار المقريزى إلى ذلك فقال ، وقد بطل هذا جميعه واستولت الأيدى على تلك الأشجار فلم يبق منها شيء البتة ونسى هذا من الديوان »[١] ،

غير أننا نستطيع أن نقول أنه حتى عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى كانت لا تزال هناك بقية منها ، فعندما شرع هذا السلطان فى تشييد وحدات بحرية لأسطوله ، احترز على الحراج ومنع الناس من التصرف فى أعواد العمل »[٢] . أى أن الحراج كانت لا تزال فيها بقية فى عهد هذا السلطان .

لكن يبدو أن هـــذه البقية كانت ضئيلة وغير كافية تماما لسد إحتياجات الأسطول من الأخشاب ، لذلك فقد اضطر نفس السلطان إلى قطع أربعين شجرة جميز كانت قائمة على شاطىء النيل بجزيرة الروضة وشيد بها مراكب جديدة لأسطوله عوض بها تلك التى غرقت من قبل بجزيرة قبرص[٣] .

ورغم تلاشى أشجار الحراج فإن ذلك لم يوقف عجلة إنشاء وتشييد وتجديد وحدات الأسطول المصرى المماليكى ، فقد لجأت الحكومة المماليكية إلى استيراد الأنواع الجيدة من الأخشاب من خارج مصر ، كما أنها استغلت أخشاب الأشجار المحلية فى هذا الغرض أيضا .

ولقد حرصت الحكومات المماليكية المتعاقبة فى كافة معاهداتها التجارية التى عقدتها مع الدول الأوروبية التجارية المصدرة للخشب على أن تقوم هذه الدول

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ١ ص ١١١
(٢) المقريزى : نفس المرجع السابق جـ٢ ص ١٩٠
(٣) نفس المرجع جـ٢ ص ١٨٥

بتصدير الأخشاب الجيدة إلى مصر كخشب الأرز والصنوبر ، وكذلك المواد الخام الأخرى التي تلزم لتشييد السفن كالحديد والقطران وغيرها ، لكن هذه الدول الأوربية المسيحية كانت تضطر أحياناً تحت ضغط الصليبيين والبابا والبيزنطيين إلى وقف بيع هذا الخشب بعض الوقت لمصر ، غير أنها غالباً ما كانت تعود ثانية فتصدره لها مغلبة مصلحتها التجارية على أي إعتبار آخر ، بل إن بعض هذه الدول خصوصاً تلك التي كانت لها مصالح تجارية مشتركة مع مصر كانت تحرص على مد أسطول مصر بما يلزمه من أخشاب ليظل قوياً وليستطيع القيام بدوره كما يجب في حماية هذه المصالح المشتركة ، ويتجلى ذلك واضحاً عندما هدد البرتغاليون تجارة مصر والبندقية في المحيط الهندي والبحر الأحمر في عهد السلطان الغوري ، فقد بادر البنادقة في ذاك الوقت بإرسال الأخشاب إليه بالسويس ومعها العمال المهرة في إنشاء الأساطيل . وواضح أن الذي دفع البنادقة إلى ذلك هو رغبتهم في تمكين أسطول مصر من حماية مصالحهم التجارية المشتركة مع مصر في هذه البحار (١) .

وفي عهد السلطان الأشرف شعبان جلبت مصر الأخشاب اللازمة لأسطولها من منطقة جبل شغلان المجاور لأنطاكية بشمال الشام حيث تكثر أشجار الصنوبر والقرو ، وقد قامت بجلب الخشب من هذه المنطقة في أعقاب الهجوم الغادر الفرنجي على الاسكندرية عام ٧٦٧ هـ ، وأرسلت الأوامر والمراسيم إلى البلاد الشامية الحلبية بإخراج جميع النجارين وكل من يمسك منشار بيده ولا يترك واحد منهم ، وكلهم يخرجون إلى جبل شغلان ... وأنهم يقطعون الألواح

(١) مختار العبادي : البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك ، بحث بكتاب تاريخ البحرية المصرية ص ٥٤٦ .

ويشترون الأخشاب للمراكب ويحملونها إلى الديار المصرية ، فامتثل نائب حلب ذلك ، وفعل ما أمر به ، ووقع الشروع في عمل المراكب » (١) .

ويبدو أن منطقة الجون الواقعة « ببر التركية » كانت تجلب منها أيضا الأخشاب الجيدة اللازمة لأسطول مصر ، وفي عام ٨٦٠ هـ في عهد السلطان إينال توجهت جماعة من الأمراء والجند إلى هذه المنطقة لإحضار الأخشاب منها « على العادة » (٢) . كما أنه في عام ٨٨٣ هـ في عهد السلطان قايتباى سافرت بعثة بقيادة الأمير ورديش الظاهرى إلى نفس المنطقة لإحضار الأخشاب منها (٣) .

لكن يبدو أن الأخشاب التى كانت تجلبها أو تستوردها مصر من الخارج لم تكن كافية في بعض الأحيان لاحتياجات أسطولها ولذلك كانت حكومة المماليك تضطر في أمثال هذه الحالات إلى استخدام الأخشاب المحلية ، وقد ذكرنا من ذكرنا من قبل أن السلطان الظاهر بيبرس إضطر لقطع أربعين شجرة جيز لهذا السبب ، كما أنه لنفس السبب إضطر الأمير سنقر قرق شبق الشاد على عمارة مراكب الأسطول في عهد السلطان إينال أن يأمر رجاله بقطع أشجار « الغيطان غصباً » (٤) . ورغم الضرر الذى لحق بالناس بسبب هذا الإجراء إلا أنه كان مضطرا لذلك لكى يوفر الأخشاب التى تلزم لتشييد مراكب الأسطول التى كان موقعاً توجيهها إلى قبرص وتتشد ... .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٠٠

(٢) ابن إياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٣٧

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨٢

(٤) ابن إياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٦٦

وكان للحكومة المماليكية عدة دور صناعة لتشييد السفن الحكومية بما سواء الحربية منها أو النيلية الديوانية التي يستخدمها كبار رجال الدولة.

لكن بعض دور الصناعة هذه كانت قائمة منذ عهود إسلامية سابقة على هذا العهد، كما أن البعض الآخر منها شيد في خلاله.

أما التي كانت قائمة قبل العهد المماليكي فهي دار صناعة الجزيرة التي شيدت في جزيرة الروضة عام ٥٤ هـ.

ورغم أنه في عام ٣٢٥ هـ شيد محمد بن طغج الإخشيد دار صناعة أخرى بساحل الفسطاط عرفت باسم صناعة مصر، إلا أن دار صناعة الجزيرة ظلت تمارس عملها أيضاً.

وفي العهد الفاطمي زاد عدد دور صناعة سفن الأسطول، فقد شيد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله دار صناعة جديدة بمنطقة المقس وشيد بها ستمائة مركب[١]، كما واصل الخلفاء الفاطميون من بعده الإهتمام بتشييد مراكب حربية فشيدوا دور صناعة أخرى بالاسكندرية ودمياط، فاستمرت هاتان المدينتان تقومان بنفس العمل في العهد المماليكي أيضاً[٢].

أما صناعة مصر فقد ظلت تقوم بمهمتها إلى عام ٧٠٠ هـ، ثم أهمل شأنها بعد ذلك، وأقيم على أرضها بستان[٣].

كما أن دار صناعة الجزيرة ظلت تؤدي وظيفتها إلى ما بعد نهاية العهد المماليكي[٤].

---

(١) المقريزي: المواعظ جـ ٢ ص ١٩٥ – والمقس اسم لمكان كان يقع على النيل بالبر الغربي للخليج العربي، وهذا الاسم محرف من كلمة المكس لأن صاحب المكس كان يجلس هناك لجباية المكوس أي الضرائب جـ ٢ ص ١٢١

(٢) نفس المرجع والجزء ص ١٩٢، ١٩٤

(٣) نفس المرجع والجزء ص ١٩١، ١٩٨

(٤) نفس المرجع والجزء ص ١٨٥، ٢٩٧ – ابن اياس: بدائع الزهور جـ٣ ص ٢٤٧

وفى العهد المماليكى شيدت عدة دور صناعة جديدة لأول مرة ، نذكر منها دار صناعة بولاق التى شيدت فى أرض بولاق التى انحسر عنها النيل غرب القاهرة منذ عام ٨٠٦ هـ(١) ، ولقد ظلت هذه الدار قائمة حتى نهاية العهد المماليكى، ففى عام ٩١٩ هـ صنعت بها سفن حربية فى عهد السلطان الغورى(٢) ، كما ظلت تقوم بوظيفتها فى صناعة السفن بعد سقوط حكم المماليك ، وأشار ابن إياس لذلك أثناء عرضه لأحداث عام ٩٢٧ هـ (٣) .

وفى خلال العهد المماليكى أيضاً شيدت المراكب بمنطقة المنشية قرب قصر ابن العينى (٤) ، وفى عام ٩١٧ هـ توجه السلطان الغورى إليها ، فكشف عن مراكب عمرها هناك ، (٥) .

وشيدت المراكب الحربية أيضا فى جزيرة أروى أو الجزيرة الوسطى(٦) ،

---

(١) المقريزى : نفس المرجع والجزء ص ١٣١

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٢٣٨

(٣) ابن إياس : نفس المرجع جـ ٢ ص ٣٠٣

(٤) شيد هذا القصر عام ٨٧٠ هـ المقر الشهابى أحمد بن العينى ، فعرف باسم صاحبه ، ولقد ظلت المنطقة التى كان يقوم عليها هذا القصر تعرف بهذا الإسم حتى يومنا هذا ، ولذلك اشتهر المستشفى الذى شيد على أرضها باسم مستشفى قصر العينى . عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة ص ١٦٦ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٢١٢ .

(٦) نفس المرجع جـ ٢ ص ٦٣ - أما تسمية جزيرة أروى باسم الجزيرة فذلك يرجع إلى أنها تقع بين جزيرة الروضه وبولاق .
سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٣١٦ حاشية ١ - أما اليوم فهذه الجزيرة تعرف باسم الجزيرة أو جزيرة الزمالك .
عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ص ٦٤ .

كما شيدت أيضا فى رشيد (١) ، وكذلك فى الطور (٢) ، وفى السويس (٣) .

ويهمنا هنا أن نذكر أن بعض سلاطين المماليك كانوا يشرفون بأنفسهم على بناء المراكب الحربية فى دور الصناعة ، ومن أبرزهم فى هذا الشأن السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى ، فعندما قدم إليه رسل الملك رجار للشفع فى صاحب عكا ، كان وقتئذ جالسا فى دار الصناعة ، بين الأخشاب والصناع ، والأمراء تحمل بأنفسها آلات الشوانى وهى تمد ، فراعهم ما شاهدوه ، (٤) . كما أن هذا السلطان صار يزل بنفسه إلى الصناعة بمصر ويرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشوانى فبلغت زيادة على أربعين قطعة سوى الحراريق والطرائد فإنها كانت عدة كثيرة ، (٥)

ولقد تعددت أسماء وأشكال المراكب الحربية وكذلك الديوانية التى صنعت فى هذه الدور وكان لكل منها استخدام معين ، ولعل أشهرها وأبرزها تلك التى تكرر ذكرها فى مصادر العهد المماليكى أمثال الشينى والغراب والطريدة والغليون والحراقة والذهبية .

أما الشينى : فهى من أهم قطع الأسطول ، وفى كل واحدة منها ، برج وقلعة تحاصر ... وعدة من الغلابين فى أعمال الحيلة والنقب ، (٦) ، وفى الطبقة السفلى

(١) ابن إياس : المرجع السابق ص ١٣٩ ، ١٤٠
(٢) نفس المرجع ص ١٥١
(٣) نفس المرجع ص ٣١٠
(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٠١
(٥) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ١٩٤
(٦) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة .

ملباً الملاحون بالمجاديف التى تبلغ حوالى مائة وأربعين مجدافا يسيرونها حيث يُراد، ومتوسط ما تحمله الشينى من الرجال يقرب من مائة وخمسين رجلا(١).

والغراب: نوع من الشينى(٢)، وربما سميت الأغربة بهذا الاسم بسبب أن القدماء كانوا يصنعون سفنهم على أشكال الطيور فيجعلون رأس السفينة أو مقدمها على شكل رأس غراب أو أى طير من الطيور الأخرى على سبيل التفاؤل(٣)، أو لأنها كانت تطلى بالزفت وغيره فصارت تشبه فى سوادها الغربان(٤).

وينبغى أن يكون بالغراب الغزوانى ثلاثون ممن يتميزون بالخفة فى ضرب السيف وقتال البحر وأربعون راميا، وأكبر الغربان له مائة وثمانون مجدافا(٥).

والطريدة: سفينة مؤخرتها تفتح وتغلق(٦)، وهى فى الواقع نوع من الغراب الغزوانية(٧) لكنها تختص بحمل الخيول والفرسان، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فارسا(٨)، وشكلها العام أقرب شبها بالبرميل المائل(٩).

---

(١) ابن مماتى: قوانين الدواوين ص ٣٤٠ — عباده: سفن الأسطول الإسلامى ص ٤٠ ـ العبادى: تاريخ الأسطول العربى ص ٣٢.

(٢) ابن مماتى: نفس المرجع والصفحة.

(٣) عباده: المرجع السابق ص ٥٧.

(٤) درويش النخيلى: السفن الإسلامية على حروف المعجم ص ١٠٤.

(٥) محمد بن منكلى: الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية، مخطوط ص ٢٠.

(٦) درويش النخيلى: المرجع السابق ص ٨٩.

(٧) محمد بن منكلى: نفس المرجع السابق ص ١٩.

(٨) ابن مماتى: المرجع السابق ص ٣٣٩.

(٩) Dozy ; Supp. Dict. Ar.

والغليون : مركب لم يظهر اسمه في النصوص التاريخيـــة المماليكية إلا في أواخر عهد المماليك الجراكسه ، ويقول ابن إياس أنه في عام ٩١٨ هـ أحضر السلطان الغوري « المركب الكبير الغليون الذي عمره وأصرف عليه نحوا من عشرين ألف دينار ، فأرسوا به قبالة المقياس ، وصنعوا له ثمان صواري في البحر وعلقوا في صواريه القناديل في الأمشاط »(١) .

ومن كلام ابن إياس نفهم أن الغليون مركب كبير ، غالي التكاليف ، كما أن دوزي يقول عنه أنه نوع من المراكب العاليه الأطراف(٢) .

والحراقة : نوع من السفن الحربية الخفيفة(٣) ، وهي أقل حجما من الشيني ، ويجاديفها حوالى مائة مجداف(٤) ، وكانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية ، وبها مرام تلق منها النيران على العدو(٥) .

وكثيرا ما استخدمت هذه السفينة في العهد المماليكي كسفينة نيلية عسكرية لحمل السلطان وأمراء المماليك في رحلاتهم وتنقلاتهم النيلية لقضاء الأشغال وإنجاز الأعمال(٦) ، أو المشاركة في الاحتفالات كاحتفال وفاء النيل وكسر الخليج على وجه الخصوص ، في هـذا الاحتفال تزين حراقة السلطان وحراريق الأمراء

---

(١) ابن إياس : المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٨٦ .

(٢) Dozy : Supp, Dict. Ar

(٣) Ibid

(٤) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ص ٣٤٠

(٥) محيط المحيط .

(٦) المقريزي : المواعظ جـ ٢ ص ١٦٧ ، ١٦٨

بأنواع الزينة المختلفة ، ويلعب بها وسط إمتدادها ، ويرمى بمدافع النفط على مقدامها »(١) .

وكان السلطان أكثر من حراقة يشارك بها فى هذا الاحتفال ، منها حراقته الصغيرة ، وكذلك حراقتـــه العظمى التى كانت تعرف باسم الذهبية كما يقول القلقشندى(٢) .

الذهبية : هى حراقة السلطان العظمى كما ذكرنا من قبل ، وكانت من شعائر المملكة خاصة فى يوم وفاء النيل ، وكان من الضرورى أن يتوجه السلطان بها إلى المقياس فى هذا اليوم .

غير أنه أبطل استخدامها فى عهد السلطان قايتباى ، ويحدثنا ابن إياس عن ذلك فيقول أن هذا السلطان أبطل « المركب المسماه بالذهبية ، وكانت من شعائر المملكة ولا سيا يوم الوفاء بالنيل ، وكانت الملوك تتوجه فيها إلى المقياس وكان بها ستون مقذافا »(٣) .

لكنه يعود فيخبرنا بأن السلطان الغورى « عمر مركبا ببولاق على صفة المركب القديم المسماة بالذهبية »(٤) . وهذا يدعونا إلى الاعتقاد بأن الذهبية ربما عادت من شعائر المملكة مرة أخرى فى عهد هذا السلطان الأخير .

تلك كانت أبرز المراكب الحربية والديوانية التى كانت تشيد فى دور الصناعة الحكومية .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧ ، ٤٨ .
(٢) نفس المرجع والجزء والصفحات
(٣) ابن إياس ـ بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٠٦ .
(٤) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٢٩٨

أما المراكب الأهلية - أى التى كانت تصنع بواسطة صناع سفن محترفين من الأهالى - فكانت تصنع فى أماكن عديدة على شواطىء النيل وشواطىء مصر على البحرين الأبيض والأحمر .

ويبدو أن عدد المراكب النيلية التى كانت تصنع لحساب السلطان والرعية كان كبيرا ، فقد قدر ابن بطوطة عددها بستة وثلاثين ألف مركب « للسلطان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات »(١) .

كما أن ابن شاهين يقول أنه عمل إحصائية بعدد السفن التى بساحل الفسطاط فقط ، فوجد أنها تنيف على ألف وثمانمائة مركب (٢) .

ومما تجدر الإشارة اليه أن بعض السفن النيلية التى كانت تصنع لنقل المتاجر والغلال كان يراعى فيها أن تكون ذات سعة كبيرة ، حتى أن بعضها كان يستطيع حمل مقدار ما يحمله خمسمائة بعير (٣) . كما أن بعضها - واسمها الدرمونة - كانت تستطيع حمل خمسة آلاف أردب من الغلال (٤) ، ولذلك غالبا ما خصصت الدرمونة لحمل الغلال إلى الحرمين الشريفين(٥) ، أى أنها كانت مركبا نيليا وبحريا فى نفس الوقت .

---

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار جـ ١ ص ٢٦
(٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢٧
(٣) المقريزى : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٦
(٤) ابن شاهين : المرجع السابق ص ١٢٣
(٥) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٠١

هذا ولقد كانت سفن «الجروم» أيضا من السفن النيلية التى كانت تصنع وقتئذ، ولقد ركب طافور إحداها عند سفره من دمياط للقاهرة، ووصفها فقال أنها طويلة وقاعها مسطح لكى تستطيع السير فى المياه الضحلة، كما أنها مجهزة بشراع مرتفع مثلث الشكل، ومزودة بغرف تمتد من أحد أطرافها إلى طرفها الآخر يأوى اليها المسافرون على ظهرها، وتستطيع حمل شحنة كبيرة من البضائع(١).

غير أن بعض الجروم كانت أصغر حجما، وقد شاهد بيير بيلون أنواعا منها بساحل بولاق فقال «وقد شاهدنا سفنا فى النيل تسمى جروما، وهى على ثلاثة أو أربعة أنواع مختلفة، بعضها منخفض منبسط عريض مستدير الشكل تقريبا، وأكبرها شبيه بالقوارب فى نهر السين إلا أنها أقصر بكثير، وهى تنقل حمولات أكثر من غيرها، ولها شراع مثلث الشكل. والنوع الأصغر منها — وهى تلك السفن ذات الشراع المربع — لا ترحل بعيدا عن بولاق، فهى تستخدم فقط لعبور النيل، أو لنقل المؤن من القاهرة إلى القرى، أو لنقل الدواب من ضفة إلى أخرى»(٢).

ويبدو أن الأنواع الصغرى من الجروم هى التى استخدمها السلطان الظاهر بيبرس لنقل المتاجر والسلع إلى ميناء دمياط من السفن الضخمة التى كانت ترسو فى البحر الابيض أمام مصب النيل هناك، وذلك بعد أن أصبح متعذرا على هذه السفن الدخول إلى ميناء دمياط ذاته بعد أن أمر هذا السلطان بردم فم النيل

---

(١) Pero Tafur, Travels and adventures. p 71

(٢) جاستون فيت: القاهرة ص ١٠٦ ترجمة مصطفى العبادى

عندها حمايتها من الغارات البحرية المفاجئة من الفرنج . وقد ظلت الجروم تقوم بمهمتها هذه فى العهود التى تلت عهد بيبرس ، وعاصرها المقريزى وهى تقوم بنفس المهمة(١) .

أما السفن التى كانت تصنع لنقل التاجر والمسافرين بالبحر الأحمر على وجه الخصوص فن أشهرها « الجلبة » . والشيء الغريب فى هذا النوع من السفن أنه كان يراعى أن لا يدخل فى صناعته أى مسمار . ويشرح ابن جبير طريقة صنعها (٢) فيقول « والجلاب التى يصرفونها فى هذا البحر الفرعونى ملفقة الإنشاء لايستعمل فيها مسمار البتة ، إنما هى مخيطة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل(٣) يدرسونه(٤) إلى أن يتخيط ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب ، ويخللونها بدسر(٥) من عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها . وهذا القرش حوت عظيم فى البحر يبتلع الغرقى ، ومقصدهم فى دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب ... وعود هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن ، وكذلك القنبار المذكور ، ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل(٦) » .

---

(١) المقريزى : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٠٢ ، ٢٢٤

(٢) رحلة ابن جبير ص ٤٢

(٣) جوز النارجيل هو ما نسميه اليوم بجوز الهند . رحلة ابن جبير ص ٤٢ حاشية ٣ .

(٤) أى يدوسونه . نفس المرجع والصفحة حاشية ٤

(٥) أى بخوابير . نفس المرجع والصفحة حاشية ٥

(٦) أى شجر الدوم . نفس المرجع والصفحة حاشية ٦

=

وأهل عيذاب كانوا يستخدمون الجلاب بشكل رئيسى، ويحملون عليها الحجاج بأجر إلى جدة وبالعكس، ومن هذا العمل كانوا يجمعون مالا كثيرا ، ولم يكن فى أهل عيذاب إلا من له جلبة فأكثر على قدر يساره »(١) .

والجلاب لم تستخدم فى حمل المتاجر والحجاج فقط بل كانت تستخدم أيضا لحمل الجند إذا مابعث بهم فى حملة عبر البحر الأحمر ، ففى عام ٧٠٧ هـ أظهر الملك المؤيد هزبر داود ملك اليمن المخالفة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون ومنع ما كان يرسله إليه فى كل سنة من الهدايا والتقادم ، فعز ذلك على الملك الناصر وجهز له تجريدة ، وشرع فى عمارة مراكب تسمى الجلبات »(٢) .

= هذا ولم يقتصر استخدام السفن المخيطة بحبال الليف على البحر الأحمر فقط فقد شاع استخدامها فى المحيط الهندى أيضا . ولقد اختلفت الآراء حول عدم استخدام المسامير فى صناعتها ، فابن جبير يعـــزو ذلك إلى الخوف من الشعاب المرجانية الموجودة بكثرة فى البحر الأحمر ، والرغبة فى تخفيف أثر الاصطدام بها . رحلة ابن جبير ص٤٢ .

أما المسعودى فيعلل ذلك بالخوف من تآكل المسامير من ماء البحر . المسعودى: مروج الذهب جـ١ ص٣٦٥ .

أما القزوينى فيعلل ذلك بالخوف من جبال مغناطيسية مغمورة بماء البحر ، والخوف من أن تجذب هذه الجبال المراكب إليها إذا ما استخدمت المسامير فى صناعتها . القزوينى : عجائب المخلوقات جـ١ ص ١٧٢

(١) المقريزى : المرجع السابق جـ١ ص٢٠٣

(٢) ابن إياس : المرجع السابق جـ١ ص١٤٧

البناء والتشييد

لا شك أن عهد سلاطين المماليك بمصر من أزهى عهودها الإسلامية في التشييد والعمارة والبناء ، فالتنافس كان واضحاً بين سلاطين المماليك للتشييد أكبر عدد ممكن من المنشئات والعمائر على اختلاف أنواعها سواء كانت دينية كالمساجد والمدارس والخوانق(١) والأربطة(٢) والأضرحة ، أو مدنية كالدور والقصور والوكالات والخانات والفنادق(٣) .

---

(١) الخوانق جمع خانقاه أو خانكاه ، وهى كلمة فارسية معناها بيت ، وقيل أصلها خونقاه أى الموضع الذى يأكل فيه الملك . والخوانق نوع من المنشئات الدينية خصصت للصوفية لينقطعوا فيها للعبادة والدراسة والبحث في علوم الدين . ولقد بدأ ظهورها في العالم الإسلامى فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة ، وكان ذلك بسوريا ، ثم انتقلت إلى مصر على يد صلاح الدين الأيوبى . المقريزى : المواعظ ج٢ ص٤١٤ .

Van Berchem : Enc. Isl. Art. Architecture

(٢) الرباط نوع من المبانى العسكرية شيد فى بادىء الأمر على حدود البلاد الإسلامية للدفاع عنها ، وكان يرابط فيها مجاهدون مسلمون نذروا أنفسهم للدين لكن بمضى الزمن زالت الصفة العسكرية عن هذا النوع من المنشئات ، وأصبح الرباط مجرد مبنى للزهد والعبادة يسكنه الزهاد والصوفية . زكى حسن : فنون الإسلام ص ٢٦ .

(٣) الفندق والخان والوكالة ثلاثة أسماء كانت تطلق على نوع واحد من المنشئات التجارية ، وكانت تخصص لإقامة التجار الوافدين من البلاد الأخرى ، وكان يراعى فى تصميمها أن تشتمل على مساكن أو غرف لمبيت هؤلاء التجار ...

والبيمارستانات(١) والحمامات والأسبلة — أو عسكرية كالحصون والقلاع والأبراج ، وغير ذلك من منشئات عامة أخرى كالقناطر والجسور .

ويعتبر السلطان الناصر محمد بن قلاوون من أبرز هؤلاء السلاطين إهتماما بالتشييد والبناء حتى أنه أنشأ ديوانا خاصا لهذا الغرض تراوح مصروفه اليومى من ثمانية آلاف إلى إثنى عشر ألف درهم ، واقتدى الناس بسلطانهم الناصر ، فأكثروا بدورهم البناء لأنفسهم و وكأنما نودى فى الناس ألا يبقى أحد حتى يعمر وذلك أن الناس على دين ملوكهم . (٢)

ولقد كان لأمراء المماليك أيضا نصيب كبير فى إزدهار حركة التشييد والبناء فى هذا العهد ، فقد أنشأ أمراؤهم أيضا الكثير من المنشئات ، وجاروا ملوكهم فى هذا الأمر ، كما أن السلاطين كانوا يكلون إليهم الإشراف على منشئاتهم أثناء تشييدها وكذلك منشئات الدولة .

ولا ريب أن حركة التشييد والبناء الواسعة التى تمت فى هذا العهد لم تكن لتتم بهذه الصورة لولا توفر الفنيين والعمال المهرة المتخصصين فى هذه الصنعة وفى الصنائع الأخرى التابعة أو المكملة لها . وعن هؤلاء العمال والصناع قال القلقشندى

= وكذلك على مخازن وحواصل لمتاجرهم التى قدموا بها ، واسطبلات لدوابهم . المقريزى : المواعظ ج٢ ص٩٣ .

(١) البيمارستان أو المارستان هو المستشفى ، وهو أيضا المكان المعد لإقامة المجانين . وكلمة بيمارستان فارسية الأصل ومكونة من بيمار ومعناها مريض — وستان ومعناها محل . محيط المحيط

(٢) المقريزى : السلوك ج٢ ص ١٢٠ .

القســلا من العمرى فى مسالك الأبصار أنه « لا يرى مثيل صناع مصر فى هذا الباب »(١) .

والواقع أن العاملين فى هذا المجال كانوا أصحاب تخصصات عديدة ، فنهم المهندسون ، والبناؤن والرقاصون(٢) والنحاتون والحجارون(٣) والمرخمون والنجارون والدهانون .

أما المهندسون فقد برز منهم عدة أشخاص، والشيء الملفت للنظر أن أعدادا من هؤلاء البارزين كانوا ينتمون لأسرات معينة توارث أبناؤها هذه المهنة كأسرة ابن غنائم التى تنسب للمهندس إبراهيم بن غنائم الذى شيد الكثير من العمائر للسلطان الظاهر بيبرس البندقدارى ، والذى بلغ من شهرته أن أصبح أبناؤه يعرفون من بعده ببنى المهندس ، وورث هؤلاء الأبناء والأحفاد هذه المهنة عنه وعملوا فيها من بعده(٤) .

ونذكر أيضا أسرة الطولونى بمهندسيها الكبار الذين توارثوا هذه المهنة كأحمد بن أحمد بن محمد الطولونى ، وإبنه محمد بن أحمد الطولونى ، وعبد الرحيم بن على الطولونى(٥) ، والبدرى حسن بن الطولونى(٦) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ٣٦٦ .

(٢) الرقاصون هم الفعلة . ابن الأخوه : معالم القربة ص٧٠ .

(٣) الحجار هو الذى ينقش النقوش الكتابية على الحجر . المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٢٨ .

(٤) أحمد تيمور: أعلام المهندسين ص١٥ .

(٥) نفس المرجع ص٥٨ ، ٥٩ ، ٦٣ .

(٦) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص٣٥ .

ومما يدل على أهمية المهندسين وعلو شأنهم في العهد المماليكي أن بعض السلاطين صاهروهم كالسلطان الظاهر برقوق الذي صاهر المهندس أحمد بن الطولوني وتزوج إبنته(١)، كما أنهم كانوا يلقبون بلقب المعلم(٢)، كما أن كبيرهم كان يلقب بلقب معلم المعلمين(٣) وهي كلها ألقاب تعكس أهمية المهندس في ذاك الوقت، ومدى الاحترام والتقدير الذي كان يضفى عليه وقتها .

الخطوات الأولى لعملية البناء في ذاك الوقت كانت تبدأ بعمل رسم للمبنى المزمع تشييده ، فإذا نال هذا الرسم موافقة من صاحب المبنى تبدأ بعدها عملية البناء ذاتها ، ولقد كان مسجد السلطان الظاهر بيبرس أحد المآثر المماليكية التي عمل لها رسم قبل بنائها(٤) .

ويصف عبد اللطيف البغدادي بعض الخطوات التي كانت تتبع في مصر عند الشروع في تشييد مبنى معين فقال أن المصريين ، إذا أرادوا بناء ربع أو دار ملكية أو قيسارية استحضر المهندس وفوض إليه العمل ، فيعمد إلى العرصة وهي تل التراب أو نحوه فيقسمها في ذهنه ، ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ، ثم يعمد

---

(١) نفس المرجع والجزء ص٢٩٦ .

(٢) المقريزي : المواعظ جـ٢ ص٢٨٤ .

(٣) ابن إياس : المرجع السابق جـ١ ص١١٧ ، جـ٤ ص٣٥ .

(٤) المقريزي : المواعظ جـ٢ ص٣٠ — ومما يذكر في هذا الشأن أيضا أن أحمد بن طولون عندما فكر في بناء مسجده كتب إليه مهندس نصراني يقول له « أنا أبنيه لك كما تحب وتختار... فأحضره... فأمر أن تحضر له الجلود فأحضرت وصوره له فأعجبه واستحسنه » . نفس المرجع والجزء ص٢٦ .

إلى جزء فى تلك الفرصة فيعمره ويكمله بحيث يتشقق به على انفراد ويسكن، ثم يصعد إلى جزء آخر، ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الأجزاء من غير خلل ولا استدراك»(١) .

ولما كان أساس المبنى هو المعول عليه دائما لحمل ثقل المبنى لذلك كان يُهتم بأن يكون هذا الأساس قويا عميقا ضاربا فى باطن الأرض إلى أبعاد كبيرة، ومن أمثلة ذلك أساس قصر الأمير بشتاك الذى كان ينفذ فى باطن الأرض إلى عمق أربعين ذراعا، وإلى نفس العمق أيضا كان يمتد أساس قصر الأمير بكتمر الساقى، وكذلك أيضا أساس قصر الأمير يلبغا اليحياوى(٢) .

ومن بين الوسائل التى كانت تتبع لتقوية الأساس وزيادة قدرته على حمل ثقل المبنى أنهم كانوا يغيبون فى باطن الأرض أوتادا رأسية تعرف باسم المسناه أو الزربية .

ويصف عبد اللطيف البغدادى كيفية بنائها وكيفية النزول بها إلى أبعد عمق ممكن فقال « ... المسناة ويسمونها الزربية، ولهم فى بنائها إتقان حسن، وصنعته أن يحفر الأساس حتى تظهر النداوة ونز الماء فحينئذ يوضع ملبن من خشب الجميز أو نحوه على تلك الأرض الندية بعدما تمهد، ويكون عرضه نحو ثلث ذراع وقطر حلقته نحو ذراعين مثل الذى يعمل فى قمر الآبار، ثم يبنى عليه بالطوب والجبس نحو قامتين فيصير بمنزلة التنور، فيأتى الغواصون وينزلون هذه البير ويحفرونها، وكلما نبع الماء نزحوه مع الطين والرمل، ويحفرون أيضا تحت ذلك

---

(١) عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار ص٣٩ .

(٢) المقريزى : السلوك ج٢ ص٥٤٠، ٥٤١ .

اللبن ، فكلما تخلخل ماتحته وثقل بما عليه من البنا نزل ، وكلما نزل غاصوا عليه وحفروا تحته، والبنّا فى أثناء ذلك يبنى عليه ويرفعه. ولايزال البنا يرفع والغواص تحته يحفر ، وهو بثقله يغوص حتى يستقر على أرض جلده ويصل إلى الحد الذى يعرفونه ، فحينئذ ينتقلون إلى عمل آخر مثله على سمته وعلى بعد أربع أذرع منه أو نحوها ، ولايزالون يفعلون ذلك فى جميع طول الأساس المفروض. ثم يبنون الأساس : كالعادة بعد ردم هذه الآبار فترجع أوتادا وأسية للبنا وعمدا تدعمه وتوثقه ... »(١).

أما مادة البناء التى استخدمت فى تشييد العمائر فكانت تختلف حسب نوعية البناء ووظيفته وأهميته ، لذلك استخدم الآجر فى بناء بعضها ، كما استخدم الحجر فى بناء بعضها الآخر ، كما استخدم فى بعض الأحيان خشب النخل والقصب المحكم الصنعة لبناء الأجزاء العليا من المبانى لتخفيف ثقلها على الطوابق التى تحتها(٢).

والحجر الذى استخدم فى التشييد والبناء كان منه الحجر النص المشهر(٣) ،

---

(١) عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار ص٣٩ .

وبما هو جدير بالذكر أن المبانى الضخمة التى تبنى فى عصرنا الحاضر تدك فى أساساتها إلى أعماق كبيرة أوتاد ضخمة من الخراسانة المسلحة بواسطة آلات الدك الميكانيكية ، وهذه الأوتاد الخراسانية تقوم اليوم بنفس الوظيفة التى كانت تقوم بها المسناه من قبل .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٣٦٦ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ص ٦٢ — والحجر المشهر هو الحجر المنقور السطح.

وكذلك الحجر المنحيت(١) ، وكذلك أيضا الحجارة الجبالية وهى أحجار تقطع من الجبل فى أحجام كبيرة وتنقل إلى مكان التشييد على عجلات تسحبها الأبقار(٢). وغالبا ما استخدمت هذه الأحجار الأخيرة فى تشييد المبانى الضخمة الذى يراد لها أن تكون منيعة أو أن تبقى مدة طويلة كالقلاع والحصون وكذلك بعض المساجد والمدارس الضخمة(٣) .

وفى بعض المآثر مدت عمد رخامية فى سمك جدرانها كأربطة لها تدعمها وتزيد من قدرتها على الاحتمال ، ونشاهد هذه الطريقة مستخدمة فى جدران جامع الظاهر بيبرس وكذلك فى قلعتى قايتباى بالاسكندرية ورشيد(٤) .

واستخدم فى بعض المبانى نوع من الجبس القـــوى السريع الشك يعرف بالجبس الزجاجى لربط الطوب بعضه ببعض ، كما استخدم كوسادة لصق القاشانى على بعض المنشآت ومن أمثلتها قبة الغورى(٥) .

والواقع أن المجال هنا لا يتسع لإعطاء وصف مفصل لكافة المعاثر والمنشآت التى بقيت من العهد المماليكى ، لكن سنكتفى بالإشارة إلى بعض مظاهر التطور الرئيسية التى لحقت ببعضها فى خلاله خصوصا المآثر الدينية كالمساجد والمدارس

---

(١) نفس المرجع ج ٤ ص ٥٦ .
(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٢٦٥ .
(٣) كانت مدرسة السلطان الظاهر برقوق من بين المدارس التى شيدت بهذا النوع من الأحجار . إبن إياس : نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٤) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ص ٩٩ .
(٥) عبد اللطيف ابراهيم : الوثائق فى خدمة الآثار ، العصر المملوكى ص ٢٢٢

والخانقاوات لأنها غالباً ما بقيت محتفظة بأغلب عناصرها المعمارية والزخرفية إلى وقتنا الحاضر بما نالها من ترميم وعناية على مر العصور .

أول ما نلاحظه من تطـــــور هو أن التخطيط المتعامد بدأ يطبق فى تخطيط المدارس، وهذا التخطيط يسميه المستشرقون من علماء الآثار الإسلامية بالتخطيط الصليبى لأن رسومه على الورق تبدو فى مجملها قريبة الشبه بشكل الصليب.

و بمقتضى التخطيط المتعامد أصبحت المدرسة تحتوى على صحن أوسط مكشوف تنفتح على أضلاعه الأربعة أربعة إيوانات متقابلة . وهذا التخطيط يطبق فى مصر لأول مرة فى المدرسة الظاهرية التى شيدها السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٦٠ — ٦٦٢ هـ(١) ، ثم شاع استخدامه وتطبيقه فى عدد كبير من المدارس المملوكية بعد ذلك ، بل إن بعض المساجد التى بقيت منذ القرن التاسع الهجرى شيدت بنفس التخطيط(٢) .

حدث تطور أيضاً بواجهات المساجد والمدارس والخانقاوات ، فأصبحت هذه الواجهات تخضع لهدف وخطة ، أما الهدف فهو الرغبة فى أن يتحقق لها مظهر الضخامة مع الفخامة فى نفس الوقت .

---

(١) ورغم أن هذه المدرسة تخربت بمضى الزمن واندثر معظم أجزائها إلا أن وصف المقريزى لحفل افتتاحها يدل على أنها كانت ذات إيوانات أربعة متقابلة ، فهو يقول « وجلس أهل الدروس كل طائفة فى إيوانها ، الشافعية بالإيوان القبلى ... والحنفية بالإيوان البحرى ... وأهل الحديث بالإيوان الشرقى .... والقراء بالقراءات السبع بالإيوان الغربى » . المواعظ ج٢ ص٣٧٨ .

(٢) حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ص١٤ .

ولتحقيق هذا الهدف عمد البناء إلى إيجاد تأثيرين فى الواجهة : تأثير رأسى يضفى عليها مظهر الارتفاع الشاهق ، وتأثير أفقى يضفى عليها مظهر الإمتداد الأفقى الطويل .

أما التأثير الرأسى فقد أوجده البناء بتقسيم الواجهة إلى قطاعات رأسية غائرة تحصر بينها قطاعات رأسية بارزة ، كما جعل النوافذ تصطف فوق بعضها البعض رأسيا فى القطاعات الغائرة ، فنتج عن تكرار هذه القطاعات الغائرة والبارزة وتكرار الصفوف الرأسية للنوافذ وبجاورتها لبعض البعض تحقيق مظهر الارتفاع الشاهق للواجهة.

أما التأثير الأفقى فقد أوجده البناء بجملة عناصر معمارية وزخرفية ، منها صف من الشرفات الزخرفية الشكل تمتد أفقيا فوق القمة العليا للواجهـــة ، ثم كورنيش بارز يمتد أفقيا تحتها ،وفى بعض الواجهات استبدل البناء هذا الكورنيش البارز بكورنيش ضخم من المقرنصات(١) ، وفى بعض الأحيان كان يضيف إلى ذلك طرازا كتابيا ينقش على الواجهة بطول امتدادها الأفقى .

---

(١) تعد المقرنصات من أبرز خصائص الفن الإسلامى . وكلمة المقرنص كلمة غريبة على اللغة العربية ، ولعلها معربة من كلمة الكورنيش اليونانية ثم حرفت إلى مقرنص ، أو لعلها جاءت من الكلمة العربية «مقرفص» أى بجلس القرفصاء ،وهى تسمى هكذا فى بلاد المغرب .

وفى اللغات الأوربية يطلق على المقرنص كلمة Stalactite التى تعنى الرواسب الكلسية المخروطية الشكل التى تتدلى من أسقف بعض الكهوف ، لكن هذه الكلمة الأوربية غير دقيقة فى التعبير عن الصور المختلفة المتعددة للمقرنصات، إذ هى =

وفى أحيان أخرى كان يتوج القطاعات الرأسية النائرة بالواجهة بصفوف أفقية من المقرنصات . وبكل هذه العناصر استطاع البناء أن يحقق التأثير الأفقى فى الواجهة(١) .

والشىء الجدير بالملاحظة حقاً أن البناء استطاع أن يستخدم بمهارة الشرفات والمقرنصات والإزارات الكتابية ، فبجانب أنه استخدمها لتحقيق التأثير الأفقى فى الواجهة فقد استخدمها أيضاً فى نفس الوقت لتجميل وتزيين هـــذه الواجهة وإضفاء مظهر الفخامة عليها .

والواقع أن تزيين الواجهات لم يقتصر على هذه العناصر فقط ، فقد زينها البناء أحياناً بأشكال محارية كما زينها فى أحيان أخرى باستخدام مداميك حجرية

= لاتصدق إلا على صورة واحدة منها فقط وهى التى تعرف باسم الدلايات والتى نراها أعلى مداخل بعض المساجد والمدارس المماليكية . محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ص ٨٣ .

ولقد تعددت استخدامات المقرنصات فى العمارة الإسلامية ، فقد استخدمت الزخرفة المعمارية بالواجهات وتيجان الأعمدة ، أو التدرج من شكل إلى آخر ولا سيما من السطح المربع لقاعدة القبة إلى التكوين الدائرى للقبة ذاتها ، كما كانت تستخدم فى بعض الأحيان لتقوم بعمل الكوابيل أسفل دورات المؤذن بالمنارات زكى حسن . فنون الإسلام ص ١٥٤ .

(١) واجهة مدرسة وضريح المنصور قلاوون ٦٨٣ - ٦٨٤ هـ . هى أقدم واجهة مماليكية باقية حتى اليوم يظهر فيها بجلاء التأثيرين الرأسى والأفقى .

أفقية صفراء تتناوب مع مداميك أفقية أخرى حمراء داكنة أو بيضاء(١) .

وبالأضافة إلى ذلك فقد عمد البناء ـ حرصا منه على إبراز الواجهة ـ إلى إقامة مدخل المبنى على أحــد جانبي الواجهة وليس فى وسطها كما كان متبعا من قبل .

ولنفس الغرض أيضا حرص البناء على تقويم المئذنة فوق أحد طرفي الواجهة ، وفى بعض الأحيان أقام مئذنتين فوق طرفيها(٢) .

يلاحظ أيضا أن مداخل المساجد والمدارس والخانقاوات قد لحق بها هى الأخرى تطور فأصبحت تتميز بصفات تميزها عن مثيلتها التى شيدت فى العهود السابقة . ويمكننا أن نلخص مظاهر التطور الذى لحق بها فى الآتى :

١ ـ أصبح المدخل يقوم على أحــد جانبي الواجهة ويرتفع عن مستوى الشارع بعض الشيء ، وتتقدمه بسطة عريضة تتصل بالشارع من جانبيها بواسطة درجات حجرية (٣) .

٢ ـ أصبح باب المدخل يقوم داخل فجوة عميقة شاهقة تمتد فى ارتفاعها إلى نفس ارتفاع الواجهة ، بل قد يزيد ارتفاع بعضها على ارتفاع الواجهة ذاتها .

وغالبا ما توجت هذه الفجوة بعقد ثلاثى الفصوص تستند طاقيته على عدة

---

(١) أرنست كونل : الفن الإسلامي ص ١١٢ ـ كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر ص ٣٨ ـ زكى حسن : فنون الإسلام ص ٨٠

(٢) كمال الدين سامح : نفس المرجع والصفحة ـ زكى حسن : نفس المرجع والصفحة .

(٣) ولفرد جوزيف دلى : العمارة العربية بمصر ص ١٦ ـ كمال الدين سامح : نفس المرجع ص ١٧٦ .

صفوف من الدلايات والمقرنصات(١) .

٣ - أصبح من المعتاد بناء مصطبة حجرية على كل جانب من جانبي المدخل تعرف باسم المكسلة(٢) .

وبصفة عامة نستطيع أن نقول أن مداخـــل كثير فى المساجد والمدارس والخانقاوات فى العهد المماليكي تأثرت بما كانت عليه المداخل السلجوقية من فخامة وضخامة وغنى فى الزخرف فحاكتها فى ذلك(٣) .

تطورت المآذن أيضا فى العهد المماليكي ، فبعد أن كانت فى أواخر العهد الأيوبي تتكون من قاعدة مربعة يعلوها طابق مثمن الشكل تتوجه مبخرة(٤) ،

---

(١) سامح نفس المرجع والصفحة .
لكن يجب أن ننوه بأن ظاهرة تتويج المداخل بالمقرنصات لم تكن ابتكارا مصريا ، ففى سوريا أمثلة لها أقدم بقرن من الزمان تقريبا من مثل معروف لها فى مصر .

Creswelle : The muslim architecture of Egypt, vol II, pp 146-147

(٢) عرفت مصر هذه المساطب عن طريق سوريا ، فقد استخدمتها المنازل السورية منذ عهد قديم

Hautecoeur ; Les mosques du caire, P 283

ولعل اطلاق اسم المكاسل عليها يرجع إلى تلكؤ الكسالى وجلوسهم عليها
حسن عبد الوهاب . المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية ، مقال بمجلة المجلة العدد ٢٧ مارس ١٩٥٢ .

(٣) Hautecoeur : Ibid. p 249

(٤) المبخرة هى قمة ذات قطاع محدب الشكل ، سطحها مقسم إلى ضلوع =

أصبحت فى أوائل القرن الثامن الهجرى ـ كما فى مئذنتى سنجر وسلار ٧٠٣ هـ ـ تتكون من ثلاثة طوابق : طابق مربع قصير ، يعلوه طابق مثمن أطول منه ، ثم طابق مستدير علوى تتوجه خوذة مضلعة(١) .

ثم نجد فى مئذنة مسجد الماردانى ٧٣٩ - ٧٤٠ هـ أن الطابق المربع السفلى قد قصر إلى حد كبير فأصبح لا يظهر منه فوق سطح المسجد إلا جزءا بسيطا ، بينما زاد بدن المئذنة إرتفاعا ورشاقة ، وأصبح هذا البدن يتكون من طابقين مثمنين بدلا من طابق واحد كما كان الحال من قبل .

أما الجزء العلوى للمئذنة فقد أصبح على هيئة جوسق مفرغ يقوم على أعمـــدة .

لكن فى نهاية القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجرى ظهرت مآذن إذات أشكال فريدة ، مثل مئذنة الغورى التى تطل على صحن الجامع الأزهر ، فهى ذات رأس مزدوج . أما مئذنته بمسجده بالغورية فتتميز برؤوس أربعة(٢) .

= بارزة . ولقد تعددت الآراء حول أصلها ، فريفوارا يرى أن أصلها هندى ويقول أنه توجد نماذج مشابهة لها فى معابد هندية ترجع إلى ما بين القرن الثامن والقرن الثالث عشر الميلادى .

Rivoira : moselem architecture. p 164

لكن كريسول يرى أن المبخرة بمنقها القرامس نشأت فى القاهرة

Criswell : The evolution of the minaret, Burlington magazin (mars, may. June 1926).

(١) سيد عبد العزيز سالم : المآذن المصرية ص ١٩ - ٢٥

Hassid : The Sultan's turrets. pp 40 — 43

(٢) سامح : المرجع السابق ص ١٩٤ ـ وهناك أمثلة أخرى لمنارات أو =

وكما تطورت المآذن فقد تطورت القباب أيضاً ، ويبدو ذلك واضحاً في مقرنصاتها التي ترتكز بها على قاعدتها المربعة ، فقد زادت طوابق هذه المقرنصات عما كانت عليه في أواخر العهد الأيوبي ، وزيد في تقسيماتها ، ودرجت فوق بعضها البعض في شكل هرمي ، أو على هيئة مثلث كروي ضخم رأسه إلى أسفل وقاعدته إلى أعلى .

وفي بعض القباب صنعت قوالب خشبية في شكل المقرنصات ، وألصقت في أركان قاعدة القبة فوق مقرنصاتها المبنية ، وزينت هذه القوالب بزخارف مذهبة وملونة (١) .

ولقد تنوع الشكل الخارجي للقبة أيضاً ، فأصبح منها ماهو نصف كروي ، ومنها ماهو بيضاوي ومنها ما هو غريب في شكله كقبة عبد الله المنوفي التي ترجع إلى نهاية القرن السابع الهجري فهي تنتهي من أعلاها بتنور فوقه مثمنة تحمل قبة صغيرة مضلعة(٢) .

وحتى أوائل القرن ٨ هـ كانت القباب تبنى عادة بالآجر ، لكن منذ هذا

= مآذن ذات رؤوس مزدوجة بنيت في نفس الفترة نذكر منها منارة الغمري بجيمع غمر ، ومنارة مسجد جان بلاط ومنارة مسجد العمروسي بالمنيا ومنارة مسجد قاني باي بالناصرية . وهناك احتمال بأن بداية هذا النوع من المآذن ترجع إلى النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، فابن كثير يصف منارة مسجد السلطان حسن التي سقطت عام ٧٦٢ هـ بأنها مزدوجة الرأس . حسن عبدالوهاب : تاريخ المساجد ص ٢٨٤ .

(١) Hautecoeur ; op cit, pp 272–273

(٢) زكي حسن : فنون الإسلام ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

الرقعة بدىء فى بنائها بالحجر .

ونلاحظ أن الطابع العام لقباب هذا القرن هو الفخامة والزخرفة والجمال متأثرة فى ذلك بالقباب السلجوقية(١) ، كما تعددت أساليب زخرفتها وتزيينها من الداخل والخارج .

أما من الخارج فبعض القباب ضلعت بضلوع محدبة تفصـــل بينها فواصل مقعرة ، أو بضلوع ذات شكل حلزونى . وتميزت قباب العهد المماليكى الجركسى بجمال زخارفها المحفورة والبارزة على سطوحهـــا الخارجية ، وتنوعت هذه الزخارف فى أشكال هندسية ونباتية أو زخارف بجدولة (٢) .

أما رقاب القباب من الخارج فقد زينت بإزاوات زخرفية وبنقوش كتابية، كما زين بعضها بأشكال مقرنصات وطاقات ، أو أحيط بحلقة من الأسنة البارزة(٣) كما حلى بعضها بفسيفساء خزفية ملونة .

ولقد تفنن البناء فى ابتكار أشكال مختلفة جميلة للانتقال الخارجى من القاعدة المربعة للقبة إلى رقبتها ، وجعل هذا الانتقال يتم أحيانا بواسطة عدة درجات متتالية تعلو بعضها البعض ، وفى بعض القباب حور البناء هذا الشكل المتدرج إلى شكل زخرفى تتكرر به التقويسات المحدبة والمقعرة(٤) .

---

(١) Hautcoeur : op cit. p 272

(٢) سامح : العمارة الإسلامية فى مصر ص ٢١٣ .

(3) Hautcoeur; op cit, p 272

(٤) سامح : المرجع السابق ص٢١٣ .

صناعات متنوعة

بالاضافة إلى ماذكرناه من صناعات فلا يفوتنا أن نشير إلى صناعات متنوعة أخرى ورد ذكرها في بعض المصادر ، لكن مما يؤسف له أن هذه المصادر لم تتكلم عنها باستفاضة ولم تمدنا بتفاصيل وافيه عنها ، ولذلك سنكتفي مضطرين بمجرد الإشارة إليها فقط . وفيما يلي أسماء بعضها :

صناعة المكانس[١] .

صناعة المرادن[٢] .

صناعة المراوح[٣] .

صناعة الشرابات[٤] .

صناعة الأمشاط[٥] .

---

(١) ذكر ابن الأخوة في كتابه معالم القربة ص٢٣٨ أنها تصنع من الليف.

(٢) المردن هو المغزل ، وعند العامة قضيب دقيق من الحديد يركب في الدولاب لتلف عليه خيوط الغزل . محيط المحيط .

وقد كانت المرادن تصنع من خشب الساسم أو من خشب السنط الأحمر وأيضا من النحاس الأصفر . ابن الأخوة : معالم القربة ص٢٢٥ .

(٣) تصنع من الخوص النقي . نفس المرجع ص ٢٣٨ .

(٤) تصنع من الليف المنقوع في الماء يوما قبل استعماله لتزول حرشته ، وتعمل حول الشرابات دائرة من جلود التماسيح المدبوحة ، أو من جلود البقر المدبوحة وتخرز بخيوط الكتان . ابن بسام : نهاية الرتبة ص ٩٩ .

(٥) تصنع من خشب البقس الرومي وهو خشب صلب . والأنواع الممتازة منها تصنع من الذبل وهو عظم ظهر السلحفاة . ابن الأخوة : المرجع السابق ص٢٢٧ .

صناعة الحصر(١) .

صناعة الأخفاف(٢) .

صناعة الحوائص(٣) .

صناعة القرابيل والمناخل(٤) .

صناعة الضبب أى الأغلاق التى تغلق بها الأبواب(٥) .

صناعة رحالات الجمال وأقتابها(٦) .

صناعة المحاير(٧) .

---

(١) الأنواع الجيدة منها تصنع من السمار القارى وتصبغ بالفوة القبرصية . أما الأنواع الرديئة فتصنع من أنواع أخرى من السمار كالسمار القطوى والسمار الكراعى ، وتستخدم خيوط من غزل الكتان لشد السمار إلى بعضه البعض . ابن الأخوة : نفس المرجع ص١١٠ .

(٢) المقريزى : المواعظ ج٢ ص٨٩ — ومما يذكر أنه كانت تصنع خفاف بيض ليلبسها رجال السيف فى الصيف — كما كانت تصنع لهم خفاف صفر من الأديم الطائفى ليلبسوها فى الشتاء . القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص٤١ .

(٣) المقريزى : نفس المرجع ص٩٩ والحياصة هى الحزام أو المنطقة التى يشدها رجال السيف حول أوساطهم ، وتصنع من الذهب وتركب على حاشية من الحرير . القلقشندى : المرجع السابق ص٥٢ .

(٤) المقريزى : نفس المرجع ص١٠٠ .

(٥) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٦) نفس المرجع والجزء ص٩٥ - والرحل مركب للبعير أصغر من القتب . محيط المحيط .

(٧) المقريزى : نفس المرجع والجزء ص١٠١ - والمحارة تشبه الهودج .

صناعة قسى البندق(١) .

صناعة الطوب(٢) .

صناعة الصابون(٣) .

صناعة القرب(٤) .

= وفى اصطلاح العامة صندوقان يشدان إلى جانبى الرحل يوضع فيهما الأولاد الصغار الذين لا يستطيعون الركوب . محيط المحيط .

(١) المقريزى : نفس المرجع والجزء ص١٠٤ .

والبندق تعريب الكلمة الفارسية فندق ، وهو طين صلب كروى الشكل يرمى به . محيط المحيط .

(٢) المقريزى : نفس المرجع والجزء ص٢٩٨ .

(٣) ذكر عبد اللطيف البغدادى أن مصر كانت تصنع فى العهد الأيوبى أنواعا من الصابون من زيوت بعض النباتات كزيت الخس ، كما قال أن هذا الصابون متعدد الألوان فمنه الأحمر ومنه الأصفر ومنه الأخضر . عبد اللطيف البغدادى : الإفادة ص٤١ .

وأغلب الظن أن صناعة هذا الصابون استمرت فى العهد المماليكى .

(٤) نظرا لكثرة عدد السقائين راجت صناعة القرب رواجا كبيرا ، وكثر عدد صناعها حتى أصبح لهم حى خاص بهم يعرف بإسم حى القربية . ابن إياس : بدائع الزهور ج٢ ص١٩٢ .

نظام الطوائف الصناعيه والحرفيه

يجدر بنا قبل أن نختم كلامنا على الصناعات فى مصر المماليكية أن نلق بعض الضوء على نظام الطوائف الصناعية والحرفية فى ذاك الوقت .

والواقع هناك مايدل على وجود هذا النظام فى مصر منذ العهد الفاطمى على الأقل ، ونستطيع أن نستدل على ذلك من قول المقريزى أنه فى العهد الفاطمى كان « على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم »(١) . وعبارة « أرباب كل صنعة » التى وردت فى كلامه تعطينا معنى الجماعة أو الطائفة التى تضم فى نطاقها كافة العاملين فى صنعة من الصنائع(٢) .

وعلى الرغم من أن مؤرخى مصر المماليكية والرحالة الذين زاروها فى هذا العهد لم يتكلم أحد منهم عن هذه الطوائف وعن نظمها بالتفصيل، إلا أننا نستطيع أن نكون صورة تقريبية عنهـا بالاعتماد على الصورة التى كانت عليها مثيلتها من الطوائف الأخرى فى العالم الإسلامى بصفة عامة ، وكذلك بالاعتماد على بعض الشواهد والأدلة التى تعرفنا ببعض نظم هذه الطوائف خلال عهدى المماليك والعثمانيين بمصر بصفة خاصة .

فرغم أن الطوائف الصناعية والحرفية الإسلامية كانت تقوم متفرقة فى أرجاء وأقاليم العالم الإسلامى المختلفة ، إلا أنها كانت تتشابه فى نظمها الرئيسية العامة . فقد كانت تتشابه فى أن لكل منها رئيسا اختلفت الألقاب التى لقب بها من بلد

---

(١) المقريزى : إغاثة الأمة ص١٨ .

(٢) استخدم برنارد لويس وكذلك ماسينيون كلمتى صنف ونقابة الدلالة على معنى الطائفة الصناعية أو الحرفية الإسلامية .

لآخر ، مثل لقب الشيخ أو الأمين أو العريف(١) أو المعلم(٢) . والشيخ الطائفة مساعد عرف فى بعض أقاليم وبلدان العـــالم الإسلامى بأسماء متعددة منها اسم النقيب(٣) . وقد يساعد الشيخ أحيانا فى إدارة شئون الطائفة مجلس مكون من المسنين من كبار معلمى الصنعة أو أساتذتها أو أسطواتها ، وهؤلاء كانوا يعرفون بالاختيارية(٤) .

ويبدأ أعضاء الطائفة صلتهم بطائفتهم وهم صغار ، حيث يبدأ الواحد منهم فى تعلم أسرار الصنعة أو الحرفة وفنونها لفترة من الزمن على يد معلم من معلمى الصنعة أو أساتذتها .

وفى فترة التدريب هذه يعرف الواحد منهم بالمبتدىء(٥) أو المتعلم(٦) أو الصبى(٧) .

وإذا أتم المبتدىء تعليمه وتدريبه ، واقتنع أستاذه أنه أصبح جـــديرا بأن يمارس الصنعة أو الحرفة مستقلا ، فإنه يخبر بذلك شيخ الطائفة فيقام عندئذ

---

(١) برنارد لويس: النقابات الإسلامية ، مقال مترجم بمجلة الرسالة الأعداد ٢٥٥ ، ٣٠٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢ سنة ١٩٤٠م ، ترجمة عبد العزيز الدورى ،

(٢) Luis Massignon ; Enc Isl, art Sinf

(٣) برنارد لويس : المرجع السابق .

(٤) برنارد لويس : المرجع السابق .

(٥) برنارد لويس : المرجع السابق .

(٦) Louis Massignon : op cit

(٧) ليفى بروفنسال : سلسلة محاضرات عامة فى أدب الأندلس وتاريخها

احتفال برأسة أساتذة الصنعة أو الحرفة ، وفى هذا الحفل تتم ترقية المبتدىء إلى رتبـــة أعلى .

وكان من المعتاد أن يبـدأ الحفـل بقراءة الفاتحة ، وإنشاد فى مدح النبى عليه الصلاة والسلام ، ثم يعقب ذلك إجراءات تعرف بالشد ، أى شد المحتفل به . وتتلخص هذه الإجراءات فى قيام شيخ الطائفة بشد وسط المحتفل به بمنديل أو حزام أو شال ، يعقده عدة عقد . وبعد عملية الشد هذه يلبس المحتفل به لباسا خاصا يعرف بالسروال ويوضع على كتفه شال ، ويعرف بواجباته الجديدة ، ويؤخذ عليه العهد والميثاق بأن يلتزم بها ولايخرج عليها ، وأن يظل مخلصا لها . فإذا انتهت هذه الإجراءات يأخذ المحتفل به مكانه بين زملائه على بساط التكريس لتناول غذاء يعرف بالتمليح أو الولمية(١) .

تلك كانت أبرز تقاليد ونظم الطوائف الصناعية والحرفية الإسلامية بصفة عامة ، ولاشك أن مثيلتها فى مصـــر كانت لها نفس الملامح سواء فى تكوينها أو نظامها أو تقاليدها ، فالمقريزى عندما تكلم عن الصناع بقيسارية طاشتمر قال أنه « تحت يد كل معلم منهم عدة صبيان من أولاد الأتراك وغيرهم »(٢) ، أى أن أرباب الصنعة الواحدة كان فيهم المعلمون ، كما كان فيهم المبتدئون وهم الصبيان ، وأن هؤلاء الصبيان كانوا يتلقون التدريب على يد معلمى الصنعة وتحت مباشرتهم وإشرافهم .

ولقد اختلفت الألقاب المهنية لرؤساء الطوائف الصناعية والحرفية المصرية

---

(1) Louis Massignon : Enc Isl. art Shadd

(٢) المقريزى : المواعظ جـ٢ ص٩١ .

وكذلك ألقاب معلمي الصنعة ، ويمكننا أن نستدل على بعض ألقابهم تلك من بعض النقوش الكتابية التي نقشوها على بعض مصنوعاتهم والتي سجلوا فيها أسماءهم وألقابهم المهنية ، ومن بينها مثلا نقش كتابي منقوش على كرسي عشاء مكفت بالفضة محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ونصه « عمل العبد الفقير الراجي عفـــو ربه المعروف بابن المعلم الأستاذ محمد بن سنقر البغدادي السناني وذلك في تاريخ سنة ثمانية وعشرين وسبعمائة ... »(١)

كما أن بعض المتاحف والمجموعات الفنية الخاصة تضم قطعا خزفية مملوكية عليها توقيعات صناعها وألقـــابهم المهنية ، ومنها لقب « المعلم » ولقب « شيخ الصنعة »(٢) .

وعلى اللوحة التذكارية لمنبر مسجد أبي المعاطي بدمياط نجد نقشا باسم صانعه « المعلم أحمد بن يوسف في شهر رجب سنة ٧٧١ هـ »(٣) .

كما أننا نجد على بعض القطع الخزفية المصرية التي تنسب إلى القرن التاسع الهجري عبارة « عمل الأستاذ المصري » . والمصري هذا كان من أعلام صناع الخزف في مصر في عصره(٤) .

وكان الخراريه كبير ذكره المقريزي بعبارة « كبير الخراريه »(٥) .

---

(١) Wiet : Objets en cuivre, p. 18

(٢) زكي حسن : فنون الاسلام ص٣٢٤ .

(٣) حسن عبد الوهاب : توقيعات الصناع على آثار مصر الاسلاميـــة ص٥٤٧ .

(٤) زكي حسن : المرجع السابق ص٣٢٢ .

(٥) المقريزي : المواعظ ج٢ ص ٢٦٨ ، ٣٦٩ . هذا ولم أجد في المعاجم اللغوية وكذلك في المصادر الأخرى التي رجعت إليها تعريفا لمدلول كلمة الخراريه .

أما كبير السقائين فكان يلقب بلقب مقدم السقائين(١) .

ومن كل هذه الألقاب نستطيع أن نقـــول أن أعضاء الطوائف الصناعية والحرفية فى مصر المماليكية كانوا يخضعون داخل طائفتهم لنفس نظام التدرج الذى أشرنا إليه من قبل ، وأن مرتبة الصبى كانت أدنى مرتبة فى هذا التدرج ، تعلوها مرتبة المعلم أو الاستاذ . أما رئيس الطائفة - فواضح من الأمثلة التى ذكرنا - أن ألقابه المهنية كانت تختلف من طائفة لأخرى وعرفنا منها لقب شيخ ، ولقب كبير ، ولقب مقدم .

أما فيما يختص بالروابط التى كانت تربط بين أفراد الطائفة المصرية ونوعية العلاقة بينهم ، فمما لاشك فيه أن الصبى فى أى حرفة أو صنعة كان ينظر إلى أستاذه فيها نظرته إلى أبيـه تماما ، ويعتبر أن لأستاذه حقوقا عليه ، كحقوق الأب على ابنه . ونستطيع أن نلمس ذلك جليا فيما روته كتب الحسبة المصرية من أن الأطباء المصريين كان يتعين عليهم قبل السماح لهم بممارسة صنعتهم أن يتعهدوا بعهد بقراط (الطبيب اليونانى المتوفى عام ٤٦٠ ق . م)(٢) ، وهذا العهد يلزم الطبيب بجملة التزامات ، بعضها تخص أستاذه نصها « ... أرى أن المعلم هذه الصناعة بمنزلة آبائى ، وأواسيه فى معاشى ، وإذا احتاج إلى مال واسيته وواصلته من مالى . وأما الجنس المتناسل منــــه فأرى أنه مساو لإخوتى ، وأعلمهم هذه الصناعة إذ احتاجوا إلى تعلمها بغير أجرة ولاشرط ... »(٣) .

---

(٢) نفس المرجع والجزء ص٣٢١ .
(٢) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص٩٨ .
(٣) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء وطبقات الأطباء ج١ ص٢٥ .

أما تقاليد ترقية الصبي فى الطائفة المصرية إلى مرتبة الصانع أو المعلم فلخصها أن الصبي إذا أتم تدريبه تحت إشراف أحد المعلمين ، فإن معلمه يخبر شيخ الصنعة أو الحرفة بذلك ، فيأمر الشيخ بدعوة أهل الطائفة لحضور حفل ترقيته .

وفى الاحتفال المذكور يصحب المعلم صبيه إلى مكان الاحتفال حيث يكون شيخ الطائفة والختيارة (وهم كبار معلمى الصنعة الذين يعاونون الشيخ فى إدارة شئون الطائفة) مجتمعين . وتبدأ إجراءات الاحتفال بأن يتقدم الصبي وبجانبه معلمه إلى الشيخ ويحييه ثم يقرأ الفاتحة ، فيتلو الشيخ وجميع الحاضرين الفاتحة أيضاً ، وبعدها يسأل الشيخ المعلم والصبي سؤالا تقليديا يستفهم به عن سبب مجيئهما ، فيجيب المعلم بأن الصبي الذى جاء بصحبته قد أتم تعلم الصنعة بما فيه الكفاية ، وأنه يطلب الإذن له ليفتح لنفسه دكانا يمارس فيه الصنعة التى تعلمها . فعندئذ يقوم الشيخ باختباره ، فإن اطمأن إلى إجادته الصنعة اقترب وشد حول وسطه حزاما أو شالا(١) ، مع عقده عدة عقد أقلها ثلاث وغايتها سبع عقد فى العادة بعدد المعلمين الكبار الموجودين فى الحفل . ولهم فى ذلك اصطلاح ، فالعقدة الأولى تسمى الأسطاوية ويحلها معلمه الذى رباه وعلمه الصنعة . والثانية تسمى الرتبة ويحلها شيخ الطائفة ، أما باقى العقد فيحلها كبار المعلمين الحاضرين فى الحفل وفى أثناء ذلك يقرأ النقيب — وهو نائب رئيس الطائفة — خطبة وينشد قصائد(٢) ثم يتناول الجميع طعام وليمة يولمها لهم الصبي المحتفل بترقيته .

---

(1) Jomard : Descrion de L'Egypte, T. 18, p. 372

(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ١ ص ١٠١

والواقع أن شهادة شيوخ الصنعة أو أساتذتها كانت أمراً هاماً للعاملين فيها ، وقد أشار الجبرتي إلى ذلك أثناء ترجمته لأحد الفلكيين الذين توفوا عام ١٢٠٣ هـ فقال عنه أنه قد « أقر له أشياخه ومعاصروه بالاتقان والمعرفة »(١) .

ويلاحظ فى بعض الإجازات التى منحها أساتذة الصنعة لتلاميذهم أنها تضمنت نصائح ، وفى هذه النصائح يرسم الأستاذ لتلميذه أدب وأخلاق الصانع المصرى كما يرسم لهم فيها أيضاً النهج الصحيح السوى الذى به يمارس صنعته . ولدينا مثال لهذه النصائح فى الإجازة التى منحها صانع القسى لتلميذه عام ١٢٠٥ هـ ، ففيها يوصى أستاذ الصنعة تلميذه بقوله « وأوصيه كما أوصى إخوانى ونفسى المخالطة بالأدب الجليل ، وتواضع النفس ، وحملها على مكارم الأخلاق ، وأن لا يرفع نفسه على أحد ، وأن لا يحقر أحداً من خلق الله ، وأن يجعل دأبه لزوم الصمت والإدمان والقناعة بالقليل مع المداومة على ذكر الله بالسكينة والوقار ، وأن يسمى الله فى أول مسكه فى صنعته ، ويستمد من الله القوة والحول ، ولا يضجر ولا ييأس من روح الله ، ولا ينسب نفسه ولا قوسه ولا سهامه ، ولا يحدث نفسه بالعجز ، فإنه يصل إلى ما وصل اليه غيره ، فإن الرجال بالهمم ... وأن يديم النظر إلى إنشاء الله ان حدثنا ، ويعرف من أين حدثت عليه »(٢) .

ورغم أن شيخ الصنعة كان بحكم رئاسته لأرباب صنعته مسئولا عنهم مسئولية كاملة أمام الحكومة ، إلا أن الحكومة المماليكية كانت لا تكتفى بذلك ، لذلك كانت تعين على كل صنعة عريفاً منهم يكون محل ثقتها ، ليقوم بمراقبتهم ،

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ١٨١

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٨٢ .

ويكون حلقة إتصال بينهم وبينها(١) .

وتعيين هذا العريف لا يعتبر أمراً مستجداً في العهد المماليكي فقد أشرنا من قبل إلى قول المقريزي أنه كان في العهد الفاطمي « على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم »(٢) .

ولقد حفلت كتب الحسبة بالشروط التي يجب توفرها في العريف ، وأوضحت تفاصيل مهمته ، وفي هذا الشأن يقول ابن الأخوة في كتابه معالم القربة في أحكام الحسبة أنه « يجب على المحتسب أن يعرف على أهل الصنعة رجلا ثقة أمينا من أهل صناعتهم ... بصيرا بصناعتهم ، عارفا بغشهم وتدليسهم ... بصيرا بأحوالهم ... له دين ... ينهى أخبارهم للمحتسب »(٣) .

والسلطة الممنوحة للعريف كانت تبيح له أن يحضر وأن يراقب بنفسه أبناء طائفته أثناء قيامهم بالعمل في صنعتهم ، بل إن بعض كتب الحسبة اشترطت أن لا تتم مراحل معينة من بعض الصناعات إلا بحضور العريف(٤) .

ومن سلطة العريف أيضا أن يراقب مواعيد حضور وانصراف أهل صنعته وذلك في الأوقات التي يعملون فيها لحساب أحـــد من العملاء بأجر معين ، فقد

---

(١) يخبرنا المقريزي عن دور هؤلاء العرفاء في العهد المماليكي فيقول « والعادة جارية باستخدام عرفاء في الأسواق على أرباب الصنائع ، ويقبـــل قولهم فيما يذكرونه » إغاثة الأمة ص ١٩ .

(٢) نفس المرجع ص ١٨

(٣) ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ص ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

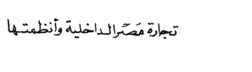
(٤) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٣٦

يوافق أكثر الصناع على أجره معلومة كل يوم فيتأخرون عند الغدو ، وينصرفون قبل المساء ، فينبغى أن يشترط فى ذلك (أى العريف) مايمنع منه ، ولا ينصرفوا إلا مسيا ... »(١) .

ولم تقف مهمة العريف عند حد المراقبة ، بل كان من سلطته أيضا أن يكون حكما بين الصانع والعميل ، ومن أمثلة ذلك أنه إذا « أخذ أحدهم غزلا لإنسان لينسجه له ثوبا ... وادعى صاحب الغزل أن الحائك أبدل غزله ، عرضه المحتسب على العريف ، فإن رجعا إلى قوله كان بها ، وإلا حملهما إلى حكم الشرع »(٢) .

(١) ابن الأخوة : المرجع السابق ص ٢٣٤

(٢) الشيزرى : المرجع السابق ص ٦


تجارة مصر الداخلية وأنظمتها



أولا - السوق المصرية فى العهد المماليكى

١ — أنواعها

دراسة السوق المصرية فى العهد المماليكى لها أهمية عظيمة فى دراستنا لاقتصاد مصر الداخلى فى هذا العهد ، فالسوق هى المرآة التى تنعكس على صفحتها خلاصة وحصيلة النشاط الانتاجى والاقتصادى للمجتمع فى ذاك الوقت ، كما أنها تعكس الكثير من أنظمته الإقتصادية والمالية التى كان يعمل بها وقتئذ ، ومن هنا كان من الضرورى أن نلقى نظرة عامة شاملة على السوق المصرية فى ذاك الوقت من جملة زوايا .

ورغم أن بعض مؤرخى مصر المماليكية والرحالة الذين زاروا القاهرة فى هذا العهد تحدثوا عن أسواقها إلا أن المقريزى - فى رأينا - خير من كتب عنها ، فقد ضمن خططه فصلا ممتعا عنها ذكر فيه أسماءها ، وأنواعها ، وأنواع منشئاتها ، وأنواع تجارها ، وباعتها ، وأنواع السلع التى تعرض فى كل سوق وأسعارها ، ونظام الرقابة عليها ، ونظام حراستها ورعايتها والمحافظة على أمنها . كما بين المقريزى أهمية السوق ليس فقط من الناحية الإقتصادية البحته ، وإنما أيضا من الناحية الإجتماعية فالسوق وقتئذ لم تكن مرآة للحالة الإقتصادية فقط بل كانت مرآة أيضا لكثير من تقاليد المجتمع المصرى وعاداته خصوصا فى المواسم والأعياد وكذلك فى بعض المناسبات الأخرى (١) .

ونحن إذا اتخذنا أسواق القاهرة مقياسا لمدى النشاط التجارى داخل مصر

---

(١) ارجع للمواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٨٦ وما بعدها .

فى هذا العهد ، فيكفى أن نستدل على ضخامة هذا النشاط من قول المقريزى أن حوانيت القصبة فى المنطقة التى كانت تمتد من حى الحسينية(١) إلى المشهد النفيسى(٢) كانت تقدر بحوالى اثنى عشر ألف حانوت وأنه أدرك هذه المسافة بأسرها رغم امتدادها الطويل ، عامرة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة »(٣).

أغلب الأسواق المصرية وقتئذ كانت مغطاة لحماية السلع والتجار والمشترين من حرارة الشمس أو تقلبات الجو . وقد تعددت وسائل تغطيتها ، فبعضها كان يغطى بسقف محدب على هيئة الجملون لذلك كانت تعرف باسم الجملون ، وكان بالقاهرة من هذا النوع سوقان أحدهما سوق الجملون الكبير(٤) ، والثانى سوق الجملون الصغير(٥) البعض الآخر من الأسواق كان يغطى بسقف خشبى مسطح ولذلك كانت

---

(١) هو أحد الأحياء التى قامت خارج الأسوار الشمالية للقاهرة الفاطمية ، وامتد من شمال باب النصر والفتوح حتى الريدانية (أى إلى المنطقة التى تقوم عليها الآن العباسية ومنشية البكرى ومصر الجديدة) ، وقد سمى هذا الحى باسم طائفة من العبيد كانت موجودة فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى . المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢١ .

(٢) هو مشهد السيدة نفيسه بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب التى توفيت عام ٢٠٨ هـ ودفنت بمنزلها الذى كانت تقيم به فى الخط الذى كان يعرف قديما بدرب السباع جنوب باب زويله . نفس المرجع والجزء ص ٤٤٠ وهذا المشهد ما زال قائما حتى اليوم بشارع الأشرف بقسم الخليفة بالقاهرة .

(٣) نفس المرجع والجزء ص ٩٤

(٤) نفس المرجع والجزء ص ١٠٣

(٥) نفس المرجع والجزء ص ١٠١

أسواقه تعرف بالسقائف (١) .

والبعض الثالث منها كان يغطى بخيمة متحركة عالية ، تمد فوق السوق بحبال وقت الحاجة خصوصا عند اشتداد حرارة الشمس ، وتجمع عند امتداد الظل(٢)

ورغم أن القاهرة وضواحيها كانت تحتوى على العديد من الأسواق الدائمة الثابتة إلا أنه فى بعض الأحوال والمناسبات الطارئة كانت تقام أسواق مؤقتة لفترة من الوقت تزال بعدها ، وأمثال هذه الأسواق غالبا ما كانت تقيد بالصواوين (٣).

ولقد كان من المعتاد إقامة مسطبة تتقدم الحانوت ليجلس عليها صاحب الحانوت ، ويستقبل زبائنه عليها ، ويعقد صفقاته ويجرى مساوماته . ويبدو أن بعض المساطب كانت تؤجر وحدها لبعض الباعة خصوصا إذا كانت تقوم فى موقع تجارى ممتاز ، بل إن بعضها كان يؤجر لأكثر من بائع أثناء النهار ، كل واحد منهم يستأجرها لعدة ساعات فقط (٤) .

أما الحوانيت التى كانت تقع فى موقع تجارى ممتاز فكان التجار يتنافسون

---

(١) نفس المرجع ج ١ ص ٣٤٢

(٢) نفس المرجع ج ٢ ص ٠٩١

(٣) نفس المرجع ج ٢ ص ١١٣

(٤) من أمثلتها مسطبة كانت تقوم خلف مسجد أحمد بن طولون ، تنافس التجار والباعة على استئجارها ، فكانت تؤجر من بكرة النهار لبائع يبيع الغزل ، ثم عند الظهر كانت تؤجر لخباز ، أما عند العصر فكانت تؤجر لبائع يبيع الحمص والفول . نفس المرجع والجزء ج ٢ ص ٢٦٧ .

على استثمارها تنافسا يوسطون فيه الحكام (١) .

البيع بالتجزئة كان يتم فى الحوانيت ، أما البيع بالجملة فغالبا ما كان يجرى فى الفنادق والخانات والوكالات (٢) .

والفندق والخان والوكالة هى أسماء ثلاثة لنوع واحد من المنشآت التجارية، ونفهم ذلك من قول المقريزى عن وكالة قوصون أنها « فى معنى الفنادق والخانات » (٣) .

وكلمة الفندق جاءت من الكلمة اليونانية Pandokeion التى كانت تطلق على مثل هذا النوع من المنشآت التجارية (٤) .

أما كلمة الخان فهى فارسية الأصل إذ أن الفرس كانوا يطلقون على الحانوت أو المكان الذى ينزل به التجار كلمة خان (٥).

---

(١) من أمثلتها حوانيت كانت تقع بخط الربع خارج باب زويلة ، فرقعها الممتاز الذى كان يتوسط ما بين الفسطاط والقاهرة جعل التجار يتنافسون على على استثمارها تنافسا شديدا وسطوا فيه أهل الحكم فى الدولة . المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٩٠٣ .

(٢) يتضح دور الوكالات فى البيع بالجملة فيما قال المقريزى عن وكالة قوصون فقد قال أن التفاح والكمثرى والسفرجل التى كانت مصر تستوردها من الشام كانت تباع أولا فى هذه الوكالة ثم تنقل بعد ذلك إلى أسواق القاهرة ومصر . نفس المرجع ج ٢ ص ٩٣ .

(٣) نفس المرجع والجزء ٩٣ .

(٤) Mez : The renaissance of Islam, p. 481

(٥) Wiet : Precis de l'histoire d'Egypte, deuxieme partie, L'Egypte musulmane, p. 275

أما كلمة الوكالة فقد جاءت من كلمة التوكيل العربية، وشاع استخدام المصريين لهذه الكلمة للدلالة على المحل الذي يبيت فيه التجار بأمتعتهم(١)، ولعل ذلك راجع إلى شيوع نظام الوكلاء في التجارة الإسلامية وكثرته.

ولما كان الفندق والخان والوكالة شيئاً واحداً لذلك كان تخطيطها وتصميمها متماثلا.

ويمكننا أن نتعرف على هذا التصميم والتخطيط من تصميم وتخطيط وكالة وكالة الغوري ٩١٠ هـ التي ما زالت باقية حتى اليوم محتفظة بأغلب عناصرها المعمارية.

وبمقارنة ما تبقى من هذه الوكالة بالوصف المسجل عنها بوثيقة السلطان الغوري(٢) نقول أنها تتكون من مبنى مستطيل الشكل، يتوسطه من الداخل فناء مستطيل مكشوف أي غير مسقوف.

وكان يتوسط هذا الفناء مسجد صغير تجاوره فسقية ماء للوضوء(٣). وبأحد

---

(١) محيط المحيط

والملاحظ أن استخدام كلمة الوكالة كان قليلا في مصر حتى منتصف القرن التاسع الهجري رغم استخدامها من قبل في العهد الفاطمي، لكن منذ النصف الثاني القرن التاسع الهجري بدأ استخدامها بدرجة أكبر، حتى إذا جاءت الحملة الفرنسية كانت كلمة الوكالة هي الشائع استخدامها بدلا من كلمتي الخان والفندق

Van Berchem : Gorpus Incriptionum Arabicarum, premiere partie, Egypte. p. 180

(٢) وثيقة الغوري أوقاف رقم ٨٨٣ - وقد قام الدكتور عبد اللطيف ابراهيم بنشرها في بحث بعنوان « الوثائق في خدمة الآثار ، العصر المملوكي »

(٣) المسجد وفسقية الوضوء إندثرا ولم يبق منها أي أثر اليوم.

جوانب الفناء دهليز يؤدى إلى إسطبل كان مخصصا لإيواء دواب التجار .

والمبنى الرئيسى للوكالة يتكون من ثلاثة طوابق تحيط بالأضلاع الأربعة للفناء الداخلى الذى أشرنا اليه ، الطابق الأرضى منها به «حواصل» كانت تستخدم كمخازن أو حوانيت لتخزين ولعرض السلع بها ، ويتقدم هذه الحواصل ممشى أو ممر يمتد محيطا بالفناء من جهاته الأربعة وسقفه محمول على عقود وأعمده .

بالطابق الثانى للوكالة حواصل مماثلة لتلك التى بالطابق الأرضى ، ويتقدمها هى الأخرى ممر بدرابزين يطل على الفناء . أما الطابق الثالث فيحتوى على «مساكن» ، وكل مسكن منها يحتوى على قاعة للجلوس أو لاستقبال الزوار بها ، و «خزانة» ، أى غرفة النوم و «كرسى خلا» أى مرحاض ، وهذه المساكن كانت مخصصة لإقامة التجار الوافدين مدة بقائهم بالقاهرة .

وهكذا كان الواحد منهم يجـــد فى أمثال هذه الوكالة أو الخان أو الفندق المأوى لنفسه ولدوابه ، وكذلك المخازن أو الحوانيت التى يستطيع أن يخزن أو يعرض فيها بضاعته ، كما يجد فيها أيضا المسجد الذى يؤدى فيه فرائضه الدينية .

وفى الفنادق التى كانت تخصص لإقامة التجار الفرنج كانت الحكومه تسمح بأن يقام لهم فيها كنيسة وحان وفرن وحمام ، كنوع من التسهيلات التى كانت تمنح لهم لترغيبهم فى تنشيط تجارتهم مع مصر . وفى الاسكندريه كانت تقوم عـــدة فنادق من هذا النوع (١) .

وبالاضافة إلى الفندق والخان والوكالة كانت «القيســـارية» من المنشئات

---

(١) الطاهر أحمـــد مكى : معاهدة من القرن الخامس عشر بين سلطان مصر وملك أرغون ، مقال بمجلة المجلة العدد ٤٩ سنة ١٩٦١ م .

التجارية التى لها أهميتها هى الأخرى فى أسواق مصر وقتئذ . والقيسارية استمدت اسمها من لفظ يونانى معناه الإمبراطورى ، وهذا يدل على أنها كانت تنشأ فى العهد الرومانى بواسطه الإمبراطور أو القيصر . أما فى مصر الإسلامية ، وفى العهد المماليكى على وجه الخصوص فكانت تنشأ بواسطة السلاطين والأمراء أو كبار الموظفين والأثرياء ، وأغلب الظن أن هذه القياسر كانت تخصص للحرفيين والصناع ليمارسوا بها حرفتهم أو صنعتهم بها ، وليبيعوا مصنوعاتهم بها أيضا[1].

والقيسارية تشبه الفندق والخان والوكاله فى تخطيطها العام ، فهى تتكون من فناء أوسط مكشوف يحيط به مبنى القيساريه المكون من طابقين . الطابق السفلى به حوانيت يتقدمها ممر مسقوف[2] أما الطابق العلوى ففيه ربع أى مسا كن مخصصه لإقامة أهل الصناعات بها[3] . وبعض القياسر كانت تشتمل على مسجد معلق - أى مرتفع عن سطح الأرض - وفسقية ماء للوضوء[4] .

ب — أنواع التجار والباعة

التجار والباعة كانوا عدة أنواع ، فالذين لهم حوانيت كانوا يعرفون بأرباب

---

(١) بمراجعة فصل القياسر الذى أورده المقريزى بخططه جـ ٢ ص ٨٦ - ٩١ نلاحظ أن كل القياسر التى ذكرها بهذا الفصل كانت مخصصه لحرفيين وصناع .

(٢) Ency. Isl. art Kaisariya

(٣) Wiet : Mosquees du Caire .p. 108

- Precis de l'histoire d,Egypte. deuxieme partie. L'Egypte Musulmane. p. 274-275

(٤) المقريزى : المواعظ جـ٢ ص ٨٦ - ٩١

الحوانيت أو الدكاكين(١) .

أما الذين لم تكن لهم حوانيت فكانوا يجلسون بشارع السوق ويعرضون بضاعتهم على مقاعد أو دكك ، لذلك عرفوا بأصحـــاب الدكك(٢) أو أرباب المقاعد(٣) ، كما أن بعضهم كان يعرض بضاعته على طبليات فعرفوا بأصحاب الطبليات لهذا السبب (٤) .

وهناك نوع ثالث منهم كان جوالا لايستقر فى مكان واحد ، ويطوف بسلعته فى الشوارع والأزقة ، ويطوف بها على البيوت(٥) .

ومنهم أيضا من كان يطوف بمراكب صغيرة فى برك القاهرة ليبيع سلعته لسكان الدور القائمة على شواطئها .

ومن أشهر وأبرز الباعة الجائلين وقتئذ « السقاؤن » . وقد لفت السقاؤن دائما نظر الرحالة الذين زاروا مصر فى عصورها المختلفة بكثرة عددهم وبأهمية الدور الذى كانوا يقومون به فى تزويد الناس بالمـــاء ، فعندما زار ابن سعيد الفسطاط رأى السقائين فيها من الكثرة ، بما لا يفى به إلا مشاهدته ، يزحمون الأسواق بجمالهم وبما تحمله من روايا (٦) .

---

(١) نفس المرجع جـ ١ ص ١٠٥ .
(٢) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ١٩١
(٣) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٩٧
(٤) ابن الحاج : المرجع السابق جـ ١ ص ١٩١ .
(٥) ابن الحاج : المدخل جـ ٣ ص ٨٥
(٦) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ٦

كما قدر ابن بطوطة عدد سقائى الجمال بمدينة مصر (١) وحدها باثنى عشر الف سقاء (٢) .

وفى العهد المماليكى كان السقاؤن يحملون الماء فى الروايا والقرب والدلاء(٣) . والراوية أكبر من القربة وتصنع من جلد البقر المدبوغ (٤) ، أما القرب فتصنع من جلد الماعز المدبوغ(٥) .

ونظرا لضخامة حجم الراوية وثقل وزنها بعد امتلائها بالماء لذلك كانوا يستخدمون الجمال لحلها ونقلها من مكان لآخر ، فعرفوا لهذا السبب باسم سقائى الجمال ، وهؤلاء كانوا يؤمرون بتعليق صفاقات من الحديد والنحاس فى أعناق جمالهم لتحدث أصواتا أثناء سيرها فيفسح الناس الطريق لها (٦) .

أما السقاؤن الذين كانوا يستخدمون القرب فقد عرفوا بسقائى القرب لأنهم كانوا يحملونها معلقة فى رقابهم أو اكتافهم ، وقد تفننوا فى تزيين فوهاتها بزخاوف مختلفة (٧) .

---

(١) مدينة مصر هى المنطقة التى كانت تمتد جنوب باب زويلة ، وهى التى قامت عليها الفسطاط والعسكر والقطائع ، إرجع المواعظ جـ ١ ص ٣٦

(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار ص١٦

(٣) ابن الأخوة : معالم القربة ص ٢٤٠ .

(٤) ابن بسام : نهاية الرتبة ، ورقة ١٣٢

(٥) نفس المرجع ورقة ١٣٢

(٦) ابن الحاج : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٢٥

(٧) Leon L'Africain : Description de L'Afrique. T. 8. p. 16

وهناك طائفة ثالثة من السقائين كانوا يعرفون بسقائى الكيزان ، وهؤلاء كانوا يحترفون سقاية الناس فى الأسواق بأجر ، ويقدمون لهم الماء فى كيزان من النحاس طيبت رائحتها بالبخور والمسك واللاذن (١) .

ج — اهم السلع

السلع التى كانت تبـــاع بأسواق مصر كانت من نوعيات مختلفة متعددة ، فبعضها سلع مصنوعة ، وبعضها محاصيل زراعية ، وبعضها سلع غذائية كاللحوم والطيور والأسماك ، وبعضها سلع حيوانيـة ، بل إن الإنسان نفسه كان سلعة مهمة تباع وتشترى بالأسواق وقتئذ .

ونظراً لأن بعض السلع كانت لها أهمية خاصة لذلك خصصت لها أسواق سميت باسمها أو باسم صناعها أو تجارها ، ونذكر من هذه الأسواق :

دار الديباج(١) ، قيسارية الجـــلود (٢) ، سوق الوراقين(٤) ، سوق الحريريين(٥) ، الصاغة (٦) ، سوق الخيميين (٧) ، سوق المرحليين(٨) ، سوق

---

(١) ابن بسام : المرجع السابق ورقة٦٥ ، ابن الأخوة :معالم القربةص٢٣٠

(٢) المقريزى : المواعظ ج٢ ص ٤٢ .

(٣) نفس المرجع والجزء ص ٤٣ .

(٤) نفس المرجع والجزء ص ٨٦ .

(٥) نفس المرجع والجزء ص ٩٠ ، ٩٢ .

(٦) نفس المرجع والجزء ص ٩٠ .

(٧) نفس المرجع والجزء ٩٢ .

(٨) المرحلون هم صناع أو تجار رحالات الجمال وأقتابها . نفس المرجع والجزء ص ٩٥ .

الشماعين[1] ، سوق السلاح[2] ، سوق القفصيات[3] ، سوق السيوفيين[4] ، سوق الأمشاطيين[5] ، سوق المهامزيين[6] ، سوق اللجميين[7] ، سوق الجوخيين[8]، سوق الشرابشيين[9] ، سوق الحوائصيين[10]، سوق الغرابليين[11]

---

(١) الشماعون هم تجار الشمع . نفس المرجع والجزء ص ٩٦ .

(٢) هذا السوق كان مخصصا لبيع مختلف أنواع الأسلحة كالقسى والنشاب والزرديات وغيرها من آلات السلاح . نفس المرجع والجزء ص ٩٨ .

(٣) هذا السوق كان مخصصا لباعة يجلسون على تخوت ، وفوق تلك التخوت أقفاص صغار من حديد مشبك فيها طرائف من الخواتم والفصوص وأساور النساء وخلاخيلهن . نفس المرجع والجزء ص ٩٧ .

(٤) نفس المرجع والجزء ص ٩٧ ، وفيه تباع السيوف

(٥) نفس المرجع والجزء والصفحة , وفيه تصنع وتباع الأمشاط

(٦) كان مخصصا لبيع المهامز والبدلات الفضة الخاصة بلجم الخيل وسلاسلها والمخاطم الفضة التى تجعل تحت لجم الحجور من الخيل . نفس المرجع والجزء ص ٩٧ - ٩٨ .

(٧) كانت تباع فيه آلات اللجم ونحوها مما يتخذ من الجلد ، كما كان فيه عدد وافر من الطلائين ، ومكفتو اللجم والركب والمهامز ، كما كان فيه عدد من صناع السروج ـ نفس المرجع والجزء ص ٩٨ .

(٧) كان مخصصا لبيع الجوخ المجلوب من بلاد الفرنج لعمل المقاعد والستائر وثياب السروج وغواشيها . نفس المرجع والجزء ص ٩٨ .

(٩) كانت تباع فيه الخلع بها السلطان على الأمراء والوزراء والقضاة ومن يماثلهم . نفس المرجع والجزء ص ٩٨ .

=

سوق الحوايصيين (١) ، سوق الكتبيين (٢) ، سوق الصناديقين (٣) ، سوق الزجاجين (٤) ، سوق المنبريين (٥) سوق الخراطين (٦) ، سوق الفرايين(٧) ،

= والشرابشيون هو صناع وتجار الشرابيش . والشربوش رداء الرأس مثلث الشكل يشبه التاج يلبسه الأمير المرق إلى رتبة الإمارة فى الحفل الذى يقام بهذه المناسبة . نفس المرجع والجزء ص ٣٨٠ .

(١) الحوائص هى الأحزمة أو المناطق التى يشدها رجال السيف حول أوساطهم ، وتصنع من الذهب وتركب على حاشية من الحرير . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤١ .

(١) فيه تصنع وتباع مناخيل الدقيق والغرابيل . المقريزى : المرجع السابق ج ٢ ص ١٠٠ .

(١) فيه عدة حوانيت لعمل المحاير التى يسافر فيها إلى الحجاز وغيره ، ولهذا السوق موسم عظيم عند سفر الحجاج ، وعند سفر الناس إلى القدس . نفس المرجع والجزء ص ١٠١ .

(٢) فيه تباع الكتب لذلك كان مجمعا لأهل العلم . نفس المرجع والجزء ص ١٠٢ .

(٣) فيه تباع الصناديق والخزائن والأسرة ونحوها مما يصنع من الخشب . نفس المرجع والجزء ص ١٠٢ ، وفيه يصنع ويباع الزجاج

(٤) نفس المرجع والجزء ص ١٠٢ .

(٥) كان مخصصا لباعة المنبر ، والمنبر وقتئذ كان من السلع الرائجة بديار مصر والناس فيه رغبة زائدة ، فمنه كانت تصنع قلائد النساء ، كما كانت تعمل به المخاد والكلل والستور وغيرها . وتجار المنبر وقتئذ كانوا يعدون من بياض الناس - أى من أعيانهم - لأن ثرواتهم كانت كبيرة .

نفس المرجع والجزء ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

سوق البخانقيين(١) ، سوق الاخفافيين(٢) ، سوق الكفتيين(٣) ، سوق الخلعيين(٤)،
سوق الضبيين(٥) ، سوق الحصريين (٦) .

---

(٦) كان معمور الجانبين بحوانيت الخراطين المتخصصين في صناعات الخشب المخروط . نفس المرجع والجزء ص ١٠٣ .

(٧) في هذا السوق كان يباع فراء السنجاب والوشق والقماقم والدلق والسمور والفنك ، كما كانت تباع فيه الثياب المفراه أي المزينة بالفراء أو المصنوعة منه . نفس المرجع والجزء جـ ٢ ص ١٠٣

(١) البخانقيون هم تجار البخنق وهو قناع تقنع به المرأة وتشد طرفيه تحت حنكها لتقى خمارها من الدهن ، والدهن من الغبار . محيط المحيط .

(٢) كان مخصصا لبيع خفاف النساء ونعالهن التي يقال للنعل منها سرموزه ، وهو لفظ فارسي معناه رأس الخف ، فكلمة سر معناها رأس وكلمة موزة معناها خف . المقريزي : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠٠ .

(٣) كان مخصصا لصناعة وبيع الأواني النحاسية التي تكفت - أي تطعم بالذهب والفضة . نفس المرجع والجزء ص ٥٠ .

(٤) كان مخصصا لباعة الثياب المستعملة ، إلا أنه كان من أعمر أسواق القاهرة ، لكثرة ما يباع فيه من ملابس أهل الدولة . نفس المرجع والجزء ص ١٠٢ .

(٥) فيه تصنع وتباع الأغلاق أي الضبب . نفس المرجع الجزء ص ١٠٠ .
(٦) نفس المرجع والجزء ص ١٠٢ وفيه تباع الحصر .

فندق الحصر بمصر (١) ، فندق دار التفاح (٢) ، سوق الحلاويين (٣) ، سوق الدجاجين ، (٤) ، عرصه الغلال (٥) ، سويقه القصب (٦) ، سوق الشوايين (٧)

---

(١) خصص هذا الفندق لنوعين من الحصر كانت تجلب من الفيوم ، النوع الأول يسمى الحصر الرفيعة والنوع الثانى الحصر القطبان . ابن دقاق : الإنتصار بواسطه عقد الأمصار ج ٤ ص ٤٠ .

(٢) كان سوقا رئيسيا الفواكه ، فترد إليه الفواكه على إختلاف أصنافها مما ينبت فى بساتين ضواحى القاهرة ، وكذلك التفاح والسفرجل المستورد من الشام . المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٩٣ ، ٩٤

(٣) كان يباع فيه السكر والحلوى المصنعة من السكر ، والحلوى المصنعة فى عدة أشكال وألوان وهى التى كانت تعرف باسم الجمعة ، والحلوى المصنعة فى هيئة خيول وسباع وقطط وغيرها من الأشكال وهى التى كانت تعرف باسم العلاليق المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٩٩ ، ١٠٠

(٤) كان يباع فيه الدجاج والأوز وأنواع أخرى من الطيور كالعصافير التى يبتاعها الأولاد ليعتقوها اعتقادا منهم أن ذلك يدخلهم الجنة ، وفى كل يوم جمعة تباع فيه القمارى والهزازات والشحارير والبيغاء والسمان وسائر الطيور ذات الصوت الجميل وهى التى كانت تعرف باسم طيور المسموع . نفس المرجع والجزء ص ٩٦

(٥) نفس المرجع والجزء ص ٣٦ . والعرصه هى البقعة الواسعة بين الدور التى ليس فيها بناء ، وقيل كل بقعه ليس فيها بناء فهى عرصة . محيط المحيط .

(٦) رغم أن السويقة - لغويا - هى السوق الصغير ، إلا أن السويقة كانت سوقا كبيرا رئيسيا للفت والكرنب ، ومن هذه السويقة كانت كافة أسواق القاهرة تحصل على بغيتها من هاتين السلعتين . المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٠٦

(٧) الشوايون هم باعة اللحم المشوى ، تخصصوا فى شئ الخراف والجديان بداخل التنور . ابن الأخوة : معالم القربة ص ٩٢ ، ٩٣ - ابن بسام : نهاية الرتبة ورقة ٢٠ .

سوق الشرابجيين (١) ، سوق خان الرواسين (٢) .

ومن أهم السلع التي كانت تحظى باهتمام خاص من سلاطين وأمراء المماليك: الرقيق والخيول فجوهر النظام المملوكي كان يعتمد إعتماداً كبيراً على الرقيق فمنهم يتشكل جيش الدولة ، ومنهم يتخذ الخدم بالقصور والدور ، ومنهم ترقى العناصر الممتازة إلى رتب الإمارة لتتولى السلطة والحكم .

أما الخيول فهي العدة الأساسية لفرسان المماليك ، وهي مطيتهم الأساسية في السلم والحرب .

ولقد عرف عن بعض السلاطين الإهتمام الكبير بشراء الأعداد الوفيرة من الرقيق - أي المماليك - ليجعلوا منهم قوة عسكرية مرهوبة الجانب، تحميهم وتثبت اقدامهم في الحكم ، وتمكنهم من توريث عرش السلطنة لاولادهم من بعدهم . ومن أبرز من فعلوا ذلك السلطان المنصور قلاوون ، وابناه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وقد بلغ عدد مماليك السلطان المنصور قلاوون ٦٧٠٠ مملوك ، ثم زاد ابنه الاشرف خليل عددهم حتى بلغوا عشرة آلاف مملوك من أجناس مختلفة كالارمن والجركس والخطا والقبجاق .

أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فكان يميل إلى جلب المماليك من بلاد أزبك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغداد ، ويبعث في طلبهم ويبذل الأموال الوفيرة لتجار الرقيق ليجلبوا له الأعداد الكبيرة والممتازة منهم ، وحرص السلطان الناصر على

---

(١) الشرابجيون فئة من صناع وباعة الأطعمة بالأسواق تخصصت في طهي شرائح اللحم . المقريزي: المواعظ جـ ٢ ص ١٠٠ .

(٢) الرواسيون [illegible] الرؤوس المفرمة ، أي رؤوس الذبائح التي تفرم أي التي تكمر كراً عكياً أثناء طبخها وإنضاجها . نفس المرجع جـ ٢ ص ٩٥ .

أن يفيض على من يشتريه منهم العطاء السخى منذ اليوم الأول من كافة أنواع العطاء دفعة واحدة ، ليبهرهم ، وليستحوذ على رضائهم وولائهم ومحبتهم .

ولما ذاع صيت السلطان الناصر ، وصيت السعادة التى يرفل فيها مماليكه فى البلاد التى يجلب منها الرقيق ، أخذ المغول القاطنون فى هذه البلاد يبيعون أولادهم وبناتهم لتجار الرقيق طمعا فى السعادة التى سينالونها فى مصر .

ورغم أن ثمن المملوك على التاجر كان يتراوح بين عشرين إلى أربعين ألف درهم ، إلا أن السلطان الناصر كان يشتريه من التاجر بحوالى مائة ألف درهم ، وأقتدى به الأمراء فى ذلك فحقق تجار الرقيق أرباحا هائلة (١) .

ولم يقف شغف السلطان الناصر محمد بن قلاوون عند حد شراء الرقيق من الصبيان فقط بل تعداه إلى الشغف بشراء الجوارى أيضا خاصة المولدات منهن ، فزاد عددهن عنده على ألف ومائة وصيفة (٢) .

ومن بين العوامل التى كان لها تأثير على مقدار المجلوب إلى مصر من الرقيق ، الحالة الإقتصادية بالبلاد التى كانوا يجلبون منها ، فاذا ساءت هذه الحالة واستبد الفقر والجوع بأهلها باعوا أولادهم لتجار الرقيق ، فيجلبهم هؤلاء إلى مصر فى أعداد كبيرة (٣) .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥٢٤ ، ٥٢٥ - المواعظ جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥٤٦ .

(٣) من أمثلة ذلك أنه عندما أصيبت بلاد القبجاق عام ٧٠٢ هـ بقحط ومجاعة استمرت لثلاثة أعوام متتالية ، باع الناس هناك أولادهم وأقاربهم التجار فقدموا بهم فى أعداد كبيرة إلى مصر وغيرها ، نفس المرجع جـ ١ ص ٩٢٤

وقد بلغ من إهتمام سلاطين المماليك بشراء واقتناء الأعداد الوفيرة والممتازة من الرقيق والمماليك أن خصصوا لهذا الأمر واحدا من رجال بلاطهم الأمراء ، وجعلوه يتفرغ لأمر اختيارهم وشرائهم ، وقد عرف شاغل هذه الوظيفة باسم « تاجر المماليك » (١) .

ومن الظواهر الملفتة للنظر أن المماليك كان ينسبون فى مصر إلى التاجر الذى جلبهم إليها وباعهم فيها والأمثلة على ذلك كثيرة ، ومنها أن السلطان الظاهر برقوق كان يلقب برقوق العثمانى نسبة إلى عثمان التاجر الذى جلبه إلى مصر (٢) ، وهذا يدل على أن الرقيق أو المماليك كانو يعتبرون التاجر الذى جلبهم فى منزلة الوالد بالنسبة لهم ، بل إن كثيرا منهم مهما تقدم بهم العمر أو ارتفع قدرهم ظلوا يحملون التاجر الذى جلبهم إلى مصر مشاعر المحبة والاعتراف بالجميل ، ومن بين ما ذكر فى هذا الشأن أن الأمير يبليك نائب السلطنة فى عهد السلطان الظاهر بيبرس لما قدم إليه التاجر الذى جلبه إلى مصر قام إليه وعانقه وأجلسه إلى جانبه وأنعم عليه بعشرة آلاف دينار وبخلعة وفرس (٣) .

ومن الأشياء الملفتة للنظر أيضا أن بيع المماليك الاتراك لكاتب أو لعامى كان أمرا محظورا وتشدد السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى هذا الأمر ولم يتساهل فيه ، بل أكثر من ذلك فقد أصدر أمرا بأن كل من يمتلك مملوكا تركيا من هؤلاء عليه أن يبيعه ، فباع الناس مماليكهم وأخفوا بعضهم » (٤) ، وأغلب الظن أن السبب فى ذلك يرجع إلى تعصب سلاطين المماليك لجنسهم التركى واعتزازهم به ، واعتقادهم

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٠٣ ، ١٩١ .
(٢) أبو المحاسن : المنهل الصافى ، مخطوط ، ج ١ ورقة ٣١٦ أ
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٩١
(٤) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢١٣

بأنه أسمى من باقى الأجناس الأخرى التى كان يتكون منها المجتمع المصرى وقتئذ ، ولذلك أنفوا أن يمتلك كاتب أو عامى واحدا من أبناء جنسهم .

أما فيما يختص بالخيول فقد حرص المماليك على شراء الأنواع الممتازة منها خاصة العربية الأصل التى كانت تعرف باسم العراب ، وهى أفضل الخيول وأعلاها قيمة وأغلاها ثمنا ، تطلب للسبق واللحاق ، والملوك تتغالى فى أثمانها ، وتعدها لمهم الحرب » (١) .

ومن أبرز سلاطين المماليك الذين اهتموا بجلب وشراء وتربية الأعداد الكبيرة منها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والسلطان الظاهر برقوق .

والسلطان الناصر محمد بن قلاوون كان سخيا وكريما إلى حد كبير مع تجار الخيول الذى كانوا يجلبون له الخيل من الحجاز والشام والبحرين وبرقة وبلاد المغرب ليشجعهم على أن يجلبوا له أكرم أنواعها ، فكان يخلع الخلع عليهم ، ويمنحهم الرواتب والعلوفات ورسوم الإقامات ، فضلا عن مسامحات كان يمنحها لهم عن أى تجارة يتجرون فيها أثناء فترة إقامتهم بمصر ، وكان يدفع فى الفرس الجيد أضعاف ثمنه ، بل كان يدفع للتاجر الذى جلبه عشرة أمثال قيمته (٢) ، وكنتيجة لذلك حرص تجار الخيول على أن يجلبوا له السلالات الأصيلة الممتازة منها من بلاد العرب والعراق والبحرين والقطيف والحجاز ، فإذا جاءوا بها إليه عرضها وعاينها بنفسه ، فإذا أعجبته دفع فى الفرس منها ما بين عشرة آلاف إلى ثلاثين ألف درهم سوى الإنعام على مالكيها وفى الحالات التى يطلب فيها صاحب الفرس

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ١٤ . والمسامحات هى إعفاءات فى المكوس ، أى الضرائب المقررة عليهم

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٢٢٨

زيادة فى الثمن يزيده حتى يرضيه ، ثم ينعم عليه عند سفره وعودته لبلده الذى جاء منه بتفاصيل ثياب له ولأولاده ويهديه بهدية من السكر ونحو ذلك .

وبلغ من شغف السلطان الناصر محمد بن قلاوون بشراء الأعداد الكبيرة من الخيول أنه كان يدفع فى الصفقه الواحدة منها مامقداره مليون درهم دفعة واحدة ، واشترى كثيرا من الحجور — أى إناث الخيل — بثمن يتراوح بين ثمانين إلى تسعين ألف درهم للواحدة منها ، أما بنت الكرشاء - أى الحامل منها - فبمائة ألف درهم .

ولقد كان عرب آل مهنا وعرب آل فضل من أبرز من جلبوا له الخيول من الشام ، فأصبحوا أصحاب حظوة لديه ، وأقطعهم عـــدة ضياع بأراضى حماة وحلب (١) .

ونظرا لأهمية الخيول لدى سلاطين المماليك وأمرائهم لذلك روعى أن يكون سوقها تحت القلعة مباشرة غرب الميدان القائم أمامها (٢) .

وكان من عادة أمراء المماليك بعـــد انتهائهم من خدمة الموكب فى يومى الإثنين والخميس من كل أسبوع أنهم كانوا يقفون بسوق الخيل حيث تعرض عليهم هناك خيول المناداة (٣) . ورغم أنه ليس لدينا تفسير واضح لمعنى خيول المناداة هذه إلا أننا نرجح أنها خيول ممتازة كانت تباع بالمزاد لذلك كان أصحابها أو سماسرة الخيول يبيعونها بالنداء .

تلك كانت أهم السلع التى خصصت لها أسواق سميت باسمها ، غير أنه بالإضافة

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٤ - السلوك جـ ٢ ، ص ٥٢٦ ، ٥٢٧

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٢٠٥

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٦٢

إليها فإن سلعا متنوعة عديدة غيرها كانت تعرض هى الأخرى بأسواق القاهرة وضواحيها ، ونذكر منها : الثيـاب القطنية (١) والقماش الكتانى الأبيض والأزرق (٢) ، والطرح(٣) ، والمنازل (٤) ، والطواق (٥) ، والسكاكين (٦) ، والدوى وسكاكين الأقلام وأنواع من الطرف المزينة بالذهب والفضة (٧) ، والعطر(٨) ، والأزرار(٩) ،والإبر(١٠) ، وأنواع العطارة(١١) ، وأنواع عديدة من السلع الغذائية كالزيوت والأجبان والألبان(١٢) ، والبوارد(١٣) واللحم النيء والمطبوخ(١٤) .

---

(١) المقريزى : المرجع السابق جـ٢ ص ١٠١
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٩٣
(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة
(٤) نفس المرجع والجزء ص ١٠١
(٥) نفس المرجع والجزء ص ٩٩
(٦) نفس المرجع والجزء ص ١٠٣
(٧) نفس المرجع والجزء ص٩٧، ٩٠
(٨) نفس المرجع والجزء ص ١٠١
(٩) نفس المرجع والجزء ص ٩١
(١٠) نفس المرجع والجزء ص ٤٥
(١١) نفس المرجع والجزء ص ٩٥
(١٢) نفس المرجع والجزء ص ٩٥ ، ١٠٥
(١٣) نفس المرجع والجزء ص ١٠٥ - والبوارد أطعمة من خضروات ولحوم تحفظ باردة فى الخل والتوابل Dozy ; Supp. Dict. Ar
(١٤) المقريزى : نفس المرجع والجزء ص ٩٥ .

ويبدو أن كثيراً من التجار والباعة كانوا يجيدون عرض سلعهم بطريقة جذابة تجعل الناس يقبلون على شرائها ، ومن أبرزهم فى هذا الشأن تجار الفاكهة ، فقد كانوا يحرصون على تنضيد ما يعرضونه من فاكهة فى نظام أنيق ، كما كانو يحيطونها بالرياحين والأزهار (١).

كما أن باعة شراب الفقاع(٢) كانوا يحرصون على تجميل حوانيتهم ، فكسوها بالرخام الملون ، كما جعلوا بداخلها وعلى جوانبها نافورات تقذف الماء فى شكل بديع على جدران الحانوت المرخمة ، فيسيل عليها وينساب إلى كيزان الفقاع المرصوصة تحتها ، فيستحسن منظرها إلى الغاية لانها من الجانبين والناس يمرون بينهما ... ، (٣)

د ـ الرقابة على الاسواق حراستها والعناية بها

الرقابة على الأسواق كانت بالدرجة الأولى من اختصاص المحتسب والحسبة وظيفة دينية لها اختصاصات عديدة هدفها مراقبة تنفيذ الشريعة الإسلامية فى تصرفات أفراد المجتمع ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

---

(١) نفس المرجع والجزء ص٩٣

(٢) نفس المرجع والجزء ص٢٢ ـ والفقاع نوع من الشراب الشعبى ، سمى بهذا الاسم لما كان يعلوه من الزبد والفقاعات ، وكان الناس يقبلون على شربة لاعتقادهم أنة يدر البول ، ويسكن الصفرا ، ويذهب تلبيب المعدة ، ولذلك كثرت حوانيتة وكثر صناعة وباعتة فى أسواق القاهرة وقتئذ . نفس المرجع والجزء ص ٣٢ ـ كنز الفوائد ، مخطوط ورقة ٦ ا،ب ـ بدر الدين العينى : السيف المهند ص ١٠٦ حاشية ٣ .

(٣) نفس المرجع والجزء ص ٢٢

وبناء على هذا المفهوم كان يدخل فى اختصاصات المحتسب مراقبة الأسواق ومراقبة تصرفات التجار والباعة فيها ، ومراقبة الموازين والمكاييل ومنع أى تلاعب أو غش فيها ، ومراقبة السلع لضمان جودتها وعدم الغش فيها هى أيضا ، ومراقبة الأسعار لضمان عدم رفعها بطريقة مفتعلة من بعض التجار الجشعين ، ومراقبة العملة المتعامل بها فى الأسواق والتأكد من سلامتها من الغش والزغل الذى قد يحدثه بها الزغلية (١)، كما كان من اختصاصه أيضا المحافظة على النظام العام فى الأسواق .

ومن بين الوسائل التى كان يتبعها المحتسب لإحكام الرقابة على الأسواق أنه كان يستطلع الأخبار فى كل سوق من غير أهله ، ويساعده فى ذلك عدد من الأمناء المأمونين ، والأعوان الموثوق فيهم . كما كان من اختصاصه أن يجعل على أرباب كل صنعة أوحرفة بالسوق عريفا من صالح أهلها خبيرا بصناعتهم، بصيرا بأساليب غشهم وتدليسهم ، مشهورا بالثقة والأمانة ، فيجعله رقيبا على أحوالهم وتصرفاتهم ليطالعه بأخبارهم ، وما جلب إلى سوقهم من المتاجر والسلع ، والأسعار التى يبيعون بها ، وغير ذلك مما يهم المحتسب أن يعرفه (٢) .

وفى العهد المماليكى البحرى كان يعهد بالحسبة فى أنحاء الديار المصرية إلى ثلاثة محتسبين : أحدهم بالقاهرة وهو أعظمهم شأنا ، وله النظر فى حسبة القاهرة والوجه

---

(١) الزغل هو غش العملة ، والزغلية طائفة من الناس احترفوا صناعة العملة المغشوشة .

الشربينى : هز القحوف ص ١٨١

(٢) ابن بسام : نهاية الرتبة [illegible] ورقة ٣ ، ١٤

البحرى بأكمله خلا الاسكندرية التى كان لها محتسبها الخاص بها وحدها . أما المحتسب الثالث فكان يختص بالفسطاط والوجه القبلى بأكمله (١) .

وكان يراعى فى العهد المماليكى البحرى وأوائل العهد الجركسى أن لا يتقلد الحسبة إلا المتعممين ورجال القلم(٢) فقط ، لأن نشأتهم الدينية تضمن نزاهتهم عند مباشرتهم لمهام وظيفتهم .

ولم يكن المحتسب هو المختص الوحيد بمراقبة الأسواق والإشراف عليها ، فوالى المنطقة كان من اختصاصه أيضا مراقبة الأمن والنظام العام بالأسواق ، وكثيرا ما تدخل هؤلاء الولاة وأصدروا الأوامر التى تحقق هذا الغرض ، ومن أمثلة ذلك أنه فى عام ٧٢٤ هـ أصدر والى القاهرة أمرا بأن لا تعقد أى حلقة من حلقات السمر بسوق بين القصرين ، وأن لا يخرج أحـــد من بيته بعد عشاء الآخرة (٣) .

وفى عهد السلطان برسباى كان والى القاهرة يركب فى الليل ليتفقد أحوال المدينة والأسواق ، وألزم التجار والباعة بكنس الشوارع ورشها وأن يوقدوا القناديل فى حوانيتهم كل ليلة(٤) .

وفى الأسواق الهامة - كسوق القصبة - كانت الحكومة تبذل نشاطا ملحوظا لرعاية نظامها العام ، وتتشدد فى مراقبة نظافتها وأمنها ، فكان لا يسمح لأحد أن

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٧ .

(٢) السيد الباز العرينى : الحسبة والمحتسبون ، مقال بالمجلة التاريخية المصرية المجلد الثالث ، العدد الثانى اكتوبر ١٩٥٠ م .

(٣) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ١٤٩ .

(٤) ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٢ ص ٦١٢ .

يمر بهذا السوق بحمل تين ولا بحمل حطب ، وأن لا يسوق أحد فرسا به ، ولا يمر به سقاء إلا وراويته مغطاة . كما كان يفرض على صاحب كل حانوت أن يضع عند حانوته زيرا مملوءا بالماء ليستخدم فى حالة حدوث حريق ، كما كان يلزم بأن يعلق على حانوته قنديلا طوال الليل يظل مشتعلا إلى الصباح . كما رتبت الحكومة قوما يكنسون الأزبال والأتربة ونحوها بهذا السوق ، ويرشونه كل يوم، كما رتبت به عدة خفراء يطوفون به طوال الليل يحرسون حوانيته ، كما حرصت على إزالة الأوساخ التى تتراكم بمسالكه بين وقت وآخر (١) .

وفى سوق الجلون الكبير كان يجلس صاحب العسس أو والى الطوف من بعد صلاة العشاء فى كل ليلة ، وينصب أمامه مشعلا يظل مشتعلا طوال الليل ، ويبقى هناك يراقب الأمن بهذا السوق والأسواق المجاورة طوال الليل ؛ ومن حوله عدة من الأعوان والسقائين والنجاريين والهدادين منوب مقرره لهم ليعاونوه فى اطفاء أى حريق قد يشب فجأة فى هذه الأسواق (٢) .

وفى عام ٨٢٢ هـ أصدرت الحكومة أمرا بإزالة كافة الإشغالات الطارئة التى كانت تعترض وتنشذ طريق الناس بالأسواق والشوارع (٣)

وبجانب ذلك فلم تغفل الحكومة المظهر العام للاسواق، ولذلك فنى عام ٩٠٤هـ أمرت جميع أصحاب الحوانيت أن يبيضوا وجهها وأن يزخرفوها بالدهان(٤).

---

(١) المقريزى : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠٧ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ١٠٢
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٧١
(٤) نفس المرجع والجزء ص ٣٤٦

ه — أهمية السوق كمركز رئيسي للتجمع السكاني

نظراً لأهمية الأسواق فى حياة المجتمع المصرى المملوكى لذلك كانت هذه الأسواق مقصداً لكافة أفراده وطبقاته ، ليس فقط للبيع والشراء وإنما أيضاً للنزهة والاسترواح ، ووجد الناس فى السير فى الأسواق متعة وتسرية لنفوسهم سواء بالنهار أو بالليل ، وذكر المقريزى أنه إذا أقبل الليل بسوق السلاح وأشعلت الشموع من الجانبين ، وأخذ الناس فى التمشى بينها على سبيل الاسترواح والتنزه ، فيمر من هناك من الخلاعات والمجون مالا يبرعنه وصف»(١).

كما أن سوق بين القصرين « صار متنزها تمر فيه أعيان الناس وأماثلهم فى الليل مشاة لرؤية ما هنـاك من السرج والقناديل الخارجة عن الحد فى الكثرة ، ولرؤية ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين مما فيه لذة للحواس الخمس ، وكانت تعقد فيه عدة حلق لقراءة السير والأخبار ، وإنشاد الأشعار ، والتفنن فى أنواع اللعب واللهو ، فيصير مجمعاً لا يقدر قدره ، ولا يمكن حكاية وصفه »(٢).

وبسبب اعتياد عدد كبير من سكان القاهرة بأسواقها يومياً ، لذلك فقد حرص سلاطين الأيوبيين ومن بعدهم سلاطين المماليك على أن يعلنوا عن ولايتهم السلطنة بأهم سوق من أسواقها ، وهو سوق القصبة الذى كان يمتد بوسطها من باب الفتوح إلى باب زويلة وكانت وسيلتهم فى ذلك أن يمروا بموكبهم فى هـذا السوق ، ويخترقوه أمام جموع النـاس المحتشدة هناك ، وقد لبس الواحد منهم

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ٢ ص ٩٨

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٨ - ٢٩

خلعة السلطنة ، والوزير بين يديه على فرس يحمل على رأسه عهد السلطنة الذى عهد فيه الخليفة له بسلطنة مصر ، وجميع الأمراء والعساكر مشاة بين يديه (١) .

ولم تكن مواكب السلاطين هى وحدها التى تمر بالقصبة ، فمواكب الأمراء عند ترقيتهم لرتبة الإمارة كانت تمر هى الأخرى بهذا السوق ، فينزل الواحدمنهم من قلعة الجبل وعليه التشريف والشربوش ، ويمر بموكبه من خلاله إلى المدرسة الصالحية ، أو إلى قبة السلطان المنصور قلاوون (٢) .

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ١٠٧

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٨٠

ثانيا: الموازين والمكاييل ودار العيار

١ ـ الموازين

السلع الثقيلة الوزن كان توزن بميزان القبان (١)، وهو نوعان: قبان رومى، وقبان قبطى. غير أن القبان الرومى أصح من القبان القبطى (٢).

أما السلع المتوسطة أو الصغيرة الوزن فكانت توزن بميزان ذى كفتين يمسك به البائع عند الوزن به، ويرفعه بيده من علاقة تتوسط قصبته العليا (٣).

أما موازين الطحانين والجباسين فكان يراعى أن تكون من الخشب، وأن تكون أوزانها مسمرة تحت عمود الميزان مواجهة الأرض (٤).

وحدة الوزن وقتئذ هى الرطل. والرطل الذى كان يوزن به فى القاهرة كان يعرف بالرطل المصرى، وهو يساوى ١٢ أوقية، وكل أوقيـــة تساوى ١٢ درهما، وكل مائة رطل تساوى قنطارا (٥).

غير أن الرطل المصرى لم يستخدم وحده فى كل مدن وقرى مصر، فقـــد استخدم بجانبه رطل آخر كان يعرف بالرطل الجروى ومقداره ٣١٢ درهما (٦).

---

(١) ابن الأخوة: معالم القربة ص ٨٤

(٢) ابن بسام: نهاية الرتبة ورقة ١٢٢

(٣) نفس المرجع ورقة ١٢٠ ـ ابن الأخوة: المرجع السابق ص ٨٣

(٤) ابن بسام: نفس المرجع ورقة ٤٢

(٥) نفس المرجع ورقة ١٢١ ـ القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤١

(٦) ابن الأخوة: معالم القربة ص ٨١ ـ وقـد ذكر ابن دقاق فى الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٥ ص ٨٢ أن هذا الرطل سمى باسم الجروى الذى كان ملكا لساحل مصر الشمالى، غير أنه لم يعطنا أية معلومات عن هـذا الملك والفترة التى كان يحكم فيها.

وكذلك رطل ثالث كان يعرف بالرطل الليثى ومقداره ٢٠٠ درهم [١] ، وأيضاً رطل رابع كان يعرف بالرطل القلعى [٢] .

كما أن بعض السلع العامة كان لها رطلها الخاص بها المسمى باسمها ، كالرطل الفلفلى لوزن الفلفل ومقداره ١٥٠ درهماً [٣] .

أما الأسماك فكانت توزن بأرطال تزيد على غيرها من الأرطال بمقدار أوقيتين [٤] ، وكان يشترط فى أرطال السماكين أن تكون من قطعة واحدة من الحديد وبلا حلقة ، أو تكون من الحجارة الجلدة المختومة [٥] .

وفى بعض المدن والقرى المصرية كانت بعض السلع توزن بالرطل الجروى ، بينما البعض الآخر منها يوزن بالرطل الليثى ، بل إن بعض المدن المصرية كان لها رطل خاص بها . وفيما يلى أمثلة للأرطال التى كان يوزن بها فى بعض المدن المصرية [٦] .

قوص : اللحم والخبز والخضر كانت توزن برطل مقداره ٣١٥ درهماً ، أما باقى السلع فكانت توزن بالرطل الليثى .

(١) ابن الأخوة : معالم القربة ص ٨١ .
(٢) ابن بسام : نهاية الرتبة ص ٢٧٧
(٣) M. H. Sauvaire : Materiaux pour servir à l'histoire de la numismatique et de la metroligie Musulmanes (J. A. 8e; lv) pp. 221 - 222.
(٤) ابن بسام : نهاية الرتبة ورقة ٣٥
(٥) نفس المرجع ورقة ٣٦
(٦) نقلا عن ابن الأخوة : معالم القربة ص ٨١

أسيوط : الخبز واللحم يوزنان برطل مقداره ١٦٠٠ درهم ، أما باقى السلع فتوزن بالرطل الليثى .

منية ابن خصيب: كانت تستخدم الرطل المصرى الذى مقداره ١٤٤ درهما.

إخميم . الخبز واللحم يوزنان برطل إسمه من ، مقداره ١٠٠٠ درهم (١) ، أما باقى السلع فتوزن بالرطل الليثى .

المحلة : رطلها مقداره ٢ ⅔ رطلا مصريا ، أى ٣٨٤ درهما .

الأسكندرية : رطلها مقداره ٣١٢ درهما .

دمياط : رطلها مقداره ٣٣٠ درهما .

بلبيس : رطلها مقداره ١٨٠ درهما .

سمنود : رطلها يساوى ٢ ½ رطلا مصريا أى ٣١٢ درهما .

الفيوم : رطلها مقداره ١٥٠ درهما .

ويبدو أن اختلاف مقدار الأرطال فى مدن وقرى مصر كان أمرا شائعا حتى أن ابن الأخوة قال « لم أسمع أن بلدة وافق رطلها لبلدة أخـــرى إلا نادرا (٢) » .

أما سبب هذا الاختلاف فيرجع إلى عدة عوامل منها مدى توافر السلعة أو ندرتها ، ومدى رخص ثمنها أو ارتفاعه (٣) ، ومما يؤكد ذلك أن حسن الجبرتى

---

(١) مقدار المن كان يختلف تبعا لنوع السلعة ، فالمن الذى يوزن به الطيب مقداره ٢٦٠ درهما فقط . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤١

(٢) ابن الأخوة : معالم القربة ص ٨٦

(٣) Sauvaire . op cit, pp. 217-218.

قال فى تعليل هـــذا الاختلاف الذى استمر معمولا به فى العهد العثمانى « سبب اختلاف الأرطال فى كثرة دراهمها وقلتها اختلاف الموزونات شرفا وخسة .. واشتهار مقادير الأرطال ببعض البلاد باعتبار كثرة ما يوزن فيها من نفيس أو خسيس، فالنفيس يوزن بالدرهم والمثقال، والخسيس بالقناطير أو الأرطال (١) ».

كما أن على مبارك قال « فالأرطال الكبيرة كالأمنان وما ماثلها تستعمل فى وزن الأشيـاء الدنيئة القيمة ، والصغيرة للأشياء الغالية القيمة ، والمتوسطة لمتوسطة القيمة » (٢) .

ب ـ المكاييل وأواني تعبئة السلع

مكيال الحبوب كان يصنع من قطعة واحـــدة من الخشب يحفر جوفها مع مراعاة أن تكون سعة جوف الكيل مماثلة تماما لسعة فوهته (٣) .

وكان يشترط أن يـكون فى كل حانوت مكيال ، ونصف مكيال ، وربع ، وثمن ، مختومة كلها بخاتم المحتسب (٤) .

ورغم أن القدح كان هو الوحدة الأساسية لـكيل الحبوب ، إلا أن عياره كان يختلف من بلدة لأخرى، فنتج عن ذلك إختلاف مقدار الأردب فيها أيضا.

قدح القاهرة كان مقداره ٢٣٢ درهما ، وكل أربعة أقداح تسمى ربـعا ، وكل أربعة أرباع تسمى ويبة ، والأردب ست ويبات . أى أن أردب القاهرة

---

(١) حسن الجبرتى : العقد الثمين فيما يتعلق بالموازين ورقة ١١ أ ، ب
(٢) على مبارك : الموازين والمكاييل والمقاييس ص ٧٧
(٣) ابن الأخوة : المرجع السابق ص ٨٦
(٤) نفس المرجع والصفحة .

كان يساوى ٩٦ قدحا (١) .

غير أن أردب القاهرة كان أقل مقدارا من أرادب المدن المصرية الأخرى ، فأردب الاسكندرية كان ٧ ¼ ويبة (٢) ، وأردب الفيوم ٩ ويبات (٣) ، وبلغ مقدار الاردب فى بعض بلاد الوجهين القبلى والبحرى ١١ ويبة فأكثر (٤) ، كما أن أردب الارياف كان يعادل بصفة عامة أردب ونصف تقريبا من أرادب القاهرة (٥) .

وإنى أعتقد أن السبب فى هذا التفاوت هو قانون العرض والطلب ، فكلما زاد عدد المستهلكين قل مقدار الاردب ، وبالعكس كلما قل عدد المستهلكين زاد مقدار الاردب . ولما كان عـــدد المستهلكين بالقاهرة أكبر من عددهم فى أية مدينة أخرى لذلك كان أردبها أقل مقدارا من مثيله فى باقى المدن المصرية الاخرى.

وكما كان هناك رطل ليثى ورطل جروى ، فقد كان هناك أيضا مكيال ليثى ومكيال جروى . وعيار المكيال الجروى أكبر من عيار المكيال الليثى ، لذلك كان يكال به الملح الجريش (٦) .

والمكاييل بمختلف أنواعها كانت تختم عنـــد حافتها العليا بالرصاص لمنع

---

(١) العمرى : مسالك الابصار ج ٢ قسم ٢ ورقة ٣٧٦ - السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٧١ - القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٤١

(٢) النويرى: الإلمام بما جرت به الأحكام، مخطوط، المجلد الثانى ورقة ٧٠

(٣) ابن إياس : لشق الأزهار ، مخطوط ، ورقة ٢١ ب

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٤١

(٥) المقريزى : السلوك ، مخطوط ، مجلد ١٠ ورقة ٢٩٨ أ

(٦) ابن بسام : نهاية الرتبة ص ٣٥

التلاعب أو الغش فيها (١) .

ولم تكن الحبوب هى وحدها التى تكال بالمكيال ، فالفراريج (الكتاكيت) كانت تكيل هى أيضا بكيل خاص بها ، فعند بيعها كان بائعها يضع مكيالا ليس له قاع فى سلة المشترى ، ثم يملأ هذا المكيال بالفراريج ، فإذا امتلأ تماما رفع المكيال ، وتبقى الفراريج فى سلة المشترى (٢) .

كما أن بعض السلع الأخرى كانت تعبأ فى أوان أو أكياس ذات سعة مقدرة بوزن معلوم محدد ، فالزيت على سبيل المثال كان يعبأ فى أوان تعرف باسم القلل ، عيار كل قلة منها كان يقدر فى مدينة مصر بمائة وعشرين رطلا ، ويقدر فيما عداها بمائة وخمسة عشر رطلا (٣) .

كما أن الزيت كان يعبأ أيضاً فى أقساط ، عيار كل قسط منها ثمانية أرطال مصرية (٤) ، كما كان يعبأ أيضاً فى ظروف ، عيار الظرف منها خمسة أرطال (٥) .

أما السيرج فكان يعبأ فى جرار ، عيار كل جرة منها ٢٦½ رطلا ، وعندما يباع كان البائع يزنه للمشترى بالرطل ، أو يكيله له بكيل اسمه القداحة (٦) .

أما اللبن فكان وزنه يقدر بالقسط الجروى وبالكوز ، والقسط الجروى

---

(١) نفس المرجع ورقة ١٧

(٢) Leon L'African: Description de L'Afrique, huitime Partie. p.16 - M. Jomard : Description de L'Egypte, T.18, P. 377

(٣) ابن بسام : نهاية الرتبة ورقة ١٧

(٤) ابن الأخوة : معالم القربة ص ٢٢٧

(٥) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٦٣

(٦) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ٨٣

عياره ½ ٤ رطل جروى ، وعيـــار السكوفى ⅛ قسط ، أى أن كل ثمانية كيزان تعادل قسطا (١) .

ولم يكن القسط الجروى هو المستخدم فقط ، فقد كان هنـــاك قسط آخر يعرف بالقسط الليثى ، عيـاره يعادل ثلثى عيار القسط الجروى أى ثلاثة أرطال جروية (٢) ، وبهذا القسط كانت تكال بعض السلع السائلة الأخرى .

أما العسل فكان يعبأ فى أوان تعرف باسم الأمطار ، وكل مطر منها يعادل فى سعته خمسة أقساط (٣) .

أما الدقيق فـكان يعبأ فى أكياس مختلفة الاسم والسعة ، فبعضها يعرف باسم بطة ، وبعضها الثانى يعرف باسم تليس ، وبعضها الثالث يعرف باسم حملة .

والبطة كيس من الجلد (٤) سعته ٥٠ رطلا ، أما التليس فيعادل ثلاث بطط أى ١٥٠ رطلا (٥) ، أما الحملة فتتسع لما يزيد [illegible] رطل قلمى (٦) .

أما الأرز فكان يعبأ فى شكاير ، عيار الشكارة منها خمسة أرطال (٧) .

---

(١) ابن بسام : المرجع السابق ورقة ١٩ ، ١٢٣

(٢) نفس المرجع ورقة ١٢٣

(٣) نفس المرجع ورقة ١٢٠

(٤) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ص ٢٥٢
وقد سميت البطة بهذا الإسم لأن شكلها كان يشبه البطة . بدر الدين العينى . السيف المهند ص ٣٤٥ حاشية ١ .

(٥) ابن الأخوة : معالم القربة ص٩١ ـ ابن مماتى : قوانين الدواوين ص٣٦٥

(٦) ابن بسام : المرجع السابق ورقة ١٩

(٧) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣

وبالإضافة إلى ذلك فبعض السلع الأخرى كانت تباع على هيئة حزم أو شدات ، كل شدة منها معلومة الوزن ، فشدة الحصر ثلاثة أرطال، وشدة الخيش رطلان ، وشدة التبن رطل واحد ، وشدة الحبال رطل واحد (١) .

والتبن كان يعبأ أيضـا فى شباك كبيرة تتسع كل شبكة منها لما وزنه ٢٥٠ رطلا مصريا من التبن (٢) .

أما الجبس فيوضع فى قفف معيرة أى ذات عيار معلوم محدد ، وعيار كل قفة منها خمسة أرطال جروية ، وتختم بخاتم المحتسب لمنع التلاعب أو الغش فى سعتهـا (٣) .

جـ ـ دار العيـار

أنشئت فى مصر فى العهد الفاطمى دار حكومية لصناعة كافة الموازين وصنج الوزن وكافة أنواع المكاييل ، وعرفت هذه الدار باسم دار العيار .

وكان المحتسب ـ أو نائبه ـ يحضر إلى هـذه الدار لمراقبة صناعـة الموازين والصنج بها ، والتأكد من صحـة عيارها ووزنها ، وذلك بمضاهاة المصنوع منها بنماذج موجودة بالدار صحيحة تماما فى عيارها ووزنهاً .

كما كان التجار والباعة يكلفون بالحضور من آن لآخر إلى هـذه الدار ومعهم صنجهم وموازينهم ومكاييلهم لتعير بها، والتأكد من عدم وجود غش أو خلل بها، فإن وجد فيهـا نقص أو عيب يصعب إصلاحه صودرت وألزم صاحبها بشراء

---

(١) نفس المرجع ص ٣٠٣
(٢) ابن الأخوة ، معالم القربة ص ٢٢٣
(٣) ابن بسام ، نهاية الرتبة ورقة ٤٣

بديلا لها من الدار مما هو محرر العيار . أما إذا كان فى الإمكان إصلاح العيب أو الخلل الذى بها ، فيكتفى فى هذه الحالة بإصلاحه بالدار على نفقة صاحبها .

ولقد بقيت هذه الدار قائمة فى العهدين الأيوبى والمماليكى تمارس مهمتها واختصاصها بنفس الصورة (١) .

لكن يبدو أن وجود هذه الدار لم يمنع من صناعة الموازين والمكاييل خارجها ، فبلدة العريش مثلا كانت تشتهر بصناعة المكاييل التى تحمل إلى جميع الأعمال(٢) ، . كما كان هناك خط أوحى يسمى خط الموازنيين يقوم خارج القاهرة جنوب باب زويلة (٣) ، مما يدل على أنه كان به صناع يحترفون صناعة الموازين .

وهناك ما يدل أيضا على أنه كان يسمح لبعض الناس بصناعة الصنج خارج دار العيار ، فقد ذكر المقريزى أن رجلا كان يحترف صناعة الأرطال بجوار بركة بأرض الطبالة فاشتهرت هذه البركة به ، وسميت ببركة الرطلى (٤) .

ورغم أن أغلب الصنج كانت تصنع من الحديد (٥) إلا أن بعض الصنج كانت تصنع من الزجاج ، ويوجد منها مثال بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة يرجع إلى عهد السلطان قايتباى (٦) .

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٣٦٤

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان ص ٩٩٠

(٣) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٣٩٥

(٤) نفس المرجع والجزء ص ١٦٢

(٥) ابن الأخوة : معالم القربة ص ٧٥

(٦) هى صنجة من الزجاج الأخضر الفاتح على هيئة مخروط ناقص ، منقوش عليها ختمان ، أحدهما مستدير والثانى مربع الشكل ، وبداخل الختم المستدير =

كما أنه كان يسمح للتجار والباعة فى العهد المماليكى بالوزن بصنج من الاحجار بشرط أن تكسى بكسوة من الجلد لحمايتها من التآكل، ولضمان عدم كسر أى جزء منها لإنقاص وزنها (١)، بل إن تجار المسامير على وجه الخصوص كانوا يمنعون من استخدام الصنج الحديدية، وحتم عليهم أن تكون أرطالهم من حجارة مجلدة مختومة بالرصاص، ومكتوب عليها بخط المحتسب لانه كان يخشى أن يتلاعبوا فى الارطال الحديدية بما لهم من خبرة وإمكانيات متوفرة فى الصناعات الحديدية (٢).

لكن السماح باستخدام الصنج المجلدة أتاح فرصة للمتلاعبين من التجار والباعة بأن يغشوا فيها، فكان بعضهم يضع فى داخل أكياسها الجلدية رؤوس لفت أو قطع من الخشب، فتبدو وكأنها صنجة حجرية مجلدة (٣).

= نقش بالخط النسخى المماليكى نصه «دزام ديوانية بمصر». أما الختم المربع فيه ثلاثة أسطر بالخط النسخى المماليكى نصها «برسم خزانة السلطان الملك الاشرف قايتباى سنة ٨٩٢»

(١) ابن الاخوة: معالم القربة ص ٨٥ - ابن الحاج: المدخل جـ ٣ ص ٨٤ - الأسدى: التيسير والاعتبار، مخطوط، ورقة ٤٠ أ

(٢) ابن بسام: نهاية الرتبة ورقة ٩١

(٣) نفس المرجع ورقة ١٧ - ابن الاخوة: المرجع السابق ص ٨٥

ثالثا : اهم الأنظمة التجارية

الأنظمة التجارية التى كان معمولا بها فى ذاك الوقت بعضها يختص بكيفية تنظيم حسابات التجار ، والبعض الثانى منها يختص بنظام الشركات التجارية ، والبعض الثالث منها يختص بنظام الدفع فى العمليات التجارية ، والبعض الرابع منها يختص بنظام التعامل مع التجار الفرنج داخل أرض مصر .

تنظيم حسابات التجار : أغلب التجار الكبـــار كانت عندهم دفاتر خاصة يقيدون فيها حساباتهم ومعاملاتهم التجـــارية ، والديون التى عليهم للناس ، والديون التى لهم عندهم . وهـــذه الدفاتر كانت أساسا لما عرف فيما بعد باسم « دفاتر الأستاذ » .

واستعمال هذه الدفاتر يرجـــع إلى الرومان إذ كانو يستعملونها حتى فى غير التجارة ، وكانت لهذه الدفاتر أهمية كبرى فى القرون الوسطى حيث كانت لها قوة أوراق الموثقين الرسميين .

وقد عرفت الدفاتر التجارية فى الشرق الإسلامى وبخاصة مصر ، وأشار... كتب الشريعة الإسلامية إلى « دفاتر البياع والصراف والسمسار » (١) . كما اعتبر القضاء الإســـلامى دفاتر الماليين حججا عـــلى أصحابها من تجار وصيارف وسماسرة (٢) .

وقد أشار ابن حجر إلى هذه الدفاتر خلال عرضه لأحداث عام ٨٣٦ هـ ، وذكر

(١) محمد صالح : شرح القانون التجارى ص ٥٠
(٢) ابن الشحنة : كتاب لسان الحكام فى معرفة الأحكام ص ٧٦

ان شحاذا خطف أوراق حساب من تاجر وجرى بها (١) ، وهذا يؤكد أنها كانت مستخدمة ومتبعة .

نظام الشركات التجارية : بعض التجار كانوا يشتركون مع بعضهم البعض فى العمليات التجارية ويؤلفون فيما بينهم شركات حسب شروط وقواعد يتفق عليها بينهم تبين حقوق وواجبات كل منهم فيها .

ومن أبرز أنواع الشركات فى ذاك الوقت شركة المضاربة أو المقارضة ، وفيها يدفع شخص مالا لآخر ليتاجر له به بالنيابة عنه ، ويتضمن عقد الشركة نصا على أن يكون الربح بينهما حسب نسبة محدده لكل منهما ، بينما تكون الخسارة على صاحب المال ، وقد تكون نسبة الربح الشريك التاجر بنسبة النصف أو الثلث أو الربع .

وفى بعض الأحيان ينص فى عقد الشركة على أن يكون الربح أو الخسارة كلها لصاحب راس المال ، وفى هذه الحالة يكون الشريك التاجر مجرد أجير بالراتب والعمولة .

وهناك ما يدل على وجود هذا النوع من الشركات فى مصر فى العهد المماليكى ، فقد ذكر المقريزى فى خلال عرضه لأحداث عام ٧٢٣ هـ أن الصاحب شمس الدين عبدالله بن أبى سعيد عندما قدم من دمشق ألزم بحمل - أى بدفع - أربعين ألف دينار كان قد أودعها لديه شخص آخر ليتاجر له بها (٢) .

---

(١) ابن حجر : إنباء الغمر ج ٢ ص ٥٤١

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٦١

ولم تكن المشاركة التجارية فى هذا العهد قاصرة على المسلمين فقط ، فقد كان يسمح بتكوين شركات بين تجار مسلمين وآخرين من الفرنج ، ومن أمثلتها شركة كونها تاجر كارمى (١) وتاجر فرنجى ، ونص فى عقدها على أن يكون ثلاثة أرباع رأس مال الشركة للتاجر الكارمى والربع للفرنجى ، على أن يقوم الفرنجى بالمتاجرة بالمال ، وأن يكون الربح بين الطرفين بنسبة رأس المال مع عمولة للفرنجى (٢) .

نظام الدفع : نظام الدفع فى العمليات التجارية كان يتم إما نقدا فى الحال ، أو بالأجل ، أو عن طريق الحوالة أو السفتجة .

ونظام الدفع بالحوالة يبيح لشخص بأن يحول ما عليه من دين تجارى إلى شخص آخر ، فيقوم هذا الأخير بالدفع نيابة عنه .

وقد استغل بعض سلاطين المماليك هذا النظام لصالحهم ، ومن أمثلتهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فقد قام هذا السلطان بتحويل دين تجارى كان عليه إلى تاجر من تجار الكارمية ، فقام هذا بسداده بالنيابة عنه (٣) .

---

(١) الكارمية فئة من التجار تخصصت فى تجارة التوابل والفلفل وجلبها إلى مصر من مواطن زراعتها وانتاجها بالهند وجزر الهند الشرقية والحبشة . ومنذ العهد الأيوبى أصبح محظورا على غير المسلمين الانتظام فى سلكهم ، لذلك كانوا جميعا فى العهد المماليكى من المسلمين فقط . صبحى بن لبيب : التجارة الكارمية ص ١٢ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ - ابن حجر : الدرر الكامنة ص ٤٠٢ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤

أما نظام الدفع بالسفتجة فأساسه أن يدفع شخص مالا إلى شخص آخر ، ليقوم هذا الأخير بدفعة إلى شخص ثالث نيابة عن الشخص الأول ، والهدف من ذلك هو حماية المال من أخطار الطريق (١) .

وقد احترفت مجموعة من الصيارفة القيام بهذا العمل نظير عمولات يحصلون عليها ، وأصبح من الأمور الشائعة أن يدفع التاجر مالا للصراف ويحصل منه على صك بما دفعه له ، وكلما اشترى شيئا سدد ثمنه بهذه الصكوك المحولة الدفع على هذا الصراف . وقد روى المقريزى أن مجموعة من هؤلاء الصيارفة كانوا يجلسون فى حوانيت طول النهار على جانبى سوق السلاح بالقاهرة (٢) .

ويبدو أن فندق بلال المغيثى بالقاهرة كان يقوم أيضا بهذا العمل المصرفى ، فيودع التجار أموالهم فيه ويحصلون على صكوك بدلا منها محولة الدفع عليه ، وربما استنتجنا مهمته هذه من قول المقريزى عنه « ما برح هذا الفندق يودع فيه التجار وأرباب الأموال صناديق المال ، ولقد كنت أدخل فإذا بدائره صناديق مصطفة ما بين صغير وكبير ... وتشتمل هذه الصناديق من الذهب والفضة على ما يجل وصفه » (٣) .

وهناك نوع آخر من السفتجة استخدمه السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فبعد أن أخذ بضائع من عدة تجار عوضهم بسفاتج على الخشب والبورى (٤) ،

---

(١) ابن الشحنه : كتاب لسان الحكام فى معرفة الأحكام ص ٦٦ - ٦٧
(٢) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٩٨
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٩٢ .
(٤) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤٢٠

أى أنه أعطاهم صكوكا مكتوبة بالثمن الذى يستحقونه يمكنهم بمقتضاها تحصيل هذا الثمن من الأموال التى كانت تجبى على هيئة مكوس وضرائب تفرض على الخشب والسمك البورى .

نظام التعامل التجارى مع التجار الفرنج داخل أرض مصر : هذا النظام لم يكن ثابتا بصفة دائمة ، فقد كان قابلا التعديل بين وقت وآخر حسب ما كان ينص عليه فى المعاهدات التجارية التى كانت تبرم بين بعض سلاطين المماليك وبعض الدول التجارية الإفرنجية .

ونجد فى إحدى هذه المعاهدات - وهى معاهدة عقدت عام ٨٣٢ه بين السلطان الاشرف بارسباى والفونس الخامس ملك أرجون (١) - مثالا لأنظمة التعامل التجارى مع الفرنج داخل أرض مصر .

وتدلنا هذه المعاهدة على أن الصفقات التجارية مع الفرنج كانت تتم داخل ديوان القبان بالاسكندرية ، وهو ديوان حكومى له ناظر يباشر أموره ، ويساعده مستوف وعشار - أى محصل ضرائب - ومباشرون . لكن بجانب ذلك فالفرنج كان لهم الحق فى أن يجروا عملياتهم التجارية فى أى فندق يختارونه من فنادق المدينة .

وكان لابد من شهادة شاهدين عدلين على الصفقات التجارية التى كانوا يعقدونها هناك ، كما كان لهم الحق فى أن يكلوا إلى من يختارونه من السماسرة أو التراجمة الموجودين بهذا الديوان أو بهذه الفنـــادق بمباشرة صفقاتهم التجارية وإتمامها بالنيابة عنهم .

أما نظام الدفع - اى دفع اثمان الصفقات التجارية التى كانت معهم - فكان يتم إما بالنقد ، أو بالقياض أى المقايضة ، أو بالبيتة .

(١) Los Documentos Arabes diplomaticos del archivo de la Corona de Aragon, pp 372-377

والبيع بالبينة حر أن يبيع التاجر الفرنجى لتاجر من رعية السلطان بضاعة يؤدى هذا الأخير ثمنها فيما بعد، وذلك بعد أن يشهد السمسار بأن المشترى رجل قادر مؤتمن، فإذا أفلس المشترى أو هرب أو سوّف فى دفع الثمن أصبح الدلال أو السمسار الذى شهد له ملزما فى هذه الحالة بدفع الثمن للتاجر الفرنجى(١) .

وعلى الرغم من أنه لم يكن يسمح للتجار الفرنج بممارسة نشاطهم التجارى إلا فى ثغور مصر الساحلية الواقعة على البحر الأبيض فقط خاصة الاسكندرية ، إلا أنه كان يسمح لبعضهم فى أحوال استثنائية بالقدوم إلى القاهرة أو إلى أى بلدة أخرى من بلاد مصر الداخلية ، وذلك بعد أن يستأذن لهم فى ذلك القنصل الذى يمثل بلادهم فى مصر .

---

(١) Ibid, p 875

رابعا : المراكز التجارية الرئيسية وطرق المواصلات بينها

لا شك أن القاهرة والفسطاط (أو مدينة مصر أو مصر القديمة أو فسطاط مصر)(١) كانتا أهم مركزين لتجارة مصر الداخلية فى العهد المماليكى، فالقاهرة بحكم أنها كانت العاصمة ومقرا الطبقة الحاكمة الثرية ولمن يتبعهم من جند وحاشية ، لذلك كان أمرا طبيعيا أن تصبح مركزا رئيسيا النشاط الاقتصادى بمختلف صوره ، وأن تصبح مقرا لأكبر الأسواق التجارية ، ويكفى لكى نتأكد من ذلك أن نرجع إلى ما كتبه المقريزى عنها فى خططه(٢) .

أما مدينة مصر ، فبحكم أنها كانت هى الأخرى مقرا لعواصم مصر الإسلامية التى شيدت قبل القاهرة ، لذلك أصبحت هى الأخرى مركزا رئيسيا من مراكز النشاط الصناعى والتجارى . ولعل من بين الأسباب التى ساعدت مدينة مصر أو الفسطاط على أن يكون لها هذا المركز هو أنها كانت تقع على النيل مباشرة فأصبح

---

(١) المنطقة التى كانت تمتد جنوب القاهرة خارج باب زويلة حتى شاطىء النيل عرفت فى العهد المماليكى بعدة أسماء منها : مدينة مصر أو مصر أو فسطاط مصر . (المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٣٦٠ .

وقد أطلق ابن شاهين على هذه المنطقة إسم مصر القديمة . ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢٧ .

أما ابن سعيد فكان يسمى هذه المنطقة باسم أول عاصمة إسلامية مصرية قامت عليها وهى الفسطاط . ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ١١

(٢) راجع الفصل الخاص بأسواق القاهرة فى المواعظ جـ ٢ ص ٨٦ وما بعدها .

من السهل عليها الحصول على ما يلزمها من المتاجر والسلع والمواد الخام بواسطة السفن ، بينما لم يكن القاهرة نفس هذه الميزة بنفس السهولة لبعدها بعض الشيء عن النيـل .

وكنتيجة لتلك الميزة أصبح مرفأ الفسطاط القائم على النيل مقصدا لآلاف المراكب النيليـة القادمة اليه من شمال مصر وجنوبها، وقد انبهر ابن سعيد بكثرتها فيه فقال عنه أنه « كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار النيل ، ولئن قلت انى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك فإنى أقول حقا »(١).

كما وصف ابن سعيد النشاط التجارى بالفسطاط فقـــال « وأما مايرد على الفسطاط من متاجر الاسكندرانى (يعنى البحر الأبيض) والبحر الحجازى (يعنى البحر الأحمر) فإنه فوق مايوصف ، وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة ، ومنها يجهز إلى القاهرة وسائر البلاد »(٢) .

أى أن الفسطاط – كما رآها ابن سعيد فى القرن السابع الهجرى – كانت تتفوق فى أهميتها التجارية على القاهرة ، كما أن القاهرة كانت تعتمد عليها إعتمادا رئيسيا فى التزود بالسلع والمتاجر القادمة بالمراكب .

غير أن القاهرة لم تلبث هى الأخرى أن أصبحت لها نفس الميزة التى كانت متاحة للفسطاط ألا وهى ميزة الوقوع على النيل مباشرة ، فنموها العمرانى عبر القرون مكنها من أن تمتد برقعتها السكنية حتى أصبحت فى آخر الأمر تطل على النيل ذاته ، وتتصل به اتصالا مباشرا كالفسطاط . وكنتيجة لذلك أصبح مرفؤها

---

(١) ابن سعيد : المرجع السابق ص

(٢) نفس المرجع ص ١

الجديد الذي أقيم بساحل بولاق(١) يتفوق في نشاطه التجاري والملاحي على مرفأ الفسطاط . ويصف ابن شاهين مرفأ بولاق كما عاصره في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري ويقارن بينه وبين مرفأ الفسطاط فقال أنه « من أحسن الأماكن على شاطىء النيل ، ويرد إلى سواحله أكثر مما يرد إلى ساحل مصر »(٢) .

لكن يجب أن لا نفهم من ذلك أن مرفأ الفسطاط قد قل نشاطه أوقلت أهميته ، فقد ظل يقوم بدوره الملاحي والتجاري كما كان من قبل ، وظلت السفن المحملة بأصناف المتاجر والسلع تأتي اليه أو تبحر منه في أعداد كبيرة ، وقد قدر ابن شاهين عدد هذه المراكب بما ينيف على الف وثمانمائة مركب(٣) .

وبخلاف القاهرة والفسطاط ، فإن عددا آخرا من مدن مصر وثغورها الواقعة على نيلها أو سواحلها البحرية كان لها دور هام هي الأخرى في تجارة مصر سواء الداخلية أو الخارجية ، ومن أبرزها في هذا الشأن الاسكندرية ودمياط، والقصير وعيذاب والطور على البحر الأحمر، وقوص وأسوان على النيل.

---

(١) عندما شيدت القاهرة في العهد الفاطمي أقيم لهـا مرفأ على النيل بجهة المقس ، لكن دور هذا المرفأ في إمدادها بالمتاجر والسلع كان محدودا بسبب بعده عنها ، ثم لم يلبث النيل أن تحرك بمجراه إلى الغرب مبتعدا عنه فتوقف استخدامه تماما ، وظلت القاهرة منذ هذا الوقت بلا مرفأ وتعتمد على مرفأ الفسطاط ، ولكن لما اتسعت رقعتها السكنية عبر القرون - كما ذكرنا - وأصبحت تطل على النيل ، كان من الضروري أن يقام لها مرفأ جديد عليه ، وأتيحت الفرصة لإقامة هذا المرفأ عندما انحسر ماء النيل عن ساحل بولاق عام ٧٠٦هـ، فأقيم على هذا الساحل مرفؤها الجديد . المقريزي : المواعظ ج٢ ص ١٣١

(٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢٨

(٣) نفس المرجع ص ٢٧

ورغم أن دمياط كانت تتقاسم الأهمية التجارية والنشاط التجارى مع الاسكندرية على ساحل البحر الأبيض حتى عهد السلطان بيبرس البندقدارى ، إلا أنها بدأت تفقد بعض أهميتها فى هذا المجال بعد أن قام هذا السلطان بسد فم النيل الذى يصب فى البحر الأبيض شمالها بالحجارة ليحميها من الغارات المفاجئة الفرنجة والصليبيين ، فأصبح متعذرا بعدها على السفن التجارية الكبيرة القادمة اليها من البحر الأبيض من الدخول إلى مينائها والرسو به ، فاكتفت هذه السفن بالوقوف فى عرض البحر أمام مصب النيل لتقوم سفن الجروم النيلية بنقل شحناتها إلى ميناء دمياط ذاته(١) .

أما على البحر الأحمر ، فقد كانت القلزم حتى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله هى الميناء التجارى الأول لمصر على هذا البحر ، فقد كانت السفن تأتيها من الهند والين وتفرغ حمولاتها بها ، كما كانت تمر بها قوافل الحجاج والتجار ذهابا وإيابا من مصر إلى الحجاز وبالعكس . لكن يبدو أن مركزها التجارى هذا بدأ يتدهور منذ نهاية القرن الرابع الهجرى ، ويدلنا على ذلك مانقله المقريزى عن المسبحى من أن الحاكم بأمر الله سامح أهلها فى عام ٣٨٧ هـ عما كان يؤخذ منهم من مكوس المراكب(٢) ، ولعل ذلك يرجع إلى جملة عوامل منها خطورة الملاحة فى خليج السويس لكثرة شطوطه المرجانية وهبوب الرياح الشمالية عليه فى جزء كبير من السنة(٣) .

(١) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٢٢٤

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢١٣

(٣) عباس عمار : المدخل الشرق لمصر ص ١٣

وفى أواسط القرن الخامس الهجرى ازداد تدهور مركز القلزم التجارى بسبب الشدة العظمى التى نكبت بها مصر فى خلال عهد الخليفة المستنصر الفاطمى وما تبع ذلك من انقطاع الحج عبر الطريق البرى الشمالى الذى كان يمر بها(١).

ثم فقدت القلزم مركزها التجارى تماما بعد أن استولى الصليبيون على أيلة عام ١١١٦م ، وكذلك بعد أن خربوا الفرما عام ١١٥١م ، إذ أصبح شحن وتفريغ المتاجر بها أمرا غير مأمون العواقب بسبب الخطر الصليبى القريب منها ، كما أن دورها التجارى كان يرتبط ارتباطا وثيقا بدور الفرما فى هذا المجال ، فلما تخربت الفرما انعكس ذلك انعكاسا سيئا عليها (٢) .

وكنتيجة لذلك انتقل النشاط التجارى من القلزم إلى موانىء مصر الجنوبية على البحر الأحمر كعيذاب والقصير .

وبعد أن ورثت عيذاب مركز القلزم التجارى أصبحت ترد عن طريقها وتصدر تجارة مصر مع البلاد الواقعة على البحر الأحمر والمحيط الهندى ، ومما ساعدها على ذلك قربها من جده ، وكذلك عمق مياهها مما جعل المراكب آمنة من

---

(١) المقريزى: المرجع السابق ج٢ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣

(٢) كان الارتباط وثيقا بين القلزم والفرما فى مجال نقل المتاجر بين البحرين الأبيض والأحمر ، فمتاجر البحر الأحمر بعد تفريغها من المراكب بالقلزم كانت تنقل منها بالبر إلى الفرما حيث يعاد شحنها فى المراكب هناك ، وبنفس الطريقة كانت تنقل متاجر البحر الأبيض من الفرما إلى القلزم .
إبن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٥٣ ، ١٥٤

خطر الشعاب المرجانية (١) المنتشرة فى مياه البحر الأحمر .

ولم تقم عيذاب بهذا الدور وحدها بل شاركها فى ذلك ميناء القصير الواقع شمالها ، إذ كان أصحاب المراكب « يفضلون هذا الميناء أحيانا على عيذاب لقربه من قوص ، وبعد عيذاب عنها »(٢) .

ومن عيذاب ومن القصير كانت المتاجر تعبر الصحراء الشرقية بالقوافل إلى قوص الواقعة على النيل ، ثم من قوص تشحن على ظهور السفن ، وتنقل عبر النيل إلى الفسطاط والقاهرة ، فأصبحت قوص نتيجة لذلك مركزا تجاريا هاما على النيل بجنوب مصر ، وارتبطت أهميتها التجارية ارتباطا وثيقا بالدور الذى لعبته عيذاب فى هذا المضمار(٣).

وقد ظلت عيذاب تقوم بمهمتها تلك إلى أن ابتعد خطر الصليبيين عن شمال البحر الأحمر ، وعندئذ قام السلطان الظاهر بيبرس فى عام ٦٦٦هـ بإخراج قافلة الحجاج عبر الطريق البرى الشمالى المار بسيناء ، فبدأ التجار والحجاج منذ هذا التاريخ يعودون تدريجيا إلى هذا الطريق مرة أخرى وقل استخدامهم لطريق

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٤

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٤٦٥ .

(٣) وصف ابن جبير مدينة قوص عندما مر بها أثناء رحلته فى مصر فقال « هذه المدينة حفيلة الأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة ... » - كما قال عنها أيضا أنها « ملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم ، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب ، وإليها انقلابهم فى صدرهم من الحج .... » رحلة ابن جبير ص ٣٦ ، ٣٧ .

قوص وعيذاب (١) .

لكن رغم ذلك فقد استمرت عيذاب تزاول مهمتها التجارية على البحر الأحمر، غير أنه فى حوالى عام ٧٨٠ هـ بدأ ميناء الطور ينتزع الأهمية التجارية منها، ففى هذا التاريخ عمر الأمير صلاح الدين بن عرام حاجب الحجاب بالديار المصرية وقتئذ مركبا بالطور وسفرها من هناك ثم أتبعها بمركب آخر ، فبدأ الناس والتجار بعدها يقبلون على استخدام هذا الميناء رغم أنهم كانوا يتهيبون استخدامه من قبل لما فى مياهه من شعاب مرجانية تهدد مراكبهم (٢) .

وعلى الرغم من أن السويس — التى كانت قد قامت وقتئذ بالقرب من أطلال القلزم — كانت تحاول القيام بدور القلزم التجارى السابق على البحر الأحمر إلا أن دورها فى هذا الشأن ظل محدوداً بسبب وجود الطور بالقرب منها (٣)، وأيضا لأن الحكومة المماليكية إتخذت من مينائها قاعدة رئيسية لأسطولها العامل فى البحر الأحمر ، فأصبح دور ميناء السويس دورا عسكريا بالدرجة الأولى قبل أن يكون دورا تجاريا (٤) .

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ١ ص٢٠٢، ٢٠٢

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٦٤ ، ٤٦٥ — والواقع أن ميناء الطور كان يتمتع بمميزات أغرت السفن التجارية باستخدامه منها قربه من سواحل الحجاز ، وكثرة المراسى التى تحتمى بها المراكب بالقرب منه أثناء هياج البحر . نفس المرجع الجزء ص٤٦٠

(٣) نفس المرجع والجزء والصفحات .

(٤) Thenaud : Le voyage d'outrmer de Jean Thenaud, P. 63 & N. 1.

أما أسوان فقد اكتسبت هى الأخرى أهمية تجارية لوقوعها على النيل قرب حدود مصر الجنوبية ، فأصبحت لهذا السبب معبرا رئيسيا للمتاجر الصادرة من مصر إلى النوبة والسودان وبالعكس، لكنها لم تلبث أن بدأت تفقد مركزها التجارى هذا منذ أن بدأ الأمن يختل بها ، فبعد عام ٧٩٠ هـ استولى أولاد الكنز عليها وأفسدوا فيها فسادا كبيرا ، وكانت لهم مع ولاة أسوان عدة حروب ، إلى أن كانت الأزمة الاقتصادية العنيفة التى ألمت بمصر عام ٨٠٦ هـ والتى خرب فى خلالها صعيدها ، فكان من نتيجة ذلك أن عجز سلاطين المماليك عن ضبط أحوالها ، ولم يبق السلطان وال فيها ، فاضمحل حالها لعدة سنوات ، ثم زاد من تدهور أمرها أن قبائل هوارة زحفت اليها عام ٨١٥ هـ ، وحاربت أولاد الكنز بها وهزمتهم ، وقتلت كثيرا من أهل أسوان وهدمت أسوارها ، ثم عادت وقد تركتها خرابا يبابا(١).

المراكز التجارية التى ذكرناها كانت ترتبط مع بعضها البعض بشبكة من المواصلات البرية أو النهرية أو بهما معا ، فالقاهرة كانت تتصل بالاسكندرية بواسطة النيل والترع المتفرعة منه (٢) . كما كانت تتصل بها اتصالا بريا فى نفس الوقت .

والطرق البرية التى كانت تربط القاهرة والفسطاط بالاسكندرية أهمها طريقان : أحدهما يعرف بطريق الوسطى ، وكان يمتد من القاهرة إلى قليوب

---

(١) المقريزى : المرجع السابق جـ ١ ص ١٩٧

(٢) الرحلة النهرية بين القاهرة والاسكندرية كانت تستغرق حوالى ستة أيام . فيت : المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ص ٣٥

فنوف فطحة مرحوم ثم منها إلى النحريرية فالاسكندرية . لكن لما كان من الصعب سلوك هذا الطريق زمن الفيضان ، لذلك فقد كان هناك طريق ثان يستخدم فى هذه الفترة ، يبدأ من الجيزة ثم يمتد محاذيا النيل غرب فرع رشيد، مارا بعدة قرى ومدن مثل وردان والطرانة فزاوية مبارك فدمنهور الوحش ، فلوقين فالاسكندرية (١).

وبالاضافة إلى هذين الطريقين فقد كان هناك طريق ثالث إضافى يصل القاهرة بالاسكندرية عن طريق رشيد ، وهذا الطريق بعضه نهرى وبعضه الآخر برى يخترق وسط الدلتا مارا بمنوف ومحلة مرحوم وسخا وشبركية وسنهور والبرلس وإدكو ثم رشيد ، أو من طريق النيل عبر فرع رشيد .

ومن رشيد كانت الرحلة تستأنف برا بحذاء الساحل الشمالى إلى أبى قير فادكو فالاسكندرية (٢) .

أما المواصلات بين القاهرة ودمياط فكان بعضها نيلى بواسطة السفن عن طريق فرع دمياط، وبعضها الآخر برى عبر طريق يمتد من القاهرة إلى سرياقوس فبير البيضا فبلبيس فالسعيدية فأشمون الرمان فدمياط (٣) . وكذلك عبر طريق برى آخر شيده السلطان بيبرس الجاشنكير عام ٧٠٨ ه وجعله يمتد من قليوب إلى دمياط ، فأصبح بعدما قطع المسافة من قليوب إلى دمياط يستغرق يومين اثنين فقط . وقد تميز هذا الطريق بأنه كان متسعا إلى القدر الذى يسمح لستة خيول

---

(١) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٨٩ .
(٢) المقريزى : المرجع السابق جـ ١ ص ١٦٣ .
(٣) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٨٩

بالسير عليه بجوار بعضها البعض، وقد بلغ عرضه فى أعلاه أربع قصبات، وست قصبات فى أسفله . كما تميز هذا الطريق أيضا بالارتفاع كالجسر فأصبح فى الإمكان استخدامه على مدار العام كله حتى فى أوقات الفيضان التى يتعذر فى خلالها استخدام الطرق البرية الأخرى (١) .

أما المواصلات بين القاهرة وأسوان فكانت تتم إما عن طريق النيل ، أو بواسطة طريق برى طويل يمتد بحذاء النيل . ويبدو أن هذا الطريق كان عامرا آمنا حتى أواخر العهد المماليكى البحرى خصوصا فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون بدرجة أن المسافر من القاهرة إلى أسوان عن طريقه كان لا يحتاج لنفقه — على حد قول المقريزى - إذ كان يجد بكل بلدة من البلاد التى يمر بها عدة دور للضيافة تمده بالمأكل الذى يلزمه وبالعليق الذى يلزم دابته (٢) .

أما الطريق بين القاهرة وحدود الشام فكان يخترق شرق الدلتا إلى سرياقوس . فبير البيضا فبلبيس ثم السعيدية فالخطارة ثم الصالحيـــة ، ثم بئر غزى فالقصير فغبوة فالغرابى فقطيا (٣) فالعريش (٤) .

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٧٠ - والواقع أن الغرض الأصلى لإنشاء هذا الطريق كان غرضا عسكريا ، فقد علم بيبرس الجاشنكير أن ملك قبرص قد اتفق مع بعض ملوك الفرنج على غزو دمياط ، فسارع بتشييد هذا الطريق بالمواصفات التى ذكرناها ليضمن وصول الامدادات العسكرية إليها فى أسرع وقت ، وفى أى وقت من أوقات السنة . المقريزى: نفس المرجع والجزء والصفحة

(٢) المقريزى : نفس المرجع ج ١ ص ١٩٠

(٣) كانت قطيا مركزا رئيسيا لجباية الزكاة من التجار المسلمين المارين من =

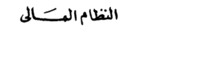
أما قوص وعيذاب فكان يمتد بينهما طريقان عبر الصحراء الشرقية ، أحدهما قصير يعرف بطريق العبدى ، والآخر أطول ويمتد إلى مادون قنا (١) .

= الشام إلى مصر وبالعكس ، ولم يكن يسمح لأحد من التجار أو المسافرين من الدخول إلى الشام أو إلى مصر إلا بتصريح رسمى . السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣١ .

(٢) العمرى : التعريف ص ١٨٩

(١) رحلة ابن جبير ص ٣٩




النظام المالى



يتميز النظام المـــالى للدولة المملوكية بخصائص وقواعد معينة روعى فيها بالدرجة الأولى خدمة الطبقة العسكرية الحاكمة .

ولم يكن غريبا أن يحدث ذلك فالنظام المملوكى كله كان يعتمد اعتمادا رئيسيا فى كيانه ووجوده على هذه الطبقة ، ولذلك فقد خصتهم الدولة بمخصصات جديدة فى أراضيها وفى مواردها المالية ، ومنحتهم الاقطاعات ، فأصبحت هذه الطبقة تشارك الدولة فى جزء كبير من مواردها .

وبالإضافة إلى ذلك فقد استغل سلاطين المماليك السلطات الضخمة التى كانوا يتمتعون بها لكى يحققوا أطماعهم وجشعهم ، فخصوا أنفسهم بأكبر الاقطاعات وأحسنها وأكثرها دخلا . كما أنهم استغلوا سلطاتهم أيضاً لإدخال ما يرونه من تعديلات بين وقت وآخر على النظام المالى بما يحقق لهم هذه الأطماع .

ولم يكتف بعض السلاطين بذلك فتراهم كلما ازداد جشعهم يسلبون من الوزير الكثير من سلطاته المالية ويمنحون هذه السلطات لكبار رجال حاشيتهم كالاستادار وناظر الخاص، فأصبح هؤلاء يهيمنون هيمنة تامة على خزينة الدولة، وأصبح الوزير كأحد أتباعهم .

ويمكننا أن نتحقق مما قلناه من خلال الدراسة التى نقدمها فيما يلى عن هذا النظام بجوانبه المختلفة متمثلة فى الجهاز المـــالى ، وموارد الدولة ونفقاتها ، والنظام الاقطاعى .

أولا : الجهاز المـــالى

يتكون هذا الجهاز من دواوين الدولة المالية التى يطلق عليها فى مجموعها اسم الدواوين السلطانية ، وأيضا من موظفى الدولة المختصين بالشئون المالية ، والمشرفين على هذه الدواوين ، وكذلك العاملين فيها وعلى رأسهم الوزير ومساعدوه .

الوزير :

هو أجل الموظفين وأرفعهم رتبة ، وهو الثانى بعد السلطان قبل استحداث منصب نائب السلطنة، فلما استحدث منصب نائب السلطنة فى العهد الأيوبى بدأت سلطة الوزير فى التناقص ، وأصبح اختصاصه محصورا فى الشئون المالية للدولة .

ويعرفنا ابن خلدون باختصاصات الوزير المالية فيقول أنه « صاحب جباية الأموال فى الدولة على اختلاف أصنافها من خراج أو مكس أو جزية ، ثم فى تصريفها فى الإنفاقات السلطانية أو الجرايات المقررة .. ومن عوائدهم أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك فى مصر منذ عصور قديمة، وقد يوليها السلطان بعض الأحيان لأهل الشوكة من رجالات الترك (1) » .

أى أن بعض وزراء العهد المماليكى ـ كما يقول ابن خلدون ـ كانوا من أصحاب القلم خصوصا الأقباط منهم لخبرتهم القديمة المتوارثة فى الشئون المالية ، كما أن البعض الآخر منهم كانوا من رجال السيف . ولقد حرص السلطان الظاهر

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٢

بيبرس على اختيار وزرائه من أرباب الأقلام والسيوف (١) .

وإذا كان الوزير من أرباب الأقلام أطلق عليه اسم « الصاحب (٢) » ، ثم أضيف إلى لقبه هذا لقب « الوزير » ، فأصبح يطلق عليه «الصاحب الوزير» (٣). ووزير الصحبة وزير متنقل يرافق السلطان فى أسفاره وحروبه ويصرف شئون الوزارة خلال ذلك .

أما إذا كان الوزير من أرباب السيف فيكتفى عندئذ بتلقيبه بلقب الوزير دون لقب الصاحب ، وهو بهـــذا الاعتبار الوزير الأصلى الذى يحضر مجلس السلطان (٤) .

أما من حيث الاختصاصات ، فالوزير من أرباب القلم كان يباشر سلطات وظيفته كلها نظراً وتنفيذاً ومحاسبة على الأموال، أما إذا كان من أرباب السيف فإن مباشرته لوظيفته تقتصر فقط على النظر والتنفيـذ ، وفى هـذه الحالة توكل الاختصاصات الحسابية لوظيفته إلى مساعده يعرف باسم ناظر الدولة (٥) .

---

(١) عن أرباب الأقلام والسيوف راجع Van Berchem : Corpus, Egypte I, P. 243.

(٢) Ibid , pp403 - 404

(٣) أول من لقب بهـذا اللقب هو أبو القاسم إسماعيل بن أبى الحسن عباد بن العباس الطالقانى ، وكان نادرة الدهر وأعجوبة العصر فى فضائله ومكارمه ، وكان يصحب أبا الفضل بن العميد فقيل عنه صاحب بن العميد ، ثم أطلق عليـه هذا اللقب لما تولى الوزارة، ثم لقب به كل من ولى الوزارة بعده . ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ٩٥

(٤) حسن ابراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ص ٢٥٩

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٩

وناظر الدولة يسمى أحيانا ناظر النظار، وأحيانا أخرى ناظر المال، ورتبته تلي رتبـــة الوزير ، فإذا غاب الوزير أو تعطلت الوزارة قام ناظر الدولة باختصاصاته .

ويعاون ناظر الدولة مجموعة من موظفي المال منهم شاد الدواوين الذي يختص بتحصيل الاموال وصرفها في النفقات والكلف - وكذلك مستوفي الصحبة الذي يرأس مجموعة من المستوفين[1] مهمتهم ضبط كافة كليات وجزئيات الشئون المالية.

واختصاص مستوفي الصحبـة يشمل مصر والشام ، فيكتب مراسيم يوقع السلطان عليها بعضها بما يعمل في البلاد، وبعضها الآخر بالمنح والهبات التي تعرف بالإطلاقات ، وبعضها الثالث باستخدام كتاب في صغار الاعمـال [2] . ومن اختصاصات مستوفي الصحبة أيضا الإشراف على موظفي الخراج الذين يقومون بمسح الاراضي الزراعية وتقدير ما عليها من خراج [3] .

ومن أبرز وظائف الاستيفاء التابعة لمستوفي الصحبة وظيفة استيفاء الدولة ، وعلى صاحب هـذه الوظيفة أن يعرف أصول الاموال ووجوه صرفها . وعادة يكون في هذه الوظيفة مستوفيان فأكثر [4] .

وفي الفترات التي كانت تتعطل فيها وظيفة الوزارة كانت تضاف اختصاصات الوزير إلى مجموعة من كبـار الموظفين ، ومن أمثلة ذلك أنه لما أبطـل السلطان

---

(١) المستوفي هو الذي يضبط الديوان وينبه على مافيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك . نفس المرجع جـ ٥ ص ٤٦٦

(٢) المقريزي : المواعظ جـ٢ ص ٢٢٤

(٣) العمري : التعريف ص ١١٥

(٤) القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٢٩

الناصر محمد بن قلاوون منصب الوزارة فى عهده وزعت اختصاصات الوزير على ثلاثة هم : ناظر المال ويقيمه شاد الدواوين لتحصيل المال وصرف النفقات — وناظر الخاص (١) لتدبير أمور العـــامة وتدبير المباشرين — وكاتب السر (٢) التوقيع فى دار العدل فيما كان يوقع فيه الوزير من قبل .

---

(١) وظيفة ناظر الخاص أحدثها السلطان الناصر محمد بن قلاوون حين أبطل الوزارة ، وصاحب هذه الوظيفة يختص بكل ماهو خاص بمال السلطان ،ولذلك أصبح ناظر الخاص بالنسبة للسلطان كالوزير لقربه منه .

ولهذا الناظر أتباع يعملون فى ديوان الخاص منهم مستوفى الخاص وناظر خزانة الخاص كما أنه من أتباعه أيضا ناظر ثغر الاسكندرية وناظر مواريث الخاص وناظر تجار الكارم . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٠ — الخالدى : المقصد جـ ١ ص ١٣٦

(٢) وظيفة كاتب السر من أكـــبر وظائف ديوان الإنشاء ، ومن أعظم الوظائف الديوانية وأجلها قدرا . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ١٠١ — الخالدى : المقصد ص ١٢

وكاتب السر هو أول من يدخل على السلطان وآخر من يخرج من حضرته من كبار موظفى الدولة، ولايستغنى السلطان عن مشورته والإفضاء إليه بأسراره فى كل آن ، ولايثق فى أحد من الموظفين ثقته به. حسن ابراهيم حسن: دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ص ٢٧٢

وكاتب السر يوقع على الرقاع والقصص أى الالتماسات والشكايات ، ويشترك فى الفصل فى بعض المظالم ، ويقرأ الكتب الواردة على السلطان من مصر وغيرها ، ويذيل هـذه الرسائل بتوقيعه ، ويجلس فى مجلس السلطنة أثناء نظر السلطـان فى شئون الدولة ، ويتولى الفصل فى شئون القضاة والعماء =

ويمكنا أن نعتبر عهد السلطان الظاهر برقوق كمبدء بداية لتقلص سلطات الوزير المالية وذلك بسبب الديوان المفرد الذى أنشأه النفقة على مماليكه ، فقد أقطع السلطان برقوق لهذا الديوان كثيراً من أعمال الديار المصرية وبلادها ، وأسند لا ستاداره (١) الإشراف عليه وبذلك عظم شأن الأستادار بينما ضعف أمر الوزير ، وأصبح للاستادار النظر فى أغلب اختصاصات الوزير وناظر الخاص ، فصارا يترددان على بابه ، ويصرفان الأمور برأيه ، فانحطت رتبة الوزارة تبعا لذلك إلا فى الحالات التى كان فيها الوزير يجمع بين وظيفة الوزارة ووظيفة أستادارية السلطان .

وأصبح الوزير وكأنه كاتب كبير يتردد ليلا ونهارا على باب الاستادار ويتصرف بأمره ونهيه ، وتضاءلت سلطاته المالية (٢) خصوصا بعد أن انقضت البلاد والأراضى التى تتبع ديوان الوزارة حتى لم يبق منهـــا إلا بعض بلاد

= Demombynes : La Syrie, p. LXIX

ـــ المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٢٢٥

ويقوم كاتب السر بالرد على الكتب الواردة إلى ديوان الإنشاء بعد أن يتلق توجيهات السلطان فى هذا الشأن . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ١١٣

(١) يختص الاستادار أو الأستدار بالإشراف عـــلى القصور والبيوت السلطانية ، وتكفية إحتياجاتها وإحتياجات من فيها من النفقات والكساوى . ولقب الاستادار يتكون من لفظين فارسيين أولهما استذ ومعناه الأخـــذ ، وثانيهما دار ومعناه الممسك ، أى أنه المتولى لأخذ المال وإمساكه ، ثم أدغمت الذال وهى المعجمة فى الثانيـة وهى المهملة فصار إستدار . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٧ .

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٢٢٣ .

أوجه التبيل (١) .

وأخيراً أصبحت إختصاصات الوزارة موزعة على أربعة هم : كاتب السر ، والأستادار ، وناظر الخاص ، والوزير . فأخذ كاتب السر التوقيع على القصص بالولايات والعزل وتحرر ذلك فى دار العدل وفى داره . وأخـذ الأستادار التصرف فى نواحى أرض مصر والإشراف على الدواوين السلطانية ، كما أصبح من إختصاصه الإشراف على كشاف الأقاليم وولاة النواحى ، والإشراف على كثير من أرباب الوظائف . وأخذ ناظر الخاص جانبا كبيراً من الأموال الديوانية السلطانية لينفقها فى أوجه الإنفاق الخاصة بالخزانة السلطانية . أما الوزير فقد بقى من إختصاصه شيء يسير جدا ، ولم يبق له إلا النظر فى بعض المكوس ، وبعض الدواوين السلطانية ونفقات المطبخ السلطانى (٢) .

وفى الفترة التى كان فيها الوزير يتمتع بسلطاته المالية كاملة ، كان ديوان النظر التابع له من أرفع دواوين المال ، إذ فيه تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية ، وكل ديوان من دواوين المال فرع منه ، وإليه يرفع حساباته ، وإليه يرجع الاستيفار الذى يشتمل على أرزاق ورواتب ذوى الأقلام وغيرهم سواء كانت هذه الأرزاق مياومة أو مشاهرة أو مسانية (٣) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٢ .

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٢٢٤ .

(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة ـ لكن فى الفترة التى زاد فيها نفوذ ناظر الخاص ، زادت إختصاصاته المالية وأصبح الديوان التابع له ، وهو ديوان الخاص السلطانى من أهم دواوين المال وأجلها وأعظمها ، وأحتل بذلك مركز الأهمية الذى كان لديوان النظر ، وخصصت لهذا الديوان موارد مالية عديدة تجبى من جهات عديدة .

الخالدى : المقصد جـ ١ ص ١٢٧ .

وفي تلك الفترة أيضا كانت وظيفة نظر بيت المال وظيفة جليلة لها إعتبارها، فتولاها كان يختص بالأموال التي تحمل إلى بيت المال بالقلعة سواء من مصر أو الشام، كما كان يختص أيضا بصرف ما يجب صرفه منها، وكان يعاونه في عمله هذا شهود (١) بيت المال، وصيرفي (٢) بيت المال، وكاتب المال.

وكان لناظر بيت المال في تلك الفترة أمر ونهي وسلطة متسعة وذلك لكثرة الأموال التي كانت تحمل إلى خزائن هذا البيت أو التي تخرج منها في أوجه النفقة المختلفة، وقد بلغت هذه الأموال في بعض السنين ... ألف دينار، ولذلك كان لا يلي بيت المال إلا من هو موثوق في كفاءته ونزاهته (٣).

غير أن هذه الوظيفة لم تلبث هي الأخرى أن إنحط مقدارها وإنخفضت أهميتها تبعا لإنحطاط وظيفة الوزارة، خصوصا منذ أن عهد إلى ناظر الخاص السلطاني الكثير من إختصاصات الوزير المالية.

وعلى الرغم من أن خزانة بيت المال كانت تسمى وقتئذ — أي في فترة إنحطاط الوزارة — باسم الخزانة الكبرى، إلا أن هذا الاسم كان أكبر من مسماه، فالخزانة في ذلك الوقت أصبحت مجرد مخزن للخلع التي يخلع بها السلطان، وأصبح المال القليل الذي يأتيها يصرف أولا بأول لقلته، وصار نظر الخزانة مضافا إلى ناظر

---

(١) الشاهد هو الذي يشهد بمتعلقات الديوان نفيا وإثباتا. القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٦٦.

(٢) الصيرفي هو الذي يتولى قبض المال وصرفه، وكان يقال له فيما مضى الجهبذ. نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٣) المقريزي: المواعظ جـ ٢ ص ٢٢٤

الخاص، برغم أنه قبل ذلك كان لا يلي نظرها إلا الفتحاء فقط ومن يلحق بهم .

وما برح مقر الخزانة قائما بقلعة الجبل إلى أن حول الأمير منطاش مقرها هذا إلى سجن لمماليك السلطان الظاهر برقوق عام ٧٩٠ هـ ، وذلك بعد أن نجح هذا الأمير في الأنقلاب الذي قاده ضد هذا السلطان . ومنذ هذا التاريخ تلاشى أمر الخزانة ولمن أمرها - كما يقول المقريزي - وصارت الخلع التي يخلع بها السلطان تعمل عند ناظر الخاص في داره(١) .

لكن في خلال العهد المماليكي الجركسي أسند أمر الخزانة إلى ثلاثة من الخزندارية(٢) .

الأول ، خزندار الصنف : وهو يختص بخزائن القماش المزركش والمذهب ، والحرير ، والأشياء النفيسة والسروج الذهب ، وأصناف الوبر(٣) ، وله أن يشترى ما يحتاج السلطان إليه من هذه الأصناف من مال السلطان أو أن يخطر ناظر الخاص ليقوم هذا بتوفير الصنف الذي يطلبه السلطان منها .

الثاني ، خزندار العين : وهو يختص بخزانة المال ، فيقبض ما يرد إليها من المال ، ويصرف ما يؤذن له بصرفه منه ، وربما كلف أيضاً بالاحتفاظ في خزانته بالجواهر الثمينة وفصوص اليواقيت وغيرها .

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٧ .

(٢) كلمة خزندار مكونة من لفظين : خزانة ، ودار ، فحذفت الألف والهاء المخففة ، وخزندار معناها ممسك الخزانة . الظاهري : المقصد جـ ص١٢٧ .

(٣) أي أصناف المنسوجات والملابس والثياب ذات الوبر : كالفراء وغيره .

ولهذا الخزندار رفيق ناظر لضبط هذا العمل، ولشراء ما يحتاج إليه السلطان والشيء الملفت النظر أن خزندار العين هذا كان يعين من فئة الخدم ، لأن المال وقتئذ كان يحتفظ به فى قاعات الحريم .

وفى بعض الأحيان كان يوكل إلى شخص واحد القيام بعمل كل من خزندار الصنف وخزندار العين .

الثالث ، خزندار الكبير : وهو يختص بحمل كيس المال فى الأعياد ليصرف منه على الفقراء أثناء ركوب السلطان فى هذا اليوم(١) .

---

(١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٨ .

ثانيا : الموارد والنفقات المالية

أ — الموارد

يقسم القلقشندى الموارد المالية إلى نوعين رئيسيين من المال : مال شرعى (أى مال يبيح الشرع جبايته) ومال غير شرعى (أى مال لم تأت فيه إباحة من الشرع بجبايته) .

المال الشرعى ينقسم بدوره إلى سبعة أنواع هى : المال الخراجى، والمعادن، والزكاة ، والجوالى ، والمال الذى يجبى من التجار الغير مسلمين الواصلين فى البحر إلى الديار المصرية ، والمواريث الحشرية ، والمال المتحصل من دار الضرب بالقاهرة .

المال الغير شرعى يعرف بإسم المكوس وينقسم بدوره إلى نوعين رئيسيين: مكوس تجبى لحساب الدواوين السلطانيــة فقط، ومكوس أخرى يجبى بعضها لحساب الدواوين السلطانية ويجبى بعضها الآخر لحساب المقطعين(١) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج٣ ص٤٤٨ - ٤٦٦
أما المقريزى فقد قسم مال مصر فى العهد المماليكى إلى قسمين رئيسيين هما المال الخراجى والمال الهلالى. وعرّف المقريزى المال الخراجى بأنه المال الذى يجبى مسانهة - أى كل سنة - من الأراضى التى تزرع حبوبا ونخلا وعنبا ، وربما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج والكشك وغيره من طرف الريف . كما عرّف المال الهــــلالى بأنه المال الذى يجبى كل هلال - أى كل شهر عربى - من الدور والحوانيت والحمامات والأفران والطواحين ومصايد السمك ومعاصر الزيت والمراعى وغيرها . المقريزى : المواعظ ج١ ص١٠٧ - ١١ .

المال الشرعي :

١ — المال الخراجي

المال الخراجي هو الذى يفرض على أراضى مصر الزراعية ، ويجبى من ملاك هذه الأراضى وزراعها أو من المقطعين المتمتعين بها .

وأرض مصر الزراعية فى ذلك الوقت كانت ستة أقسام(١) — قسم أول كان يتبع الدواوين السلطانية ، أى الدواوين التابعة للسلطان والوزارة — وقسم ثان أقطع للأمراء والأجناد — وقسم ثالث جعل وقفا محبسا على الجوامع والمدارس والخوانك وعلى جهات البر وعلى ذرارى واقفى تلك الأراضى وعتقائهم — وقسم رابع كان يقال له الأحباس(٢) — وقسم خامس اشتراه بعض الناس من بيت المال فأصبح لملاكه الحق فى التصرف فيه بالبيع والتوريث والهبة — وقسم سادس لم يزرع لسبب من الأسباب فكثرت به الحشائش والأعشاب واستغل كمراع للمواشى والأغنام .

أما ما زاد على هذه الأقسام الستة فكان قفرا بسبب عدم وصول ماء النيل إليه(٣) .

(١) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٩٨

(٢) أغلب أراضى الأحباس من النوع المعروف بالرزق الأحباسية ، وهى أراض كانت تحبس أى توقف على المساجد والزوايا للقيام بمصالحها وعلى غير ذلك من جهات البر . وفى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون بلغت مساحة هذه الرزق الأحباسية مائة ألف وثلاثين ألف فدان .

المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٩٥

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ٦٧

وأرض مصر الزراعية التى كان يفرض عليها المال الخراجى كان يطبق عليها أحد نظامين لجبايته : فإما أن يفرض عليها مقدار ثابت معين من المال الخراجى لا يزيد ولا ينقص على توالى السنين ، أو أن يقرر عليها خراج قابل للزيادة والنقصان كل عام حسب مساحة الأرض المزروعة واختلاف الرى فيها بالكثرة والقلة(١) .

وبصفة عامة كان الجزء الأكبر من خراج الوجه القبلى يجبى غلالا من قمح وشعير وحمص وفول وعدس وجلبان ، وغالبا ماكان يؤخذ عن خراج كل فدان من الأصناف المذكورة ما بين أردبين إلى ثلاثة بكيل البلد الذى يجبى منها الخراج وربما زاد أو نقص عن ذلك . وغالبا أيضا ماكان يجبى مع كل أردب من هذه الأصناف درهم أو درهمان أو ثلاثة ونحو ذلك بحسب ماكان يفرض على كل بلد من بلاده .

غير أن هذا النظام لم يطبق على كل بلاد الوجه القبلى فخراج البعض منها كان يجبى مالا فقط ، كما أن خراج الأرض التى تبور زراعتها وتتحول إلى مراعى كان يجبى مناجرة أو يؤخذ عنها المداد على حسب عرف البلاد(٢) .

أما بلاد الوجه البحرى فغالب خراجها كان يجبى مالا ، والقليل من خراجها كان يجبى غلالا(٣) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٥٤

(٢) نفس المرجع والجزء ص٤٥٠ ـ والمداد هو المال الذى يفرضه السلطان على قطعان القبائل العربية والتركمانية . المقريزى : السلوك جـ١ ص٤٨٠ حاشية ٦

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٥٥

ولما كانت الأراضى الباق(١) والبرايب(٢) بالوجهين القبلى والبحرى هى أعلى الأراضى الزراعية قيمة وأحسنها إنتاجا لذلك كان الخراج الذى يفرض عليها أعلى خراج . وحتى عام ٧٩٠ هـ كان خراج الفدان الباق يقدر بحوالى أربعين درهما ، وخراج فدان البرايب بحوالى ثلاثين درهما ، ثم استمر خراجها فى الزيادة حتى صار يؤخذ بعد عام ٨٠٠ هـ نحو ٤٠٠ درهم فى الفدان الباق ، بل كان يؤخذ أحيانا فى الأرض الطيبة نحو ٦٠٠ درهم(٣) .

وقد كانت هناك إجراءات محددة تجرى كل عام لتقدير الخراج على الأراضى الزراعية ، ولدينا تفاصيل عما كان يتبع فى هذا الشأن بالنسبة للأراضى التابعة للاقطاع على وجه الخصوص . وهذه الإجراءات كانت تبدأ بعد أن يشمل النيل الأرض بمائة ، فعلى أثرها يقوم مباشر الخراج فى المنطقة بإلزام خولة البلاد بعمل ما يسمى بقوانين الرى ، فيقوم هؤلاء الخولة ومعهم مشايخ الناحية بحصر عدد الفدن التى شملها الرى وعلاها النيل ، والفدن الأخرى الشراق التى لم يشملها الرى ، ثم يثبتون هذه البيانات فى محضر يطلق عليه قانون الرى .

بعد تجهيز هذا القانون يقوم مباشر الخراج بعمل تقدير مبدئى للخراج على

---

(١) الباق هى الأرض التى زرعت بالقرط والفول فأصبحت تصلح لزراعة القمح فى العام التالى . المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١٠٠

(٢) البرايب هى الأرض التى زرعت بالقمح والشعير فضعفت ، فيزرع بها القرط والقطانى فى العام التالى لتستريح ولتصبح باقا فى العام الذى يتلوه وتصبح صالحة مرة أخرى لزراعة القمح . نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٠

هذه الأراضي مهتديا في ذلك بخراج سنة يماثل نيلها نيل تلك السنة . وهذا العمل يعرف باسم التحضير .

وعلى أثرها تصرف التقاوى لفلاحي هذه الأرض من أطيب الغلال وأفضلها وتثبت هذه البيانات كلها بسجلات تعرف بسجلات التحضير أو أوراق المسجل، متضمنة اسم كل فلاح والأرض التي يقوم بزراعتها ومساحتها وجهتها ، ومقدار التقاوى التي صرفت له ، ومقدار الخراج المبدئي الذي قدر عليه ، وتحفظ نسخة من هذه السجلات بديوان صاحب الاقطاع(١) .

وإذا ثبت الزرع واستوى على سوقه يخرج مباشرون من ديوان صاحب الاقطاع لمسح الأرض المزروعة فعلا بكل قبالة(٢) ،وتعيين أصناف المزروعات بها ، واسم متقبلها ، وتثبت البيانات الخاصة بكل قبالة في أوراق تسمى الفنداق، ثم تجمع البيانات عن كل القبائل الزراعية الداخلة في نطاق الإقطاع في أوراق تسمى تأريج القبائل ، كما تجمع أسماء المزارعين بأوراق تسمى تأريج الأسماء ، ثم تعمل مقابلة بين هذه البيانات والبيانات السابق تسجيلها بسجلات التحضير فإذا ثبت أن هناك زيادة في مساحة الأرض التي تم زرعها فعلا تجرى التعديلات اللازمة وتضاف هذه الزيادة تحت اسم متقبل هذه الأرض . وعلى ضوء هذه التعديلات يتم تحديد مقدار الخراج المطلوب من هذا المزارع بصفة نهائية .

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٤٥٤ — النويري : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٤٧ - ٢٤٩

(٢) القبالة هي الأرض التي يتقبل أحد المزارعين مسئولية دفع خراجها نظير تسليمها له ليزرعها ولينتفع بمحصولها . المقريزي : المواعظ جـ ١ ص ٨٢

وتجمع هذه البيانات النهائية فى أوراق تسمى المكلفة ، ويوقع عليها شهود ، وتحمل منها نسخ لديوان صاحب الإقطاع ، ليقوم هذا الديوان بتحصيل الخراج المثبت بها(١) .

لكن بالإضافة إلى ما ذكرناه فبعض مزارعى البساتين والنخيل بالإقطاعات كانوا يتفقون مع ديوان المقطع على تأديه خراج محدد ثابت فى كل سنة عن فدن معينة ، ويلتزمون بهذا الخراج سواء رويت الأرض أو شرقت ، وفى مقابل ذلك لا يطالبهم ديوان المقطع إلا بالخراج المتفق عليه فقط . وهذا النوع من الخراج يعرف باسم الخراج الراتب ويستأديه ديوان المقطع من هؤلاء المزارعين على أقساط فى زمن الثمار والأعناب والفواكه .

ومن شروط هذا النوع من الخراج أنه كان يستأدى ممن هو مقرر عليه سواء زرع أرضه أو تعطلت عن الزراعة ، كما أنه لا يبطل بوفاة المزارع الملتزم بتأديته ، بل ينتقل إلى ورثته فيطالبهم الديوان به أبدا ما تعاقبوا وتناسلوا ، ولا يوضع عنهم إلا فى حالة واحدة فقط وهى إذا ابتلع البحر الأرض المقرر عليها هذا الخراج ، على أن يثبت ذلك فى محضر رسمى(٢) .

٢ — المعادن :

بعض المعادن التى كانت تستخرج من أرض مصر فى العهد المماليكى كانت تحقق دخلا جوهريا لخزانة الدولة ، ونذكر منها الشب ، والنطرون ، والزمرد .

أما الشب فكان الطلب عليه كبيراً من الروم خاصة الإيطاليين الذين كانوا

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج٣ ص٤٥٤

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج٨ ص٢٥٤

يستغلونه فى صناعاتهم وتجاراتهم (١) . كما أن البوديين والصباغين فى مصر كانوا يستخدمونه فى الصباغة باللون الأحمر . وكان الشب يستخرج وقتئذ من عدة أماكن بالصعيد وبالصحراء الغربية خاصة بالقرب من أسوان ومن الواحات ، فتحمله العربان من إخميم وأسوان والبهنسا حتى إذا كان وقت الفيضان نقـــل بالمراكب عن طريق النيل إلى الاسكندرية ، فيقوم الديوان السلطانى بشرائه بالقنطار الليثى ثم يبيعه بالقنطار الجروى ، كما كان يبيعه بكميات كبيرة ليحقق ربحا كبيراً . وبلغ ما كان يباع منه الروم بالاسكندرية ١٢ ألف قنطار جروى بسعر يتراوح بين ٤ و ٦ دنانير القنطار الواحد . كما كان يبـاع منه البوديين والصباغين بمصر نحو ٨٠ قنطارا بسعر ٦ ½ دينار للقنطار .

واحتكرت الدولة الشب احتكارا كاملا وحرمت على أحد أن يشتريه من العربان أو من غيرهم ، وإذا عرف عن أحد أنه اشترى أو باع منه صودرت الكميات التى اشتراها أو باعها (٢) .

لكن يبدو أن هذا المعدن أخذ يفقد دوره كأحد مصادر الدخل للدولة تدريجيا ، حتى إذا كان النصف الأول من القرن التاسع الهجرى توقف هذا الدور تماما(٣). وليس لدينا تعليل واضح لذلك ، لكن ربما رجع ذلك إلى تدهور أحوال مصر واضطراب أمورها خلال الأزمة الاقتصادية التى إجتاحتها عام ٨٠٦ هـ ، فأصبح

---

(١) Heyd : Histoire du Commerce, pp. 569—570.

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١٠٩ ـ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٤٥٥ ـ ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٣ .

(٣) المقريزى : نفس المرجع والجزء والصفحة ـ القلقشندى : نفس المرجع والجزء ص ٤٥٥ .

من المتعذر جلبه بانتظام من مصادر إستخراجه بالصعيد والصحراء ، أو ربما قلت الكميات المستخرجة منه إلى حد جعل الحكومة توقف إعتمادها عليه كمصدر من مصادر دخلها .

أما النطرون فكان يستخرج من مكانين رئيسيين : أولهما بركة النطرون بعمل البحيرة التى كانت تقدر مساحتها بمائة فدان ، وتغل من النطرون بما ثمنه نحو مائة ألف دينار — وثانيهما الفاقوسية بالقرب من الخطارة بالشرقية ، والنطرون المستخرج منها كان يعرف باسم الخطارى ، غير أنه لم يكن فى جودة المستخرج من بركة النطرون ، كما أنه لم يكن يحقق عائدا مجزيا مثله (١) .

ورغم أن ثمن القنطار من النطرون كان لا يتجاوز ٧٠ درهما فى العهد الأيوبى ، إلا أن هذا الثمن زاد إلى حد كبير فى العهد المماليكى بسبب إحتكار الديوان السلطانى له فبلغ ثمن القنطار منه نحو ٣٠٠ درهم ، وصار إيراد النطرون مخصصا بجملته فى عهد السلطان الظاهر برقوق للديوان المفرد الذى أنشأه للانفاق على مماليكه ، وكلف برقوق استاداره بمباشرة شئون النطرون ، فخصصت للنطرون شون بالقاهرة والاسكندرية لتخزينه وبيعه بها ، وخصص له مباشرون يتولون أمره (٢) .

أما الزمرد فكان يستخرج من مغارة جبلية طويلة بالصعيد على بعد ثمانية أيام من قوص بمكان اسمه الخربة ، واستخرجت منه أنواع عديدة أفضلها النوع

---

(١) القلقشندى : نفس المرجع والجزء ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ - المقريزى : نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٢) القلقشندى : نفس المرجع والجزء ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

الذى كان يعرف باسم الذبابى (١). لكن فى أواخر عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون قل الاعتماد على هذا المعدن كمصدر من مصادر الدخل للدولة، وذلك لقلة السكيات المستخرجة منه مع كثرة تكاليفها (٢). ثم لما كان عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون توقف استخراجه تماما (٣).

٣ - الزكاة :

المفروض - كما هو مقر فى كتب الفقه - أن من وجبت عليه الزكاة كان مخيرا بين أن يدفعها إلى الإمام أو نائبه، وبين أن يفرقها بنفسه. ولكن يبدو أن من وجبت عليهم الزكاة أهملوا فى أدائها، فاضطرت الدولة منذ عهد صلاح الدين الأيوبى أن تباشر أمر جبايتها بنفسها وبمعرفتها، فأصبح صلاح الدين الأيوبى - كما يقول المقريزى - هو أول من جباها بمصر، وأنشأ لها ديوانا يختص بأمورها (٤). واستمر هذا الإجراء معمولا به حتى أوائل العهد المماليكى.

وفى أوائل هذا العهد كانت الزكاة تجبى بطريقة تعسفية مستبدة حتى أصبحت تؤخذ «من الرجل عن زكاة ماله أبدا ولو عدم منه، وإذا مات يؤخذ من ورثته» (٥). وأصبحت الزكاة تسمى زكاة الدولة، غير أن الملك المنصور قلاوون أبطلها فى عهده (٦)، وترك الحرية لمن تجب عليهم الزكاة بأن يفرقوها بأنفسهم، ولم يبق من الزكاة إلا نوعين منها فقط ظلت الدولة تجبيها بمعرفتها وهما :

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٨٢، ٢٠٥.
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٤٥٥.
(٣) المقريزى : المواعظ جـ١ ص ٢٣٢.
(٤) نفس المرجع جـ٢ ص ١٠٨.
(٥) نفس المرجع جـ١ ص ١٠٦.
(٦) نفس المرجع والجزء والصفحة.

(أ) زكاة تجبى عن الذهب والفضة الذى يحمله التجار المسلمون القادمون إلى مصر من الخارج بواقع خمسة دراهم على كل مائتى درهم ، فإذا اشترى التاجر بها شيئا وخرج به ثم عاد قبل انقضاء سنة بنظير المبلغ الأول فعندئذ لا يؤخذ منه شىء ، أما إذا تجاوز السنة فى هذه الحالة تجبى الزكاة مرة أخرى عن هذا المال بنفس النسبة .

إلا أن الحكومة عادت فانقصت المدة الزمنية وجعلتها عشرة أشهر فقط بدلا من سنة ، كما أنه إذا زادت مرات خروج وعودة التاجر بنظير المبلغ الأول خلال هذه المدة عن أربع مرات ، فى هذه الحالة تجبى منه الزكاة عن هذا المال مرة ثانية وتحتسب له مدة جديدة(١) .

(ب) زكاة تفرض على متاجر تجار الكارم الموجودة بداخل البلد إذا حال عليها الحول (٢) .

ورغم أن بعض سلاطين المماليك حاول جباية الزكاة من التجار الآخرين من غير الكارم إلا أن محاولاتهم تلك كانت تقابل دائما بالمعارضة الشديدة من القضاة ورجال الدين ، ونذكر من أمثلة ذلك السلطان الظاهر برقوق الذى قام بجباية الزكاة من التجار عام ٧٨٩ هـ ، ثم لم يلبث أن أعاد إليهم ما جباه منهم بسبب المعارضة الشديدة التى أبداها القضاة ورجال الدين وعلى رأسهم القاضى ناصر الدين محمد الشهير بابن الميلق ، فهذا القاضى رفض أن يتولى منصب قضاء الشافعية بالديار المصرية الذى عرضه عليه السلطان إلا بشروط اشترطها ووافق عليها السلطان ، وكان من بينها أن لا تؤخذ الزكاة من التجار وأن يعاد إليهم

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٧ .
(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة .

ما جبي منهم (١) .

وبالإضافة إلى هذين النوعين من الزكاة ، فقد فرضت الدولة على أهل برقة الذين يقدمون إلى عمل البحيرة لرعى أغنامهم وإبلهم نوعا من الزكاة إسمه العداد ، وغالبا ما أقطعت هذه الزكاة لبعض الأمراء ، فكان رجالهم يقومون بجبايتها لحسابهم (٢) .

٤ - الجوالى :

الجوالى مال يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة على رقابهم كل سنة(٣).
والجوالى التى تجبى بالقاهرة تخص الديوان السلطانى وتضاف لإيراداته ، ويولى لجبايتها ناظر من قبل السلطان ويساعده مساعدان يعرف كل واحد منهما باسم الحاشر ، حاشر اليهود وحاشر النصارى ، وكل حاشر منهما يكون مسئولا عن

---

(١) ابن قاضى شهبه : الاعلام بتاريخ أهل الإسلام لوحة ٢٤ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٨ .
والعداد هو المال الذى يجبى كأجر عن ترعى ماشيته فى المراعى التابعة للدولة أو المراعى التابعة لأصحاب الاقطاع ، لذلك أطلق على هذا المال إسم المراعى أيضا
وكانت العادة المتبعة عند جباية العداد أو المراعى أن ينتدب مشد وشهود وكاتب فيعدون المواشى التى ترعى ثم يجبون من أصحابها مبلغ معين عن كل رأس منها . المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١٠٧ .
(٣) الجالية فى اللغة الغرباء الذين أجلوا عن أوطانهم ، والواحد جال . والجالية أيضا أهل الذمة ، قيل لهم ذلك لأن الخليفة عمر بن الخطاب أجلاهم عن شبه الجزيرة ، ثم لزم هذا الإسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة والمجوس وإن لم يجلوا عن أوطانهم . والعامة تطلق الجالية على نفس الجزية ، والجمع جوال . محيط المحيط .

معرفة أصحاب الأسماء المسجلة فى الديوان من تجب عليهم الجزية من أهل الذمة الداخلين فى نطاق إختصاصه ، ومعرفة من يضاف إليهم من النشو فى كل عام ، والنشو هم صبيانهم الذين يبلغون من البلوغ . وكذلك معرفة من يقدم إلى العاصمة من أهل الذمة من البلاد الخارجة عنها ، وهم من كانوا يعرفون فى مصطلح الديوان باسم الطارى . وكذلك معرفة من يهتدى منهم ويعتنق الإسلام أو من يموت منهم . وعليه أن يملى على كتاب الديوان أى بيانات قد تستجد فى هذا الصدد .

والجوالى التى تجبى من هؤلاء كان يتراوح مقدارها على كل واحد منهم بين خمسة وعشرين درهما كحد أعلى وعشر دراهم كحد أدنى ، وتجبى منهم فى شهر رمضان ، فإذا تمت جبايتها يحمل قدر معين منها إلى بيت المال ، ثم يوزع الباقى منها على عدد مرتب من القضاة وأهل العلم والدين (١) .

أما الجوالى التى تجبى من الذميين المقيمين بسائر بلاد مصر الأخرى خلاف القاهرة فبعضها يخص الدواوين السلطانية ويضاف لإيراداتها ، والبعض الآخر منها يمنح كإقطاع لبعض المقطعين بهذه البلاد ، وفى هـــذه الحالة يقوم هؤلاء المقطعون بجبايتها لحسابهم ولمصلحتهم (٢) .

وعلى وجه العموم نستطيع أن نقول أن مجموع ما كان يجبى من الجوالى فى العهد المماليكى كان أقل بكثير مما كان يجبى منها فى العهد الأيوبى ، ففى عام ٥٨٧ هـ بلغ مجموع المتحصل منها ١٣٠٠٠ دينار ، لكن هذا المبلغ نقص إلى حد كبير

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٥٨ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٤٠٩ .

فى العهد المماليكى لكثرة من اعتنق الدين الإسلامى من النصارى . ورغم الجهد الكبير الذى بذل فى عهد السلطان المؤيد شيخ لجباية الجوالى من أهل الذمة فإن مجموع ما جبى منها عام ٨١٦ هـ لم يتجاوز ١١٤٠٠ دينار فقط (١) .

• — المال الذى يجبى من التجار الغير مسلمين الواصلين فى البحر إلى الديار المصرية .

هذا المال كان يجبى من التجار الفرنج الذين يقدمون إلى ثغرى دمياط والاسكندرية بقصد التجارة . ورغم أن المقرر جبايته شرعا من هؤلاء هو بنسبة العشر من قيمة ما يحملونه من متاجر إلا أن المذهب الشافعى أباح الحاكم أن يزيد هذه النسبة على العشر ، كما أباح له فى نفس الوقت أن ينقص هذا العشر إلى نصفه إذا وجد أن فى ذلك مصلحة البلد ، بل أكثر من ذلك فقد أعطاه الحق فى سبيل هذه المصلحة أن يعفيهم من العشر كله إذا وجد أن هذا الإجراء سيشجعهم على زيادة تعاملهم التجارى مع البلد .

وقد وجدت حكومة المماليك مصلحتها فى تطبيق ما يقرره المذهب الشافعى فى هذا الشأن ، ففرضت على هؤلاء التجار ضرائب ارتفعت نسبتها أحيانا إلى ضعف العشر أى الخمس ، بل ربما زاد ما كانت تأخذه منهم على الخمس أيضا (٢) ، ويذكر ابن مماتى أنه بلغت نسبة ما يؤخذ منهم إلى ٣٥ ٪ (٣) .

وزيادة على ما سبق فحكومة المماليك كانت تجبى من هؤلاء التجار ضرائب

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١٠٧ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٩ .
(٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٢٦ .

إضافية أخرى ، منها مكس السياج ومقداره قطعة ذهبية Ducat أو قطعتان يدفعها كل تاجر منهم عن نفسه (١) ، ومكس الدخول وهو رسم يدفعه الواحد منهم عن النقود التى معه بنسبة ٢ ٪ منها (٢) ، ومكس الصادر وهو مقرر مالى كان يجبى منهم بالاسكندرية على ما يصدرونه منها إلى الخارج (٣) .

وإذا قدم تاجر فرنجى بمتاجره إلى الاسكندرية عن طريق البر فلا يسمح له بدخولها إلا بعد دفع ضريبة مقدارها ١٠ ٪ مما معه (٤) .

٦ — المواريث الحشرية

هى مال من يموت وليس له وارث خاص . والمواريث الحشرية التى تجبى بالقاهرة يعين لها ناظر من قبل السلطان ، والمال المتحصل منها يحمل إلى بيت المال حيث يوضع تحت تصرف الوزارة وتحت مباشرتها ، وربما صرف من هذا المال على بعض أرباب الجوامك وغيرهم .

وجرت العادة أن يخصص كاتب بالديوان السلطانى لعمل تقرير شامل يومى عمن يموت بمصر والقاهرة سواء كان حشريا أو غير حشرى، وهذا التقرير يشمل كل من يموت من الرجال والنساء والصغار واليهود والنصارى(٥) .

أما المواريث الحشرية التى تحصل من خارج القاهرة فكان لها مباشرون

(١) القلقشندى : المرجع السابق جـ ١١ ص ٤١٦

(٢) Heyd : Histoire du commerce , pp 448 - 449

(٣) القلقشندى : المرجع السابق جـ ٣ ص ٤٦٠

(٤) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٥) القلقشندى : المرجع السابق جـ ٣ ص ٦٠ ،

يقومون بتحصيلها ويحملون مايتحصل منها إلى الديوان السلطانى(١) .

٧ — المال المتحصل من دار الضرب بالقاهرة

رغم أن دار الضرب بالقاهرة كانت دارا حكومية مهمتها فى المقام الاول ضرب وسك العملة الحكومية إلا أنه كان يسمح فى عهـــدى الأيوبيين والمماليك بضرب دنانير ودراهم بها لحساب من يرغب من الناس لقاء أجر يجبى منهم عن ذلك ، وبشرط أن يوردوا لدار الضرب الذهب والفضة اللازمة لهذا الغرض .

وذكر ابن مماتى أن أجرة ضرب كل ألف دينار بهذه الدار هى ٣٠ دينارا منها ثلاثة دنانير كأجرة الضرابين .

أما أجرة ضرب كل ألف درهم فهى ١٤ ½ درهم، منها درهمان وربع لمشارفة دار الضرب(٢) .

لكن هذه الأجرة التى ذكرها ابن مماتى ربما تكون قد زادت فى العهد المماليكى عما كانت عليه فى زمن ابن مماتى أى العهد الأيوبى ، والذى يدعونا إلى هذا الظن هو أن الحكومة المماليكية أدخلت دار الضرب فى نظام الضمان . والضمان معناه أن يلتزم شخص للحكومة بأن يدفع لها مقدما المال الذى يجبى من جهة معينة فى مقابل أن تسمح له الحـكومة بجباية هذا المال بمعرفتـه هو ، فإن زاد المال الذى يجمعه عن المال الذى يدفعه للحكومة كانت له هذه الزيادة ، وان نقص فعليه هذا النقص(٣) . وبالطبع يحرص الضامن كل الحرص على أن يزيد المال الذى يجبيه

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص٢٥

(٣) القلقشندى : المرجع السابق ج٣ ص٤٦٦

على المال الذى يدفعه للحكومة ليحقق من وراء ذلك أكبر ربح ممكن .

وفى عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى كان الضمان المقرر على ضمان دار الضرب يقدر بنحو مائتى ألف وخمسين ألف درهم ، فرفع هؤلاء الضمان التماسا إلى السلطان لتخفيضه بعض الشىء ، فوافق السلطان وأمر بأن يخفض من ضمانهم مبلغ خمسين ألف درهم[1] .

المال الغير شرعى أو المكوس

المكس فى اللغة معناه الجباية ، وهو أيضا دراهم تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق فى الجاهلية ، ومن معانيه أيضا انتقاص الثمن فى البياعة[2] .

والمكوس فى مفهوم القلقشندى هى كل جباية غير شرعية ، لذلك فهو يعتبر المال المتحصل منها مالا غير شرعى .

أما المقريزى فيسمى المكوس مالا هلاليا على اعتبار أن أغلب هذا المال كان يجبى يجبى مع كل هلال ، أى مع هلال كل شهر عربى ، بينما المال الخراجى يجبى كل سنة [3] .

وأول من أحدث المال الهلالى بمصر هو أحمد بن المدبر الذى تولى خراج مصر بعد عام ٢٥٠ هـ ، وعرف هذا المال فى عهده باسم المرافق والمعاون . أما فى العهد الفاطمى فقد عرف باسم المكوس ، ثم أصبح يعرف فى أوائل العهد المماليكى

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥ ه

(٢) ابن سيده : المخصص جـ ١٢ ص ٢٥٢ - المقريزى: المواعظ جـ ٢ ص ١٢١

(٣) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١١١

باسم الحقوق والمعاملات(١) . لكنه عاد - فى زمن المقريزى - يعرف مرة أخرى باسم المكوس(٢) .

وقد قسم القلقشندى المكوس كما عاصرها فى زمنه إلى نوعين : النوع الأول ينفرد الديوان السلطانى بجبايته لحسابه، أما النوع الثانى فبعضه يجبى بمعرفة الديوان السلطانى ولحسابه كما يقوم بعض المقطعين بجباية البعض الآخر منه لأنه كان يمنح إقطاعا لهم .

ومكوس النوع الأول هى مكوس تجبى من التجار المسلمين ، كالكارمية وغيرهم، المارين بقطيا أو الواصلين إلى الموانئ المصرية الواقعة على البحرين الأحمر والأبيض - وكذلك مكوس أخرى عديدة تجبى بالقاهرة والفسطاط .

والمكوس التى كانت تجبى من التجار المسلمين المارين بقطيا كانت لها نسب مقررة على كل نوع من المتاجر.

أما المكوس فى موانى، مصر الواقعة على البحر الأحمر فكانت تجبى بنسبة العشر من قيمة المتاجر التى مع هؤلاء التجار مع لواحق أخرى تكاد تبلغ فى قيمتها نحو هذا المقدار . وفى الاسكندرية ودمياط كان يجبى منهم المرتب السلطانى حسب ما توجبه الضرائب(٣) .

أما المكوس التى كان الديوان السلطانى ينفرد بجبايتها بالقاهرة والفسطاط

---

(١) نفس المرجع والجزء ص١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧

(٢) نفس المرجع ج٢ ص١٢٣

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج٢ ص٤٦٤ - ٤٦٦ - غير أن القلقشندى لم يعطنا تفصيلا واضحا عن مقدار هذه المكوس أو النسب التى كانت تجبى بها .

فكانت كثيرة حتى قيل أنها بلغت نحو إثنين وسبعين مكسا ، بعضها كان لها ضمان بمقدار معين من المال(١) .

والملاحظ أن أحدا من مؤرخى مصر المماليكية لم يمدنا ببيان شامل مفصل عن كافة المكوس التى كانت تجبى من مدينتى مصر والقاهرة ومن باقى أقاليم ومدن مصر الأخرى ، أو لعل السبب فى ذلك يرجع إلى ما كان يلحق بهـذه المكوس من زيادة أو نقص أو إلغاء على توالى عهود سلاطين المماليك ، فـكل سلطان من هؤلاء السلاطين كان يجرى تعديلات بهـذه المكوس حسب مصلحته وحسب الظروف والأحداث التى تمر بها الدولة فى عهده ، وبعضهم كان يبدأ عهده بإلغاء مجموعة من المكوس التى كانت تجبى فى عهد سلفه ليتقرب بهذا العمل إلى نفوس الرعية ، لكن ما أن يطمئن إلى رسوخ أقدامه فى السلطنة حتى يستبد به الجشع فيعيد كثيرا مما ألغاه منها ، بل قد يضيف إليها مكوسا جديدة . ولم يكتف بعضهم بذلك فأخضعوا بعض المكوس لنظام الضمان الذى أشرنا إليه من قبل ، فاستبد الضمان بالناس ، وشرهوا فى جبايتها منهم بأزيد مما هو مقرر لهـذه المكوس .

وفيما يلى أمثلة لبعض المكوس التى فرضها بعض السلاطين أو التى ألغاها بعضهم ، أو التى جعلوا لها ضمانا .

فى عهد السلطان عز الدين أيبك التركمانى فرضت أموال على التجار وذوى اليسار وأصحاب العقارات وسميت حقوقا ومعاملات(٢) .

---

(١) نفس المرجع والجزء ص٤٦٦ — إرجع إلى ما ذكرناه من قبل عن معنى الضمان ونظامه

(٢) المقريزى : المواعظ جـ١ ص١٠٥ .

ولما هم السلطان سيف الدين قطز بالسفر إلى الشام لمقاتلة التتار جمع أموالا كثيرة بحجة التجهز للحرب ، منها أموال فرضها على العقارات كزكاة عن قيمتها ، كما فرض على كل إنسان ديناراً ، كما أخذ ثلث التركات الأهلية فبلغ المتحصل منها ستمائة الف دينار في كل سنة(١) .

لكن لما تولى السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى السلطنة بادر بإلغاء مجموعة من المكوس التى كانت تجبى فى عهد قطز ومنها ضمان المزر(٢) ، كما ألغى مكسا إسمه « حراسة النهار » كان يجبى من مدينتى القاهرة ومصر ، كما أبطل مكسا آخرا كان يجبى من عملى الدقهلية والمرتاحية اسمه « رسوم الولاية » ، كما أبطل « ضمان الحشيش » من ديار مصر ، كما ألغى المال المقرر على البغايا ، وكان هذا المال مقطعا لبعض رجال الحاشية فعوضهم عنه ببعض المكوس الأخرى ، ثم لم يلبث أن ألغى ضمان الخمور بأنواعها ، وكان يجبى منها ألف دينار فى كل يوم(٣) .

ولما ولى السلطان المنصور قلاون السلطنة أبطل « زكاة الدولة » وهو مال كان يؤخذ أبدا من كل رجل عن زكاة ماله حتى ولو عدم من هذا المال ، وإذا مات يؤخذ من ورثته ، كما أبطل « مكس المبشر » وهو مال يجبى من أهل القاهرة ومصر على قدر طبقاتهم وذلك إذا حضر مبشر بفتح حصن أو نحوه .

كما أبطل ما كان يجبى من أهل الذمة بخلاف الجالية المفروضة عليهم ، وهو

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة ـــ والمزر نبيذ يصنع من الحنطة .
البغدادى : الإفادة والاعتبار ص٤٢

(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة

عبارة عن دينار عن كل واحد منهم فى السنة للنفقة على الجند .

كما أبطل « مقرر جباية الدينار » وهو مكس مقداره دينار يجبى من كل تاجر عند سفر العسكر للقتال والحرب .

كما أبطل ما كان يجبى عند وفاء النيل لتغطية نفقات الولائم التى تقام فى المقياس بهذه المناسبة (١) .

وفى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون أبطلت المكوس التالية :

« مكس ساحل الغلة » ومقداره ٢½ درهم على كل أردب غلة ، وكان قد خصص لجباية هذا المكس مجموعة من الموظفين كانو يجلسون بخص الكيالة ببولاق ، وكان يتحصل من هذا المكس فى كل عام ٤٫٦٠٠٫٠٠٠ درهم .

« نصف السمسرة » وهو مكس كانت تفرضه الحكومة على الدلالين والسماسرة ، فتأخذ منهم درهما من كل درهمين يحصلون عليها عن عملهم . لكن الدلالين اجتهدوا إزاء ذلك للحصول على أجرتهم كاملة ، وتحايلوا فى نفس الوقت لجعل هذا المكس على حساب البائع وليس على حسابهم .

« رسوم الولاة » وهو مكس يجبيه الولاة والمقدمون من عرفاء الأسواق وبيوت الفواحش ، وله ضامن تحت يده عدة من الأعوان لمعاونته فى جبايته .

« مقرر الحوائص والبغال » وهو مقرر مالى يفرض على الولاة والمقدمين ، فيدفع كل منهم إلى بيت المال ما هو مقرر عليه على أقساط خلال العام . وفى كل

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة

قسط من هذه الأقساط يدفع ثمانمائة درهم كثمن لحياصة وبغل (١) .

ـ مقرر طرح الفراريج ، وهو مكس له عدة من الضمان فى سائر نواحى مصر فكان هؤلاء الضمان يحتكرون بيع الفراريج للناس القاطنين فى مناطق ضمانهم ، فلا يستطيع أحد بمقتضى ذلك أن يشترى فروجا إلا منهم فقط وبالسعر الذى يحددونه ، بل أكثر من ذلك كانوا يطرحون الفراريج على الناس ، أى يفرضون عليهم شراءها منهم سواء كانت لهم رغبة فى ذلك أو لم تكن .

ـ مقرر الفرسان ، وهو مكس يجبيه ولاة النواحى من سائر البلاد ، فلا يؤخذ درهم مقرر حتى يغرم عليه صاحبه درهمين .

ـ مقرر الأقصاب والمعاصر ، وهو ما يجبى من زراع قصب السكر ومن معاصره .

ـ مقرر رسوم الأفراح ، وهو رسم يفرض على الأفراح بسائر النواحى ، وله عدة ضمان .

ـ حماية المراكب ، وهو مال يفرض على كل من يركب البحر للسفر .

ـ حقوق القينات ، وهو مال يجمع من الفواحش والمنكرات .

ـ متوفر الجراريف ، وهو مال يجبى من سائر النواحى لتشترى به جراريف تستخدم فى تشييد الجسور وغيرها من المشاريع والأعمال .

ـ مقرر المشاعلية ، وهو مال يؤخذ عن كسح الأقنية ، ولهذا المكس عدة

---

(١) الحياصة حزام أو منطقة يشدها رجال أوساطهم ، وتصنع من الذهب وتركب على حاشية من الحرير . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤١

ضمان لا يمكنون أحدا من القيام بعملية الكسح هذه إلا بمعرفتهم هم وبإذنهم وبالثمن الذى يحددونه ، فلا يجد أصحاب المنازل مفراً من تنفيذ كل طلباتهم وشروطهم (١) .

وفى عهد السلطان الأشرف شعبان أُبطل مكسان هما ضمان الأغانى وضمان القراريط .

أما « ضمان الأغانى » فهو مكس يجبى من النساء البغايا بمعرفة ضامنة ، ولهذه الضامنة الحق فى منع أى إمرأة من ممارسة البغاء إلا إذا سجلت اسمها عندها أولا وأعطتها الإذن بذلك . كما أنه لم يكن مسموحا لأحد أن يقيم فرحا لزواج أو احتفالا بنفاس — أى ولادة مولود — إلا بعد أن يدفع مالا لهذه الضامنة ليأخذ الإذن منها ، ومن فعل فرحا بأغان ، أو نفس إمرأته من غير إذن ضامنة حل به بلاء لا يوصف » (٢) .

أما « ضمان القراريط » فمكس يؤخذ من كل من باع ملكا بواقع عشرين درهما عن كل ألف درهم (٣) .

وفى عهد السلطان الظاهر برقوق أبطلت عدة مكوس منها مكس « شبه الجالية » الذى كان يؤخذ من أهل البرلس وبلطيم ، فيتحصل منهم فى كل سنة ستين ألف درهم .

« ومكس القمح » الذى كان يؤخذ من الفقراء بدمياط ممن يبتاع منهم أردبن

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٨٨ - ٨٩ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ١٠٥ .
(٣) نفس المرجع والجزء ص ١٠٦ .

قمح أو أقل . وكذلك «مكس الدريس والحلفاء» بباب النصر خارج القاهرة (١).

أما السلطان فرج بن برقوق فعلى الرغم من أنه أبطلت فى أوائل عهده أى عام ٨٠١ هـ عدة مكوس مثل « تعريف الغلال » و « ضمان المرصة » و« أخصاص الغسالين » (٢) لأن المكوس التى بقيت تجبى فى عهده كانت تقدر بسبعين ألف درهم ونصف يوميا (٣).

وعندما شرع السلطان فرج فى تجهيز جيش لمواجهة تيمور ذلك عام ٨٠٢ هـ بعث برجاله يداهمون متاجر ومخازن التجار ، فإن وجدوا صاحب المتجر أخذوا نصف ما عنده ، أما إذا لم يجدوه فى هذه الحالة كانوا ينهبون جميع ما يجدونه بالمتجر (٤) . كما فرض السلطان فرج لنفس السبب أموالا على المزارع (٥).

وبالإضافة إلى ما ذكرناه من مكوس ، فقد فرضت خلال العهد المماليكى مكوس أخرى منها مكس طحن الغلال ، بواقع خروبة على كل أردب غلة (٦) . وقد تزايدت قيمة هذا المكس على تولى السنين حتى أصبح يجبى فى عهد السلطان الغورى بواقع ثلاثة أنصاف دراهم فضة على كل أردب (٧) ، تجبى من كل من

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة
(٢) نفس المرجع والجزء ص ١٠٧
(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٣٢٠
(٥) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٢١٢
(٦) نفس المرجع والجزء ص ٨٤ - والخروبة قطعة صغيرة من النقود النحاسية مقدارها $\frac{1}{24}$ درهم . Dozy : Supp . Dict · Ar
(٧) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٩١

البائع والمشترى ، وأطلق على هذا المكس إسم الموجب ، كما عرف أيضا باسم مكس البحرين (١)

ومن هـــذه المكوس أيضا « مقرر الجاموس ومقرر بقر الخيس ومقرر الأغنام » وهو مكس كان يقرر على نتاج الجاموس والبقر والأغنام (٢)

و « مكس الذبيحة » الذى كان يعرف باسم « مكس البحيرة » ، وكان يفرض على مايذبح من البقر والغنم وغيرها (٣)

أما الأسماك فلم يكن يسمح ببيعها بدار السمك بالقاهرة إلا بعد تسديد المكوس التى كانت مقررة عليها وقتئذ (٤) ، كما أن الملح كان مقررا عليه مكس أيضا (٥) ، وكذلك المناحل (٦) .

وهكذا يتضح لنا أن المكوس فى العهد المماليكى كانت تشمل أغلب مصادر الرزق التى كان الناس يتكسبون منها أو يتعيشون بها ، كما انها شملت أغلب السلع التى كانت تباع وتشترى بالأسواق .

---

(١) نفس المرجع ج ٢ ص ١٠ - ١٢
(٢) المقريزى : المرجع السابق ج ١ ص ١١١ - وأبقار الخيس أبقار ضخمة ، صفراء اللون ، طويلة الرقاب ، لها قرون كالأهلة ، ويغلب على طباعها النفور لذلك لم تكن تستخدم فى العمل ، لكن كانت ينتفع بألبانها ولحومها . النويرى : نهاية الأرب ج ١ ص ١٢٢
(٣) ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ورقة ٦١٢
(٤) المقريزى : المرجع السابق ج ١ ص ١٠٨
(٥) « : السلوك ج ٢ ص ٢٠٣
(٦) « : المواعظ ج ١ ص ١١١

ب ـ النفقــات

الأموال التي تجبى لحساب الدواوين السلطانية هي الرصيد المالي للدولة الذى منه تنفق على أوجه الإنفاق المختلفة .

ومن بين النفقات الرئيسية للدولة وتنفذ الرواتب والأرزاق التى كانت تعطيها للموظفين العاملين فى دواوين الحكومة و أجهزتها المختلفة من أصحاب القلم ورجال الدين (١) .

وهذه المرتبات كانت تقيد فى سجل خاص يعرف باسم الاستيمار ، وتصرف لمستحقيها إما مياومة ، أى كل يوم ـ أومشاهرة ، أى كل شهر ـ أو مسانهة ، أى كل سنه .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان للأعيان من هؤلاء الموظفين رواتب جارية يوميه من اللحم بتوابله أو بغير توابل ، وكذلك الخبز والعليق لدوابهم ، كما كان لأكابرهم السكر والشمع والزيت فى كل سنة ، والأضحية فى عيد الأضحى ، والسكر والحلوى فى شهر رمضان .

ومرتب الوزير كان أكبر مرتب فى هذه المرتبات ، فقد كان يبلغ حوالى مائتين وخمسين دينارا فى الشهر ، مضافا إليها رواتب أخرى من الغلة ومن الأصناف الأخرى التى ذكرناها من قبل تبلغ فى مجموع قيمتها نظير المرتب الأصلى (٢) .

(١) العاملون فى أجهزه الدولة من رجال السيف كانوا لا يتقاضون مرتبات مالية وإنما كانوا يمنحون إقطاعات بدلا منها .

(٢) المقريزى : المواعظ ج٢ ص ٢٢٤ .

أما مرتب القضاة والعلماء فكان حوالى خمسين دينارا فى الشهر ، مضافا اليها مخصصات أخرى كانت تصرف لهم من أوقاف المدارس (١) .

وبخلاف رواتب الموظفين كانت الدولة تعطى صدقات جارية ورواتب مستديمة لبعض الناس على سبيل الإعانة لهم ، وبعض هذه الصدقات والرواتب على هيئة مبالغ مالية ، والبعض الآخر على هيئة خبز ولحم وزيت وكسوة وشعير . وخصصت الدولة للإنفاق على هذه الصدقات الإيراد المتحصل من أراضى أوقفت لهذا الغرض كانت تعرف بالرزق الإحباسية .

والغريب أن أصحاب هذه الصدقات والرواتب كانوا يتوارثونها ، فيرثها الإبن عن أبيه ، ويرثها الاخ عن أخيه ، وابن العم عن عمه (٢) .

وبالإضافة إلى هذه المرتبات والصدقات كانت خزينة الدولة تتكفل بالإنفاق على إحتياجات القصور السلطانية وتنفق كذلك على الأسمطة (٣) السلطانية ، وأيضا على العمائر السلطانية ، كما كانت تتكفل بنفقات رواتب اللحم التى تعطى للماليك السلطانية وجراياتهم ، ونفقات ضيوف الدولة (٤) ، ونفقات الهدايا التى يهديها السلطان إلى الملوك ، ونفقات الخلع والتشاريف ، ونفقات المشاريع العامة التى

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٣) السماط هو ما يبسط ليوضع عليه الطعام . محيط المحيط .
غير أن هذه الكلمة استخدمت فى العهد المماليكى للدلالة على معنى الطعام ذاته والمآدب التى كانت تقام فى شتى المناسبات .
(٤) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٩٧ .

تتحمل الدولة مسئولية إنجازها وعلها كد الطرق وإقامة الجسور وحفر الترع وتطهيرها.

وفى عهد بعض السلاطين حدث عجز فى ميزانية الدولة بسبب زيادة النفقات على الإيرادات، وحاول هؤلاء السلاطين ووزراؤهم معالجة هذا العجز بأساليب مختلفة، فالسلطان الناصر محمد بن قلاوون أمر الوزير وناظر الدولة وناظر الخواص السلطانية بأن يعرضوا عليه فى آخر كل يوم بيانا بجمل الإيرادات، وما دخل خزينة الدولة من هذه الإيرادات وما صرف منها، كما أمر بأن لا يصرف لأحد شيء البتة إلا بإذنه، فامتثلوا لأمره وأخذوا يجهزون هذه البيانات يوميا، وبعد تجهيزها تقرأ عليه ليقر ما يختاره من أوجه الصرف ويوقف ما يريد. وحمّل السلطان الناصر محمد وزيره الجمالى مسئولية العجز فى ميزانية الدولة الذى حدث فى عهده، فاستدعاه وعنفه وقال له «إن الدواوين تلعب بك»، ثم لم يلبث أن عزله من الوزارة، ولم يعين بديل له فى هذا المنصب، فتعطلت الوزارة لعدة سنوات، وكان سبب عزله توقف حال الدولة وقلة الواصل إليها(١).

ولقد كانت نفقات القصور السلطانية، خاصة الحوائج خاناه(٢) والمطبخ السلطانى تشكل عبئا كبيرا على ميزانية الدولة، وغالبا ما سببت عجزاً فيها. وقد بان هذا العجز واضحاً فى بعض العهود كعهد السلطان الصالح إسماعيل وعهد السلطان الناصر حسن، ففى عهد السلطان الصالح إسماعيل عمل حصر بنفقات الدولة عام ٧٤٥ ه، وكتبت بها أوراق عرضت على السلطان فوجد أن هذه النفقات

---

(١) المقريزى: المرجع السابق ج ٢ ص ٣٩٢.

(٢) الحوائج خاناة هى إحدى إدارات القصور السلطانية، مهمتها تدبير احتياجات المطبخ السلطانى. القلقشندى: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢، ٢١.

بلغت ثلاثين مليون درهم ، منها مصروف الحوائج خاناة فى كل يوم إثنان وعشرون ألف درهم ، وإزاء ذلك حاول السلطان تخفيض العجز بالإقلال من النفقات ، وقد بلغ ما وفره من النفقات اليومية أربعة آلاف رطل لحم ، وستمائة كماجة (١) ، وثلثمائة أردب شعير ، كما وفر أيضا فى كل شهر مبلغ ألفى درهم (٢) .

وفى عهد السلطان الناصر حسن قام وزيره الأمير منجك اليوسفى بعدة إجراءات لمعالجة العجز فى ميزانية الدولة ، فعمد إلى الإقلال من النفقات ، كما حاول فى نفس الوقت أيضا أن يزيد من موارد الدولة المالية . أما فيا يختص بالإقلال من النفقات فقد وفر من جامكية (٣) المماليك ستين ألف درهم فى الشهر ، كما قطع كثيراً من جوامك الخدم والجوارى والبيوت السلطانية ، وأنقص من رواتب زوجات السلطان وجواريه ، وقطع رواتب مغنيات القصور السلطانية ، وخفض نفقات الحوائج خاناة واقتطع من نفقاتها ثلاثة آلاف درهم ، كما وفر من مرتبات الكتاب والمباشرين بالقصور السلطانية ما جملته عشرة آلاف درهم فى اليوم الواحد .

---

(١) الكماج خبز شديد البياض يعجن بغير خميرة ويخبز على الرماد الساخن . محيط المحيط .

(٢) المقريزى : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٤١ .

(٣) الجامكية والجوامك رواتب تقرر لخدام الدولة . والجامكى كلمة فارسية الأصل مركبة من كلمتى (جامه) أى قيمة ، (ك) وهى أداة نسبة

Dosy : Supp. Dict. Ar.

ثم أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٠٧ حاشية ١ .

أما موظفى الدولة فقد استبدل مرتبات بعضهم باقطاعات منحت لهم من بين الاقطاعات التى انحلت بوفاة أصحابها من رجال السيف أثناء الوباء الذى اجتاح البلاد فى هذه الفترة ، فكان فى هذا الإجراء خروجا جريئا على القواعد المعمول بها فى النظام الإقطاعى والتى كانت تخص رجال السيف فقط بالإقطاعات .

أما الإجراءات التى لجأ إليها لزيادة دخل الدولة فكان من بينها أنه سمح للجند بأن يقايضوا بإقطاعاتهم أو يتنازلوا عنها للغير سواء كانوا من رجال السيف أو من غيرهم ، وذلك نظير مال يدفعه أطراف المقايضة أو التنازل لخزينة الدولة (١) . كما أنه زاد فى المعاملات أى المكوس التى تجبيها الدولة بمقدار ثلاثة آلاف درهم (٢) .

وفى عهد السلطان قايتباى كان إرتباك الميزانية كبيراً حتى أنه « أخذ يشكو للقضاة من انشحات الديوان وخراب البلاد ، وصار يدعو على نفسه بالموت حتى يستريح مما هو فيه من التعب » (٣) . ومن بين ما اقترحه السلطان لتخفيف هذا العجز أن تقطع الجوامك المقررة للعواجز من الجند والنساء (٤) .

---

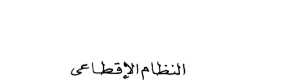
(١) هذا الإجراء كانت له سابقة فى عهد السلطان الكامل شعبان ، فقد قام شاد الدواوين فى عهد هذا السلطان لأول مرة باباحة عمليات التنازل والمقايضة الإقطاعية ـ المقريزى المواعظ جـ ٢ ص ٢١٩ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٣٢٠ ـ ٣٢٣ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٤ .

(٤) نفس المرجع والجزء والصفحة .




النظام الإقطاعي



النظام الاقطاعى

أغلب أراضى مصر الزراعية فى العهد المماليكى كانت مملوكة للدولة ، والقليل منها كان مملوكا ملكية خاصة لبعض الملاك من الشعب .

أما الأراضى المملوكة للدولة فقد أقطعت الدولة بعضها لرجال السيف حسب قواعد النظام الإقطاعى الذى كان معمولا به فى ذلك الوقت (١) ، كما أنها حبست البعض الآخر منها على بعض المساجد والجوامع ، أو على بعض أعمال الخير والبر والصدقات .

---

(١) نقل المماليك هذا النظام عن الايوبيين فيما نقلوا عنهم من أنظمة . وهذا النظام أساسه منح الاقطاعات لرجال الجيش ليستغلوها ولينتفعوا بها طوال مدة بقائها تحت أيديهم ، وذلك فى مقابل الالتزامات والخدمات التى تكلفهم بها الدولة . واذا أخل المقطع بالتزاماته أو عجز عن تأديتها فمن حق الدولة فى هذه الحالة أن تسترد الإقطاع منه مرة ثانية ، لأن الإقطاع الذى تمنحه له إقطاع استغلال فقط وليس إقطاع تمليك .

والواقع أن البويهيين هم أول من أخذ بهذا النظام وطبقه ، غير أنهم لم يحسنوا استخدامه بسبب الفوضى التى شملت الدولة والصراع الذى نشب بين القواد وقتئذ ، فأصبح هم رجال الجيش الحصول على الإقطاعات فقط دون اهتمام بما يقابلها من إلتزامات أو ولاء .

لكن ذلك لم يمنع السلاجقة من معاودة الأخذ بهذا النظام مع تلافى العيوب والأخطاء التى وقع البويهيون فيها خلال تطبيقهم له ، فلما نجحوا توسعوا فى الأخذ به وعمموه فى دولتهم وأصبح أساسا رئيسيا لنظامهم العسكرى والإقتصادى . =

أما الأراضى المملوكة ملكية خاصة لبعض الملاك فقد آلت إليهم عن طريق الشراء من بيت المال أو عن طريق الوراثة أو عن طريق الهبة من الدولة . وقد أوقف بعض هؤلاء الملاك بعض الأراضى التى يمتلكونها على بعض الجوامع والمدارس والخوانك وبعض جهات الخير والبر والدين ، أو عـلى ذرياتهم وعتقائهم .

أما ما عدا ذلك من أرض مصر فلم يكن صالحا للزراعة ، لكن رغم ذلك فالبعض من هذه الأراضى كان صالحا لنمو الأعشاب والكلأ به لذلك اتخذ كراع [١] .

ورغم أنه كان من المفروض أن لا يطبق النظام الإقطاعى الذى أشرنا إليه إلا على الأراضى الزراعية التى تمتلكها الدولة فقط ، إلا أن بعض سلاطين المماليك وجدوا — بمضى الوقت — أن تلك الأراضى لم تعد كافية لهذا الغرض ، فتحايل بعضهم للاستيلاء على بعض الأراضى الموقوفة أو المحبسة والرزق الاحباسية [٢]، وكذلك على بعض الأراضى المملوكة ملكية خاصة ، وردوا هذه الأراضى إلى ملكية الدولة ثم أدخلوها هى الأخرى فى التقسيم الإقطاعى [٣] .

= وعن السلاجقة إنتقل هذا النظام إلى الزنكيين ، ثم من الزنكيين إنتقل إلى الأيوبيين ، ومن الأيوبيين إنتقل إلى المماليك . طرخان: الإقطاع الإسلامى، مقال بالمجلة التاريخية المصرية مجلد ٦ سنة ١٩٥٧ .

(١) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٩٧ .

(٢) الرزق الاحباسية هى أراضى تحبسها الدولة — أى توقفها — للصرف من ايرادها على الصدقات التى تمنحها لبعض الناس : نفس المرجع جـ ٢ ص ٢٢٤ .

(٣) هناك دوافع حقيقية دفعت هؤلاء السلاطين إلى اتخاذ هذه الإجراءات =

ولم يكتف هؤلاء السلاطين بذلك فأخضعوا المراعى أيضا للتوزيع الإقطاعى، فأصبحت هذه المراعى ضمن إقطاعات المقطعين يستغلونها لحسابهم(١).

= فبعضهم كان فى حاجة ملحة للمال فى بعض الظروف الطارئة كأحوال الحرب، كما أن بعضهم كان مدفوعا بالرغبة فى الانتقام من أعدائه، كما أن البعض الثالث منهم كان يشك فى صحة مستندات الملكية التى بيد بعض ملاك الأراضى أو واقفيها.

ولدينا أمثلة متعددة لهذه الدوافع بأنواعها المختلفة، فالسلطان الناصر محمد بن قلاوون على أثر عودته للسلطنة عام ٧٠٩ هـ إتخذ عدة إجراءات للانتقام من بيبرس الجاشنكير الذى انتزع منه السلطنة لفترة من الزمن، ومن بين الإجراءات التى إتخذها فى هذا الشأن أنه استولى على الأوقاف التى أوقفها بيبرس على الخانقاه التى بناها ووزعها اقطاعات. ابن حجر: الدرر الكامنة جـ ١ ص ٥٠٧.

ثم لما راك السلطان الناصر محمد بن قلاوون البلاد روكا عاما - أى مسحها مسحا عاما - عام ٧٠٥ هـ ارتجع الرزق، واخرج ما هو بإسم بيبرس الجاشنكير وأصحابه وحله وجعله إقطاعات. المقريزى: المواعظ جـ ١ ص ٨٨ - ٩١.

وفى عهد السلطان على بن شعبان استدعى أمير الأمراء برقوق جميع القضاة وشيوخ العلم وتحدث معهم فى حل الأوقاف، وأحضرت أوراق بما وقف من بلاد مصر والشام وبما تملك منها وبيعها فى السنة فوجد أنها كثيرة، فقال برقوق إن هذا الوضع هو الذى أضعف جيش المسلمين.

ورغم اعتراض بعض الحاضرين من الشيوخ على مبدأ حل الأوقاف إلا أنه إزاء إصراره فقد وافقوا على حل بعضها خاصة تلك الغير موقوفة على المساجد والمدارس والخوانك وعلى علماء الشرع الشريف وفقهاء الإسلام، كما وافقوا على إلغاء ملكية بعض الأراضى التى لا تثبت صحة مستندات ملكيتها وأن تقطع كلها إقطاعات. المقريزى: السلوك، مخطوط، مجلد ٨ ص ١١٧ هـ.

(١) المقريزى: المواعظ جـ ١ ص ١٠٧

وكنتيجة لهذه الإجراءات كلها أصبحت الغالبية العظمى من أرض مصر المستغلة فى الزراعة أو الرعى خاضعة النظام الإقطاعى إلا النزر اليسير منها ، لذلك قال القلقشندى « إن الديار المصرية بالوجهين القبلى والبحرى بجملتها جارية فى الدواوين السلطانية واقطاعات الأمراء وغيرهم من سائر الجند ، إلا النزر اليسير مما يجرى فى وقف من سلف من ملوك الديار المصرية ونحوهم على الجوامع والمدارس والخوانق ونحوها (١) .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فبمضى الوقت أصبح الإقطاع يشمل أيضا بعض مصادر الإيراد فى الدولة كالمعادن (٢) ، والمكوس المقررة فى بعض النواحى والجهات (٣) ، والجوية أى الجوالى (٤) ، وكذلك العداد أى الزكاة المفروضة على مواشى أهل برقة من الغنم والإبل عند وصولهم إلى عمل البحيرة للرعى (٥) . كما شمل الإقطاع أيضا الضيافة والهدايا التى كان لزاما على الفلاحين تقديمها لصاحب الإقطاع (٦) .

والخلاصة أن النظام الإقطاعى أصبح يشمل جزءا كبيرا من الموارد المالية للدولة ، وفى هذا الصدد يقول القلقشندى « صارت الاقطاعات ترد من جهة

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٤٥١

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٤٥١

(٣) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١٥٢ ، ١٦٧ ـ ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٢٣ ، جـ ٣ ص ٢٩٠ .

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٤٥٩،٢٥٨

(٥) نفس المرجع والجزء ص ٤٥٧

(٦) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٨٨-٩١

الملوك على سائر الأموال من خراج الارضين والجزية وزكاة المواشى والمعادن والعشر وغير ذلك ، ثم تفاحش الأمر وزاد حتى أقطعوا المكوس على اختلاف أصنافها ». (١)

أصحاب الإقطاع ومخصصاتهم الإقطاعية

النظام الإقطاعى العسكرى الذى طبق فى مصر منذ العهد الأيوبى ثم فى العهد المماليكى من بعده يقوم أساسا على اعتبار أن أرض مصر ملك السلطان أى الدولة ، وأنه من حق السلطان أن يقسمها إلى إقطاعات يخص نفسه ودواوين الدولة ببعضها ، ويمنح الباقى منها لأصحاب السيف أى العسكريين من رجال الدولة لينتفعوا بها ويستغلوها استغلالا مؤقتا مدة وجودها تحت يدهم حسب شروط والتزامات معينة ونظير خدماتهم التى تطالبهم بها الدولة ، سواء فى المجال العسكرى أو فى المجال المدنى(٢) .

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٢ ص ١١٧

(٢) خدمات المقطعين فى المجال العسكرى تتمثل فى تلبيتهم أمر الدولة فى حالة الحرب أو فى حالة التأهب لها ، وذلك بالإنضمام إلى الجيش فورا ومعهم أتباعهم وتنفيذ ما تكلفهم به الدولة من مهام عسكرية ، ولم يكن يسمح لواحد من هؤلاء بالتخلف أو الاعتذار عن تلبية الأمر فى مثل هذه الحالات .

غير أنه فى بعض الحالات الاستثنائية كأحوال المرض أو العجز الصحى كان يقبل عذر المقطع فى التخلف بشرط أن يقدم فارسا مقاتلا بديلا عنه بكامل ما يلزمه من رداء وسلاح وعتاد وخيل ، وفى حالة عجزه من تقديم هذا البديل كان عليه أن يدفع بدلا ماليا .

=

أى أنه بمقتضى هذا النظام كان رجال الجيش المماليكى هم أصحاب الحق الأول فى الحصول على الاقطاعات وهذا الجيش كان يتكون من السلطان كقائد أعلى له ، ومن الأمراء ، وكذلك من الجند المماليك سواء كانوا من مماليك السلطان أو مماليك الأمراء أو جند الحلقة. ويضاف إلى هؤلاء عناصر مقاتلة من غير المماليك كانت تدخل فى تشكيل الجيش ، وهؤلاء كانوا من العرب والتركمان والأكراد القاطنين داخل أرض الدولة أو على حدودها ممن كانوا يكلفون ببعض المهام العسكرية .

المخصصات الاقطاعية للسلطان :

كان السلطان يخص نفسه ومماليكه عادة بأكبر الإقطاعات ، وغالبا ما اشتمل إقطاعه على أجود الأراضى ، وبعض المكوس والجوالى التى كانت تدر دخلا مجزيا وافرا ، وكذلك المواريث الحشرية وغيرها من الايرادات المالية(١) .

= المقريزى : السلوك ، مخطوط مجلد ٨ ص١٢٦ ا - ابن إياس : بدائع الزهور جـ٢ ص٢٣٠

أما بخدمات المقطعين فى المجال المدنى فتتمثل فى تكليف بعضهم بمباشرة بعض أعمال الدولة فى هذا المجال والاشراف عليها كجمع المحصول وحفر الخلجان وعمارة الجسور وما إلى ذلك من أعمال مدنيـة . أبو المحاسن : النجـوم الزاهرة جـ٩ ص ٣٨ ، ٤٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٩١

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٣ ص٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١، ٤٦٦ — ابن الجيعان : التحفة السنية ص ٣٣ ، ٨٧ ، ٩٩ ، ١٢٠ ، ١٤٥ ، ١٥٤

وحسب النظام الإقطاعى الذى كان معمولا به كان من حق السلطان أن يستحوذ فى إقطاعه على أربعة قراريط من أربعة وعشرين قيراطا هى مجموع خراج مصر ، ويترك العشرين قيراطا الباقية للأمراء والجند ، إلا أن بعض السلاطين لم يكفهم هذا المقدار فزادوا فى مخصصاتهم الإقطاعية ، ولعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان واحدا من هؤلاء ، فقد أقطع لنفسه عشرة قراريط من مجموع خراج مصر ، وترك لإقطاعات الأمراء والجند أربعة عشر قيراطا فقط (١) .

المخصصات الاقطاعية للامراء :

أما الأمراء فغالبا ما أقطعت لهم هم أيضا البلاد النفيسة ، التى يتحصل منها دخل كبير ، وذلك على قدر رتبهم فى الإمارة ، فنهم من أقطع البلد الواحد ، ومنهم من أقطع أكثر من ذلك ، حتى أن بعضهم أقطع العشرين بلدا(٢) .

وتزيد الأمر إيضاحا وتفصيلا فنقول أن إقطاع كل أمير كان يتناسب تناسبا طرديا مع رتبته فى الإمارة ، فكل رتبة من رتب الإمارة كان لها إقطاعها الخاص بها ، وكلما زادت رتبة الأمير زاد مقدار إقطاعه .

ومراتب الإمرة التى كان الأمراء يتدرجون فى الترقى فيها كانت ثلاث

---

(١) المقريزى : السلوك ج١ ص٨٤٢ ، ٨٤٣ — المواعظ : ج١ ص٨٨ — ابن إياس : بدائع الزهور ج١ ص١٣٧ — Lane Poole : The art of the Saracens, p16 .
Poliak : The Feudalism in the near east, p. 24 .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج٢ ص ٤٥٢

مراتب رئيسية . أدناها مرتبة أمير عشرة(١) ، وأوسطها مرتبة أمير أربعين أو طبلخاناة ، وأعلاها مرتبة أمير مائة مقدم ألف .

أما أمير العشرة فقد سميت رتبته بهذا الإسم لأنه كان يسمح له باستخدام عشرة فرسان من المماليك ، لكن بعضهم كان يسمح له بصفة استثنائية أن يستخدم عددا أكبر من ذلك قد يصل إلى العشرين فارسا ، وفى هذه الحالة يسمى أمير عشرين(٢) .

أما أمير الأربعين أو الطبلخاناة(٣) فيسمح له باستخدام أربعين فارسا من

---

(١) أشارت بعض المصادر إلى رتب إمارة أصغر من أمير عشرة كأمير ثلاثة وأمير أربعة وأمير خمسة ، لكنها لم تكن رتبا أساسية ، فرتبة أمير ثلاثة ورتبة أمير أربعة لم تمنح لأمراء المماليك فى مصر ، وإنما منحت بصفة استثنائية لبعض أعراب الشام . ابن يحيى : تاريخ بيروت ص٩٣ — ٩٤ — ابن الشدياق : أخبار الأعيان ص٢٣٣ — ٢٣٤ .

ويقول القلقشندى عن أمراء الخمسات أنهم أقل من القليل خصوصا بالديار المصرية ، وأنه غالبا ما منحت هذه الرتبة لأولاد الأمراء الذين توفوا رعاية لسلفهم ، وقال عن أمراء الخمسات أيضا أنهم فى الحقيقة كأكابر الأجناد . القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص١٥ .

(٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص١١٣ — الخالدى : المقصد الرفيع ج١ ص١٢٢ — المقريزى : المواعظ ج٢ ص٢١٥ .

(٣) سمى أمير الطبلخاناة بهذا الإسم لأنه كان من مظاهر التشريف له أن يسمح له بدق الطبلخاناة — أى الطبول — على بابه . ابن شاهين : نفس المرجع والصفحة — الخالدى : نفس المرجع والجزء والصفحة .

المماليك ، إلا أنه كان يسمح لبعضهم أحيانا باستخدام عدد أكبر من ذلك قد يصل إلى سبعين فارسا(١) .

أما أمير المائة مقدم ألف فكان يسمح له باستخدام مائة فارس من المماليك(٢) وربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس والعشرين(٣) .

وبصفة عامة كان الأمراء ينقسمون إلى فئتين متميزتين: فئة تعرف بالأمراء

---

(١) ابن شاهين : نفس المرجع والصفحة ـ الخالدى : نفس المرجع والجزء والصفحة ـ المقريزى : المرجع السابق ج٢ ص٢١٥

(٢) ابن شاهين : نفس المرجع والصفحة

(٣) كان ينص أحيانا فى المنشور الصادر من ديوان الجيش باقطاع الأمير على هذه الزيادة فى فرسانه ، ومن أمثلة ذلك منشور إقطاع الأمير قرا لاجين المنصورى فقد نص فيه على أنه بإمرة ١٢٠ فارسا . كما أنه فى الفترات التى تعاظم فيها نفوذ بعض أمراء المائة تجاوز هؤلاء الأمراء العدد المسموح لهم باستخدامه من الفرسان بمراحل كبيرة حتى أن بعضهم استخدم بضعة مئات منهم .

كالأمير قوصون نائب السلطنة وأتابك العساكر فى عهد السلطان كجك بن الناصر محمد بن قلاوون الذى بلغ عدد مماليكه الفرسان ٧٠٠ فارس. أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج١٠ ص٤٠

وكالأمير يلبغا الأتابكى أتابك العساكر فى عهد السلطان شعبان الذى استخدم ٣٠٠ فارس ابن إياس : بدائع الزهور ج١ ص٢١٧ - ٢١٩

وكالأمير يشبك الدوادار الذى استخدم فى عهد قايتباى ٤٠٠ فارس. تاريخ يشبك ورقة ١٤/١٥

الخاصكية أو الجوانية ، وهم المقربون إلى السلطان . أما من عداهم فهم الفئة الثانية وكانوا يعرفون بالأمراء البرانية أو الخرجية (١) .

ونظرا للعلاقات الوثيقة التي كانت تربط الأمراء الخاصكية بالسلاطين لذلك فقد خصهم السلاطين بإقطاعات ذات ارتفاع - أي ذات دخل - أكبر من ارتفاع إقطاعات الأمراء الخرجية ويمكننا أن نتحقق من ذلك من خلال البيـــان الذي أورده المقريزي في خططه عن ارتفاع إقطاعات كافة الأمراء التي تقررت لهم في الروك الناصري (٢) حسب فئاتهم ورتبهم (٣).

ومن هذا البيان نستخلص الملاحظات الآتية :

١ - تراوح ارتفاع اقطاعات أمراء العشراوات بين ٥٠٠٠ر٥ دينار و ١٠٠٠٠ر١٠ دينار

٢ - تراوح ارتفاع اقطاعات أمراء الطبلخاناه بين ١٥٠٠٠ر١٥ دينار و ٤٠٠٠٠ر٤٠ دينار

٣ - تراوح ارتفاع اقطاعات أمراء المائة بين ٨٠٠٠٠ر٨٠ دينار و ١٠٠٠٠٠ر١٠٠ دينار

٤ - كلما زادت رتبة الأمير زاد ارتفاع إقطاعه ، وكلما قلت رتبته قل هذا الارتفاع .

٥ - بالإضافة إلى أن الأمراء الخاصكية ميزوا على الأمراء الخرجية بإقطاعات

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص٦٨٦ حاشيه ٢

(٢) الروك بمعناه العام مسح الأرض الزراعية في بلد من البلاد لتقدير المستحق عليها لبيت المال . المقريزي : السلوك جـ١ ص٨٤١ حاشيه ٢

(٣) إرجع لهذا البيان في صفحة ٣١٥

ذات ارتفاع أكبر ، فقد ميزوا أيضا عن غيرهم بدينار جيشي سعره أكبر خصوصا في مرتبة الطبلخاناه .

ومع ذلك فهذه التقديرات لم تكن ثابتة في كل الأحوال والأوقات ، فبعض أكابر الامراء بلغ إقطاع الواحد منهم مائتي ألف دينار جيشي ، وربما زاد على ذلك . كما أن بعضهم قل ارتفاع إقطاعه عن ثمانية آلاف دينار وما حولها (١).

ولما كان هناك ارتباط وثيق بين رتبة الأمير ومقدار إقطاعه لذلك كان من الاهمية للامراء بدرجة كبيرة أن يحصلوا على ترقيات ترفعهم إلى مراتب أعلى في مراتب الإمرة . وترقياتهم هذه كانت تتم إما بالطريق العادي التدريجي ، أو بالطريق الغير عادي أي بطريق الطفرة . وترقيات الطفرة كانت تتم بتأثير من عدة عوامل : منها إيثار بعض السلاطين لبعض الامراء ، ومنها كذلك تعاظم نفوذ بعض الامراء في عهود بعض السلاطين الضعفاء . وفي كلتا الحالتين ترقى هؤلاء الامراء بطريق الطفرة وليس بالطريق التدريجي العادي ، فحصلوا على الإقطاعات المخصصة للرتب التي رقوا إليها ، كما أن بعضهم منح إمرتين في مرتبة واحدة من مراتب الإمارة فحصل بذلك على إقطاع الإمرتين معا (٢) .

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ٥٠

(٢) من أمثلة ذلك أن برقوق العثماني رقي من رتبه الجنديه إلى رتبه أمير طبلخاناه دفعة واحدة دون أن يمر بمرتبه أمير عشرة . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١١ ج ص ١٥٤

وفي عهد السلطان برقوق أنعم على الأمير موسى بن قاري بإمرة عشرة زيادة على إمرة العشرة التي كانت بيده فحصل بذلك على إقطاع الإمرتين معا . الجوهري : نزهة النفوس ص ٤٩ أ

ولم تكن الإقطاعات هى كل ما يمنح للأمراء نظير خدماتهم العسكرية والمدنية، فبالإضافة إليها كانوا يمنحون أيضا رواتب يومية يجريها السلطان عليهم من اللحم وتوابله ومن الخبز والزيت ومن الشعير لعليق دوابهم، كما كان السلطان ينعم عليهم بملابس فى كل عام، كما كان ينعم عليهم بالخيول مرتين فى كل عام، مرة عند خروجه إلى مرابط خيوله فى الربيع بعد اكتمال تربيعها، ومرة ثانية عند خروجه للعب بالكرة فى الميدان. وبعضهم من أصحاب الحظوة لديه كان ينعم عليهم بعدد كبير من الخيول قد يصل عددها إلى مائة فرس فى العام. ويخص السلطان فى هذه المناسبات أمراء المائة بخيول مسرجة ملجمة، أما من دونهم من الأمراء فينعم عليهم بخيول عرى، أى بدون سروج أو لجم.

وعند ركوب السلطان للعب الكرة بالميدان ينعم على أمراء المائة بحوائص ذهبية، وفى كل مرة يخرج فيها لهذا الغرض ينعم بهذه الحوائص على أميرين منهم بالنوبة، كما يخلع على أمير أو أكثر منهم بخلعة من المفرج المذهب.

وفى عيد الفطر يخلع على بعض أكابر أمراء المئين بخلع من ملبوسه.

أما الخواص من الامراء فيمنحون بالإضافة إلى ذلك الملوفات عند سفرهم للصيد، ويمنحون مرتبات من السكر والحلوى فى شهر رمضان، كما كانت لهم الإنعامات من العقارات والأبنية الضخمة، كما كانت لهم الكساوى من القماش المنوع.

وإذا تقلد أحد من الأمراء منصبا أو ولاية يخلع السلطان عليه فى هذه المناسبة تشريفا يتناسب مع رتبته ومنصبه (١).

---

(١) المقريزى: المواعظ ج٢ ص٢١٦، ٢٢٧ - القلقشندى: صبح الأعشى ج٤ ص ٥١ - ٥٥ - ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ١٠٩.

فئات الأمراء	محل ارتفاع اقطاع كل واحد منهم مقدرا بالدينار الجيشى(١)	سعر الدينار الجيشى مقدرا بالدرهم	قيمة الكلف التى تخصم مقدرة بالدراهم	الصافى مقدرا بالدراهم
الخاصكية الالوف والنائب والوزير	١٠٠ر٠٠٠	١٠	١٠٠ر٠٠٠	٩٠٠ر٠٠٠
الالوف الخرجية	٨٥ر٠٠٠	١٠	٧٠ر٠٠٠	٧٨٠ر٠٠٠
الطبلخاناه الخاصكية	٤٠ر٠٠٠	١٠	٣٥ر٠٠٠	٣٦٥ر٠٠٠
الطبلخاناه الخرجية	٣٠ر٠٠٠	٨	٢٤ر٠٠٠	٢١٦ر٠٠٠
العشروات الخاصكية	١٠ر٠٠٠	١٠	٧ر٠٠٠	٩٣ر٠٠٠
العشروات الخرجية	٧ر٠٠٠	١٠	٥ر٠٠٠	٦٥ر٠٠٠
الكشاف	٢٠ر٠٠٠	٨	١٥ر٠٠٠	١٤٥ر٠٠٠
الولاة الطبلخاناة	١٥ر٠٠٠	٨	١٠ر٠٠٠	١١٠ر٠٠٠
الولاة العشروات	٥ر٠٠٠	٧	٣ر٠٠٠	٣٢ر٠٠٠

(١) الدينار الجيشى هو دينار رمزى كانت تقدر به عبرة الاقطاع ، أى جملة المتحصل منه ، وقدرت قيمة هذا الدينار بـ ١٣ ١/٣ درهم ، لكن قيمته تلك لم تكن ثابتة فقد كانت تتغير حسب الظروف الاقتصادية وحسب رغبة السلطان. ابن الجيعان : التحفه السنيه ص ٢

المخصصات الإقطاعية للجند :

الجند من مماليك السلطان كانوا فئات عدة ، فمنهم المشتروات وهم من اشتراهم السلطان المستقر في السلطنة لذلك كانوا ينسبون إليه - ومنهم السلطانية أو القرانصة وهم من كانوا مماليك لسلاطين سابقين ثم أدخلهم السلطان المستقر في في الحكم في خدمته وتبعيته - ومنهم السيفية وهؤلاء كانوا في الأصل مماليك لأمراء ثم انتقلوا إلى خدمة السلطان بسبب وفاة أو عزل أو مصادرة سادتهم(١).

ولقد حرص السلاطين على أن يخصصوا لإقطاعات مماليكهم البلاد التي تلي مباشرة في العبرة (٢) لتلك التي كانت تخصص للأمراء ، وغالبا ما كان يشترك الإثنان أو أكثر في البلدة الواحدة ، وربما انفرد الواحد منهم بالبلد الواحد(٣).

---

(١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٦ - العريني : الفارس المملوكى، مقال بالمجلة التاريخية المجلد الخامس ١٩٥٦ م .

(٢) العبرة كلمة اصطلاحية معناها مقدار المساحة ، كما كانت تطلق على مقدار مساحة أية ناحية أو إقليم ، كما كانت تطلق على مقدار ما يكون في حيازة أي شخص من الأرض . على ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ٣٤٢ حاشية ٥ .

وعبرة أي بلد معناها المبالغ المربوطة عليها . طرخان : النظم الإقطاعية ص ١٠٢ .

كما أن هذه الكلمة أصبحت تفيد معنى المتحصل السنوي من الإقطاع .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥ .

ولقد خصص السلطان برقوق لمماليكه إقطاعات مفردة - أى مخصصة لهم - ومن الايرادات المتحصلة من هذه الإقطاعات كانت تصرف لهم استحقاقاتهم الإقطاعية على هيئة مرتبات وكساوى وجوامك (١) ، وخصص السلطان برقوق لإدارة هذه الإقطاعات والإشراف عليها ديوانا عرف بالديوان المفرد (٢) .

وأسند برقوق إلى أستاداره ومجموعة من الموظفين تحت رئاسته (٣) مهمة

---

(١) الجوامك هى رواتب خدام الدولة - والجامكى كلمة فارسية الأصل مكونة من جامة أى قيمة ، وكى وهى أداة نسبة . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٠٧ حاشية ١ .

(٢) يبدو أن إنشاء هذا الديوان فى عهد برقوق لم يكن إبتداعا جديدا ، فهناك ما يدل على وجود ديوان مفرد فى العهد الفاطمى : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٣ .

ويخبرنا المقريزى بأن الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله أنشأ ديوانا عرف بالديوان المفرد ، وأودعت فيه أموال من يسخط عليه أو يقتله أو يصادر أمواله . المواعظ جـ ٢ ص ٢٨٧ .

كما أنه يفيدنا أيضا بأنه لما قدمت الدولة الفاطمية من بلاد المغرب إلى مصر صار للأحباس ديوان مفرد . نفس المرجع والجزء ص ٢٩٥ .

(٣) هم ناظر الديوان المفرد ، وإختصاصه النظر فى الأموال والغلال الخاصة بهذا الديوان ، كما أنه يحل محل الاستادار فى كل إختصاصاته فى حالة غيابه .

ويتبع هذا الناظر ثلاثة موظفين هم : صاحب الديوان المفرد ، وإختصاصه لاحق باختصاص ناظر هذا الديوان - ومستوفى الديوان المفرد ، وإختصاصه فى هذا الديوان يماثل إختصاص مستوفى الدولة ، وربما عين إثنان أو ثلاثة من هؤلاء المستوفين - وعامل الباب والشونة ، وإختصاصه ضبط وإثبات كافة الوارد والمنصرف من مال وغلال .

الخالدى : المقصد الرفيع جـ ١ ص ١٣٧ .

إدارة هذا الديوان والإشراف عليه ، فأصبح هذا الأستادار بذلك مسئولا عن نفقة هؤلاء المماليك وجامكياتهم وما يخصص لهم من عليق وكسوة وغير ذلك من مخصصات إقطاعية (١) .

والواقع أن المخصصات الإقطاعية التي كانت تمنح للمماليك السلطانية لم تكن كلها ذات مقدار واحد ، فالسلطان الناصر محمد بن قلاوون قسم مماليكه إلى إلى مجموعات أو بابات ، وجعل لكل مجموعة أو بابة إستحقاقا محدداً قدرت قيمته بالدنانير الجيشية ، وفيما يلي بيان باستحقاقاتهم حسب ما تقرر لهم في الروك الناصري (٢) .

بابات المماليك السلطانية	إستحقاقاتهم مقدرة بالدينار الجيشى	سعر الدينار مقدرا بالدرهم
البابة الأولى	١٠٥٠٠	١٠
البابة الثانية	١٠٣٠٠	١٠
البابة الثالثة	١٠٢٠٠	١٠
البابة الرابعة	١٠٠٠٠	١٠

أما مقدمو المماليك السلطانية فقد خصص لكل واحد منهم ١٢٠٠ دينار جيشى سعر الدينار ١٠ دراهم ، يخصم منها ١٠٠ دينار قيمة كلف فيصبح صافى

(١) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٢٢٣ - القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٣ - ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٧ .

(٢) المقريزى : نفس المرجع والجزء ص ٢١٨ .

الاستحقاق الإقطاعي الواحد منهم ١١٠٠ دينار جيشي (١) .

وبالإضافة إلى هذه الاستحقاقات فالمماليك السلطانية كانوا يمنحون رواتب يومية من اللحم وتوابله ومن الخبز والزيت والشعير لعليق خيولهم ، كما كان السلطان ينعم عليهم بالخيول كل عام (٢) .

أما الجند من مماليك الأمراء فكانوا يقاسمون أمراءهم في إقطاعاتهم ، وغالبا ما تضمن المنشور الصادر بإقطاع الأمير تحديدا لنصيب الأمير ونصيب جنده المماليك فيه ، وغالبا ما كان يخصص للأمير ثلث الإقطاع ولأجناده الثلثان ، أما نصيب كل جندي من هؤلاء الأجناد في الثلثين فكان يتحدد بمعرفة الأمير ذاته ، وحسب ما يراه من زيادة أو نقص بينهم .

وقد كان من الضروري على كل أمير أن يعرض أجناده بديوان الجيش ، كما أنه لم يكن في إستطاعة الأمير أن يستبدل أحدا من جنوده بغيره إلا بعد عرض الأمر وأسبابه على نائب السلطنة ، فإن اقتنع بها فإنه يصدر في هذه الحالة موافقة على إخراج هذا الجندي مع إستبداله بغيره عند هذا الأمير ، فيقوم الأمير عندئذ بعرض هذا الجندي الجديد على ديوان الجيش لإزال إسمه به بدلا من السابق (٣) .

أما جند الحلقة (٤) ـ وهم محترفو الجندية من مماليك السلاطين السابقين

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٢) المقريزي : المواعظ جـ ٢ ص ٢١٦ .

(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٤) اختلفت الآراء في تفسير كلمة الحلقة ، ويقال أن جند الحلقة سموا بهذا الاسم لأنهم كانوا يحيطون بالسلطان ، وربما أخذت تسميتهم من التكتيك ...

وأولادهم ـ وقوادهم(١) فمناشير إقطاعاتهم كانت تصدر من السلطان ، وإقطاعاتهم هذه لم تكن كلها ذات ارتفاع واحد ، فهم أيضا كانوا يقسمون إلى عدة بابات كالمماليك السلطانية ، ولكل بابة إقطاع له ارتفاع مقدر بالدنانير الجيشية ، وقد تراوح هذا الارتفاع بين ٢٥٠ دينارا لأدنى إقطاعاتهم و ١٥٠٠ دينار لأعلاها. وهذا الارتفاع الأخير غالبا ما كان يمنح لأعيان مقدمي الحلقه (٢) .

أما سائر مقدمي الحلقة فاقطاع الواحد منهم كان يبلغ ألف دينار جيشي ، كل دينار منها بتسعة دراهم ، يخصم منها ٩٠٠ درهم قيمة كلف .

أما قوادهم من نقباء الألوف فلكل منهم أربعمائة دينار ، كل دينار بتسعة دراهم . يخصم منها ٤٠٠ درهم قيمة كلف (٣) .

= الخاص الذى كانت الفرق المملوكية تستعمله فى الهجوم وهو الإحاطة بالعدو . وربما كان لهذه التسمية أيضا صلة « بحلقة الناورد » وهى مكان المبارزة بالرماح فى الميدان ـ أو ربما كانت تسميتهم لها صلة بمعنى الدرع الذى يلبسه المحارب ، فالحلقة تفيد معنى الدرع .

الرماح : الفروسية ، مخطوط ص ٥٩ ـ طرخان . النظم الإقطاعية ص ١٧٦ حاشية ٢١ ـ القاموس المحيط .

(١) كان لجند الحلقة عدة قواد ، فلكل ألف منهم أمير قائد من مقدمي الألوف . ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٦ ، ولكل مائة من هؤلاء الالاف قائد يعرف باسم الباش أو النقيب . نفس المرجع والصفحة .

كما أنه لكل أربعين من هؤلاء المائة مقدم له الأمر عليهم إذا خرجوا للقتال، ويقفون معه ، وله أن يرتبهم فى موقفهم المقريزى : المرجع السابق جـ٢ ص ٢١٦

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٢١٦

(٣) نفس المرجع والجزء ص ٢١٨

أما سائر جند الحلقة ، ففيم يلى بيان بياباتهم ، والاقطاع الذى خصص لكل بابه منهم حسب ما تقرر لهم فى الروك الناصرى (١) .

بابات جند الحلقة	إرتفاع اقطاع كل بابه مقدرا بالدينار الجيشى	سعر الدينار الجيشى مقدرا بالدراهم
البابه الأولى	٩٠٠	١٠
البابه الثانية	٨٠٠	١٠
البابه الثالثة	٧٠٠	١٠
البابه الرابعة	٦٠٠	١٠
البابه الخامسة	٥٠٠	١٠
البابه السادسة	٤٠٠	١٠
البابه السابعة	٣٠٠	١٠

وبالإضافة إلى هذه المخصصات الإقطاعية فكان لذوى الوظائف من هؤلاء الجند الرواتب اليومية من اللحم وتوابله ، والخبز والزيت ، والشعير لعليق دوابهم ، كما أنه إذا نفق فرس لأحد من مقدمى الحلقة عوضه السلطان بغيره إذا أثبت ذلك ، ووسيلة الإثبات هى أن يقدم صاحب الفرس الذى نفق قطعة من لحه وشهادة بموته (٢) .

والشيء الجدير بالملاحظة أن عبرة الإقطاع كانت هى الأساس فى اختيار جند الحلقة للحملات والمهام العسكرية المختلفة ، فن كانت عبرة إقطاعاتهم أكبر كلفوا قبل غيرهم بهذه الحملات والمهام ، ثم إذا دعت الحاجة بعد ذلك إلى

(١) نفس المرجع والجزء ص٢١٩ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢١٦

استدعاء غيرهم فهؤلاء أيضا كانوا يستدعون على أساس الترتيب التنازلي لعبرة إقطاعاتهم ولدينا بعض الأمثلة لذلك ، ففى عام ٧٨٣ ﻫ عرض الأمير مأمور الحاجب الأجناد وألزم من عبرة إقطاعه ستمائة درهم بالسفر إلى البحيرة لمقاتلة العربان الخارجين عن الطاعة بها ، أو أن يقدم بديلا عنه (١) .

وفى عام ٧٩١ﻫ عرضت أجناد الحلقة ، وكلف من عبرة إقطاعه أربعمائة دينار فما فوقها ببعض المهام العسكرية .

وعندما أخذ السلطان برقوق يتجهز عام ٧٩٦ ﻫ السفر إلى الشام لمقاتلة تيمورلنك ، قام نائب سلطنته ومعه ناظر الجيش بعرض جند الحلقة ، فمن كان خبزه (٢) ومتحصل خراجه كثير قيل له تجهز لتسير فى الركاب الشريف، ومن كان متحصل إقطاعه وسط قيل له تجهز ولم يصرح له بالمسير صحبة الركاب الشريف ، ومن كان خبزه ضعيف ومتحصلة قليل له انصرف ولم يؤمر بالتجهز » (٣) .

المخصصات الاقطاعية لرجال الجيش من العرب والتركمان والأكراد :

سبق أن ذكرنا أن الدولة كانت تمنح الإقطاعات لبعض زعماء العرب والتركمان والأكراد الداخلين فى طاعة الدولة والذين كان لهم دور عسكرى فى حماية بعض أجزاء الدولة المماليكية سواء فى داخلها أو على حدودها .

وفى مصر منحت الإقطاعات لعربان البحيرة والشرقية لقاء الخدمات العسكرية

(١) المقريزى : السلوك ، مخطوط مجلد ٨ ص١٢٦ أ

(٢) الخبز اصطلاح كثر استخدامه فى العصر المماليكى للدلالة على معنى الاقطاع
Dazy: Supp. Dict. Ar

(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول مجلد٩ ج٢ ص٣٦٣

التي كانوا يكلفون بها والتي من أجلها سماهم القلقشندي أرباب الإدراك (١) .

وفي مقابل هذه الإقطاعات أيضا كان يفرض على بعضهم ممن كانوا يسكنون أطراف شرق الدلتا أن يقدموا بالنوبة خيلا البريد في خلال كل شهر ، لذلك عرفت هذه الخيل بخيل الشهارة ، وكان على هذه الخيل وال من قبل السلطان مهمته أن يستعرض في رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة فيه ويدوغها بالداغ السلطاني (٢) ، ويستخدمها في أعمال البريد في المنطقة الممتدة من بلبيس إلى العريش وخان الخروبة الواقعة على حدود مصر الشرقية من ناحية الشام (٣) .

الطاعات في أحوال أستثنائية لغير رجال السيف :

بالرغم من أن رجال الجيش المماليكي بمختلف فئاتهم وأنواعهم كانوا هم أصحاب الحق الأول في الحصول على الإقطاعات ، إلا أن النظام المماليكي سمح في بعض الأحوال الاستثنائية بمنح إقطاعات لغيرهم من أصحاب القلم ، وكان الخلفاء العباسيون في القاهرة على رأس هؤلاء ، فمنح بعضهم إقطاعات بالإضافة إلى مخصصاتهم الراتبة الأخرى (٤) .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٥٤

(٢) الداغ سمة تجعل في وجه البعير ونحوه ليعرف به ، ومنه الداغ بمعنى الهيئة ، ويقال هم على داغ واحد أي على هيئة واحدة ، وكلاهما من اصطلاح المولدين . محيط المحيط .

(٣) العمري : التعريف ص ١٩١

(٤) ابن شاهين . زبدة كشف الممالك ص ١١٤ . ومن أمثلتهم الخليفة القائم بأمر الله في عهد السلطان جقمق ، وكذلك الخليفة المستنجد يوسف في عهد السلطان إينال ، وكذلك المتوكل يعقوب في عهد السلطان طومان باي الثاني ، أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ٢ ورقة ٢٣٥ .

كما منحت الإقطاعات أيضا لبعض الفقراء(١) . كما أنه فى خلال عهد السلطان حسن منحت بعض الإقطاعات المحلولة(٢) ـ وهى إقطاعات انحلت بموت مقطعيها فى الوباء الذى شمل مصر فى تلك الفترة ـ لعدد كبير من الموظفين والكتاب من أصحاب القلم كبديل للمرتب المالى الذى كانوا يتقاضونه من خزانة الدولة ،وكان الدافع إلى ذلك هو الرغبة فىضغط المصروفات وتخفيف العبء عنخزانة الدولة التى كانت تعانى ضائقة مالية فى ذاك الوقت. ولم يقتصر الأمر على هؤلاء الموظفين فقط بل منحت الإقطاعات المحلولة أيضا لنفس السبب لعدد من أرباب الصدقات كبدل للصدقات التى كانت مرتبة لهم هم أيضا من بيت المال(٣) .

وفى بعض فترات الانحلال التى شملت مصر خلال العهد المماليكى ، خاصة فى الفترات التى استبد فيها بعض الأمراء بالسلطنة فى أواخر عهد الدولة المماليكية الأولى ، حصلت مجموعة كبيرة من أصحاب الحـــرف والصناعات والباعة على إقطاعات جند الحلقة وذلك عن طريق نظام التنازل الذى أباحته الدولة فى ذاك

---

(١) من أمثلتهم الفقيه المالكى الشيخ خليل بن اسحاق المعروف بابن الجندى الذى كان يرتزق من اقطاع بالحلقة فى عهد السلطان شعبان . المقريزى السلوك ، مخطوط جـ١ ص١٥٠ ـ وكذلك الشيخ شمس الدين الحنفى معلم المماليك بطباق القلعة الذى أنعم السلطان ططر عليه « باقطاع هايل » . أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ٢ ورقة ٢٧ .

(٢) هى الإقطاعات التى انحلت عن أصحابها ولم تدخل بعد فى إقطاع أحد ـ طرخان : النظم الإقطاعية ص٨

(٣) المقريزى: المواعظ جـ٢ ص٢٢٢

الوقت . ونظام التنازل الإقطاعى هذا إبتدع لأول مرة فى عهد السلطان الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون بواسطة شاد الدواوين فى عهده الأمير شجاع الدين أغـــرلو .

وبمقتضى هذا النظام أصبح فى إمكان أى جندى بالحلقة أن يتنازل عن الإقطاع الذى بيده لأى شخص يرغب فى أن يحل محله فيه وفى جندية الحلقة فى نفس الوقت وذلك نظير مال يدفعه جندى الحلقة صاحب الإقطاع لبيت المال ، ومال آخر يوازى عبرة هذا الإقطاع فى سنة يدفعه لبيت المال الشخص الآخر الذى سيحل محل جندى الحلقة فى إقطاعه . وبالطبع كانت عمليات التنازل هذه تتم بعد مساومات ونظير ثمن يحصل عليه جندى الحلقة صاحب الإقطاع من الشخص الراغب فى الحلول محله فيه ، فأصبحت عمليات التنازل هذه وكأنها عمليات بيع وشراء للإقطاعات . وعن طريق هذه التنازلات تمكن عدد كبير من أصحاب الحرف والصناعات من الحصول على إقطاعات عدد كبير من أجناد الحلقة ومن الحلول محلهم فى هذه الجندية ، وكان لهذا الأمر نتائج ضارة من كافة النواحى ، فكما يقول المقريزى « كثر الدخيل فى الأجناد بذلك ، واشترت السوقة والأراذل الإقطاعات حتى صار فى زمننا أجناد الحلقة أكثرهم أصحاب حرف وصناعات وخربت منهم أراضى إقطاعاتهم »(١) .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد سمح لجند الحلقة أيضا بأن يقايضوا بعضهم البعض بإقطاعاتهم نظير مال يدفعه كل من طرفى المقايضة لبيت المال ، وأنشىء لهذا الغرض ديوان جديد عرف باسم ديوان البدل واستمر هذا الأمر قائما

---

(١) نفس المرجع والجزء ص٢١٩

إلى أن أبدى بعض الأمراء معارضتهم لاستمراره فرسم بإبطاله .

ثم لما ولى الأمير منجك اليوسفى الوزارة واستبد بالسلطة وشره فى جمع الأموال أعاد نظام النزول عن الإقطاعات ومقايضاتها مرة أخرى ، فكان جندى الحلقة يبيع إقطاعه لكل من يبذل فيه مالا ، وبهذه الطريقة حصل كثير من العامة على إقطاعاتهم ، وكان الوزير فى هذه العمليات رسم إضافى معلوم .

لكن هذا النظام لم يستمر إذ أوقف للمرة الثانية ، إلا أنه لم يلبث أن أعيد للمرة الثالثة فى فترة نيابة الأمير سيف الدين قبلاى عام ٧٥٢ هـ ، وفى هذه المرة فشت عمليات المقايضة والنزول بشكل كبير حتى أنها شملت أيضا إقطاعات مقدمى الحلقة ، وكنتيجة لذلك زاد عدد الباعة وأصحاب الصنائع ، الذين حصلوا على الإقطاعات فى ظل هذا النظام ، وأصبح لهذه العمليات سماسرة متخصصون عرفوا باسم المهيسين ، بلغ عددهم نحو الثلاثمائة مهيس ، وصاروا يطوفون على الأجناد يرغبونهم فى النزول عن إقطاعاتهم أو المقايضة بها .

لكن لما فحش هذا الأمر عاد الأمير شيخون العمرى فأبطله ، وذلك عندما استقر رأس نوبة ، واستبد بتدبير أمور الدولة عام ٧٥٤ هـ فى عهد السلطان صلاح الدين صالح بن محمد بن قلاوون(١) .

وبالإضافة إلى ماذكرناه فى بعض الأحوال النادرة منحت الإقطاعات لبعض المغنين(٢) ، كما منحت أيضا لبعض النساء ، ولقد كان السلطان حسن من بين من

---

(١) المقريزى : المواعظ جـ٢ ص٢١٩

(٢) من أمثلة ذلك أن السلطان حاجى أنعم فى عام ٧٤٧ هـ على أحد المغنين

منحوا الإقطاعات الكثيرة لهن فكان ذلك من أسباب النقمة عليه(١) .

كما أنه فى بعض الأحوال الاستثنائية الأخرى منحت إقطاعات لبعض اللاجئين السياسيين(٢) ، كما منحت أيضا لبعض مشايخ العرب الذين يجلبون الخيول الممتازة للسلاطين ، كنوع من المكافأة لهم(٣) .

= بإقطاع فى الحلقة زيادة عما بيده لأنه درب أنفاق، جارية السلطان على الغناء أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٩٦ ، ٩٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ .

(١) نفس المرجع والجزء ص ٣١١

(٢) من أمثلة ذلك أنه فى عام ٦٥٩ هـ قدم إلى مصر ثلاثة من أولاد الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فارين من وجه التتار ، فأكرمهم السلطان الظاهر بيبرس وأعطاهم الإقطاعات الجليلة . أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ٢٢٣

وفى عام ٦٦٠ هـ قدمت إلى مصر جماعة من مماليك الخليفة المستعصم العباسى ، فأحسن إليهم بيبرس ، ومنحهم هم أيضا الإقطاعات . نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٣) الإقطاعات التى منحت لتجار الخيول من العرب غالبا ما منحت لهم فى الشام وليس فى مصر لأن أغلب جلاب الخيول الممتازة كانوا من عرب الشـــام .

ومن أبرز السلاطين الذين منحوا الإقطاعات لجلاب الخيول السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فقد كان هذا السلطان شغوفا باقتناء السلالات الممتازة منها ، ويبعث يطلبها من أى مكان وبأى ثمن ، فاستغل بعض شيوخ عرب آل مهنا وآل فضل بالشام هذا الأمر ، والتمسوا من السلطان أن يمنحهم الإقطاعات فى مقابل

المناسبات الرئيسية لتوزيع الأقطاعات

المناسبات التي وزعت فيها الإقطاعات كانت عديدة ، غير أنه كان من بينها مناسبات رئيسية كانت تجرى فى خلالها أو فى أعقابها عمليات توزيع إقطاعى على نطاق واسع . وعمليات التوزيع هذه كانت تستدعى بالضرورة إجراء مناقلات إقطاعية . والمقصود بالمناقلات فى المصطلح الإقطاعى إنتقال الإقطاع الواحد من مقطع إلى مقطع بأمر السلطان .

ومن أبرز هذه المناسبات مناسبة تولى سلطان جديد عرش السلطنة ، فقد كان من المعتاد أن يستفتح السلطان الجديد عهده بإجراء توزيعات ومناقلات إقطاعية ، خصوصا بين الأمراء . فالأمراء الذين لايحظون بثقة السلطان أو الذين وقفوا منه موقفا معاديا من قبل فهؤلاء ينتزع منهم إقطاعاتهم أو ينقلهم منها إلى إقطاعات أخرى عبرتها أقل(١) ويحل محلهم فى إقطاعاتهم أمراء آخرين من أنصاره .

= إمداده بما يرغب من هذه الخيول ، فاستجاب لا لتماسهم ومنحهم الإقطاعات التى كانت بيد بعض الأمراء بالشام ، وعوض هؤلاء الأمراء عنها . المقريزى . السلوك جـ٢ ص٢٧٠

(١) العبرة كلمة إصطلاحية معناها مقدار المساحة ، كما كانت تطلق على مقدار مساحة أى ناحية أو إقليم ، كما كانت تطلق على مقدار ما يكون فى حيازة كل شخص من الأرض . على ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص٣٤٢ حاشية ٥ .

وعبرة أى بلد معناها المبالغ المربوطة عليها . طرخان : النظم الإقطاعية ص١٠٢ .

كما أنها أصبحت تفيد معنى المتحصل السنوى من الإقطاع

ولقد كان عرض الجند من المناسبات الرئيسية أيضا التى يجرى فى أعقابها هى الأخرى توزيعات ومناقلات إقطاعية على نطاق كبير .

ولقد حرص بعض السلاطين على إجراء هذا العرض بين فــترة وأخرى خلال عهدهم ، وفيه يستعرض السلطان بنفسه جند الحلقة ليتأكد من مــدى قدرتهم الصحية على الاستمرار فى الجندية وعلى تحمل تبعاتها ، فمن يثبت له عجزه منهم يعزله من الجندية ، وهذا يستدعى بالتبعية أن يعزله من إقطاعه أيضا (١) .

والمعزول من الجنديه ومن إقطاعه يسمى بطال (٢) ، أما إذا مال السلطان إلى الترفق به فكان يكتفى بعزله من الجندية مع نقله من إقطاعه إلى إقطاع عبرته أقل ، أو يعزله من الجندية والإقطاع معا مع منحه مرتبا ثابت يستطيع العيش به ، وفى هذه الحالة يسمى طرخان . والطرخانيه أشبه ما تكون بنظام التقاعد أو

---

(١) فى عام ٧٤١ﻫ أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون باستدعاء أجناد الحلقه من الأقاليم ليعرضوا بحضوره ، فنفذ أمره ، وانتهى العرض بعزل عدد من المرضى والعميان والضعفاء وأصحاب العاهات والمشايخ من أولئك الأجناد ، وفرق بعض إقطاعاتهم على أمرائه المقربين ، كما وزع البعض الآخر منها على مماليكه السلطانية من أصحاب الجوامك ، واستبقى البعض الثالث منها كاحتياطى يمنحه عند الضرورة للوافديه الذين يفدون من الخارج ، أما الباقى من هــذه الإقطاعات فقد أدخله فى بيت المال . المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥١٧ ، ٥١٨ .

(٢) البطال لفظ جرى فى مصطلح دولة المماليك الدلالة على الأمير الذى يزول عنه إقطاعه بعزله من وظيفته .

ولم يكن العجز الصحى هو السبب الوحيد لإحالة الأمير أو الجندى إلى الـ

الإحالة إلى المعاش اليوم ، ويعرفها القلقشندى بقوله والمراد بها أن يصير الشخص مسموحا له بالخدم السلطانية ، يقيم حيث شاء ، ويرتحل متى شاء ، تارة بمعلوم يتناوله مجانا ، وتارة بغير معلوم »(١) .

وكثيرا ما كان يجرى عرض الجند عند تعبئة الجيش لحملة من الحملات . ولقد حرص بعض السلاطين على إجراء إختبار القدرة الصحية والبدنية للجند المزمع إشراكهم فى هذه الحملات ، ومن أمثلة ذلك أن السلطان قايتباى أجرى فى عام ٧٨٣ عرضا

= البطالة فنضب السلطان عليه لأى سبب من الاسباب قد يكون سببا آخرا لإحالته البطالة ، وفى هذه الحالة لا يكتفى السلطان بعزله من وظيفته ومن إقطاعه بل كان ينفيه أيضا إلى إحدى البلاد . المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٧ حاشيه ٢ .

إرجع لامثلة ذلك فى حوادث الدهور ورقة ٥٨، ٥٩ - التحفه السنيه ص ١٣ - بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٠ ، ج ٢ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ - إنباء الغمر ج ١ ص ٢٣٣ - التبر المسبوك ص ٢٦٨ .

(١) القلقشندى ، صبح الاعشى ج ١٣ ص ٤٨

وفى بعض الاحيان كان المقطع نفسه هو الذى يطلب إحالته الطرخانيه أو البطاله وذلك إذا أيقن أنه أصبح عاجزا بسبب شيخوخته أو مرضه عن القيام بالخدمة المفروضة عليه ، فإذا كان على عطف ورضاء من السلطان فإنه يستجيب لطلبه مع إبقاء إقطاعه أو أى إقطاع آخر بيده يستغله بصفة استثنائية . ابن إياس ، بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢١ ، ٢٤٠ - المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٩٠ .

ولم تكن الشيخوخه أو العجز الصحى هى الاسباب الوحيدة للإحالة الطرخانية فقد تحدث الإحالة الطرخانيه أيضا كنوع من العقاب يوقعه السلطان =

الجند الذين عبأهم لإحدى الحملات وفى خلاله أجرى إختبارا لقدرتهم البدنيه والصحية بواسطة ثلاثة أقواس متدرجه فى القوة والصلابة(١).

وكنتيجة لذلك كره الجند عمليات العرض هذه، وكلما سمعوا باحتمال إجرائها تحايلوا بشتى الوسائل لصرف السلطان عنها(٢).

وبالإضافة إلى ما سبق فغالبا ما كان يجرى توزيع إقطاعى كلما زادت رقعة الارض بالفتح الخارجى، غير أن هذا النوع من التوزيع الإقطاعى لم ينفذ فى أرض مصر لكنه نفذ فى أراضى الشام التى أجلى الصليبيون عنها، وكذلك

= على المقطع الذى يغضب عليه لاى سبب من الاسباب، إلاأن العقاب الذى يقع على الطرخان فى هذه الحالة يكون أقل من العقاب الذى يقع على البطال، فالبطال المغضوب عليه يحرم من إقطاعه ومن أى مرتب آخر كما ينفى إلى إحدى البلاد، أما الطرخان فيكتفى بانقاص إقطاعه أو استبدال إقطاعه بمرتب ثابت، لكنه لا يعاقب بالنفى: المقريزى: السلوك جـ١ ص٦٥١، ٦٥٥ - أبو المحاسن: حوادث الدهور جـ٢ ورقة ١٤ ورقة ٢١٩.

(١) إبن إياس: بدائع الزهور جـ٢ ص١٠١، ١٣٠، ٢٥٨.

(٢) فى عام ٧٨٩هـ أمر السلطان الظاهر برقوق بعرض أجناد الحلقة وحدد لهذا العرض يوما معينا، فسعى الامراء لإلغائه رفقا بالجند، وانتهزوا فرصة ذكرى المولد النبوى ووسطوا شيخين من كبار قضاة مصر وفقهائها ومن أكبرهم نفوذا لدى السلطان، وهما الشيخ سراج البلقينى والشيخ برهان الدين بن جماعة، وطلبوا منهما التحدث معه فى هذا الشأن لان الجند فى شدة عظيمة وقبل السلطان شفاعتهما وألغاه. ابن الفرات: تاريخ الدول مجلد ٩ جـ١ ص٥.

فى الاراضى المتاخمة لحدود الشام الشمالية التى تم فتحها فى عهد المماليك(١).

كانت تجرى توزيعات إقطاعية أيضا فى أعقاب استصلاح مساحات كبيرة من الاراضى البور ، وأوضح مثل لذلك نجده فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فقبل أمر المشاريع الجديدة التى نفذها هذا السلطان فى مجال الرى أصبح فى الإمكان رى بضعة آلاف من الأفدنة البور بمياه الفيضان ، وأضيفت إلى رقعة الأرض الزراعية بمصر مساحات كبيرة بمناطق البحيرة والجيزة والشرقية وفوة ، ففرق السلطان خمسة وعشرين ألف فدان منها فى إقليم البحيرة كإقطاعات على أرباب الجوامك من المماليك ، كما أنه قسم الأراضى الجديدة الأخرى فى مناطق الجيزة والشرقية وفوة وفرقها هى الأخرى على الجند (٢) .

الروك

يعتبر الروك من أهم وأبرز الإجراءات الإقطاعية التى كان يسبقها حل جميع الإقطاعات ثم يعاد توزيعها مرة أخرى على مقطعين جدد بأسس جديدة تمليها الظروف الاقتصادية والسياسية .

والروك بمعناه العام هو مسح الأرض الزراعية فى بلد من البـــلاد لتقدير

---

(١) إرجع لأمثلة ذلك ما : المقريزى : السلوك ج٢ص٢٢ ، ٤٩٠ ، ٤٩١- أبو الفدا : البداية والنهاية ج١٢ ص٢٢٨ - أبو المحاسن : النجـــوم الزاهرة ج٧ ص ١٣٩ .

(٢) المقريزى : السلوك ج٢ ص ٢٣١ - أبو المحاسن . النجـــوم الزاهرة ج٣ ص ١٩٨ .

المستحق عليها لبيت المال (١) . وهو نظام اتبع فى مصر منذ دخولها تحت الحكم الإسلامى . ورغم أنه كان من المفروض أن تراك أرض مصر كل ثلاثين عاما حسب النظام الذى كان مقررا له (٢) ، إلا أن هذه المدة الزمنية لم يلتزم بها التزاما دقيقا ، ولذلك فقد ريكت أرض مصر كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

والمعروف أن أرض مصر ريكت خمس مرات قبل العهد المماليكى (٣) . أما أول روك مماليكى فهو الروك الحسامى الذى أجرى عام ٦٩٧ هـ فى عهد السلطان حسام

Bibliotheque des Arabisants Francais, lère serie, tome 2, (1) p. 200

وكلمة الروك مأخوذة من الكلمة القبطية « روش » ومعناها قياس الأرض بالحبل . وقد وردت هذه الكلمة بالنسخة القبطية لكتاب العهد القديم أكثر من مرة ؛ وهى بدورها مشتقة من اللفظ الديموطيقى « روخ » ، ومعناها تقسيم الأرض . عمر طوسون : مالية مصر ص ٢١٤، ٢٦٨ — جمال الدين الشيال : صفحة من الحياة الإقتصادية فى مصر الاسلامية ، مجلة الثقافة عدد ٩٧ ، ٩٩ سنة ١٩٤٠م — المقريزى : السلوك جـ٢ ص١٤٦ حاشية ١ .

(٢) المقريزى : المواعظ جـ١ ص٨٢ .

(٣) أجرى الروك الأول حوالى عام ٩٧ هـ على يد عبد الملك بن رفاعه والى مصر فى عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك . وأجرى الروك الثانى حوالى عام ١١٠ هـ على يد عبيد الله بن الحبحاب فى خلافة هشام بن عبد الملك الأموى . وأجرى الروك الثالث حوالى عام ٢٥٣ هـ على يد ابن المدبر فى خلافة المعتز بالله العباسى . وأجرى الرابع فى عهد الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى فى عهد الخليفة الآمر الفاطمى سنة ٥٠١ هـ . أما الروك الخامس فقد تم إجراؤه فى عهد

الدين لاجين . ثم من بعده أجرى ثانى روك مماليكى عام ٧١٥ هـ فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون . (١)

ويخبرنا ابن الفرات عن روك ثالث أجرى فى شهر جمادى الآخرة عام ٧٩١ هـ بأمر من الأمير يلبغا الناصرى زعيم الانقلاب الذى أطاح بالسلطان الظاهر برقوق فى أوائل هذا الشهر من نفس العام (٢) .

وعملية مسح الأرض فى الروك المماليكى كانت تتم بواسطة عدة لجان توزع على بلاد مصر وأقاليمها المختلفة ، وكل لجنة تتكون من بعض الكتبة والقياسين والمساعدين ، ويرأسهم أمير ويعاونهم فى عملهم هذا مشايخ البـــلاد ودلاؤها وعدولها .

وتقوم هذه اللجان بمعاينة وقياس الأراضى الصالحة للاستغلال على الطبيعة لتحديد مساحاتها وأنواع ومقادير ما تنتجه من محاصيل ، وأنواع ما يجبى منها

السلطان صلاح الدين الأيوبى عام ٥٧٢ هـ الكندى : الولاة ص ٦٦ - ٦٧ ، ٧٦ - ٧٧ .

المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٨٢ - ٨٣ ، السلوك جـ ١ ص ٨٤٣ حاشيه ٢ - على ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ٢٤١ .

(١) المقريزى . المواعظ جـ ١ ص ٨٨ - ابن إياس : بدائع الزهـور جـ ١ ص ١٣٧ ، ١٥٩

Lane Poole : The art of The Saracens, p. 16

Poliak : Feudalism in the near east, p. 24

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول مجلد ٩ جـ ١ ص ١٠٩

من أموال ديوانية ومقدارها ، ومقدار ما تدره من دخل بصفة عامة ، ومقدار ما يقدمه فلاحوها من هدايا وضيافة لمقطعيها .

وتثبت هذه البيانات كلها فى سجلات تعرف بالقوانين أو القناديق يوقع عليها شيوخ كل بلده - وتقوم هذه اللجان أيضا بفحص ومراجعة السجلات التى بأيدى المقطعين وكذلك سجلات القرية - أى مكلفاتها - لمراجعة ومقابلة البيانات التى تم جمعها عن طريق المعاينة على الطبيعة (١) .

ولقد استغرقت هذه الأعمال فى الروك الحسامى ثمانية وخمسين يوما ، أما الروك الناصرى فقد تم إنجازه فى خمسة وسبعين يوما (٢) .

وإذا تساءلنا عن الدوافع التى دفعت إلى إجراء الروك فى العهد المماليكى فإننا نجد أن أبرزها دوافع اقتصادية وأخرى سياسية .

أما الدوافع الاقتصادية فتتمثل فى الرغبة فى معرفة ما طرأ على عبرة البلاد من زيادة أو نقص والأسباب التى تسببت فى ذلك ، فالبيانات التى كانت تتجمع فى هذا الشأن بعد إجراء الروك كانت تساعد الدولة على اتخاذ الإجراءات السليمة لمعالجة أسباب النقص فى العبرة إذا أثبت الروك وجود هذا النقص ، كأن تزيد

---

(١) الأسدى : التيسير والاعتبار ورقة ١٧ - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٤٣ .
المقريزى : السلوك جـ٣ ص ١٤٦-١٤٩ - النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص٢٤٧-٢٤٨ - ابن الجيعان : التحفة السنية ص ٢٩.

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص٨٨ - السلوك جـ ١ ص ٨٤٢ - ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٧ - العينى عقد الجمان جـ ٢٣ ص ٥٤ .

عنايتها بمشاريع الري وبالترع والجسور ، أو أن تستبدل المقطعين بغيرهم في بعض المناطق وذلك إذا ثبت لها أن أهمالهم أو قلة جهدهم كان هو السبب الذى أدى لهذا النقص .

وعلى ضوء البيانات التى تتجمع من إجراء الروك تستطيع الدولة أيضا أن تزيد الجباية في بعض المناطق وذلك إذا أثبتت هذه البيانات أن عبرتها قد زادت.
وعلى ضوء هذه البيانات أيضا تستطيع الدولة أن تجرى التعديلات الإقطاعية اللازمة ، وأن تعيد التوزيع الإقطاعى على أسس سليمة وواقعية .

أما الدوافع السياسية لإجراء الروك فتتركز في رغبة السلطان في عزل من يخشاهم أو يكرهم من الأمراء من إقطاعاتهم ، أو رغبته في نقلهم إلى إقطاعات أقل عبرة القضاء على نفوذهم أو تقليله ، فيصبح الروك في هذه الحالة هو أنسب وسيلة تمكن السلطان من تحقيق أغراضه تلك نحوهم ، مع تلافى ردود الفعل لديهم في نفس الوقت .

وبالإضافة إلى ما ذكرناه فقد كانت دواعى العدالة والأمن من بين الدوافع التى دفعت أحياناً لإجراء الروك أيضا .

ويمكننا أن نلمس هذه الدوافع كلها أو بعضها من خلال أقوال المؤرخين عن أسباب إجراء كل من الروكين الحسامى والناصرى .

فمن أسباب إجراء الروك الحسامى يقول المقريزى أن « الأمراء كانوا يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد فلا يصل إلى الأجناد منها شيء ، ويصير ذلك في دواوين الأمراء ، ويحتمى بها قطاع الطريق ، وتثور بها الفتن ، وتقوم بها

الهوشيات (١) ، وتجمع منها الحقوق والمقررات الديوانية ، وتصير ما كله لأعوان الأجناد ومستخدميهم ومضرة على أهل البلاد التى تجاورها ، فأبطل السلطان ذلك وورد تلك الإقطاعات على أربابها وأخرجها بأسرها من دواوين الأمراء»(٢)

كما أن بيبرس الدوادار يقول عن أسباب نفس الروك أن « لاجين أومع روك الديار المصرية وتغيير الاقطاعات وترتيب المعاملات لأن النواحى آلت إلى الخراب ، والفلاحين عجزوا عن الخراج ، وصارت الأراضى تبور لضعف المزارعين وتفرق ، والشكاوى من المقطعين داعية فى كل وقت »(٣) .

أما أسباب الروك الناصرى فيشرحها المقريزى بقوله أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أراد بروك الديار المصرية فى عهده « أن يبطل منها مكوسا كثيرة ، ويفضل لخاص مملكته شيئا كثيرا من أراضى مصر . وكان سبب ذلك أنه اعتبر كثيرا من أخباز(٤) المماليك والحاشـية الذين كانوا للملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير(٥) والأمير سلار(٦) وسائر المماليك البرجية(٧) فإذا هى ما بين

---

(١) أى المشاجرات — Dozy : Supp. Dict. Ar

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٨٨

(٣) تاريخ بيبرس ورقة ٧٥

(٤) جمع خبز ومعناه الإقطاع — Dozy : Supp. Dict. Ar

(٥) اغتصب الجاشنكير العرش من السلطان الناصر محمد بن قلاوون لفترة امتدت من عام ٧٠٨ هـ إلى عام ٧٠٩ هـ ، لكن السلطان الناصر محمـد استطاع عام ٧٠٩ هـ أن يسترد عرشه منه بالقوة ، وقبض عليه وقتله فى ذى القعدة من نفس العام .

ألف دينار إلى ثمانمائة دينار ، وخشى من قطع أخباز المذكورين فوافقه الرأى مع القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش أن يروك ديار مصر »(١).

ومما سبق يتضح لنا أن الرغبة فى القضاء على نفوذ بعض الأمراء وأتباعهم الجند كانت هى أبرز دافع لإجراء كل من الروكين الحسامى والناصرى . وكان لهذا السبب أثره الواضح فى نسبة تقسيم الإقطاعات بين السلطان والأمراء والجند فى كلا الروكين . فمنذ العهد الأيوبى كان مجموع خراج مصر يقسم إلى ٢٤ قيراطا توزع كاقطاعات على السلطان والأمراء والجنـــد ، فينال السلطان والدواوين السلطانية منها ٤ قراريط ، وتوزع ١٠ قراريط على الأمراء ، كما توزع ١٠ قراريط أخرى على الجند ، غير أن السلطان حسام الدين لاجين عمد فى الروك

---

(٦) الأمير سلار هو نائب السلطنة فى عهد السلطان بيبرس الجاشنكير ، وكان له دور رئيسى فى عملية إقصاء الناصر محمد بن قلاوون عن العرش عام ٧٠٨ ﻫ متعاوناً فى ذلك مع بيبرس الجاشنكير ، لكن عندما عاد الناصر محمد لعرشه عام ٧٠٩ ﻫ قبض عليه ثم لم يلبث أن قضى عليه .

(٧) المماليك البرجية فرقة من المماليك تكونت لأول مرة فى عهد السلطان المنصور قلاوون ، وأسكنها أبراج القلعة لذلك اشتهرت بهذا الاسم ، المقريزى : المواعظ ﺟ ٢ ص ٢٤١

ولقد ناصرت هذه الفرقة السلطان بيبرس الجاشنكير لأنه كان منهم ، وساعدته على اغتصاب العرش من السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٨ ﻫ . المقريزى : السلوك ﺟ ٢ ص ٤٥

(١) المقريزى : المواعظ ﺟ ١ ص ٨٨ - ٩١

الذى أجراه فى عهده ، وبتأثير من الدوافع الذى ذكرناها، إلى تخفيض نصيب الأمراء والجند ، فخصص لنفسه وللدواوين السلطانية ٤ قراريط ، ووزع على الأمراء والجنـد ١٠ قراريط فقط ، واستبقى العشرة قراريط الباقية تحت يده بحجة أن تسعة منها محتجزة لما قد يستجد من العسكر ، وأن القيراط العاشر منها محتجز لزيادة إقطاع من يثبت فيا بعد أنه قد حاق به شىء من الغبن(١) .

ولم يكتف السلطان لاجين بهذا فقط بل عمد أيضا إلى تخفيض عبرة إقطاعات الجند عما كانت عليه زمن السلطان المنصور قلاوون(٢) .

ولنفس الدافع أيضا قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بتخفيض نصيب الأمراء والجند فى الإقطاع ، فخصص لنفسه وللدواوين السلطانية ١٠ قراريط وخصص لإقطاعات الأمراء والجند ١٤ قيراطا فقط . ولم يكتف بذلك بل عمد إلى وسائل أخرى لكسر شوكتهم منها أنه فرق إقطاع الواحد منهم فى عدة جهات « إتعابا للجندى وتكثيرا للكلفة »(٣) .

أما فيا يختص بالروك الثالث الذى قلنا أنه أجرى فى شهر جمادى الآخرة عام ٧٩١ هـ بأمر من الأمير يلبغا الناصرى ، فكما قلت من قبل معلوماتنا عنه قليلة ولم أجد فى المصادر التى رجعت إليها أية تفاصيل وافية عنه ، اللهم إلا إشارة موجزة عنه أوردها ابن الفرات يقول فيها أنه فى « سلخ جمادى الآخرة فرق

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٤٢ ، ٨٤٣
(٢) نفس المرجع والجزء والصفحات .
(٣) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٨٨ - ٩١

الأتابك يلبغا الناصرى المثالات(١) على من تجدد من الأمراء مقدمى الألوف والطبلخانات والعشرات ، وكان قد أمر بروك البلاد وقسمتها على أربعة وعشرين كما كانت التقادم أولا »(٢) . ويفهم من كلام ابن الفرات أن السبب الذى دفع بالأتابك يلبغا لإجراء هذا الروك هو رغبته فى إرضاء الأمراء واستمالتهم ، وبالذات أولئك الذين استجدهم فى مراتب الإمرة المختلفة فى أعقاب عزله السلطان برقوق ، وعلى وجه الخصوص أمراء المائة منهم .

ولكى تزيد الأمراء إيضاحا نقول أن السلطان برقوق كان قد أنقص عدد أمراء المائة فى عهده من أربعة وعشرين أميرا — وهو العدد الذى كانوا عليه منذ عهد الناصر محمد بن قلاوون — إلى عدد أقل يتراوح بين الإثنى عشر والعشرين أميرا . وقصد برقوق من هذا الإنقاص أن يوفر إقطاعات هؤلاء المقدمين الذين ألغى إمراتهم ويضمها إلى الإقطاعات التى خصصها لمماليكه الجدد ، والتى من أجلها أنشأ الديوان المفرد .

ويشرح القلقشندى ما فعله برقوق فى هذا الشأن فيقول أن « الذى كان استقر عليه قاعدة المملكة فى الروك الناصرى محمد بن قلاوون وما بعده إلى آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين أن يكون بالديار المصرية أربعة وعشرين مقدما ، ولما استجد فى الدولة الظاهرية الديوان المفرد الخاص للسلطان ، وأفرد له عدة

---

(١) المثال هو أول مايكتب من الأوراق الرسمية إيذانا بإعطاء أحد المماليك إقطاع من الإقطاعات الخالية . القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٣

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول مجلد ٩ ج ١ ص ١٠٩

كثيرة من المماليك السلطانية والمستخدمين ، نقصت عدة المقدمين عما كانت عليه وصارت دائرة بين الثانية عشر والعشرين مقدما بما فى ذلك من نائب الاسكندرية ونائبي الوجهين القبلي والبحري (١).

غير أنه لما نجح الأمير يلبغا الناصرى فى ثورته ضد برقوق وعزله عن السلطنة فى ٤ جمادى الآخر عام ٧٩١ هـ أعاد على الفور عدد الأمراء المقدمين - أى أمراء المائة - إلى ٢٤ أميرا كما كانوا من قبل ، وينبئنا الجوهرى بذلك فيقول « رتب الناصرى الأمراء المقدمين وجعلهم أربعة وعشرين مقدما » (٢) . وكان لزاما على يلبغا نتيجة لذلك أن يخصص الأمراء الجدد الإقطاعات التى تلزمهم ، فلم يجد بدا من أن يأمر « بروك البلاد وقسمتها على أربعة وعشرين كما كانت التقادم أولا » (٣).

ويبدو أن هذا الروك قد تم إنجازه بسرعة غير عادية والدليل على ذلك أنه فى آخر نفس الشهر أى جمادى الآخرة قام الأمير يلبغا بتوزيع المثالات على الأمراء الجدد (٤).

وبعد هذا الروك لا نسمع عن روك آخر اللهم إلا عملية مسح البلاد السلطانية فى الوجه القبلى فقط تمت فى شهر جمادى الأولى عام ٧٩٩ هـ بأمر من السلطان الظاهر برقوق خلال العهد الثانى لسلطنته . وقد شملت عملية المسح هذه « بلاد

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص ١٤

(٢) الجوهرى : نزهة النفوس والأبدان ص ٢٥

(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ٩ جـ ١ ص ١٠٩؛

(٤) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة

الدولة الشريفة والأملاك والذخيرة »(١).

إجراءات منح الإقطاع وارتجاعه ونقله

ورغم أن منح الاقطاع كان من الوجهة الرسمية من اختصاص السلطان فقط ، إلا أن السلطان كان يسمح لنائب سلطنته بأن يمنح الاقطاعات التي عبرتها من أربعمائة دينار فمادون ذلك . غير أنه إذا كان نائب السلطنة يتمتع بنفوذ كبير فى هذه الحالة يفوضه السلطان بمنح الاقطاعات التي عبرتها أكبر من ذلك ، ونذكر من أمثلة ذلك الأمير منجك اليوسفى نائب السلطنة فى عهد السلطان زين الدين شعبان الذى استطاع بنفوذه القوى أن يحصل من السلطان على تفويض بمنح الاقطاعات التى تتراوح عبرتها ما بين أربعمائة وستمائة دينار بغير مشورته(٢) .

وعملية منح الاقطاع كانت تمر بعدة مراحل وإجراءات مقررة . وبعض

---

(١) نفس المرجع السابق مجلد ٩ ج ٢ ص ٤٦١

والدولة الشريفة ديوان جليـــــل له إيرادات من جهات عديدة منها قطيا ، وكذلك موجب البضائع - أى مكوسها - الواردة إلى مصر والقاهرة بحراً وبراً .

ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٩٧

أما الأملاك فهى الضياع والرباع وغيرها مما كان يشترى السلطان أو لأقاربه أما الذخيرة فهى ما يستأجره السلطان من النواحى والمزارع وغيرها ، وكان للأملاك والذخيرة ديوان مختص بشئونهما يعرف بديوان الأملاك والذخيرة .

الخالدى : المقصد الرفيع ج ١ ص ١٢٨

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٢٨

هذه الإجراءات كانت من اختصاص ديوان الجيش ، والبعض الآخر منها من اختصاص ديوان الإنشاء (١) ، إلا أن ديوان الجيش كان له الاختصاص الأول فى هذا الشأن .

والواقع أن ديوان الانشاء كان يقوم بدور المعاون فقط لديوان الجيش فى مهمته تلك ، ويؤكد القلقشندى ذلك بقوله « إعلم أن مظنة الاقطاعات هى ديوان الجيش دون ديوان الإنشاء ، وما يكتب من ديوان الإنشاء هو فرع ما يكتب من ديوان الجيش » (٢) .

ولرئيس ديوان الجيش ــ أى ناظر الجيش ــ الإشراف على شئون الإقطاعات ، فيأمر معاونيه من موظفى هــذا الديوان بالكشف عنها ، كما أنه يشاور السلطان فى شأنها ، ويأخذ خطه على أوراقها الرسمية (٣) . ويعاونه فى اختصاصاته تلك أربعة من كبار موظفى هذا الديوان : أولهم صاحب ديوان الجيش . وهو يلى ناظر الجيش فى الرتبة ، وينوب عنه فى تصريف شئون هــذا الديوان فى حالة غيابه ــ وثانيهم مستوفى الجيش ، ومهمته تحديد مستحقات

---

(١) يختص ديوان الإنشاء بكافة كتب الدولة ورسائلها الرسمية سواء الواردة إليها أو الصادرة منها ، وفيه تكتب المراسيم والأوامر السلطانية ، وكذلك المنشورات الخاصة بالإقطاعات ، وبهذا الديوان مجمــوعة من الكتاب يعرفون بكتاب الدرج يقومون بصياغة هذه الكتب والرسائل والمناشير بالصيغة الرسمية التى كان معمولا بها وقتئذ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج١٣ ص١٠٣ .

(٣) نفس المرجع ج٤ ص٣٠ .

الجنود وتسجيلها فى كشوف خاصة ، والاشراف على تنفيذ ما يتعلق بها . ويعاون مستوفى الجيش فى إختصاصاته تلك إثنان من الموظفين هما مستوفى إقطاعات الديار المصرية ومستوفى إقطاعات البلاد الشامية (١) .

أما المعاون الثالث لناظر الجيش فهو مستوفى إقطاع العرب الذى يختص بشئون إقطاعات العرب . أما رابعهم فهو مستوفى الرزق الذى يشرف على صرف مستحقات الجند ورواتبهم(٢) .

وعندما تتوفر إقطاعات جديدة بسبب زيادة رقعة الأرض الزراعية ، أو عندما تتوفر إقطاعات محلولة (٣) ، ففى أمثال هذه الحالات يرفع ناظر الجيش أمرها إلى السلطان فتبدأ على أثر ذلك إجراءات منحها لمن يختاره السلطان من الأمراء والجند ممن يتقدمون بطلبات بشأنها .

فإذا وقع اختيار السلطان على أحد منهم أمر ناظر الجيش بكتابه مثال له ، والمثال هو أول الأوراق الرسمية التى تصدر فى هذا الشأن ، وهو عبارة عن ورقة ذات مضمون مختصر يكتب فيها « حز فلان كذا » ، كما يكتب فيها اسم من وقع عليه الاختيار لهذا الإقطاع (٤) .

---

(١) الخالدى : المقصد الرفيع ص ١٣٦ –
Poliak: Feudalism in the near east, p. 20

(٢) الخالدى : نفس المرجع والصفحة .

(٣) هى الاقطاعات التى انحلت عن أصحابها بموت مقطعيها أو بعزلهم عنها أو بنقلهم منها إلى إقطاع آخر . طرخان : النظم الإقطاعية ص٨٢ .

(٤) فى بعض الأحيان كان يتم توزيع المثالات على الجند كيفما اتفق وبدون

فإذا تمت كتابة المثال بمعرفة المختصين بديوان الجيش رفعه ناظر الجيش إلى السلطان ، فيؤشر عليه بخطه بكلمة « يكتب » وعلى أثرها يسلم السلطان المثال للحاجب ، فيسلمه الحاجب لمن رسم له به ، فيقوم هذا بتقبيل الأرض بين يدى السلطان ، ثم يعاد المثال بعدها إلى ديوان الجيش ليحفظ به شاهداً ؛ أى كمستند وحتى يرجع إليه وقت الحاجة . (١)

وبمقتضى هذا المثال يقوم المختصون بديوان الجيش بكتابة ثانى وثيقة رسمية من وثائق منح الإقطاع وهى المربعة . والمربعة وثيقة أو ورقة مربعة الشكل لذلك سميت بهذا الاسم ، وتتميز المربعة بأنها تحتوى على بيانات أكثر تفصيلا من بيانات المثال سواء فيما يختص بالمقطع أو بالإقطاع ، حيث يذكر فيهـا مقدار الإقطاع بالفدان وحدوده واسم الإقليم والقرية والقبالة أى الحوض الواقع به أرض الاقطاع ، كما أن المربعة تتميز أيضا بتوقيع جميع كتاب الجيش وموظفيه

= تحديد مسبق لاسم من سيكون المثال من نصيبه . ولقد اتبع السلطان الناصر محمد بن قلاوون هذه الطريقة عندما وزع مثالات الاقطاعات على الجند بعد الروك الذى أجراه عام ٧١٥هـ ، وكل ما اهتم به السلطان الناصر محمد وقتها هو أن يسأل الجندى قبل أن يسلمه مثال الاقطاع عن اسمه وأصله وجنسه ووقت حضوره إلى ديار مصر ومع من قدم إليها ، وإلى من صار من الأمراء ، وعن المواقع الحربية التى شهدها ، وعما يعرفه من صناعة الحرب ، فإذا انتهى من استفهامه إياه ناوله بيده مثالا من غير تأمل بحسب ما قسم الله له ... « المقريزى : المواعظ ج١ ص٨٨ - ٨١ .

(١) المقريزى : المواعظ ج٢ ص٢١٧ - النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص٢٠٨ - العمرى : مسالك الأبصار ج٢ ورقة ٢٩٣ .

المختصين بشئون الإقطاعات عليها (١) .

تحمل المربعة بعد ذلك إلى ديوان الإنشاء ، فيقوم كتاب الدرج به بكتابة وثيقة ثالثة هي المنشور ، وهي آخر وثيقة رسمية تصدر في هذا الشأن .

ويرفع المنشور إلى السلطان ، فإذا ما وقع عليه قام المختصون بديوان الجيش بالتوقيع عليه هم أيضا وذلك بعد مقابلة بياناته بالبيانات الموجودة بالمستندات الأصلية المحفوظة لديهم عن هذا الاقطاع (٢) .

وبصدور المنشور تبدأ إجراءات تسليم الاقطاع لمن أقطع له ، وتتم عملية التسليم بحضور بعض موظفي ديوان الانشاء ، ويعمل محضر تسليم تحدد فيه مساحة الاقطاع وحدوده وما عليه من خراج وتقاو (٣) وعدد الفلاحين المقيمين به ، وما به من جسور سلطانية وبلدية .

أما في حالة ارتجاع الاقطاع المحلول — أي الاقطاع الذي انحل عن صاحبه ولم يدخل في إقطاع أحد بعد (٤) — فإن إجراءات ارتجاعه يتولاها ديوان

---

(١) المقريزي : نفس المرجع ج١ ص٨٧، ج٢ ص٢١٧ .

(٢) نفس المرجع ج٢ ص ٢١١ .

(٣) المقصود بها التقاوي السلطانية ، أي التقاوي الحكومية التي تسلمها الدولة للمقطع ليزرعها في إقطاعه كنوع من المعاونة له وكوسيلة من وسائل تحسين نوعية الانتاج الزراعي وزيادة كميته لأن هذه التقاوي تكون من الأنواع الممتازة المنتقاه ، فاذا خرج المقطع من إقطاعه حاسبته الدولة على ما أخذه من تقاو . النويري : نهاية الأرب ج٨ ص٢٥٠ - المقريزي : المواعظ ج١ ص٩١ .

(٤) طرخان : النظم الاقطاعية ص٨٢ .

تخصص لهذا العمل هو ديوان المرتجع .

وكان لهذا الديوان ناظر غير أن وظيفته لم تلبث أن ألغيت فى عهد السلطان المنصور قلاوون ونقلت إختصاصاتها إلى موظف آخر يعرف بمستوفى المرتجع ، كما نقلت اختصاصات ديوان المرتجع إلى ديوان آخر اسمه ديوان السلطان [١] .

ومن أبرز مهام ديوان المرتجع ، أو ديوان السلطان الذى نقلت إليه اختصاصاته، تصفية حساب المقطع السابق وجباية ما عليه من مستحقات الدولة ، ومحاسبته على ما تحصل من ذلك الاقطاع من مال خراجى ، فإذا ثبت للديوان أن هـذا المقطع كان يجبى فى ذلك بحسب السنة الهلالية الهجرية وليس بحسب السنة الخراجية الشمسية حاسبه الديوان على ما استولى عليه من هذا المال ، وهو ما يسمى بتفاوت الاقطاع أو التفاوت الجيشى [٢] .

وفى حالة وفاة المقطع السابق يقوم ديوان المرتجع أو ديوان السلطان بمحاسبة ورثته ، فإذا تبعه أن عليهم مستحقات الدولة فإنه يحصلها منهم أو يطلبهم يشتهاد على قيد حصول الجناية بهم [٣] .

---

(١) طرخان : النظم الاقطاعية ص ٨٢

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٧١١ حاشية ٤ — القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص ٣٢

(٣) المقريزى : السلوك جـ٢ ص ١٩ حاشية ١ .

وإذا كان المقطع السابق قد عزل عن إقطاعه مغضوبا عليه لأى سبب من الأسباب، ففى هذه الحالة كان لا يكتفى بمعاقبته بعزله عن إقطاعه فقط وإنما كانت تفرض عليه غرامة أيضا يدفعها للديوان (١) .

وبعد أن تتم إجراءات ارتجاع الاقطاع تمر عملية منحه إلى مقطـــع جديد بنفس الإجراءات التى أوضحناها من قبل . وعندما يصدر المنشور بإسم المقطع الجديد وتبدأ إجراءات تسليم الاقطاع له ، فعندئذ يقــوم المقطع السابق أو ورثته - إن كان قد توفى - بمحاسبته عن كافة الأموال التى أنفقها فى تشييد الجسور خلال السنة التى انتقل فيها الاقطاع عنه إلى المقطــع الجديد ، فحسب النظام الذى كان متبعا وقتئذ كان من حقه أن يستعيد من المقطع الثانى نظير ما أنفق من مال ستته فى عمارة سنة غيره »(٢) .

كما أنه تجرى بين المقطع السابق أو ورثته وبين المقطع اللاحق محاسبة أخرى بشأن المال الهلالى أى المكوس التابعة لهذا الاقطاع والتى تجبى به عادة على حساب الشهور الهلالية . وغالبا ما كانت الحكومة تدخل كطرف ثالث فى عملية المحاسبة هذه .

واستحقاق المقطع السابق فى هذا المال يحسب بقدر عدد الشهور الهـــلالية التى مضت من العام إلى حين انتقاله الاقطاع عنه ، أما المقطع الجديد أو اللاحق فاستحقاقه فيها يبدأ من تاريخ صدور منشوره فى هذا الاقطـــاع ، أما الدولة

---

(١) ابن حجر : إنباء الغمر جـ٣ ص ٣٢٧

(٢) المقريزى : المواعظ جـ١ ص١٠١

فتستحق فى هذا المال عن الفترة من تاريخ انتقال الاقطاع عن المقطع السابق إلى تاريخ صدور منشور المقطع اللاحق [1] .

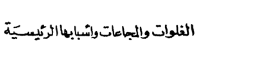
أما المغل - أى المحصول الزراعى - فإن ما يتحصل منه يكون شركا بين المقطع اللاحق أو المستقر وبين المقطع السابق أو المنفصل ، ويتم تقدير حق كل منهما فيه بالقراريط ، على أساس أن كل شهر من السنة بقيراطين [2] .

---

(١) نفس المرجع والجزء ص١٠٧

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص٦٢





الغلوات والمجاعات وأسبابها الرئيسية



نكبت مصر خلال العهد المماليكى بعدة موجات من الغلاء الشديد وبعدة مجاعات خطيرة فتكت بأرواح الآلاف من المصريين ، ولقد تركت هذه الغلوات والمجاعات آثاراً خطيرة فى حياة المصريين وفى أحوالهم المعيشية وفى حالتهم الاقتصادية إلى درجة دفعت بالمقريزى أن يؤلف كتابه المعروف باسم « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ، واهتم المقريزى فى كتابه هذا أن يقدم دراسة عن أشهر الغلوات والمجاعات التى ألمت بمصر الاسلامية بصفة عامة والمماليكية بصفة خاصة ، كما حرص على أن يعرض فى كتابه هذا أهم أسبابها خصوصا تلك التى عاصرها عام ٨٠٦ ه ، كما حاول أن يقترح الحلول لمعالجتها .

وكان لهذه الغلوات والمجاعات أسباب رئيسية سنحاول فيما يلى أن نعرضها بشىء من التفصيل .

١ - انخفاضات النيل وارتفاعاته :

يحتل النيل مركز الصدارة بين العوامل الرئيسية التى أدت الغلوات والمجاعات فزراعة مصر تعتمد عليه اعتمادا رئيسيا ، لذلك كان أى انخفاض فى مياهه عن الحد الذى يلزم لرى الأراضى الزراعية سرعان ما يظهر أثره بعدها مباشرة على الكميات المعروضة بالأسواق من المحاصيل الزراعية ، وكذلك على المصنوعات التى تعتمد فى صناعتها على هذه المحاصيل ، وأيضا على أسعارها ، بل أكثر من ذلك فقد أدى الانخفاض الشديد للنيل إلى حدوث مجاعات خطيرة

وفى عهدى الأيوبيين والمماليك البحرية كان الحد الادنى الذى يجب أن تبلغه مياه النيل لرى أرض مصر هو ١٦ ذراعا ، فإذا بلغت ١٧ ذراعا أصبحت هذه المياه كافية تماما لرى جميع أراضيها ، ثم إذا تجاوزت السبعة عشر ذراعاً بثمانية

عشر إصبعا فإنها تبلغ الحد الذى كان أهل مصر يسمونه اللجة الكبرى (١)، أما إذا بلغت ١٨ ذراعا فإنها النهاية القصوى التى إذا تجاوزتها مياة النيل أحدثت الأضرار بأرض مصر (٢)، بل كان مجرد ارتفاع النيل أحيانا إلى ثمانية عشر ذراعا فقط يحدث هذه الأضرار(٣).

غير أن هذه المعايير تغيرت تدريجيا فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجرى إذ أصبحت أرض مصر الزراعية تحتاج لارتفاع أكبر لمياة النيل حتى تستطيع هذه المياه أن تغطيها وترويها بدرجة كافية. والقلقشندى يقول أنه فى زمانه أصبح فيضان النيل الذى يتراوح ارتفاعه بين ١٧ و ١٨ ذراعا فيضانا متوسطا (٤).

كما أن المقريزى يقول أنه منذ أن تدهور حال مصر بعد المجاعة التى ألمت بها عام ٨٠٦ هـ أصبح فيضان النيل الذى يبلغ ارتفاعه ١٩ ذراعا وبضعة أصابع لا يعم الأرض كلها (٥). والسبب فى ذلك كله هو إهمال الجسور والترع والخلجان وتدهور حالها(٦)، وأيضا العلو التدريجى الذى لحق بالأراضى الزراعية

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ قسم ١ ص ١٣٨
(٢) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٥٩، ٦٠ - النويرى : نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٦٢.

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ قسم ١ ص ١٣٨
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٦
(٥) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٦٠
(٦) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة

نتيجة ترسب طمى النيل عليها عاما بعد عام فى فترات الفيضان (١).

ومن الأمور الملاحظة بشكل واضح أن موجات الغلاء الخطيرة التى ألمت بمصر كثيرا ما جاءت فى أعقاب فترات فيضان النيل، وذلك فى حالتين: الحالة الأولى إذا انخفضت مياه فيضانه عن الحد الذى يكفى لرى أراضيها الزراعية، والحالة الثانية إذا تجاوزت مياهه فى ارتفاعها الحد الأقصى الذى إذا تجاوزه استبحرت الأراضى الزراعية أى غرقت وتعطلت زراعتها.

وفى كلتا الحالتين كانت الأسعار ترتفع بقدر النقص فى رى الأراضى الزراعية أو استبحارها.

وهناك حالة ثالثة كان النيل يرتفع فيها فى أول فيضانه إلى ارتفاع كاف للرى، لكنه لا يستمر على ارتفاعه هذا لمدة تكفى لرى كافة الأراضى، ولا يلبث أن ينخفض بسرعة قبل أوان انخفاضه، فيقل الانتاج الزراعى تبعاً لذلك، وترتفع الأسعار كما فى الحالتين السابقتين.

ولما كان لفيضان النيل كل هذا التأثير على انتاج المحاصيل الزراعية وأسعارها لذلك فقد كان بعض التجار الجشعين يتعمدون شراء الغلال وتخزينها عند ابتداء زيادة النيل طمعا فى أن تتوقف زيادته، أو أن ينخفض سريعا. وفى السنين التى كان النيل يتوقف فيها عن الزيادة فى فترة فيضانه كانت الأسعار ترتفع فورا تبعا لذلك، لكنه ما أن يستأنف ارتفاعه بعد ذلك حتى يعود السعر إلى الانخفاض مرة أخرى، وهذا النوع من الغلاء كان يسمى عند أهل مصر باسم «الكلابية» (٢)

---

(١) القلقشندى: المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٩٦

(٢) ابن الصيرفى: نزهة النفوس والأبدان [illegible]

أما الأعوام التى حدث فيها غلاء وارتفاع فى الأسعار ونقص فى إنتاج المحاصيل بسبب انخفاض النيل أو لسرعة هبوطه قبل أوانه فهى عديدة ونذكر منها أعوام ٦٩٠ هـ (١) ، ٧٥١ - ٧٥٣ هـ (٢) ، ٧٧٥ - ٧٧٦ هـ (٣) ، ٧٨٧ (٤) ، ٧٩٦ (٥) ، ٨٠٦ - ٨٠٨ هـ (٦) ، ٨٢٢ هـ (٧) ، ٨٢٨ هـ (٨) ، ٨٣٠ هـ (٩) ، ٨٥٢ (١٠) ، ٩٠٢ (١١) .

ولقد أدى الانخفاض الشديد للنيل فى بعض السنوات التى ذكرناها إلى حدوث مجاعات مهلكة فى أعوام ٦٩٤ و ٦٩٥ و ٧٧٦ و ٨٠٦ هـ .

ولقد كانت المجاعة التى حدثت فى عامى ٦٩٤ و ٦٩٥ هـ من أشد هذه المجاعات فتكا بالمصريين وقد ساعد على اشتداد وطأتها انتشار وباء سرى سريانا ذريعا

---

(١) ابن إياس . بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٢
(٢) المقريزى : السلوك ، مخطوط ، مجلد ٦ ورقة ١٦١١ ، ١٦١٩١
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٦٩ ـ المقريزى: إغاثة الأمة ص ٤٠
(٤) المقريزى : السلوك ، مخطوط ، مجلد ٨ ورقة ١٥٢ ب ـ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ورقة ٢٠
(٥) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٤١
(٦) نفس المرجع السابق والصفحة
(٧) ابن الصيرفى : المرجع السابق ورقة ١٠ ـ المقريزى : السلوك مجلد ١١ ورقة ٣٣١ ا
(٨) المرجع : السلوك مجلد ١١ ورقة ٣٧١ .
(٩) نفس المرجع ورقة ٣٨١ ا
(١٠) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٢٥٩ ، ٢٦٠
(١١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٢٧

فى المدن والقرى ، وكذلك إنتشار الجدب فى البلاد المحيطة بمصر كالشام وبرقة مما تعذر معه جلب المئونة لمصر منها . وقد بلغ عدد الموتى يوميا خلالهـــا إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف نفس ، وجافت الطرق لكثرة من كان يموت بهـا من الناس وهم ما ضون بها ، واضطر الناس فى بدء هذه المجاعة إلى أكل الكلاب والقطط والحمير والبغال ، وأصبح الكلاب والقطط سعر تباع به فى الأسواق(١)، ثم لما اشتدت وطأتها أضطر الناس إلى أكل بعضهم البعض ، فكان يوجد الميت وعند رأسه لحم الآدمى ، (٢) ، وبلغ الجوع بهم حدا جعلهم يتربصون للموتى فى المدافن ، فإذا جىء بميت لدفنه أخذوا يتصارعون مع بعضهم البعض للظفر به وأكله (٣) . وحدث أن شنق عند باب زويله بالقاهرة بعض الناس بعد أن ثبت عليهم أنهم أكلوا صبيا فلما أصبح الصباح لم يبق منهم شىء لأن الناس كانوا قد أكلوهم بدورهم (٤) ، فكما أكلوا أكلوا ، (٥) .

أما مجاعة عام ٧٧٦ هـ فقد أدت هى الأخرى إلى فناء عدد كبير من المصريين خصوصا الفقراء منهم ، وكان الواحد منهم يظل يصرخ من شدة الجوع ويقول « لله لبابة قدر شحمة أذنى أشمها وخذوها » ، ولا يزال كذلك حتى يموت (٦) .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٢

(٢) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٢ - ٣٦

(٣) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٨ قسم ٣ ورقة ٣١٥

(٤) محمد بن بهادر المؤمنى : فتوح النصر القسم الثانى ورقة ١٨٤

(٥) ابن أيبك : كنز الدرر قسم ٣ ورقة ١٨٤

(٦) المقريزى : السلوك مجلد ٨ ورقة ١٨٤

أما مجاعة عام ٨٠٦ هـ فقدمات فيها ما ينيف على نصف سكان مصر (١) ، وبلغ من شدة وطأتها أن أصبحت دافعا للمقريزى لكى يؤلف كتابه « إغاثة الأمة » الذى أشرنا إليه من قبل ، وكثيرا ما أشار المقريزى إليها فى مؤلفاته التى تستعرض تاريخ مصر فى عهد المماليك بكلتى « المحن » و « الحوادث » . ويرى المقريزى أن عام ٨٠٦ هـ من الأعوام التى لا تنسى فى تاريخ مصر المماليكية لما أصابها وأصاب أهلها خلاله من تدهور شمل جوانب عديدة من حياتهم خاصة الإقتصادية منها (٢) .

أما السنوات التى ارتفعت فيها الأسعار نتيجة لارتفاع النيل أكثر من اللازم فمنها عام ٧٦٠ هـ الذى بلغ ارتفاع النيل فيه ١٩ ذراعا وعدة أصابع (٣) ، وعام ٧٦٢ هـ الذى بلغ ارتفاع النيل فيه ١٩ ذراعا وتسعة أصابع فاغرق الاراضى وتفشت الأوبئة فمات عدد كبير من سكان مصر وبسبب كثرة المستنقعات من فيض النيل على خلاف المعتاد ... وغلت الأسعار لقلة من يتعاطى الأشغال ... » (٤) . وفى عام ٧٩٧ هـ بلغ ارتفاع النيل ١٩ ذراعا وثمانية أصابع ، فكان طوفانا والأسعار تزايد » (٥)

وعلى كل حال ففى حالتى انخفاض النيل أو طغيانه كان الجزع ينتاب المجتمع كافة ، حكاما ومحكومين ، أغنياء وفقراء ، فيخرجون فى جموع حاشدة إلى العراء

---

(١) المقريزى . إغاثة الأمة ص ٤١

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ٩١ ، ٩٥ ، ٩٨

(٣) ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة مجلد ، لوحه ١٥١ ا

(٤) نفس المرجع والمجلد لوحه ١٥٨ ب

(٥) المقريزى : السلوك مجلد ١٠ ورقة ٢٤٨

التضرع إلى الله والصلاة : صلاة استسقاء فى حالة انخفاضه ، وصلاة استبياط فى حالة طغيانه (١) .

ففى عام ٧٧٤ هـ انخفض النيل فخرج القضاة والفقهاء والناس إلى جامع عمرو بن العاص ، وضجوا بالدعاء إلى الله بأن يزيد النيل وترتفع مياهه ، لكنه ظل على حالة فخرجوا بعدها بعـــدة أيام إلى رباط الآثار (٢) وغسلوا آثار الرسول عليه الصلاة والسلام فى النيل وقرأوا هناك القرآن ، وأعادوا هناك الضراعة إلى الله ، فلما استمر النيل فى هبوطه خرج الناس إلى الصحراء خارج القاهرة « وهم حفاة مشاة بثياب مهنتهم ومعهم اطفالهم .. فخطب خطيب جامع عمرو خطبة الاستسقاء وصلى صلاتها ، وكشف رأسه عند الدعاء ... فكشف الناس جميعا رؤوسهم وضجوا بالدعاء إلى الله تعالى ، وارتفعت أصواتهم بالاستغاثة وهملت أعينهم بالبكاء ... » (٣)

وفى عام ٨٢٣ هـ انخفض النيل فنودى فى الناس أن يصوموا ثلاثة أيام ، ثم خرجوا إلى الصحراء ومعهم السلطان لصلاة الاستسقاء ، وخطب الإمام فيهم خطبتين حث الناس فيها على التوبة والاستغفار « ... والسلطان يبكى وينتحب وقد باشر فى سجوده التراب بجبهته .. » (٤)

---

(١) تاريخ ابن قاضى شهبة لوحة ١٥١ أ

(٢) رباط الآثار هو مبنى للآثار كان يقع جنوب الفسطاط على النيل ، وسمى بهذا الاسم لانه كان محفوظ به قطعة من خشب وقطعة من حديد قيل انها من آثار الرسول عليه الصلاة والسلام . المقريزى : المواعظ جـ٢ ص ٤٢٩

(٣) المقريزى : السلوك مجلد ٧ لوحة ٧٩ ب

(٤) ابن حجر : إنباء الغمر جـ٢ ورقة ٢٧٦

٢ — إهمال الترع والجسور :

فى بعض السنين كان النيل يرتفع فى فيضانه إلى الحد المناسب والكافى للرى، وبالرغم من ذلك كان الإنتاج الزراعى فى هذه السنين ضعيفا ، والسبب فى ذلك يرجع إلى إهمال بعض السلاطين لمشاريع الرى والترع والجسور ، فمنذ أوائل القرن التاسع الهجرى قل الاهتمام بعمارة جسور الرى سواء البلدية منهـا أو السلطانية . وفى هـذا الصدد يقول القلقشندى « أهمل الاهتمام بأمر الجسور فى زماننا وترك عمارة أكثر الجسور البلدية ، واقتصر فى عمارة الجسور السلطانية على الشىء اليسير الذى لا يحصل به كبير نفع »(١) .

كما أنه منذ تدهور حال مصر بعد مجاعة عام ٨٠٦ هـ صار السلطان الناصر فرج بن برقوق يجبى من البلاد مالا كثيراً لحساب عمارة هذه الجسور ، لكنه كان يحتجز هذه الأموال لنفسه ، ويفرق بعضها على أعوانه ، ولا يصرف منها شيء البتة على الجسور ، وفى الوقت نفسه يسخر الناس فى عمارتها(٢) .

واستمر هذا الإهمال طوال العهد المماليكى الجركسى (٣) فكانت النتيجة الحتمية لذلك أن تدهورت امكانيات الرى بمصر ، وأصبحت مياه الفيضان — التى كانت تكفى من قبل للرى — غير كافية لرى كافة الأراضى الزراعية ، والسبب فى ذلك هو إهمال شئون الجسور ، ولولا ما من الله تعالى به على العبـاد من كثير الزيادة فى النيل حتى صار يجاوز تسعة عشر ذراعا فما فوقها إلى ما جاوز العشرين

---

(١) القلقشندى : الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٤ ، ٤٤٦ .

(٢) المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١٠١ .

(٣) المقريزى : السلوك مجلد ١١ ورقة ٣٦٥ أ .

لفات ري أكثر البلاد وتعطلت زراعتها » (١) .

ويخبرنا الأسدي بأنه لما أهملت عمارة الجسور اختل أمرها فأصبحت غير قادرة على حماية الأراضي من مغالاة الفيضان ، فغرقت أراضي عديدة بسببها(٢) ولقد انعكس هذا على كمية الإنتاج الزراعي ، وعلى المعروض بالأسواق من المحاصيل الزراعية ، ففي عام ٨٢٨ هـ كسدت الأسواق ، لأن أرض مصر أكثرها بغير زراعة لقصور مد النيل في أوانه وقلة العناية بعمل الجسور(٣) . وفي عام ٨٢٢ هـ تهدمت الجسور في بعض النواحي لعدم العناية بها رغم أن النيل لم يكن قد بلغ في ارتفاعه وقتها إلا أقل من ثمانية عشر ذراعاً فقط ، ثم لم يلبث النيل أن انخفض بسبب تسرب مياهه وتدفقها من خلال الجسور التي تهدمت فقل وجود الغلال وارتفعت أسعارها (٤) .

والإهمال الذي لحق بالجسور لم يقتصر عليها فقط بل شمل أيضاً الترع ، فسلاطين المماليك الذين كانوا يهتمون بحفر الترع أو تطهيرها كانوا قلة ومنهم السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ، والسلطان المنصور قلاوون وابنه السلطان الناصر محمد بن قلاوون . لكن بعد السلطان الناصر محمد لا نجد في المصادر التي رجعنا إليها ما يدل على أن أحداً من السلاطين الذين حكموا بعده حتى نهاية حكم المماليك قد اهتم بحفر ترع جديدة أو تطهيرها اللهم إلا السلطان برسباي فقط الذي جدد حفر خليج الاسكندرية (٥) ، وكنتيجة لذلك أصبح من الصعب على

(١) القلقشندي : نفس المرجع السابق والجزء والصفحات .
(٢) الأسدي : التيسير والاعتبار ورقة ٤٨ أ .
(٣) المقريزي : السلوك مجلد ١١ ورقة ٢٦٥ أ .
(٤) نفس المرجع ورقة ٢٩٤ أ .
(٥) المقريزي : المواعظ جـ ١ ص ١٧٢ .

مياه النيل أن تصل إلى أراضى كثيرة ، فبدأت مناطق عديدة تعتمد فى ريها على المطر ، وأصبح الإنتاج الزراعى فى هذه المناطق رهنا بنزول المطر ، ورغم أنه حتى أوائل القرن التاسع الهجرى كانت الأراضى التى تعتمد عـلى المطر لرى أراضيها قليلة (١) .

ففى عام ٨١٨ هـ قل نزول المطر « فلم ينجب الزرع بنواحى الوجه البحرى كله من الشرقية والغربية والبحيرة ، ولا حصل منها وقت الحصاد طائل » (٢) ثم « لطف الله تعالى بنزول الغيث ... فجادت الزروع ونمت وزادت وتراخى السعر » (٣) .

وفى عام ٨٣٨ هـ قل محصول بعض الفواكه وارتفع سعرها بسبب تأخر نزول المطر (٤) ، كما أنه فى عام ٨٦٩ هـ ارتفع سعر الغلال « لعدم نتاج الزرع بالوجه البحرى لقلة المطر بل لعدمه بديار مصر وأعمالها » (٥) .

٣ — المصادر الحسبية :

عرفنا من قبل أن المحتسب كان له دور رئيسى فى الرقابة على الأسواق ، لذلك كان هناك إرتباط وثيق بين صلاح أمره ، صلاح أمر الأسواق .

وكما ذكرنا من قبل كأن يراعى فى العهد المماليكى البحرى وأوائل العهد

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٠٨ .
(٢) المقريزى : السلوك ، مخطوط ، مجلد ١٠ ورقة ١٩٥ .
(٣) ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٢ ورقة ١٩٤ .
(٤) نفس المرجع والجزء ورقة ٥٩٢ .
(٥) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٣ ص ٤٩٨ .

الجركسى أن لا يتقلد الحسبة إلا المتعممين ورجال القلم فقط (١) ، لأن هؤلاء كان لهم من القيم الدينية التى نشأوا عليها ما يضمن نزاهتهم عنـــد مباشرتهم لمهام وظيفتهم ، لذلك لم يكن غريبا أن يشترط أحدهم على السلطان الناصر محمد بن قلاوون شروطا لقبول وظيفة الحسبة التى عرضها عليه السلطان أثناء أزمة فى الغلال وارتفاع فى سعرها عام ٧٣٦ هـ ، ولقد نزل السلطان على رغبته ووافقه فى الشروط التى اشترطها ومنها أن يضمن له السلطان عدم تدخل الأمراء بنفوذهم لتعطيل الخطة التى يقررها لمعالجة الأزمة (٢) .

ونجد لهذا الموقف شبيها فى عام ٧٩٨ هـ ، فقد رفض أحد القضاة قبول وظيفة الحسبة التى عرضها السلطان برقوق إلا بعد أن وافق السلطان على شروطه التى اشترطها وقتئذ ، وهى أن لا يتدخل الأمراء أو رجال السلطان فى إختصاصاته، وأن لا يجبره أحد برمايات (٣) .

غير أنه منذ عهد السلطان المؤيد شيخ بدىء فى تعيين محتسبين من غير رجال الدين ، فأسند هذا السلطان وظيفة الحسبة إلى أحد الأمراء من رجال السيف(٤)،

---

(١) الباز العرينى : الحسبة والمحتسبون فى مصر ، مقال بالمجلة التاريخية المصريه المجلد الثالث العدد الثانى ، اكتوبر ١٩٥٠ م .

(٢) المؤمنى : فتوح النصر ، مخطوط ، القسم الثانى ورقة ٢٦٩ .

(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ٩ جـ ٢ ص ٢٤٩ . والرمايات هى أن يطرح السلطان سلعا على التجار ويجبرهم على شرائها منه بالسعر الذى يحدده. المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٢٢٣ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ٢١٠ . ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٢ ورقة ١٠٥ .

بل إننا نجد أن الحسبة أسندت فى عام ٨٢٣ هـ إلى رجل من أصحاب الحرف كان يعمـــل فى دكان سكرى ولم يكن يصلح لهذا المنصب إطلاقا إذ «كان عاميا جلفا قليل الخير كثير الشر» (١) . وبالطبع انعكس هـذا على الحسبة ففسد أمرها ، ففسد حال الأسواق بدورها نتيجة لذلك وأخذت الأسعار فى الارتفاع.

غير أن هذا لم يكن هو العامل الرئيسى فى فساد الحسبة ، فالعامل الأساسى فى فسادها يرجع إلى أن المحتسب أصبح يعين منذ عهـــد السلطان برقوق بالبراطيل (٢) ، والمحتسب الذى كان يعجز عن أداء ما التزم به من مال كان يعزل على الفور (٣) . واستمر هـذا الوضع قائما فى العهد المماليكى الجركسى باستثناء حالات قليلة كان المحتسب يعين فيها بدون رشوة ، وذلك فى الحالات التى كان يشتد فيها الغلاء وتستحكم الأزمـة الإقتصادية ويشتد ضيق الناس بدرجة تنذر بالخطر ، فى هذه الحالات فقط كان يضطر السلطان إلى إختيار محتسب يتوسم فيه النزاهة والكفاءة «ويعينه بغير مال» (٤) .

ومما يذكر فى هـذا الشأن أنه فى عام ٨٠٩ هـ عين فى منصب الحسبة أربعة محتسبين خلال شهر واحد ، وذلك لأن هؤلاء الاربعة تنافسوا عليه «فكان من

---

(١) ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٢ ورقة ٢٨٨ .

(٢) البراطيل هى الرشاوى والأموال التى كانت تؤخـذ ممن يسعى لكى يعين واليا أو محتسبا أو قاضيا أو فى أى وظيفة من وظائف الدولة . المقريزى : المواعظ جـ٢ ص ١١١ .

(٣) المقريزى : السلوك ، مخطوط مجلد ١ ورقة ٥٠م ب – ابن حجر : المرجع السابق ورقة ٢٧٩ .

(٤) المقريزى : نفس المرجع والمجلد ورقة ٢٥٣ أ .

قام فى نفسه أن يليه يزيد المبلغ ، فيخلع عليه ، ثم يقوم آخر فيصرف الذى قبله ... »(١) .

وفى مقابل البراطيل التى كان المحتسبون يدفعونها لأهل الدولة كانت الدولة بدورها تغمض عينيها عن تصرفاتهم ، فيبدأ الواحد منهم منذ اللحظة التى يتولى فيها منصبه فى فرض الإتاوات عـــلى التجار والباعة ويستخلصها « من أخلاع السلمين ودمائهم »(٢) ، وذلك لكى يعوض ما بذله من مال ، أو ما سيبذله فى المستقبل من رشوة وهـــدايا لأتباع السلطان ليتمكن بمعونتهم ونفوذهم من الاستمرار والبقاء فى الوظيفة . والنتيجة الطبيعية لهذا هو فساد الحسبة والمحتسبين إلى حد كبير ، والمقريزى يصف أحدهم وهو نجم الدين الطنبدى الذى شغل هذه الوظيفة فى عام ٧٩١ هـ فقال عنه أنه « كان شيخا جهولا وبلهانا مهولا ، سىء السيرة فى الحسبة والقضاء ، متهافتا على الدرهم ولو قاده إلى البلاء ، لا يحتشم من أخذ البرطيل والرشوة ، ولا يراعى فى مؤمن إلاًّ ولا ذمة »(٣) .

وفى مقابل المال الذى كان المحتسبون يفرضونه على التجار والباعة أغمضوا أعينهم عنهم وأهملوا فى مراقبتهم ، فأخذ التجار والباعة بدورهم فى التلاعب فى السلع وفى أسعارها ليعوضوا المال الذى يدفعونه لهم ، وكل ذلك بالطبع على حساب عامة الشعب مما كان له أسوأ الأثر على الناس فانفجروا فى ثورات غاضبة ضد هؤلاء المحتسبين محملين إياهم مسئولية الأزمات الإقتصادية والغلاء . ففى عام ٧٤٩ هـ « رجمت العامة ابن الأطروش المحتسب »(٤) . وفى عام ٨٢٨ هـ ثارت

(١) ابن حجر : المرجع السابق ورقة ٧٢٩ .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ١٨ .
(٣) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ١٧٢ .
(٤) المقريزى : السلوك ، مخطوط ، مجلد ٦ ورقة ٨١ أ ب .

جماعة من الناس على المحتسب القاضي بدر الدين العيني بسبب « إهمال أمر الباعة »(١).

وبلغ الاستهتار ببعض المحتسبين إلى الحد الذى جعل واحداً منهم يستغل نفوذه عام ٨٥٢ هـ لاحتكار القمح ، فأمر ألا يبيعه أحد من التجار إلا بإذن منه، وأخذ يعاقب بالضرب كل من يشترى القمح من التجار الذين لم يأذن لهم بيعه ، وكان غرضه من ذلك أن يجبر هؤلاء التجار على أن يبيعوا له وحده القمح وبالسعر الذى يفرضه عليهم ثم يقوم هو ببيعه بعد ذلك بالسعر الذى يحقق له الربح الكبير. لكن تصرفاته هـــذه جعلت الناس يحتشدون تحت القلعة غاضبين ، وأخذوا يصيحون مستغيثين بالسلطان ، وما أن رأوا المحتسب مارا بهم حتى انهالوا عليه باللعن والسب ، مع رجمه بالحجارة قاصدين دفنه وإقباره »(٢) ، فاضطر السلطان أن يعزله تهدئة لهم ، ونودى بإبطال المظالم المتجددة فى الحسبة »(٣) .

وفى عام ٨٨٥ هـ وقفت جماعة من الناس للسلطان قايتباى فى طريق موكبه ، وشكوا له من أمور الحسبة بأنها ضائعة ، فاضطر السلطان إلى عزل المحتسب إرضاء لهم (٤) .

ومما زاد الطين بلة أنه فى أواخر عهد المماليك اتخذت الحكومة من الحسبة والمحتسب وسيلة لجمع أموال وجبايات جديدة من التجار والباعة ، وأطلق على بعض هذه الأموال اسم المشاهرة لأنها كانت تجبى منهم شهريا ، بينما أطلق على البعض الآخر منها إسم الجامعة لأنها كانت تجبى منهم كل جمعة . وقد بلغ ما تحصل

(١) ابن حجر : أنباء الغمر جـ ٣ ورقة ٤٠٤ .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٢٦٠ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ١٩٤ ، ...

من هذا المال فى عهد السلطان الغورى ألفان وسبمائة دينار ، منحت إقطاعا لبعض الأمراء (١) . فكان من نتيجة ذلك أن أخذت السوقة تبيع البضائع بما يختارونه من الأثمان ولا يقدر أحد أن يكلمهم ، فإن كلهم أحد يقولون علينا مال السلطان ، (٢) . وأخذ التجار السلع رغبة فى إرتفاع سعرها ، فإشتد الضيق بالناس حتى أن المماليك السلطانية ذاتها هبت ثائرة فى القلعة وأخذت تصيح مطالبة بإبطال المشاهرة والجامكية وحتى ما تلتق شيء تأكله ، (٣) .

٤ — العملة :

لعبت العملة المماليكية بأنواعها الثلاثة : الدينار الذهبى ، والدرهم الفضى ، والفلس النحاسى دوراً رئيسيا فى تحديد أسعار السلع ، فارتفاع سعر هذه العملة أو إنخفاضه كان يؤثر بالتبعية وبصورة مباشرة على إرتفاع سعر السلع أو إنخفاضه . وهذه الظاهرة تتطلب منا أن نبحث عن العوامل التى كان لها دخل فى رفع أو خفض سعر العملات المماليكية ، ثم رد الفعل الذى كان ينعكس نتيجة لذلك على الحالة الإقتصادية بصفة عامة وأسعار السلع بصفة خاصة .

أما فيما يختص بأسعار العملة فقد كانت تتحكم فيها عوامل ثلاثة : أولها قانون العرض والطلب ، وثانيها عيار هذه العملة وحجمها ووزنها ، وثالثها جشع سلاطين المماليك ورغبتهم فى الإثراء والتكسب بأى وسيلة كانت .

وفى العهد المماليكى البحرى كان يتم تحديد أسعار السلع الكبيرة القيمة على أساس سعر الدينار الذهبى وكذلك الدرهم الفضى الذى كان يعرف بالدرهم النقرة ،

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ١٣ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٥٩ .
(٣) نفس المرجع ج ٤ ص ٨٣ .

وهو درهم ثلثاه فضة وثلثه نحاس (١) . أما السلع القليلة القيمة أى التى تقل قيمتها عن الدرهم فكانت قيمتها تقدر بالعملات النحاسية التى كانت تعرف وقتئذ باسم الفلوس .

وفى العهد المماليكى البحرى أيضا كان الدينار والدرهم يرتبط سعر كل منهما بسعر الآخر ، وهذا السعر لم يكن ثابتا فقد كان يتأرجح صعودا وهبوطا تبعا لعدة عوامل أهمها مدى توفر الذهب الذى كان يضرب دنانير ، وكذلك أيضا مدى توفر الفضة التى كانت تضرب دراهم .

والحقيقة أن مصر كانت تعانى نقصا فى الذهب والفضة منذ بداية العهد الأيوبى ، ويقول المقريزى أنه فى عام ٦٧ ه ، عمت بلوى الضائقة بمصر لأن الذهب والفضة خرجا منها وما رجعا ، وعدما فلم يوجدا ، ولهج الناس بما عمهم من ذلك ، وصاروا إذا قيل دينار أحمر فكأنما ذكرت حرمة الغيور له ، وإن حصل فى يده فكأنما جاءت بشارة الجنة له ، (٢) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٢ .

(٢) المقريزى : السلوك ج قسم ١ ص ٤٦ - ومن كلام المقريزى هذا نفهم أن ذهب وفضة مصر تعرضا لعمليات تهريب إلى خارجها . والواقع أن عمليات التهريب هذه بدأت خلال العهد الفاطمى ثم استمرت كذلك فى العهد الأيوبى ، فدينار مصر كان يحمل إلى بعض البلاد خارجها كاليمن مثلا لأن الناس هناك كانوا يتعاملون به . عمارة بن أبى الحسن : كتاب تاريخ اليمن ص٤٥ ، ٥٩

كما قام الصليبيون بدور نشيط أيضا فى تهريب الذهب من مصر خلال العمليات الحربية التى خاضوها مع الفاطميين والأيوبيين من بعدهم . عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ص ٧٢ .

كما أن الفضة المصرية كانت تهرب هى الأخرى من مصر إلى أوروبا خلال =

ولقد ظل تناقص الذهب فى مصر مستمراً فى العهد المماليكى وذلك لعدة عوامل منها :

(١) استهلاك كميات كبيرة من الذهب فى صناعة الحلى ، فالمماليك وأثرياء مصر كان لهم شغف كبير باقتناء الأدوات والأوانى والحلى المصنوعة من الذهب، بدرجة أن مهامير خيولهم كانت تصنع هى الأخرى من الذهب الخالص (١) .

ومما يؤكد لنا كثرة ما كان يقتنيه أمراء المماليك من الذهب والتحف الذهبية أنه عندما هجم العامة على قصر الأمير قوصون عام ٧٤٢ هـ وجدوا به كميات كبيرة من الذهب والأوانى والحلى الذهبية فنهبوها ، فكان من نتيجة ذلك أن كثر الذهب فى أيدى الناس فانخفض سعر الدينار الذهبى إلى ١١ درهما بعد ما كان بعشرين درهما (٢) .

= العهد الأيوبى لكى يعاد سكها فى دور السك الإيطالية بالبندقية وفلورنسا دراهم فضية . عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ص ٧٣ ، ٧٤ .

وبجانب عمليات التهريب هذه فلقد حرمت مصر خلال العهد الفاطمى من ذهب السودان الغربى الذى كانت تستورده من هذه البلاد بالقوافل عبر الصحراء الكبرى ، وذلك منذ أن سيطر المرابطون وبنو هلال على الطرق المؤدية إلى مصادر هذا الذهب بالسودان الغربى . توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى (مقال موريس لومبار : الأسس النقدية السيادة الاقتصادية) ص ٦٠ - ٦٤ .

وبالإضافة إلى ذلك فقد فقدت مصر خلال عهدى الفاطميين والأيوبيين الكثير من ذهبها وفضتها فى تكاليف العمليات الحربية التى خاضتها ضد الصليبيين . عبد الرحمن فهمى : المرجع السابق ص ٧٢ .

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٩٧ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٧٧ .

ب - تهريب التجار لدنانير مصر الى البلاد التى كانت تلقى فيها هذه الدنانير رواجا كربلع على سبيل المثال (١) .

ورغم أن سعر الدينار خلال العهد المماليكى البحرى كان يتراوح بين ٢٠ الى ٣٠ درهما نقره ، الا أن جشع بعض السلاطين كان له أثره فى رفع سعره أحيانا رفعا مفتعلا ليحققوا من وراء ذلك الربح لأنفسهم . ومن أمثلة ذلك أنه فى عام ٧٤٠ كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون مدينا لبعض التجار ، وكان سعر الدينار وقتئذ يساوى ٢٠ درهما نقره فقط ، فأصدر أمره برفع سعره الى ٢٥ درهما نقره ، ثم قام بعدها بتسديد ما عليه للتجار بسعرها الجديد ، فاستطاع بذلك أن يحقق لنفسه وفرا فى قيمة الدين يعادل قيمة الفرق بين سعرى الدينار . ولم يبال بما أحدثه فعله هذا من « توقف أحوال الناس لزيادة سعر الذهب »(٢).

أما الدرهم النقرة فكما سبق أن قلنا كان ثلثاه فى أوائل العهد المماليكى البحرى فضه وثلثه نحاس ، وظل محتفظا بعياره هذا حتى عهد الناصر محمد بن قلاوون ، ثم بدأت نسبة الفضة فيه تقل قليلا عن الثلثين (٣) ، وفى نفس الوقت أخذت نسبة النحاس فيه تزيد على الثلث . واستمرت نسبة الفضة فيه فى النقصان ونسبة النحاس فى الزيادة حتى أصبح عشرة فقط من الفضه وتسعة أعشاره من النحاس وذلك فى أواخر العهد المماليكى الجركسى (٤) ، وهذا راجع إلى التناقص المستمر الذى كان قد

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٥ ص٣٣١

(٢) المقريزى : السلوك جـ٢ ص٤٨

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٦٢ ، ٤٦٣

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص١٦٤

بدأ منذ العهد الأيوبى فى كميات الفضة التى كانت تضرب دراهم بمصر ، حتى أنه فى عام ٧٤٠هـ اختفت الدراهم الفضية فى الأسواق فأصبحت هناك صعوبة بالغة فى إتمام العمليات التجارية المتوسطة القيمة التى تقل قيمتها عن الدينار والتى يتحتم معها إزاء ذلك دفع قيمتها بالدراهم ، فاضطر السلطان الناصر محمد بن قلاوون عندئذ أن يخرج من خزائنه مليونى درهم وأنزلها إلى الصيارف وأخذ منهـم دنانير بدلا منها ، فمشت الأحوال قليلا » (١) . ورغم ذلك فقد ظلـت أزمة الدراهم مستحكمة ، ولذلك ففى عام ٧٤١هـ ، كانت الأحوال متوقفة لقلة وجود الدراهم وورد الباعة من التجار والمتعيشين الذهب لغلو صرفه ، فشق ذلك على الناس مشقة زائدة » (٢) . ولقد ظل تناقص الفضة مستمرا حتى إذا كان عام ٧٨١هـ « كثرت الشكاية فى الناس جميعهم من وقوف الحال وقلة الدراهم » (٣)

ونتج عن تناقص الفضة فى مصر أن أخذ سعر الذهب فى الارتفاع لكثرة من يطلبه لأن الفضة كانت فى غاية الغلو » (٤) فوصل سعره عام ٨٠٣هـ إلى ٢٧ درهما (٥) .

ونحن إذا تساءلنا عن أسباب أزمة الدراهم الفضية فإننا نجد أن أسبابها الرئيسية هى :

---

(١) المقريزى : المرجع السابق جـ ص٤٩٤

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٥٢٠

(٣) المقريزى : السلوك ، مخطوط مجلد ٨ ورقة ١٣٢

(٤) ابن حجر : إنباء الغمر جـ٣ ورقة ٨٠٩

(٥) ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان جـ١ ورقة ١٢٨

أ - التوسع فى صياغة الفضة حليا ، واستخدامها على نطاق واسع فى صناعة الأدوات والأوانى والملابس والسروج وذلك ، منذ تفنن أمراء السلاطين وأتباعهم فى دواعى الترف وتأنقهم فى المباهاة بفاخر الزى وجليل الشارة . وقد اضطرت الحكومة إزاء ذلك أن تصدر الأوامر فى عام ٨٣٩هـ بمنع صناعة الأدوات والأوانى من الفضة (١) ، وكانت ترجو من وراء هذه الأوامر أن تتوفر كميات الفضة اللازمة لضرب دراهم جديدة .

ب - انقطاع ما كان يصل الى مصر من الفضة من بلاد الفرنج وغيرها (٢).

وكنتيجة حتمية للتناقص المستمر المتزايد فى كل من الذهب والفضة فى مصر اضطرت الحكومة المماليكية الى التوسع التدريجى فى سك العملة النحاسية « الفلس » . واضطر الناس كذلك الى التوسع التدريجى فى التعامل والبيع والشراء بهما ، فأصبحت لهذه العملة الضئيلة الشأن أهمية فبدأ سعرها يرتفع نتيجة لذلك . وكان سعرها عندما بدأ حكم المماليك مقدرا على أساس أن كل ٤٨ فلسا منها بدرهم نقرة . ولكن بعد عامين فقط من حكم المماليك أى فى عام ٦٥٠هـ ارتفع سعر الفلوس فأصبح كل ٢٤ فلسا منها بدرهم نقرة ، فثقل ذلك على الناس . . . . . لما فيه من الخسارة لأنه صار ما يشترى بدرهم هو ما كان يشترى من قبل بنصف درهم » (٣)

---

(١) ابن حجر : المرجع السابق جـ٢ ورقة ٦١٧

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٦٣

(٣) المقريزى : اغاثة الأمة ص ٦٩

ثم لما كان عهد السلطان العادل كتبغا جارت حاشية هذا السلطان ومماليكه على الناس وشرهوا فى أخذ الرشاوى والبراطيل ، فكأن من نتيجة هذا الفساد أن لحق الفساد والغش بالفلوس أيضا وبدأ وزنها يخف عن الحد المقرر لها ، فبدأ الناس يتوقفون عن التعامل بها بالعدد ، فتقرر التعامل بها بالوزن على اعتبار أن كل رطل منها بدرهمين نقرة ، وكان هذا أول ما عرف بمصر من وزن الفلوس والمعاملة بها وزنا لا عددا.»(١)

واستمرت الفلوس يخف وزنها وفى نفس يرتفع سعرها ، فانعكس ذلك على أسعار السلع التى تباع وتشترى بها ، وحدثت أزمات بالأسواق نتيجة لذلك وأخذ التجار والباعة السلع بعد أن رفضوا التعامل بها أو قبولها من المشترين ، ومن الأمثلة الواضحة لذلك أنه فى عام ٧١٩ ﻫ خفف الزغلية (٢) من وزن الفلوس ، وبالرغم من ذلك فقد ارتفع سعرها فأصبح الرطل منها بثلاثة دراهم نقرة ، فرفض أصحاب الدكاكين قبولها من المشترين بهذا السعر لما فيه من غبن لهم على

---

(١) نفس المرجع والصفحة

(٢) الزغلية طائفة احترفت صناعة العملة المغشوشة ، وكانت لهم اصطلاحات تعارفوا عليها فى عملهم ، ومنها أنهم كانوا يسمون الفضة المغشوشة باسم «المصافيرى» والفحم الذى يستخدمونه فى عملهم هذا باسم « الزبيب » ، والكير الذى ينفخون به « الشيخ » . الشربينى : هز القحوف ص ١٨٢

ومن بين الوسائل التى استخدموها فى غش العملة أنهم كانوا يرشونها أى يردون من محيطها الخارجى ، أو ينقصون أجـزاءا منها . الأسدى : التيسير والاعتبار ورقة ٤٢ ب .

اعتبار أن قيمتها الحقيقية أقل من هذا السعر لما فيها من غش وزغل ، فارتفعت أسعار السلع نتيجة لموقفهم هذا ، فاضطر والى القاهرة أن يقبض على الكثيرين منهم وضربهم بالمقارع ، لكن لم يزدهم هذا إلا إصرارا على موقفهم ، وامتنع الأمراء عن بيع المخزون لديهم من الغلال إلى الطحانين فنتج عن ذلك أزمة فى الخبز وفى بعض السلع الأخرى (١) .

وزاد غش الفلوس فكثرت بها الفلوس المضروبة من الرصاص وغيره ، كما أخذ الزغلية يقصون الفلس إلى ثلاث قطع ويخرجونه إلى السوق على اعتبار أن كل قطعة منها فلس قائم بذاته (٢) ، فتكرر رفض التجار والباعة لهذه الفلوس المغشوشة وتكرر توقفهم عن قبولها من المشترين مما أدى إلى تكرار إختفاء السلع من الأسواق وارتفاع سعرها ، فاضطر السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون إزاء ذلك أن يقوم بمحاولة لرد الاعتبار إلى الفلوس وقيمتها فضرب فى عام ٧٥٩ﻫ فلوسا جديدة وزن الفلس منها مثقالا (٣) ، وجعل التعامل بها بالعدد على اعتبار أن كل ٢٤ فلسا منها بدرهم نقرة كما كان سعرها من قبل فى بداية عهد المماليك ، كما أمر بأن يكون كل فلس من هذه الفلوس الجدد بفلسين من الفلوس العتق (٤) . فأصبح هناك سعران للسلع ، سعر بالفلوس الجديدة وسعر بالفلوس العتق فتسبب ذلك فى حدوث إضطراب وارتباك فى الأسعار ، وغلت سائر البضائع بسبب ذلك

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٠٠

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤٤٤

(٣) وزن المثقال يساوى $1\frac{3}{7}$ من وزن الدرهم ، أى أن وزن الدرهم يساوى $\frac{7}{10}$ من وزن المثقال .

(٤) المقريزى : السلوك ، مخطوط ، مجلد ورقة ٢٩ ب

ووقف حال الناس »(١) .

ومنذ أوائل العهد المماليكي الجركسي أصبحت الفلوس هي العملة الأساسية المتعامل بها بشكل رئيسي في كافة أنواع التعـــامل التجاري وذلك لقلة الدنانير والدراهم ، فأصبحت الفلوس نتيجة لذلك محطا لأطماع كل مستغل وجشع من رجال الدولة ، فضربت بالاسكندرية عام ٧٩٢ هـ في عهد السلطان برقوق فلوس ناقصة الوزن عن العادة طمعا في الربح فآل الأمر فيها إلى أن كانت أعظم الأسباب في فساد الأسعار (٢) . كما ضربت هذه الفلوس بكثرة « حتى فسد بكثرتها حال إقليم مصر »(٣) .وبجانب ذلك فقد ارتفع سعر الرطل منها إلى ما يقرب من أربعة دراهم ونصف ، ثم بلغ سعر الرطل منها في أوائل القرن التاسع الهجري إلى أكثر من ١٢ درهما ، رغم أنه كانت توضع معها عند وزنها قطع مكسرة من النحاس الأحمر والأصفر (٤) ، بل وصل الأمر بها أن ضربت منها في عام ٨٠٣ هـ فلوس خفيفة الوزن جدا ، وجعل سعر الرطل منها بأكثر من ٣٠ درهما « وظهر في الجملة أنها ليست مالا يقتنى لوجود الخلل في قيمتها وأنها ليست على قيمة واحدة »(٥) .

وكنتيجة لذلك فإننا نلاحظ بوضوح ارتفاع الأسعار تدريجيا في بداية القرن التاسع الهجري ، ففي عام ٨٠٤ هـ « غلا كل شيء »(٦) . وفي عام ٨٠٥ هـ « ارتفعت

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٠٦

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر مخطوط جـ ١ ورقة ٣٤٠

(٣) المقريزي : المواعظ جـ ٢ ص ٢٩٧

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٣٩ ، ٤٤٠

(٥) ابن حجر : إنباء الغمر جـ ١ ورقة ٧٠٤

(٦) ابن دقماق : الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ورقة ٢٦١

الأسعار جداً »(١) .

والواقع أن الارتفاع التدريجي في سعر الفلوس النحاسية كان يرجع بالدرجة الأولى إلى قلة الوارد إلى مصر من النحاس الذي يلزم لضرب هذه العملة ، كما كان يرجع أيضاً إلى تهريب الفلوس المصرية إلى الحجاز واليمن وغيرهما من البلاد ، هذا بالإضافة إلى أن كميات كبيرة من النحاس كانت تستهلك في صناعة القدور والأواني والأدوات النحاسية التي كان يستخدمها المجتمع المصري المماليكي في ذلك الوقت (٢) .

غير أنه بالرغم من ذلك فبعض الارتفاع الذي لحق بسعر الفلوس لم يكن طبيعياً في بعض الأحيان حسب قانون العرض والطلب ، بل كان مفتعلا بتدبير من بعض السلاطين الجشعين ؛ ومن أمثلة ذلك أن السلطان فرج بن برقوق كان مديناً في عام ٨١٢ هـ لبعض التجار ، فرأى أن يسدد لهم دينهم بالفلوس ، لكنه قبل أن يبدأ عملية السداد أمر برفع سعر رطل الفلوس من ٦ دراهم إلى ١٢ درهماً ، وذلك لكي يوفر لنفسه من قيمة الدين ما يساوي هذا الفرق في السعرين (٣) . لكن التجار والباعة وجدوا أن هذا الرفع المفتعل في سعر الفلوس سيلحق بهم الخسائر فغلقوا حوانيتهم ، فحدثت أزمة في احتياجات الناس من الأسواق ، فتشفع الأمراء لدى السلطان لكي يعيد سعر الفلوس إلى ماكان عليه من قبل فاضطر للاستجابة لرجائهم ، ففتحت الحوانيت على أثر ذلك وعادت السلع تظهر بها مرة ثانية(٤).

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٢٩ ، ٤٤٠

(٢) المقريزي : السلوك ، مخطوط ، مجلد ١٢ ورقة ٤٢٤ ب

(٣) العيني : عقد الجمان جـ ٢٢ ص ٣٣٦

(٤) ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٢ ورقة ٦

وبلغ الأمر بالفلوس أن أصبح يطلق عليها اسم الدراهم الفلوس ، فأصبح هناك درهمان : الدرهم النقرة وهو الدرهم الذى تناقص وجوده إلى حد كبير ـ والدرهم الفلوس الذى شاع وجوده وكثر بين الناس الى حد كبير (١) . غير أن المقريزى يقارن بين القيمة الشرائية الكبيرة التى كانت للدرهم الفضة فيما مضى ، وبين القيمة الشرائية المنخفضة التى أصبحت للدرهم الفلوس فى زمنه ، ويتحسّر على الدراهم الفضة ويقول أنها « كانت دراهم ... » (٢) .

ومن أسوأ النتائج التى ترتبت على كثرة الدراهم الفلوس وشيوع التعامل بها أن أصبح الدينار الذهبى يسعر بها كما كان يسعر بالدراهم الفضية من قبل ، فأصبح الدينار الذى كان يتراوح سعره فى العهد المماليكى البحرى بين ٢٠ إلى ٣٠ درهما نقرة أصبح سعره عام ٨٠٦هـ أى فى أوائل العهد المماليكى الجركسى ١٥٠ درهم فلوس ، أى أن الدينار زاد سعره بالدراهم الفلوس إلى خمسة أضعاف سعره الاول تقريبا ، أى بالدراهم الفضة . ولقد انعكس هذا على أسعار السلع فارتفعت أسعارها إرتفاعا هائلا عام ٨٠٦هـ ، والتدليل على ذلك نقول أن أردب القمح الذى كان سعره ٤٠ درهما فى عام ٨٠٢هـ أصبح سعره فى عام ٨٠٤هـ ٧٠ درهما (٣) ثم أصبح سعره فى عام ٨٠٦هـ ٤٠٠ درهم (٤) . وهكذا أصبحت الفلوس سببا رئيسيا من أسباب الأزمة الاقتصادية الرهيبة التى خيمت على مصر

---

(١) عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ص٩١

(٢) المقريزى : إغاثة الأمة ص٧٣

(٣) ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ٢٦١

(٤) العينى : عقد الجمان مجلد ٢٧ ورقة ٢٧٨

فى عام ٨٠٦هـ وما بعده (١) وهى التى أسماهـــا المقريزى كما قلنا من قبل باسم « المحن » و « الحوادث »(٢). وينوه المقريزى بالنتائج الضارة التى ألحقتها الفلوس بالناس وقتئذ فيقول « فدهى الناس بسبب ذلك داهية أذهبت المال وأوجبت قلة الأقوات »(٣).

ولقد صاحب انتشار الفلوس النحاسية بمصر انتشار عملات أخرى أقبل الناس على استخدامها والتعامل بها هى أيضا وذلك كنتيجة ثانية لنقص الدنانير الذهبية والدراهم الفضية النقرة فى مصر . وهذه العملات هى الدنانير الذهبية والدراهم الفضية الإفرنجية والتى عرفت بأسماء عدة منها الدوكاه أو البندقى ، والافلورى أو الافرنتى .(٤)

---

(١) المقريزى : إغاثة الأمة ص٧٧

(٢) المقريزى : المواعظ ج٢ ص(٩١،٩٥،٩٨)

(٣) المقريزى : إغاثة الأمة ص٧٧

(٤) كان روجر الثانى حاكم دوقية أبوليا هو أول من ضرب الدوكات . ولقد استمدت هــذه العملة اسمها من كلمة Ducatus أى دوقية التى كانت منقوشة عليها . ولقد انتشرت الدوكات فى أوروبا حتى أنها استعملــت فى فلورنسا فى عام ١٢٥٢ م ، ثم ضربت عملة ذهبية على مثالها عرفت باسم الإفرنتى Florin وفى عام ١٢٨٤م ضرب دوق البندقية (جون داندالو) الدوكات البندقيه على مثال الدوكات التى ضربها روجر ، وكانت دوكات البندقية نوعين : ذهبية وفضية .

Palgrves Dictionary of Political Economy - Hazlitti : The Venetian Republic, vol. 11, pp. 626—627

وظهور الدنانير الإفرنجية فى مصر يرجع إلى حدود عام ٧٩٠ هـ[١]، أما الدرام الإفرنجية فأول إشارة تدل على وجودها فى مصر ترجع إلى عام ٨١٦هـ[٢].

ولعل السبب الرئيسى لإقبال الشعب على استخدام الدنانير الافرنجية - خاصة دوكات البندقية - هو دقة سكها من حيث إستدارة القطعة منها تماما، ووزنها الثابت، وعيارها المرتفع، بينما كانت الدنانير المماليكية المعاصرة لها مختلة العيار والوزن والسمك والقطر، لذلك كان من السهل على التجار أن يتعاملوا بالدنانير الافرنجية بالعدد بينما كانوا يضطرون عند التعامل بالعملة المماليكية إلى وزنها[٣].

غير أن بعض سلاطين العهد الجركسى حاولوا إعادة الثقة فى الدنانير المصرية وذلك بتوفير الذهب الذى يكفى لسكها، ولقد قاموا بعدة محاولات لاجتذاب الذهب الى مصر فعقدوا معاهدات مع البندقية التى كانت تعتبر وقتئذ مملكة الذهب فى العالم المسيحى، وخصت هذه المعاهدات الذهب الذى كانت يأتى به التجار البنادقة معهم الى مصر بضريبة جمركية تقل كثيرا عن الضريبة المفروضة على السلع

= ولقد وصف القلقشندى الدنانير الافرنتية والدوكات وصفا إجماليا فقال أنها مشخصه أى منقوش عليها رسوم أشخاص، فعلى أحد وجهيها صورة الملك الذى ضربت هذه العمله فى عهده، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين اللذين بعث بها المسيح الى روما - القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٣٧

(١) المقريزى : السلوك، مخطوط مجلد ١٠ ورقة ٢٩٠أ

(٢) نفس المرجع والمجلد ورقة ٢٧٨أ

(٣) عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ص٩٧

الأخرى ، كما أنهم خففوا الضرائب على السبائك الذهبية اذا أعطاها أصحابها لدار السك المصرية لتضرب فيها دنانير عاليكية ، وقدرت هذه الضريبة بـ ٢ ٪ فقط بينما كانت الضريبة على السلع المستوردة تقدر بـ ١٠ ٪ (١).

والمحاولات التى بذلها بعض سلاطين العهد الجركسى لإعادة الثقة فى العملة المماليكية لم تقتصر فقط على الدنانير وإنما شملت أيضا الدراهم والفلوس ولقد بدأت هذه المحاولات فى عهد السلطان فرج بن برقوق، فقد ضربت فى عهده دنانير جديدة عام ٨٠٢ هـ عرفت باسم الدنانير السالمية نسبة إلى اسم الأمير يلبغا السالمى المشرف على سكها ، وكان الغرض من سك هذه الدنانير أن تصرف الناس عن التعامل بالدنانير الافرنجية (٢) ، لذلك روعى فيها أن تكون متعددة الأوزان لكى يسهل التعامل بها ، فكان منها دينار وزنه مثقالان ، ودينار أصغر من السابق وزنه مثقال ، ثم دينار ثالث وزنه نصف مثقال(٣) .

كما قام السلطان الناصر فرج بضرب دنانير أخرى جديدة عرفت بالناصرية ، وروعى فيها أن يكون وزنها مماثلا لوزن الدينار الافرنتى ، وكان المقصود بها أن تحل محل الافرنتى لأن ذهبه كان أكثر نقاء وجودة (٤) .

أما السلطان المؤيد فقد وضع نصب عينيه أن يخفض أسعار العملة التى كانت

---

(١) نفس المرجع ص ١٠١، ١٠٢

(٢) المقريزى : المواعظ جـ٢ ص ٢٩٢

(٣) ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٨٤ — العينى : عقد الجمان ٢٣٠ قسم ٢ ورقة ٣٢٣

(٤) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات

قد ارتفعت كثيراً كما أشرنا من قبل ، وأن يجعل الدرهم الفضى هو أساس التعامل النقدى بين الناس ، ولكى يحقق خطته هذه ضرب دراهم مؤيدية جديدة من الفضة الخالصة الغير مخلوطة وجعلها ثلاثة أنواع لكى يسهل التعامل بها ، وهى : درهم سعره ثمانية عشر فلسا ، ونصف درهم سعره تسعة من الفلوس ، وربع درهم سعره أربعة فلوس ونصف ، فحصل الناس بذلك رفق عظيم ، (١) .

كما أصدر المؤيد أمراً بتخفيض سعر رطل الفلوس من ستة فلوس إلى خمسة فلوس ونصف ، لكن هذا التخفيض جاء متعارضاً مع الأسعار الواقعية التى كان معمولا بها فى الأسواق وقتئذ حسب قانون العرض والطلب ، فلحق بالناس الضرر لأنه فى الوقت الذى خفضت فيـــه أسعار العملة ظلت أسعار المبيعات والأجور ثابتة كما هى (٢) ، فهاج الناس وأشتدت شكواهم ، فاضطر السلطان إزاء ذلك إلى إصدار الأمر بتخفيض أسعار السلع فى الأسواق بنفس النسبة التى خفض بها أسعار العملة (٣) ، فأطاع التجار والباعة أمره على مضض ، لكن بعضهم عمد إلى التوقف عن جلب البضائع والسلع كما عمد إلى إخفائها ، فأصبح الناس فى ضيق من ذلك (٤) .

ولم يلبث الزغلية أن أفسدوا على المؤيد كل محاولاته لإصلاح أمر العملة ،

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ٢، قسم ٢ ورقة ٤٢٩
(٢) المقريزى : السلوك ، مخطوط ، مجلد ١٠ ورقة ٣٠٢ أ .
(٣) ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٩١ .
(٤) المقريزى : السلوك ، مخطوط ، مجلد ١ ورقة ٣١٧ب ، ٣١٨ أ .

فقد امتدت أيديهم إلى الدراهم المؤيدية فانقصوا وزنها بزرشها (١) ، كما ضربوا على مثالها دراهم من النحاس المخلوط باليسير من الفضة ، فاهتزت الثقة بدراهم المؤيد وعادت الأهمية الفلوس ، وعادت لها الصدارة فى المعاملات التجارية بين الناس . غير أنها هى أيضا لم تلبث أن زاد فسادها لزيادة نقص النحاس فى مصر وزيادة إرتفاع سعره ، فصار يخلط معها أكثر من ثلاثة أرباع وزنها مسامير حديدية مكسرة ، ونعال خيل حديدية ، وقطع من النحاس والرصاص (٢) .

ولقد حاول السلطان الأشرف برسباى أن يقوم هو الآخر بمحاولة إصلاح جديدة للعملة ، فأصدر أمراً بمنع التعامل بالفلوس المخلوطة ، وأن يكون التعامل فقط بالفلوس المنتقاة غير المخلوطة ، ولكى يضمن النجاح لمحاولته تلك حرص على أن يكون واقعيا وأن يساير الارتفاع الفعلى لسعر النحاس وقتئذ ، فرفع الرطل من الفلوس المنتقاة إلى ٩ فلوس (٣) ، وكان أمله من رفع سعر الفلوس المنتقاة أن يقل تهريبها إلى خارج مصر ، غير أن عملية تهريبها استمرت رغم ذلك ، وبدأ الناس فى إخفاء الفلوس التى لديهم بعد أن سرت شائعة بأن السلطان سيرفع سعرهـا مرة أخرى ، وكان قصدهم من ذلك أن يستفيدوا من الزيادة الجديدة المرتقبة ، فساعد كل ذلك على حدوث أزمة فى الفلوس ، حتى أن الشخص

---

(١) عرف المقريزى هرش العملة فقال أن الهرش معناه أن يبرد من الدرهم حتى يخف وزنه ويصير نحو ربع درهم . المقريزى : السلوك ، مخطوط ، مجلد ١١ ورقة ٣٤٩ ب .

(٢) نفس المرجع مجلد ١١ ورقة ٣٤٠ ب .

(٣) ابن حجر : إنباء الغمر جـ٢ ورقة ٢٥١ .

يدور بدوره من الفضة ليصرفه فلا يجد به فلوسا »(١)، فاضطر السلطان برسباى إزاء ذلك أن يزيد سعر الرطل منها للمرة الثانية حتى بلغ ١٢ فلسا (٢)، فعندئذ بدأ الناس يظهرونها (٣)، لكن رغم ذلك فقد ظل سعرها يرتفع للأسباب التى سبق أن ذكرناها حتى وصل سعر الرطل منها إلى ٢٧ درهما فلوسا(٤).

هذا فيما يختص بالفلوس، أما الدنانير فقد أقدم برسباى على محاولة جديدة لمقاومة الدينار الإفرنتى على وجه الخصوص وذلك بعد لاحظ إنتشاره الكبير فى كل مصر والشام والحجاز واليمن وإقبال الناس على التعامل به برغبة وثيقة فيه، فضرب دينارا ذهبيا جديداً على زنة الإفرنتى عرف بالأشرفى، وأصدر أمراً بمنع التعامل بالإفرنتى بحجة أنه يحمل شعار الكفر الذى لا تجيزه الشريعة المحمدية، وألزم الناس أن يحملوا ما لديهم من الدنانير الإفرنتية إلى دار الضرب ليعاد سكها هناك دنانير أشرفية. لكن الناس خسروا بسبب ذلك خسائر كبيرة لأن دار الضرب كانت تدفع لهم فى ثمن الإفرنتى ٢٢٠ فلسا فقط، بينما كان سعره الفعلى المعمول به فى الأسواق وقتئذ هو ٢٢٥ فلسا. كما أن الدنانير الأشرفية التى ضربت بدل دنانيرهم الإفرنتية جعل سعرها مرتفعا يزيد على الإفرنتى بعشرة دراهم (٥). وبالرغم من ذلك فقد ظل الناس إلا قليلا منهم يتعاملون بالدنانير الإفرنتية، على عادتهم فى الاستهانة بمراسيم الحكام »(٦).

---

(١) ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢٨.
(٢) نفس المرجع والورقة.
(٣) ابن حجر : إنباء الغمر ج ٢ ورقة ٢٩٨.
(٤) نفس المرجع والجزء ورقة ٥٨٥.
(٥) المقريزى. السلوك، مخطوط، مجلد ١١ ورقة ٢٧١ ب، ٤٠٤ أ.
(٦) نفس المرجع والمجلد ورقة ٢٧٨ ب.

أما فيما يختص بالدراهم الفضة فقد وجد برسباى أن الناس فى عهده يتعاملون بأنواع عديدة منها كالمؤيدية التى سبق أن سكها السلطان المؤيد ، والبندقية ضرب البندقية ، والقرمانية ضرب بن قرمان بآسيا الصغرى ، والتكية ضرب بلاد العجم ، والقبرصية ضرب قبرص . ولم يكن فى كل هذه الدراهم ما يصلح التعامل به إلا المؤيدية والبندقية ، لذلك سمح برسباى بالتعامل بها فقط ، أما الدراهم الأخرى فقد منع التعامل بها لأن أربع أعشارها كان نحاسا (١) . وفى نفس الوقت ضرب برسباى دراهم فضية جديدة باسمه عرفت بالأشرفية ، وحدد سعر الدرهم منها بعشرين فلسا (٢) . ونلاحظ أن سعر الدرهم الفضى الأشرفى يزيد على سعر الدرهم المؤيدى ، وهذه الزيادة بالطبع كانت نتيجة حتمية للنقص المستمر فى كميات الفضة الموجودة بمصر وازدياد تهريبها إلى الخارج ، وكان برسباى يدرك هذه الحقيقة لذلك فقد أمر بعدم صنع الأدوات والأوانى من الفضة ، كما تشدد مع التجار الذين كانوا يهربون الدراهم الفضية إلى الحجاز ويبيعونها هناك للتجار الهنود بربح كبير (٣) .

وفى عهد السلطان الأشرف إينال ضربت دراهم جديدة لكنها جاءت مغشوشة إلى درجة كبيرة حتى أن العامه أخذت تتندر عليها ويقول الواحد منهم « إن كان نصفك (أى النصف درهم) إينالى لا تقف ولى دكانى » (٤) ، فاضطر إينال إزاء

---

(١) نفس المرجع والجلد ورقة ٤٠٤ ا .

(٢) نفس المرجع مجلد ١٢ ورقه ٤٢٤ ب

(٣) نفس المرجع والمجلد ورقه ٤٢٢ - ابن حجر: إنباء الغمر ج ٣ ورقة ٦١٧

(٤) ابو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٩٥

ذلك أن يلغيها ، فأسرع العامة يكلون سخريتهم ويقولون ، السلطان من مكنته أبطل نصفه ، (١).

وبالرغم من محاولات إينال الحد من التصاعد المستمر في أسعار العملة فسعر الدينار الذهبي ب ٣٠٠ فلس فقط زعم أن سعره الذى كان معمولاً به في الأسواق وقتئذ كان قد بلغ حوالى ٤٦٠ فلساً . ثم أمر بانقاص ثمن جميع المبيعات من الملبوس والمأكول وغيرها بمقدار الثلث لكى لا يلحق بالناس الضرر بعد أن خفض سعر الدينار ، غير أن الباعة وأصحاب الحوانيت غلقوا حوانيتهم معترضين على تخفيض أسعار السلع ، فتشدد إينال في معاقبتهم وساعده عامة الناس في الإبلاغ عنهم ، فعند ذلك شرع أرباب البضائع في بيع بضائعهم بالثلثي ما كانوا يبيعونه أولا من جميع الأشياء حقيرها وجليلها ... فإنه لو ترك الناس على ما هم عليه لزاد سعر الدينار حتى يبلغ ألف درهم (٢) .

لكن رغم كل المحاولات التى قام بعض سلاطين الجراكسة لاصلاح العملة والحد من ارتفاع سعرها إلا أن سعرها رغم ذلك ظل فى ارتفاع مستمر بسبب النقص المستمر فى الذهب(٣) والفضة والنحاس ، وظلت أسعار السلع ترتفع تبعا

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٣١١

(٣) من بين العوامل التى ساعدت على زيادة نقص رصيد مصر من الذهب فى العهد المماليكى الجركسى تحول نظام التعامل التجارى بينها وبين الدول الأوروبية التى كانت تتاجر معها من نظام الدفع بالنقد إلى نظام المقايضة ، وهو النظام الذى بدأ ظهوره فى المعاهدات التجارية التى عقدت بين مصر وبين بعض الدول الأوروبية =

لذلك هى الأخرى ، ففى عهد السلطان نايتباى ارتفع سعر رطل الفلوس إلى ٢٦ فلسا(١) فارتفعت الأسعار فى كافة السلع (٢) .

ولا شك أيضا أنه كان من بين أسباب استمرار ارتفاع الأسعار فى أواخر عهد المماليك تدهور القيمة الشرائية لعملاتهم بعد أن زاد الغش والزغل فيهما إلى

= التجارية كالبندقية وفلورنسة منذ القرن الخامس عشر الميلادى . توفيق إسكندر : نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العصور الوسطى ص ٣٩ .

ولا شك أن النظام الأول ، أى نظام الدفع بالنقد كان يتيح لمصر الحصول على مقادير كبيرة من العملات الذهبية من هذه الدول ثمنا لمشترياتها التجارية منها ، خصوصا وأن قيمة صادرات مصر إلى هـــذه الدول من السلع الشرقية كالفلفل والتوابل والبهارات بأنواعها كانت أكبر من قيمة صادرات هـذه الدول إليها . توفيق إسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ص ١٧٩ .

أما السبب الذى دفع بهذه الدول إلى التحول إلى نظام المقايضة مع مصر فيرجع إلى أنها أصبحت تعانى صعوبة فى الحصول على الذهب من مصادره فى السودان الغربى عن طريق شمال إفريقيا ، فالبرتغاليون منذ أن ارتادوا الطريق البحرى الموصل إلى ساحل إفريقيا الغربى ووصلوا إلى ساحل غينيا عام ١٤٦٠ م بدأ ذهب السودان الغربى يتجه عن طريق البحر بالسفن البرتغالية إلى البرتغال ، فحرمت منه البندقية وغيرها من الدول الأوروبية التى كانت تتاجر مع مصر ، فأصبح من المتعذر عليها لهذا السبب الدفع بالذهب ، فاضطرت إزاء ذلك إلى الإتفاق مع مصر على نظام المقايضة ، وهو نظام ساعد ولا شك على زيادة أزمة الذهب فى مصر . توفيق إسكندر : بحوث فى التاريخ الإقتصادى ص ٨٣ - ٨٦

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢١٠

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٤١

حد كبير ،وبعد أن أصبحت هذه العملات المغشوشة تسك فى دار الضرب الحكومية ذاتها بعلم من الحكومة وبدون إعتراض منها .ويبدو ذلك واضحا فى عهد السلطان الغورى فضامن دار الضرب فى عهده أصبح لا يتورع عن سك العملة المغشوشة وجشع فى إضافة النحاس والرصاص إلى الذهب والفضة جهارا (١) ليحقق لنفسه أكبر ربح ممكن ، ولذلك كانت العملة التى سكت فى عهده السلطان الغورى سواء الذهبية أو الفضية أو الفلوس من « أنحس المعاملات ، جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل بها بيع ولا معاملة فى ملة من الملل » (٢) .

• — المكوس :

سبق أن عرضنا فى الفصل الخاص بالنظام المالى أنواع المكوس الكثيرة والعديدة التى كانت تجبى من الناس على اختلاف فئاتهم ومهنهم وحرفهم .وأوضحنا أن جشع السلاطين لم يقف عند حد فى هذا الأمر ، وبالطبع كان لهذه المكوس دورها الواضح هى الأخرى فى رفع الأسعار بالأسواق . ولقد نوه أكثر من مؤرخ من مؤرخى مصر المماليكية بذلك فالقلقشندى قال أنه كان يجبى من القاهرة وحدها إثنان وسبعون مكسا « حتى عمت البلوى بهذه المكوس » (٣) .

ويقول المقريزى أنه كرد فعل لكثرة المكوس التى كانت تجبى من التجار والباعة أصبح هؤلاء « يزيدون فى الأسعار عامة بقدر مايؤخذ منهم السلطان » (٤)

---

(١) نفس المرجع ج ٣ ص ٥٩

(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٦

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٣٤

وبما زاد فى بلوى هذه المكوس أن بعضها كان له ضامن يقوم بأدائها لديوان السلطان مقدما ، ثم يقوم هو بعد ذلك بجمعها حسب إجتهاده ، فإن زاد المال الذى دفعه لديوان السلطان كانت له هذه الزيادة(١) . وبالطبع ما من ضامن إلا وكان يجمع من المال بزيادة كبيرة عن المال الذى دفعه ، وهذا ينعكس بالتالى على الأسعار ، فكل جباية تجبى من التجار والباعة كانوا يعوضونها من المستهلكين كما أوضحنا من قبل .

ولقد ساهمت الجبايات المرهقة التى كانت تجبى من الفلاحين فى نقص الإنتاج الزراعى وفى حدوث أزمات اقتصادية وارتفاع فى الأسعار ، ومن أمثلة ذلك أنه عندما شرع السلطان الغورى فى تجهيز جيشه لمواجهة الغزو العثمانى أمر بأن تجبى من بلاد وقرى الشرقية والغربية والصعيد الأموال، فلما سمع الفلاحون بذلك هربوا ، وتركوا زروعهم فى الأرض ورحلوا ، وخرب بعض بلاد من هذه الحركة .(٢)

٦ — المتجر السلطانى والرمايات والاحتكار

من مساوىء العهد المماليكى إشتغال السلاطين بالتجارة ، فالسلطان كانت له تجارة تعرف باسم المتجر السلطانى ، وكان لهذا المتجر ديوان يدير شئونه (٣) . وقد لجأ السلاطين إلى كل السبل المشروعة أو الغير مشروعة لتحقيق الربح لمتجرهم، واستخدموا فى ذلك وسائل عديدة .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٦

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج٣ ص٢١

(٣) المقريزى : المواعظ ج١ ص ١٠٩ .

ومن بين ما لجأوا إليه فى هذا الشأن « الرمايات » ، وهى أن يرمى السلطان بضائع وسلع على التجار - أى يطرحها عليهم - ويجبرهم على شرائها منه سواء كانوا فى حاجة إليها أم غير محتاجين ، وبالثمن الذى يحدده ديوانه فى هذا الشأن ، وغالبا مايكون هذا الثمن مرتفعا عن سعرها الفعلى الذى تباع وتشترى به فى السوق. وفى أغلب الأحيان كان التجار يلزمون بأداء ثمن السلع التى رميت عليهم بأسرع وقت ، فلا يجدون مفرا من التنفيذ وهم صاغرون ، حتى ان بعضهم كان يضطر للاستدانة لأداء المطلوب منهم للسلطان (١) ، وكان أمام التجار بعد ذلك أحد أمرين : إما أن يعيدوا بيع السلع التى رميت عليهم بسعرها الفعلى فى الأسواق فتلحق بهم الخسارة فى هذه الحالة (٢) ، أو أن يرفعوا سعرها لتعويض الزيادة فى ثمنها التى أجبروا على دفعها لديوان المتجر السلطانى . وبالطبع كانوا يلجأون إلى الى الأسلوب الأخير لكى لا تلحق بهم الخسارة ، فأصبحت الرمايات بذلك سببا من أسباب ارتفاع الأسعار والغلاء ، ومن أمثلة ذلك أنه فى عام ٧٩٨ هـ كان سعر أردب القمح لا يتجاوز الستين درهما « وطلع بسبب الرمايات الى مائة وعشرة »(٣) ، فما كان من المحتسب الا أن عزل نفسه احتجاجا على تصرف السلطان (٤) .

---

(١) نفس المرجع السابق والجزء ص٢٢٣

(٢) ابن حجر : انباء الغمر جـ١ ورقة ٢٣٨ - المقريزى : السلوك، مخطوط، مجلد ٨ ورقة ١٠٢ ب

(٣) ابن حجر : نفس المرجع السابق والجزء ورقة ٢٩٨

(٤) نفس المرجع السابق والجزء والورقة

كما أنه فى عهد السلطان فرج بن برقوق كثر رمى البضائع على التجار والباعة بأغلى الأثمان ، فخرب اقليم مصر وزالت نعمة أهله وقلت أموالهم وصار الغلاء بينهم كأنه طبيعى لا يرجى زواله » (١) .

ومن بين السلاطين الذين عرفوا بالشراهة فى الرمى على التجار السلطان برسباى ، فقد أكثر هذا السلطان من رمى الغلال والسكر والأرز وسلع أخرى على الحوانيت والطواحين (٢) . ولم يكتف هذا السلطان بالرمى فقط بل التجأ أيضا الى الاحتكار لتحقيق ربح أكبر لمتجره ، فاحتكر السكر لفترة من الزمن ، واحتكر وحده صنعه بمصانعه وبيعه ، ومنع مصانع السكر الأهلية من صنعه ، ومنع الناس من شرائه إلا من الحوانيت التى يباع بها سكر السلطان ، وفرض عليهم سعرا مرتفعا لشرائه (٣) . ولكى تكون حلقة احتـــكاره للسكر محكمة لذلك فقد احتكر أيضا زراعة قصب السكر بمزارعه ومنع الناس من زراعته (٤).

وزاد بجشعه فاحتكر الفلفل ، وأمر بأن لا يباع إلا له فقط ، ولا يشترى

---

(١) المقريزى : السلوك مجلد ١٠ ورقة ٢٧١أ

(٢) نفس المرجع السابق مجلد ١١ ورقة ٢٧٦أ ـ ابن الصيرفى: نزهة النفوس والابدان ورقة ٣٠٥

(٣) نفس المرجع والمجلد ورقة ٢٥٨ ب ، ١٠٢أ ـ ابن حجر . إنباء الغمر : ج٢ ورقة ٣٦٢

(٤) ابن حجر : انباء الغمر ج٢ ص ٤٤٤

الا منه وحدة (١) ، وفى أواخر عهده احتكر اللحم وشدد على الجزارين أن لا يشتروا الا أغنامه فقط ، فلم يسمع بمثل ذلك ، (٢).

ولم يكن برسباى هو الوحيد الذى مارس سياسة الاحتكار فقد سبقه فى ذلك الأمير يلبغا الناصرى الذى اغتصب السلطة من السلطان برقوق لفترة من الزمن ، فقد احتكر هذا الأمير الملح أثناء فترة حكمه ، وألزم الباعة أن لا يشتروه الا منه ، فلهذا بلغ الملح أضعاف ثمنه ، (٣).

ونظرا لأهمية الملح فقد احتكره السلطان الغورى أيضا فى عام ٩١٩هـ ، فكان من نتيجة ذلك أن عز وجوده وارتفع سعره (٤).

٧ - جشع الأمراء وحماياتهم

كان للامراء أيضا دور فى بعض الغلوات التى ألمت بمصر ، فقـــد كانوا يعمدون الى اختزان الغلال فى مخازنهم ليرتفع سعرها ، ثم لا يعرضونها للبيع الا اذا ضمنوا من وراء ذلك ربحا كبيرا . ولقد كان جشعهم هذا سببا فى غلاء الغلال عام ٧٣٦هـ فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، مما اضطر معه هذا السلطان الى استدعاء واحد منهم وهو الأمير قوصون وصب عليه جام غضبه رغم أن هذا الأمير كان من بين الأمراء المقربين اليه ، وسبه السلطان ولعنه وصرخ

---

(١) المقريزى : السلوك ، مخطوط ، مجلد ١٢ ورقة ٤٢٩أ

(٢) المرجع السابق ورقة ٤٣٧ ب ـ ابن حجر : نفس المرجع السابق والجزء ورقة ٦٣٥

(٣) المقريزى : المرجع السابق مجلد ١٠ ورقة ٢٨٨ ب

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ٤ ص٣٥٥

فى وجهة قائلا و لمك أنت تريد أن تخرب على مصر ، وشهر سيفه عليه وكاد أن يفتك به . ثم أمر السلطان بمصادره الغلال التى يختزنها الأمراء بشونهم ، وبيعها الى الطحانين تحت اشراف المحتسب (١) .

ولم يقف جشع الأمراء عند هذا الحد فقط فكثيرا ما استغلوا نفوذهم وسطوتهم فى فرض الحمايات والحماية مال أو مكس كان يفرضه هؤلاء الأمراء على بعض أصحاب الإقطاع ، وأصحاب المزارع والملاك والمتاجر والطواحين والمراكب وغيرهم لكى يحموهم بنفوذهم وجاههم وسطوتهم من دفع المكوس التى تفرضها الدولة عليهم (٢) .

والملاحظ أن هذه الحمايات كانت قليلة بل ونادرة فى العهد المماليكى البحرى (٣) ، ولكنها بدأت تكثر وتظهر بشكل واضح منذ العهد المماليكى الجركسى ، وأخذ هؤلاء الأمراء يضربون رنوكهم أى أشعرتهم على الاماكن التى يضعونها تحت حمايتهم ، اعلانا بأن هذا المكان أو المتجر أو المطحن أو خلافه قد أصبح تحت حماية صاحب الرنك منهم ، فلا يجرؤ أحد بعدها حتى ولو كان من رجال السلطان أن يطالبهم بدفع أى مكس من المكوس .

ولقد حاول السلطان برقوق جاهدا أن يقف أمام جشع الأمراء وأن يحد من الحمايات التى فرضوها هنا وهناك (٤) ، لكن يبدو أن الجهد الذى بذله فى هذا الشأن

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ قسم ٣ ص ٨٧٥
(٢) الأسدى : التيسير والاعتبار ، مخطوط ، ورقة ٢٧ ، ٥٢ ، ٥٣
(٣) المقريزى : السلوك جـ٢ قسم ٢ ص ٢٩٤ .
(٤) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك مجلد ٩ جـ٢ ص ٤١٢

لم يأت بنتيجة حاسمة، بل لقد كثرت الحمايات إلى درجة كبيرة في عهد ابنه السلطان الناصر فرج إلى درجة أن السلطان فرج نفسه أصبحت له حمايات هو الآخر، وخصص لهذه الحمايات ديوانا ومباشرين، فقلده الأمراء في ذلك(١)

ولما استفحل أمر الحمايات في العهد المماليكي الجركسي خشي السلطان برسباي أن تقف حمايات الأمراء حائلا بينه وبين تحقيق سياسته الجشعة في الاحتكارات والرمايات فأمر بنسخ حمايات الأمراء، وبإزالة دواوينهم التي عملوها على الحوانيت والطواحين والمعاصر وغيرها(٢)، لكنه لم يستطع أن ينفذ أوامره تلك إلا في نطاق ضيق محدود(٣).

ولا شك أن هذه الحمايات كان لها دور فعال في ارتفاع الأسعار، ويشرح الأسدى دورها في هذا الشأن فيقول «والحمايات حكمها مال يحمل، والمال المحمول يضاف إلى أصول الأسعار كما تضاف المكوس والمظالم والمغارم إلى جميع أسعار البضائع»(٤)

والواقع أن جشع الأمراء لم يقتصر فقط على اختزان الغلال وفرض الحمايات، فقد امتد جشعهم أيضا إلى الأراضي الزراعية المعروضة عليهم إقطاعا، فأخذوا يزيدون من قيمة إيجارها، وجعلوا الزيادة ديدنهم في كل عام، حتى تضاعفت

(١) المقريزي: المواعظ جـ١ ص ١٩١
(٢) المقريزي: السلوك (مخطوط)، مجلد ١١ ورقة ٣٧٦ أ.
(٣) ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٠٥ .
(٤) الأسدي: التيسير والاعتبار ورقة ٢٧ و.
(٥) المقريزي: إغاثة الأمة ص ٤٦

هذه القيمة حتى بلغت فى عام ٨٠٦ هـ عشرة أمثال ما كانت عليه قبل هـذا العام بسنوات قليلة ، فزادت تكاليف الانتاج الزراعى تبعا لذلك ، وزادت بالتبعية أيضا أسعار المحاصيل الزراعية . ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد فبعض الفلاحين من أرهقتهم كثرة الجبايات والمظالم لم يستطيعوا تحمل المزيد منها ممثلة فى الزيادة المستمرة المفتعلة فى قيمة إيجار الأراضى الزراعية التى يستأجرونها من الأمراء أصحاب الاقطاع ، فاضطروا فى آخر الأمر أن يتركوا هذه الأراضى وتشردوا فى البلاد ، فقلت الأيدى العاملة فى فلاحة الأرض وزراعتها ، فانخفض مقدار الانتاج الزراعى تبعا لذلك . وكان لهذا كله أثره الواضح فى ارتفـاع أسعار المحاصيل الزراعية ارتفاعا فاحشا لم يستطيع الشعب تحمله فى بعض السنين وبلغ حد الكارثة . ويتضح هذا جلياء فى المجاعة والمحنة الاقتصادية التى خيمت على مصر فى عام ٨٠٦ هـ ، فقد كانت الزيادات الكبيرة المفتعلة فى قيمة إيجارات الأراضى الزراعية أحد الأسباب الرئيسية لحدوثها (١) .

٨ — اضطراب الأمن :

الازدهار الاقتصادى فى أى بلد يحتاج دائما إلى أمن مستتب ، فبدون هذا الأمن تضطرب الأحوال الاقتصادية لهذا البلد .

والأمن فى العهد المماليكى لم يكن مستتبا فى كل وقت ، فـكثيرا ما كان ينشب صراع دموى رهيب بين السلطان القائم فى الحكم وبين منافسيه من الأمراء الطامعين فى عرش السلطنه وكثيرا أيضا ما كان يشتعل قتال دموى وحشى بين فرق المماليك المتصارعة على السلطة ، ولقد ترك هذا كله أثره الواضح على الحالة الاقتصادية فى مصر بصفة عامة وأسعار السلع بصفة خاصة . ولقد كان القتال الذى

(١) نفس المرجع ص ٤٦ ، ٤٧

نشب بين السلطان العادل كتبغا وبعض الأمراء من بين الأسباب التي ساعدت على اشتداد وطأة المجاعة التي ألمت بمصر في عهده عام ٦٩٤ هـ(١).

والفوضى التي أشاعها الجلبان(٢) من المماليك السلطانية في بعض فترات العهد المماليكي الجركسي كان لها أثرها هي الأخرى في ارتفاع الأسعار، فقد بلغ من شده بأسهم وسطوتهم في عهد السلطان برسباي أنهم «صالوا وطالوا وجالوا، وزاد شرهم، وأخذوا في الفدين حتى خافهم أعيان الدولة»(٣)

وفي عهد السلطان جقمق هجم هؤلاء الجلبان على المراكب المحملة بالغلال ونهبوا مابها، فكف أصحاب الغلال عن البيع خوفا من هؤلاء الظلمة فعظم البلاء»(٤). أما في عهد السلطان إينال فقد صاروا يهاجمون شون الأمراء وينهبون

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة ص ٢٧

(٢) المماليك الجلبان هم المماليك الذين جلبوا من سائر الأقطار إلى مصر واشتراهم سلاطين المماليك فأصبحوا من المماليك السلطانية. والملاحظ أن سلاطين المماليك البحرية بصفة عامة - وبالأخص السلطان المنصور قلاوون وابنه السلطان الناصر محمد - كانوا يشترون هؤلاء المماليك صغارا، ويعتنون بتربيتهم وتنشئتهم دينيا وعسكريا، ويشرفون على ذلك بأنفسهم. لكن منذ بداية العهد المماليكي الجركسي بدأت العناية باختيارهم وتنشئتهم تقل، ولقد بدأ هذا التهاون في أمرهم يظهر بوضوح منذ عهد السلطان برقوق، ثم زاد في عهد ابنه السلطان فرج حتى أصبح هؤلاء الجلبان أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدرا، وأكثرهم إعراضا عن الدين، ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد، وألص من فاره، وأفسد من ذئب». المقريزي: المواعظ جـ ٢ ص ٢١٣، ٢١٤.

(٣) ابن الصيرفي: نزهة النفوس والابدان ورقة ٢٦٩

(٤) أبو المحاسن: حوادث الدهور جـ ١ ص ٨٩

ما يا ، كما هاجموا الأسواق ونهبوها هى الأخرى ، فكان من نتيجة ذلك أن امتنعت السوقة عن البيع وارتفع سعر كل شئ (١) . وفى عهـد السلطان خشقدم زاد شرهم وجورهم ، وأصبح الكل يخشاهم ويخافهم ، فانتهز الفرصة بعض اللصوص وأخذوا يتزيون بزيهم ، ويتوجه الواحد منهم إلى أى حانوت شاء ويأخذ منه ما يشاء فلا يجسر صاحب الحانوت على منعه بل حتى سؤاله(٢) .

ولم يكن الجلبان وحدهم هم الذين عكروا صفو الأمن فى مصر ، فقد شاركهم العربان فى ذلك ، فهؤلاء العربان كثيرا ما كانوا يثورون ويخرجون على الطاعة ، ولقد أدت ثوراتهم تلك إلى حدوث عدة غلوات وأزمات إقتصادية خصوصا فى المناطق التى كانوا يعيشون فيها فسادا (٣) ، ولعل ابن حجر كان مصيبا إلى حد كبير عندما قال أن الفتن التى أثارها العرب بعدة نواح من مصر كانت أحد الأسباب الرئيسية للغلاء العظيم الذى شمل مصر فى عام ٨١٨ هـ فى عهـد السلطان المؤيد (٤) .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٤٩ ، ٥٦ ، صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٤٠

(٢) ابن شاهين : الروض الباسم فى حـوادث العمر والتراجم ، مخطوط ، مجلد ٢ ورقة ٤٥

(٣) أبو المحاسن : حوادث الدهور جـ ٢ ص ٤٥٨

(٤) ابن حجر : ابناء الغمر جـ ٢ ورقة ١٢٢ .

جدول بأسماء سلاطين المماليك وسنوات حكمهم

أولا : دولة المماليك البحرية

السلطان عز الدين أيبك التركمانى	٦٤٨ هـ
« نور الدين على بن المعز أيبك	٦٥٥ هـ
« المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧ هـ
« الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى	٦٥٨ هـ
« محمد بركه خان بن بيبرس	٦٧٦ هـ
« سلامش بن بيبرس	٦٧٨ هـ
« المنصور سيف الدين قلاوون	٦٧٩ هـ
« الأشرف خليل بن قلاوون	٦٨٩ هـ
« الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الأولى)	٦٩٣ هـ
« العادل زين الدين كتبغا	٦٩٤ هـ
« حسام الدين لاجين	٦٩٦ هـ
« الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثانية)	٦٩٨ هـ
« ركن الدين بيبرس الجاشنكير	٧٠٨ هـ
« الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثالثة)	٧٠٩ هـ
« سيف الدين أبو بكر بن محمد بن قلاوون	٧٤١ هـ
« علاء الدين كجك بن محمد قلاوون	٧٤٢ هـ
« شهاب الدين أحمد بن محمد بن قلاوون	٧٤٢ هـ
« عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون	٧٤٣ هـ
« الكامل سيف الدين شعبان بن محمد بن قلاوون	٧٤٦ هـ

السلطان زين الدين حاجي بن محمد بن قلاوون	٧٤٧ ه
« الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (سلطنة الأولى)	٧٤٨ ه
« صلاح الدين صالح بن محمد بن قلاوون	٧٥٢ ه
« الناصر حسن بن محمد قلاوون (سلطنة الثانية)	٧٥٥ ه
« صلاح الدين محمد بن حاجي	٧٦٢ ه
« الأشرف شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون	٧٦٤ ه
« علاء الدين علي بن شعبان	٧٧٨ ه
« زين الدين حاجي (سلطنة الأولى)	٧٨٣ ه

ثانيا : دولة المماليك الجراكسه

« الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق (سلطنة الأولى)	٧٨٤ ه
« زين الدين حاجي بن شعبان (سلطنته الثانية)	٧٩١ ه
« الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق (سلطنة الثانية)	٧٩٢ ه
« أبو السعادات فرج ابن الملك الظاهر برقوق (سلطنة الأولى)	٨٠١ ه
« عز الدين أبو العز عبد العزيز ابن الملك الظاهر برقوق	٨٠٨ ه
« أبو السعادات فرج ابن الملك الظاهر برقوق (سلطنة الثانية)	٨٠٨ ه
« (الخليفه) المستعين بالله	٨١٥ ه
« المؤيد أبو النصر شيخ بن عبدالله محمود الظاهرى	٨١٥ ه
« أحمد بن المؤيد شيخ	٨٢٤ ه
« الظاهر سيف الدين ابو سعيد ططر	٨٢٤ ه
« ناصر الدين محمد بن ططر	٨٢٤ ه
« الأشرف أبو النصر برسباى الدقاق	٨٢٥ ه

السلطان جمال الدين يوسف بن برسباى	٨٤١ هـ
« الظاهر سيف الدين ابو سعيد جقمق	« ٨٤٢
« أبو السعادات فخر الدين عثمان بن جقمق	« ٨٥٧
« الأشرف أبو النصر سيف الدين إينال العلائى	« ٨٥٧
« ابو الفتح شهاب الدين أحمد بن الأشرف إينال	« ٨٦٥
« ابو سعيد سيف الدين خشقدم الناصرى	« ٨٦٥
« سيف الدين بلباى المؤيدى	« ٨٧٢
« الظاهر ابو سعيد تمربغا الظاهرى	« ٨٧٢
« الأشرف ابو النصر سيف الدين قايتباى المحمودى الظاهرى	« ٨٧٢
« ابو السعادات ناصر الدين محمد بن قايتباى (سلطنته الأولى)	« ٩٠١
« قانصوه خمسائه	« ٩٠٢
« محمد بن قايتباى (سلطنته الثانيه)	« ٩٠٢
« الظاهر ابو سعيد قانصوه بن قانصوه الأشرفى	« ٩٠٤
« أبو النصر جان بلاط بن يشبك الأشرفى	« ٩٠٥
« العادل طومان باى بن قانصوه ابى النصر الأشرفى قايتباى	« ٩ ٦
« ابو النصر قانصوه من بيبردى الغورى الأشرفى	« ٩٠٦
« ابو النصر طومان باى من قانصوه الناصرى	« ٩٢٢



المصادر والمراجع

اولا ـ مصادر عربية مخطوطة

١ ـ الأسدى (شمس الدين محمد بن محمد) معاصر السلطان الغوري :

التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار ـ مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٥٤٨٦ تاريخ .

٢ ـ ابن إياس (ابو البركات محمد بن أحمد) ت ٩٢٠ هـ :

نشق الأزهار فى عجائب الأقطار ـ مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٠٩ ط

٣ ـ ابن أيبك (ابو بكر بن عبد الله) من علماء القرن ٨ هـ :

كنز الدرر وجامع الغرر ـ مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٢٥٧٨ تاريخ .

٤ ـ ابن بسام (شمس الدين محمد بن شهاب الدين أحمد) :

كتاب أنيس الجليس فى أخبار تنيس والجزائر ـ مخطوط بدار الكتب رقم ١٨٥٢ أدب .

٥ ـ ابن بسام (محمد بن أحمد) القرن الثامن الهجرى :

كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ـ مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٢٩٨

٦ ـ التان تمرى (طيبغا الجركلشى) القرن الثامن الهجرى :

الفلاحة المنتخبة ـ مخطوط بدار الكتب رقم ٣٨ زراعة

٧ ـ التونسى (محمد بن عمر) معاصر محمد على :

الشذور الذهبية فى الألفاظ الطبية ـ مخطوط مصور بدار الكتب رقم طب .

٨ - الجبرتى (حسن بن ابراهيم) ت ١١٨٨ ه :

العقد الثمين فيما يتعلق بالموازين - مخطوط بدار الكتب رقم ٤٥٢٧ ك .

٩ - الجزرى الدمشقى (محمد بن ابراهيم) ت ٧٣٩ ه :

تاريخ الجزرى - مخطوط بدار الكتب رقم ٤٢٢ه تاريخ .

١٠ - أحد تلاميذ ابن حجر :

تاريخ الأمير يشبك الظاهرى ورحلته فى آسيا الصغرى - مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٢٥٩٢ .

١١ - الخالدى ، معاصر للسلطان برسباى :

المقصد الرفيع المنشا الهادى إلى صناعة الانشا - مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٢١٠٢١ ز

١٢ - ابن دقماق (صارم الدين ابراهيم بن محمد) ت ٨٠٩ ه :

الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين - مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٢٢ تاريخ .

١٣ - ابن زولاق (ابو محمد الحسن بن ابراهيم) ت ٣٨٧ ه :

كتاب فضائل مصر وصفاتها - مخطوط بدار الكتب رقم ٢٣

١٤ - ابن سباهى (محمد) ت ٩٩٧ ه

أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والمالك - مخطوط بدار الكتب رقم ١٩٧٤ط

١٥ - ابن شاكر الكتبى (صلاح الدين ابو عبد الله محمد بن احمد) ت ٧٦٤ ه :

عيون التواريخ - مخطوط مصور بدار الكتب رقم ١٤٩٧ تاريخ

١٦ - ابن شاهين (ابو المكارم عبد الباسط بن خليل) ت ٩٢٠ ﻫ :

الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم - مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٢٤٠٢ تيمور تاريخ .

١٧ - ابن الصيرفى (على بن داود ابراهيم الخطيب الجوهرى الحنفى) ت بعد ٩٠٠ ﻫ :

نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان - مخطوط بدار الكتب رقم ١١٦ م

١٨ - ابن ظهيره - القرن العاشر الهجرى :

الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة - مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٦٠ تاريخ

١٩ - العسقلانى (ابن حجر) ت ٨٥٢ ﻫ :

إنباء الغمر بأنباء العمر - مخطوط بدار الكتب فى مجلدين رقم ٢٤٧٦ تاريخ

٢٠ - على مبارك ت ١٣١١ ﻫ :

الموازين والمكاييل والمقاييس - مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢٤ ك

٢١ - العمرى (شهاب الدين أحمد بن فضل الله) ت ٧٤٢ ﻫ :

مسالك الأبصار فى ممالك الامصار - مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٥٥٩ دوائر معارف .

٢٢ - العينى (بدر الدين محمود) ت ٨٥٥ ﻫ

عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان - مخطوط مصور بدار الكتب ٢٣ جزءاً فى ٦٩ مجلد - رقم ١٥٨٠ تاريخ

٢٣ - الغزى (رضى الدين بن رضى الدين) ت ٩٣٥ ه :

جامع فرائد الملاحة فى جوامع فوائد الملاحه - مخطوط بدار الكتب رقم ١٢٤ زراعه .

٢٤ - ابن قاضى شهبه (أبو بكر بن احمد بن محمد بن عمر بن تقى الدين) ت ٨٥١ ه :

تاريخ ابن قاضى شهبه - مخطوط مصور بدار الكتب ٤ أجزاء رقم ٢ ٢٤ تاريخ تيمور .

٢٥ - أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى) ت ٨٧٤ ه

حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور - مخطوط فى مجلدين بدار الكتب رقم ٢٣٩٧ .

٢٦ - المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) ت ٨٤٥ ه :

السلوك لمعرفة دول الملوك - مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٤٠٥ تاريخ

٢٧ - ـــــــــــ : جنى الازهار فى الروض المعطار - مخطوط بدار الكتب رقم ٤٥٨ جغرافيا .

٢٨ - مؤلف مجهول : كنز الفوائد فى تنويع الموائد - مخطوط بدار الكتب رقم ٤٥٨ جغرافيا .

٢٩ - مؤلف مجهول : الوصلة إلى الحبيب فى وصف الطيبات والطيب - مخطوط مصور ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية رقم ٦ صناعه

٣٠ - المؤمنى (محمد بن محمد بن بهادر) من علماء الثلث الأخير من القرن ٩ ه :

فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر - مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٢٢٩٩ تاريخ .

٣١ - ابن منكلى (محمد) القرن الثامن الهجرى ومعاصر للسلطان الأشرف شعبان :
أنس الملا بوحش الفلا - مخطوط بدار الكتب رقم ١٢ صناعات .

٣٢ - ———— : الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية - مخطوط مصور بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية رقم ٩ م ، عن المخطوط المحفوظ بدار الكتب بالقاهرة رقم ٢٢ فروسية تيمور .

٣٣ - النويرى السكندرى (محمد بن قاسم بن محمد) ت ٧٧٥ هـ :
الالمام بالاعلام بما جرت به الأحكام المقضيه فى واقعة الاسكندرية - مخطوط مصور بدار الكتب فى مجلدين رقم ٤١٩٣ تاريخ .

٣٤ - الوطواط (جمال الدين محمد بن ابراهيم بن يحيى الوراق الكتبى المعروف بالوطواط ت ٧١٨ هـ :
مباهج الفكر ومناهج العبر ، المجلد الثانى ، مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٣٢ علوم طبيعيه .

ثانيا – مصادر ومراجع عربية مطبوعة

١ – ابراهيم على طرخان (دكتور) :
النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى – دار الكاتب العربى – القاهرة ١٩٥٩ .

٢ – أحمد تيمور :
أعلام المهندسين فى الاسلام – الطبعه الأولى – دار الكاتب العربى القاهرة

٣ – أحمد عيسى (دكتور) :
معجم أسماء النبات ، المطبعة الأميرية القاهرة ١٣٤٩ هـ .

٤ – أحمد مختار العبادى (دكتور) :
البحرية المصرية زمن الايوبيين والماليك – بحث بكتاب تاريخ البحرية المصرية – تأليف مجموعة من أساتذة جامعة الاسكندرية – طبع جامعة الاسكندرية عام ١٩٧٣ م .

٥ – آدم متز
الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى – ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده القاهرة ١٩٤٧ م .

٦ – ابن الاخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشى) ت ٧٢٩ هـ :
معالم القربة فى أحكام الحسبة ، نقل وتصحيح روبن ليفى ، مطبعة دار الفنون بكمبردج ١٩٣٧ م .

٧ – الادفودى (كمال الدين ابو الفضل جعفر بن ثعلب) ت ٨٤٨ هـ :
الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد القاهرة ١٩١٤ .

٨ ـ ارنست كونل :

الفن الاسلامى ، ترجمة أحمد موسى ، القاهرة ١٩٦٠ م .

٩ ـ الأزرق ٢٢٣ هـ :

أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، طبعة وستنفلد (جوتنجن) ١٢٧٥ هـ ١٨٥٨ م .

١٠ ـ ابن أبى أصيبعه (موفق الدين ابو العباس بن يونس السعدى الخزرجى) ت ٦٦٧ هـ :

كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، جزءان ، الطبعة الأولى ، المطبعة الوهبية ١٢٩٩ هـ .

١١ ـ أمين المعلوف : معجم الحيوان ، القاهرة ١٩٣٢ م .

١٢ ـ الأنطاكى (داود) ت ١٠٠٨ هـ .

تذكره أولى الألباب والجامع للعجب العجاب ، جزءان ، القاهرة ١٢٣٢ هـ

١٣ ـ ابن اياس (ابو البركات محمد بن أحمد) ت ٩٣٠ هـ :

كتاب تاريخ مصر المعروف ببدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ ٣ أجزاء ـ بولاق ١٢١١ هـ .

١٤ ـ ـــــــــــ : الجزء الثالث والجزء الرابع من كتاب بدائع الزهور نشر باوله كاله ودكتور محمد مصطفى ، طبع استانبول سنة ١٩٣١ م ، ١٩٣٦ م .

١٥ ـ البدرى (ابو البقاء عبد الله بن محمد المصرى) من علماء القــرن التاسع الهجرى :

نزهه الأنام فى محاسن الشام ، القاهرة

١٦ - برنارد لويس :

النقابات الاسلاميه - بحث بمجلة الرسالة - الأعداد ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢ لعام
سنة ١٩٤٠ م ، ترجمه عبد العزيز الدورى .

١٧ - ابن بطوطه (أبو عبد الله محمد بن أحمد) ت ٧٧٩ هـ :
تحفة النظار فى غرائب الأمصار - جزءان - القاهرة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م .

١٨ - البغدادى (عبد اللطيف) ت ٦٢٩ هـ :
كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر -
طبعه أولى بمطبعة وادى النيل سنه ١٢٨٦ هـ .

١٩ - ابن البيطار (ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن احمـد الأندلسى المالقى) ت ٦٤٦ هـ :
كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤ أجزاء

٢٠ - توفيق اسكندر :
بحوث فى التاريخ الاقتصادى - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة ١٩٦١ م .

٢١ - ــــــــــــــ : نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العصر
الوسيط - بحث بالمجلة التاريخية المصرية المجلد السادس ١٩٥٧ م .

٢٢ - الجاحظ (أبو عثمان عمر) ت ٢٥٥ هـ :
الحيوان - تحقيق وشرح عبد السلام هارون

٢٣ - ـــــــــــــــ : كتاب التبصر بالتجارة - دمشق ١٣٥١ ﻫ ١٩٣٢م

٢٤ - جاستون فيت :

القاهرة مدينة الفن والتجارة - ترجمه دكتور مصطفى العبادى - بيروت ١٩٠٨م.

٢٥ - ـــــــــــــــ : المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى - مقال

بكتاب « فى مصر الإسلامية » . ترجمة محمد وهبى - القاهرة ١٩٣٧م .

٢٦ - الجبرتى (حسن) ت ١١٨٦ ﻫ :

الأقوال المعربه عن أحوال الأشربة

٢٧ - الجبرتى (عبد الرحمن بن حسن بن ابراهيم) ت ١٢٣٧ ﻫ :

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - ٤ أجزاء - القاهرة ١٢٩٧ ﻫ .

٢٨ - ابن جبير (ابو الحسن محمد بن أحمد الكنانى) ت ٦١٤ ﻫ

رحلة ابن جبير - تحقيق الدكتور حسين نصار - القاهرة ١٩٥٥ .

٢٩ - الجواليقى (موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر) ت ٥٤٠ ﻫ

المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم - تحقيق وشرح أحمد محمد

شاكر مطبعة دار الكتب القاهرة ١٣٦١ ﻫ

٣٠ - ابن الجيعان (شرف الدين ابو البقاء يحيى) ت ٩٠٠ ﻫ :

التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية - نشر موريتز - بولاق ١٢٩٦ ﻫ

٣١ - ابن الحاج (ابو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدرى) ت ٧٣٢ ﻫ .

مدخل الشرع الشريف على المذاهب - ٣ أجزاء - المطبعة الشرقية ١٣٢٠ ﻫ .

٣٢ - حسن عبد الوهاب :
تاريخ المساجد الأثرية - طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٤٦ م .

٣٣ - ــــــــــــ : توقيعات الصناع على آثار مصر الاسلامية - بحث بمجلة المجمع العلمي المصري المجلد ٣٦ سنة ١٩٥٣ - ١٩٥٤ .

٣٤ - ابن خرداذبه (ابو القاسم عبيد الله بن احمد) ت ٣٠٠ هـ :
المسالك والممالك - طبع ليدن ١٨٨٩ م .

٣٥ - خسرو (ناصر) :
سفرنامه - نقله إلى العربية وعلق عليه الدكتور يحي الخشاب - مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الأولى سنه ١٣٦٤ هـ .

٣٦ - ابن خلدون (عبد الرحمن) ت ٨٠٨ هـ :
مقدمه ابن خلدون أو الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر - طبعة مصطفى محمد بمصر .

٣٧ - درويش النخيلي (دكتور) :
السفن الاسلاميه على حروف المعجم - مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٧٤ م .

٣٨ - ابن دقاق (ابراهيم بن محمد المصري) ت ٨٠٩ هـ :
الانتصار لواسطه عقد الأمصار - الطبعة الأولى - طبع بولاق ١٣٠٩ هـ .

٣٩ - الدميري (كمال الدين محمد بن عيسى) ت ٨٠٨ هـ :
حياة الحيوان الكبرى - جزءان - القاهرة ١٣٥٣ هـ / ١٩٦٣ م .

٤٠ ـ الرازى (ابو بكر محمد بن زكريا) ت ٣٢٠ هـ تقريبا :
كتاب منافع الأغذية ودفع مضارها ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٣٠٥ هـ .

٤١ ـ زكى محمد حسن (دكتور) :
تراث الاسلام ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦ م .

٤٢ ـ ———— : الفن الاسلامى فى مصر ـ القاهرة ١٩٣٥ م .

٤٣ ـ ———— : فنون الاسلام القاهرة ١٩٤٨ م .

٤٤ ـ ———— : كنوز الفاطميين ـ مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٦ هـ
١٩٣٧ م .

٤٥ ـ السبكى (تاج الدين ابى نصر عبد الوهاب) + ٧٧١ هـ :
معيد النعم ومبيد النقم ـ القاهرة ١٩٤٨ م .

٤٦ ـ السخاوى (الحافظ محمد بن عبد الرحمن بن محمد أبي بكر بن عثمان) ت ٩٠٢ هـ :
كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك ـ بولاق ١٨٩٦ م .

٤٧ ـ سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) :
الترك والمجتمعات التركية عند الكتاب العرب وغيرهم ـ بحث بمجلة كلية الآداب
جامعة الاسكندرية ـ المجلد العاشر سنة ١٩٥٦ م .

٤٨ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :
المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة لجنة البيان
العربى بالقاهرة سنة ١٩٦٢ م .

٤٩ ـ ———— : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ـ العدد ٢٢٧
من مجموعة الألف كتاب ـ القاهرة ١٩٥٩ م .

٥٠ - ابن سعيد (على بن موسى المغربى) ت ٦٧٣ هـ :
المغرب فى حلى المغرب - الجزء الأول من القسم الأول الخاص بمصر - نشر دكتور زكى حسن وآخرين - مطبعة جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٥٣ م .

٥١ - السيد الباز العرينى (دكتور) :
الحسبة والمحتسبون فى مصر - بحث بالمجلة التاريخية المصرية - المجلد الثالث العدد الثانى - اكتوبر ١٩٥٠ م .

٥٢ - ــــــــــــ : الفارس المملوكى ، مقال بالمجلة التاريخية المجلد الخامس ١٩٥٦ م .

٥٣ - ابن سيده (ابو الحسن على بن اسماعيل) ت ٤٥٨ هـ :
المخصص - طبع بولاق ١٣١٦ هـ .

٥٤ - السيد عبد العزيز سالم (دكتور)
المآذن المصرية - نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربى حتى الفتح العثمانى - القاهرة ١٩٥٩ م .

٥٥ - ــــــــــــ : تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى - دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .

٥٦ - السيوطى (عبد الرحمن بن ابى بكر جلال الدين) ت ٩١١ هـ :
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة - جزءان - القاهرة ١٣٢٧ هـ .

٥٧ - ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين خليل) ت ٨٧٣ هـ :
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك - نشره بولس راويس - طبع بالمطبعة الجمهورية بباريس سنة ١٨٩٤ م .

٥٨ - ابن الشحنه (ابو الوليد ابراهيم بن محمد) ت ٨٨٢ هـ :
كتاب لسان الحكام فى معرفة الأحكام - الاسكندرية ١٢٩٩ هـ .

٥٩ - ابن الشدياق (الشيخ ابن يوسف الشدياق المدنى المارونى ١٢٧٦ هـ :
أخبار الأعيان فى جبل لبنان — بيروت ١٨٥٩ م .

٦٠ - الشربينى (يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر) من علماء القرن ١١ هـ :
هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف - الطبعة الثانية - المطبعة الأميرية
ببولاق ١٣٠٨ هـ .

٦١ - الشيزرى (عبد الرحمن بن نصر) معاصر لصلاح الدين الأيوبى :
كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة - نشر الدكتور السيد الباز العرينى القاهرة
١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م .

٦٢ - صبحى بن لبيب (دكتور) :
تاريخ تجارة الاسكندرية فى القرن الرابع عشر الميلادى - رسالة ماجستير لم
تطبع .

٦٣ - ———— : التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى -
بحث بالمجلة التاريخية المصريه - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد الرابع
العدد الثانى مايو ١٩٥٢ م .

٦٤ - الطاهر أحمد مكى :
معاهدة تجارية من القرن الخامس عشر بين سلطان مصر وملك أراجون - بحث
بمجلة المجلة العدد ٤٩ ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م .

٦٥ ـ عباس عمار (دكتور) :
المدخل الشرقى لمصر مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ـ القاهرة ١٩٤٥ م .

٦٦ ـ ابن عبد ربه (شهاب الدين احمد) ت ٣٤٩ هـ :
العقد الفريد ـ ٣ أجزاء ـ بولاق ١٢٩٣ هـ :

٦٧ ـ عبد الرحمن فهمى (دكتور) :
النقود العربية ماضيها وحاضرها ـ المكتبة الثقافية العدد ١٠٢ القاهرة ١٩٦٤م

٦٨ ـ ابن عبد الظاهر (محى الدين) ت ٦٩٢ هـ ـ
تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ـ القاهرة ١٩٦١ م .

٦٩ ـ عبد الفتاح عباده :
كتاب سفن الأسطول الاسلامى ـ القاهرة ١٩١٢ م .

٧٠ ـ عبد اللطيف ابراهيم (دكتور) :
الوثائق فى خدمة الآثار ـ العصر المملوكى ـ الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية القاهرة ٩٥٨ م .

٧١ ـ ـــــــــــ : وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى ـ بحث بمجلة كلية الآداب المجلد ١٨ الجزء الثانى ديسمبر سنه ١٩٥٦ م .

٧٢ ـ العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على بن محمد ابن حجر) ت ٨٥٢ هـ :
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ـ حيدر أباد ١٣٤٨ هـ .

٧٣ - العطار (ابو المنى بن أبى نصر) عاش فى القرن السابع الهجرى :
كتاب منهاج الدكان ودستور الأعيان .

٧٤ - على ابراهيم حسن (دكتور)
دراسات فى تاريخ المماليك البحرية - القاهرة ١٩٤٤ م .

٧٥ - على مبارك :
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة - ٢٠ جزءا - بولاق سنة ١٣٠٦ هـ .

٧٦ - عمر طوسون :
كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن - الاسكندرية ١٩٣١ م .

٧٧ - العمرى (شهاب الدين احمد بن فضل الله) ت ٧٤٢ هـ :
التعريف بالمصطلح الشريف - مطبعة العاصمة بالقاهرة ١٣١٢ هـ .

٧٨ - ———— : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار - الجزء الأول .
مطبعة دار الكتب بالقاهرة سنه ١٩٢٤ م .

٧٩ - العينى (محمد بن أحمد) ت ٨٥٥ هـ :
السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى - تحقيق فهيم محمد شلتوت
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .

٨٠ - ابو الفدا (اسماعيل بن على بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب
الملك المؤيد) ت ٧٣٢ هـ : المختصر فى أخبار البشر ويعرف بتاريخ أبى الفدا
٤ مجلدات - القسطنطينية ١٢٨٦ هـ .

٨١ - ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) ت ٨٠٧ هـ .
تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات - جزءان - من سنه ٧٧٩ هـ
إلى سنة ٧٩٩ هـ - المطبعة الأمريكانية ببيروت ١٩٣٦ م .

٨٢ - ابن الفقيه (ابو بكر احمد بن محمد الهمدانى)
مختصر كتاب البلدان - طبع ليدن ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م .

٨٣ - القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود) ت ٦٨٢ هـ :
آثار البلاد وأخبار العباد .

٨٤ - ______ : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات .

٨٥ - القلقشندى (ابو العباس احمد) ت ٨٧١ هـ :
صبح الأعشى فى صناعة الانشا - ١٣ جزءا - القاهرة ١٩١٧ .

٨٦ - كمال الدين سامح (دكتور) : العمارة الاسلامية فى مصر - العدد ٢٠٣ من مجموعة الألف كتاب .

٨٧ - ليفى بروفنسال :
ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب - مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للاثار الشرقيه القاهرة ١٩٥٥ م .

٨٨ - ماير ل.ا :
الملابس المملوكيه - ترجمه صالح الشيتى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م

٨٩ - ابن المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى) ت ٨٧٤ هـ :
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - طبع دار الكتب المصرية ١٩٣٠ - ١٩٥٦ م .

٩٠ - محمد عبد العزيز مرزوق (دكتور) :
الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية - دار الكتب المصرية ١٩٤٢ م .

٩١ ـ محمد عبد العزيز مرزوق (دكتور) :

الفن الاسلامى ، العدد ١١٤ من مجموعة اقرأ ١٩٥٢م.

٩٢ ـ محمد مصطفى (دكتور) :

صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ـ دار المعارف بمصر ١٩٥١ م .

٩٣ ـ محمد ياسين الحموى :

تاريخ الأسطول العربى ـ دمشق ١٩٤٥ م .

٩٤ ـ المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على) ت ٣٤٦ هـ :

مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ جزءان ـ المطبعة البهية بالقاهرة ١٣٤٦ هـ .

٩٥ ـ المقدسى (شمس الدين ابو عبد الله) من علماء النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى :

أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ـ ليدن ١٨٧٧ م .

٩٦ ـ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) ت ٨٤٥ هـ :

إغاثة الأمة بكشف الغمة ـ الطبعة الثانية ـ نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٥٧م .

٩٧ ـ ———— : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ـ الجزء الأول والقسم الأول منه ج١ ق١ ، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة ، مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٣٤ م .

٩٨ ـ ———— : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، جزءان بولاق ١٢٧٠ هـ .

٩٩ - ـــــــــ : نحل عبر النحل - نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٤٦ م .

١٠٠ - ابن مماتي (الأسعد) ت ٦٠٦ هـ :
كتاب قوانين الدواوين - تحقيق الدكتور عزيز سوريال عطيه - مطبعه مصر ١٩٤٣ م .

١٠١ - النابلسي (فخر الدين عثمان بن ابراهيم) القرن السابع الهجري :
تاريخ الفيوم وبلاده - بولاق ١٨١٨ م .

١٠٢ - النويري (شهاب الدين بن احمد بن عبد الوهاب) ت ٧٣٢ هـ :
نهاية الأرب في فنون الأدب ١٤ جزءا - مطبعه دار الكتب ١٣٤٦ هـ .

١٠٣ ابن الوردي (زين الدين أبو حفص عمر بن المظفر) ت ٧٤٩ هـ :
خريدة العجائب وفريدة الغرائب - القاهرة ١٢٩٨ هـ .

١٠٤ - ولفرد جوزيف دالي :
العمارة العربية بمصر ، القرنان ١٤ ، ١٥ م - ترجمة محمود أحمد بولاق ١٩٢٣ م

١٠٥ - ياقوت الحموي (شهاب الدين ابو عبد الله) ت ٦٢٦ هـ :
كتاب معجم البلدان ١٢ جزءا - القاهرة ١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٦ م .

١٠٦ - ابن يحيى (الأمير صالح بن يحيى بن الحسين) من علماء القرن التاسع الهجري:
تاريخ بيروت وأخبار البحتريين - نشرة الأب لويس شيخو اليسوعي بيروت ١٩٢٧ م .

ثالثا : مراجع أجنبية

1) Berchem (M. V) :

Materiaux pour un corpus inscriptionum arabicarum Premiere partie, Egypt. Paris 1903.

2) ———————— : Enc. Isl. Art. Architecture.

3) Bedevian (A. K.) :

Illustrated polyglottic dictionary of plants names. Cairo 1936

4) Briggs (M.S) :

Muhammadan architecture in Egypt and Palestine, Oxford 1924.

5) Creswell (K. A) :

The muslim architecture of Egypt 2 Vols. Oxford 1959.

6) ———————— : Evolution of the minaret, Burlington magazine (mars, mai, Juin 1926).

7) Demombynes (G) :

La Syrie a lépoque des mamelouks. Paris 1922.

8) Dimand (M. S)

A handbook of Muhammadan Art, second edition, Newyork 1947.

9) D,ohsson :

Histoire des Mongols, (4 - vol) Amsterdam, 1852.

10) Dozy : Supplements aux dictionnaires Arabes, 2vols (Leiden 1881).

11) Exhibition Islamic art in Egypt, cairo 1969 .

12) Husaid (S) :

The Sultan's turrets, Cairo 1939 .

13) Hazlitt (W) :

The Venetian Republic, 2 vols.

14) Heyd (W) :

Histoire du commerce du levant au moyen age, 2 vols, Leipzig 1886.

15) Howorth :

History of the mongols, London (1876).

16) Jomard :

Discription de l' Egypte, second edition, T. 18, Paris ccc. xxiii.

17) L. Africain (Jean Leon) :

Description de L' Afrique, Paris 1956.

18) Los Documentos Arabes diplomaticos del archivo de la corona de Aragon - Editatos Y traducidos Por Maximiliano A. Alarcon Y Santon Y Ramon Gracia de Linares Madrid - Granada 1940 . publicaciones des las escuelas de estuidios Arabes de Madrid Y Granada, Serie C num 1.

19) Louis Massignon :

The Encyclopaedia of Islam. Art shadd, Sinf .

20) Metz (A) :

The Renaissance of Islam, trans in english by Khuda Baksh and D. S. Margeliouth, London 1939.

21) Migeon (G) :

Manuel d'art Musulman . 2 vols 2 ed. Paris 1927 .

22) Palgraves dictionary of political economy, 3 vols .

23) Pollak (A. N.) :

Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and Lebanon, 1250 - 1900London, 1937 .

24) Poole (S. L) :

The art of the Saracens in Egypt, London 1886 .

25) Rivoira (S. T) :

Moslem architecture, its origins and development (translated by N. Rushforth), Oxford 1918 .

26) Sauvaire (M. H) :

Materiaux Pour servir à l'histoire de la numismatique et de la metrologie musulmanes (J. A. 8e lv) .

27) Steingass (F) :

Persian English dictionary .

28) Tafur (P) :

Travels and adventures, London 1926 .

29) Thenaud (J) :

Le voyage d'outremer de Jean Thenaud Paris 1864.

30) Hautecoeur :

Les Mosquees du Caire, Paris 1932 .

31) Wiet (G) :

Objets en cuivre (catalogue du Musée Arabe), Le Caire 1932.

32)__________ : Precis de l'histoire d' Egypte, T. 2 (L'Egypte Musulman), Le Caire 1933 .

فهرس الموضوعات
















Bibliotheca Alexandrina
0521920